سلسلة مكتبة الربيع (٥)

شوقيات وشوكيات

تاليف :

الأستاذ / عبدالعزيز الربيع

إعداد وتقديم :

محمد صالح البليهشي

DAR AL MAAREF

مكتبة الربيع

الرياض

[سلسلة كتب الربيع (٥)]

شوقيات وشوكيات

تأليف

عبدالعزيز الربيع

إعداد وتقديم

محمد صالح البليهشي

ح نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤٢٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الربيع، عبدالعزيز

شوقيات وشوكيات / جمع وإعداد: محمد صالح البليهشي - المدينة المنورة.

ص، ١٧×٢٤سم

ردمك : ٨ - ٣٥ - ٦١٨ - ٩٩٦٠

١- شوقيات وشوكيات - السعودية   أ- البليهشي، محمد صالح (معد)

ب- العنوان

ديوي ٠٨١   ١٩/٣٠٦٨

رقم الإيداع : ١٩/٣٠٦٨

ردمك : ٨ - ٣٥ - ٦١٨ - ٩٩٦٠

رقم الكتاب

(١٣٣)

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم والصلاة والسلام على النبي الأكرم الذي أعجز ببلاغته العرب والعجم وعلى آله وأصحابه أولي النهى أرباب السيف والقلم وسلم تسليمًا كثيرًا - أما بعد:

فلقد انتظرت طويلًا لكي ألتقي معكم أيها القراء في مثل لقائي هذا الذي أحمل فيه راية وفاء ومنار كلمة.. لقاء أقدم فيه أثرًا وضيئًا لعملاق نقدره جميعًا ونُجلُّه ونقرُّ له بالأستاذية المطلقة في كافة جوانبها وجميع معانيها..

وقبل أن أُطلِعكم على ما لديّ من بضاعة هي في واقعها ليست بضاعتي وإنما هي بضاعته - يرحمه الله..

ليس لي فيها سوى نفض الغبار عنها وتنظيمها وترتيبها وجمعها وعرضها بأسلوب عرض أرجو أن أوفق فيه..

قبل أن أنظِم أمامَكم حبّات هذه القلائد بما حوته من درر وجواهر ولآلئ ظلت مبعثرة زمنًا طويلًا ظن معه الظانّون أنها قد فقدت وضاءتها ونضارتها وشكك آخرون في وجودها أصلًا طيلة زمن البعثرة هذه..

قبل أن تطلعوا على هذه القلائد التي نظمت حباتها بمعرفتي المحدودة أرجو أن تسمحوا لي بتذكير من نسي وتعريف من لم يعرف بمن شَرُفتُ بِجَمْع دُرره وتقديمها اليوم لدنيا الثقافة والأدب من خلال تعريفه بنفسه في عبارات مقتضبة وأسلوب مؤدب وجمل رصينة مختارة حيث قال - يرحمه الله:

«ولدت في هذه البلدة الطيبة. حيث ولد الكثيرون ممن آمنوا برسالة الحق والخير والسلام. وحملوا رايتها المظفرة إلى أقطار الدنيا ونشأت مع لداتي في الجيل الذي سبق هذا الجيل مباشرة.. فنحن في الواقع مخضرمون. نحمل في دمائنا ميراث الجيلين معًا. جيل مطلع الخمسينيات. والجيل الذي يليه.

وكادت الظروف تضطرني إلى عدم مواصلة الدراسة. والإخلاد إلى عمل روتيني يضمن لي لقمة العيش بسلام. ولكنني كنت أشعر في أعماقي بحوافز تدفعني إلى متابعة كفاحي في سبيل الحياة الأفضل والمستقبل الأرحب.. الأوسع. حيث أشعر بأنني أعيش بكل مواهبي وإمكاناتي. وبكل القوى التي وهبتها لي يد القدرة المبدعة.

وواصلت تعليمي العالي. وكنت من الجامعيين القلائل. الذين جمعوا في ذلك العهد بين ليسانس آداب من جامعة القاهرة ودبلوم التربية العالي وعلم النفس من جامعة الإسكندرية.

إنها حقائق تعمدت أن أصوغها بهذا الأسلوب. رغم عزوفي عن الحديث عن نفسي. ومقتي لهذا اللون من الأسلوب في الحديث عن النفس.. لأنني أحببت أن يكون في قصة حياتي رغم تواضعها ما يثير نوازع الطموح ومشاعر الإيمان بالله ثم بالمستقبل في نفوس ناشئتنا الجديدة.

وبدأت حياتي الوظيفية بعد ذلك مفتشًا بإدارة التعليم بضع سنين. قبل أن تسند إليَّ مديرية التعليم.. فالطريق كما تعرفون. كانت صعبة عند بدايتها.. ولكنها بعد أن تَسلَّحتُ بسلاح العلم. وتزودتُ بزاد المعرفة والثقافة. أصبَحَتْ مُعبَّدة.. مُذَلَلة.. تكتنفها الواحات وتتناثر حولها الخمائل» أ.هـ.

بهذه الجمل الرصينة نستطيع أن نرسم الملامح لعملاقنا في جوانب النشأة والحياة الأولى ولنترك الجانب التربوي من حياته ـ لأنه ليس هذا مجاله ـ

ونعرف به في جانب الثقافة والإبداع الأدبي ولنبدأ معه مع بداية الكتابة والشعر حيث بدأ حياته الأدبية وهو طالب بالمرحلة الابتدائية متأثرًا بالأديبين الكبيرين مصطفى صادق الرافعي وأحمد حسن الزيات، وكانت مؤلفاتهما ومقالاتهما من أول ما وقع تحت يده من الآثار الأدبية القيمة - كما يقول - ولكن ذلك التأثر لم يدم طويلًا فقد استطاع في وقت مبكر أن يفتح كل النوافذ ويستقبل كل التيارات..

وقد كان - يرحمه الله - يدين بالفضل في ثقافته وابداعه لوالده ويقول بأنه رجل محب للعلم وقد ظل إلى آخر عمره يتعلم ويقرأ مما أثّر في حياته تأثيرًا بالغًا وتعلّم منه الصبر وحب العلم وحَفِظ القرآن في سن مبكرة. كما تأثر بشخصية أستاذه ومعلمه فضيلة الشيخ محمد الحافظ الذي تولى رعايته منذ طفولته في مدرسة العلوم الشرعية ويذكر بأنه وجّهه توجيهًا صحيحًا وفتح له قلبه ومكتبته وأعجب كثيرًا لسماحته ونبله وحرصه ورجاحة عقله وقال عن أستاذه الشيخ الحافظ بأنه «أنموذج الرجل المثالي.. وقد أثر في نفسه تأثيرًا بالغًا لا ينسى وله فضل عليه لن ينساه».

أما شخصيات التاريخ فيذكر بأنه قد تأثر بشخصية الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الحاكم العادل القوي المثقف الإنسان وتأثر بشخصية أبي الطيب المتنبي الذي وقف في عالم يموج بالعجمة والشعوبية يدعو إلى العروبة ويخاصم من أجلها ويصور مفاخر العرب دون خوف حتى آخر رمق في حياته.

كما تأثر بشخصية مصطفى صادق الرافعي الذي كتب وحده فصلًا قيمًا في التاريخ الأدبي دون أن يعتمد على مؤهل دراسي أو شهادة جامعية ووقف وحده يقاوم الإلحاد والتحلل والشعوبية.

هذه ملامح البدايات الأولى والمكونات الأساسية لشخصية أستاذنا ـ عليه رحمة الله ـ مما كان له الأثر الكبير في وضوح أسلوبه وسلامة عبارته وتسلسل منطقه في مجالات البحث والإبداع والنقد.

وقد اتجه في كتاباته الأخيرة إلى النقد الأدبي وهو النقد الجاد الذي يهزّ حياة الناقد قبل أن يهزَّ الحياة الأدبية نفسها ـ كما يقول ـ لأن الناقد الجاد مضطر إلى أن يقرأ مع الأثر المنقود ـ وربما قبله ـ عشرات من الكتب.. وهذا ما لا يتاح لغيره من الكتّاب والأدباء.

وعرف عنه تَضَلُّعه في مجال النقد الأدبي بنزاهة وصدق يميل دائمًا إلى المذهب التكاملي في النقد وهو المذهب الذي يستقطب كل الاتجاهات والزوايا الفنية.. ويعطي الأثر الأدبي نكهته ولونه وملامحه العامة.

وبعد كل هذا القول الذي أردت منه أن أُذكِّر من نسي وَأُعْلِم من جهل بالملامح العامة لشخصية الأستاذ والمربي والأديب والناقد الأدبي عبدالعزيز الربيع.

أعود مرة أخرى لأقول بأن أديبنا وأستاذنا الذي أتيح لي وشرفت بأن أنظم قلائد عقوده هذه بما حوته وعثرت عليه من جواهر ولؤلؤ ودرر فكره وثقافته لأعرضها لمحبي الأدب وعشاق المعرفة وكُتَّاب الحرف وأنا فخور بجمع تراث أديب ناقد عاش عمره للثقافة والأدب والفكر وضحى بوقته وجهده من أجل العلم والمعرفة، وعاجلته المنية قبل أن يسعد بطبع إنتاجه وإظهاره للناس.. ولعلِّي بهذا أضيف جديدًا إلى دنيا الثقافة والمعرفة.. لأن هذا التراث الأدبي والثقافي إذا لم تختزنه بطون الكتب لإفادة الأجيال اللاحقة سيكون مصيره الضياع وفي ذلك خسارة فادحة وجحود ونكران للجميل.

وكم خَسرَت دنيا الثقافة على مر التاريخ الإنساني بضياع وإهمال حصيلة كثير من العلماء والأدباء والمفكرين.

وأعود مرة أخرى إلى هذا السِّفر الذي جمعتُ مادَّته من هنا وهناك وتعبتُ كثيرًا من أجل تحقيق هذا الأثر الذي أقدمه كتابًا بعنوان «شوقيات وشوكيات» يضم بين دفتيه آراء شتّى تصب في معين القيم السامية وتمجيد الفضيلة وتحقيق التراث والإعجاب بأمجاد العروبة في ظل تعاليم الإسلام الخالدة.. كما يضع المعالم لإبراز المزايا ودحض العيوب والنقائض مفنداً مزاعم المضللين أو الكاذبين والمخادعين لشباب أممهم وأوطانهم ومبيناً إعجابه وإشادته بكل المكافحين والمناضلين عن العربية الذين كانت لهم وقفات صامدة خلدها التاريخ وتغنى بها شداة الأدب وعشاق الحرف.

وقد يقول قائل: إن بعض الموضوعات التي «أقحمتُها» في الكتاب ليس هذا مكانها..

وأجيبه: بأن جميع ما اندرج بين دفَّتي هذا الكتاب «وقد يُظَن بأنه ليس منه» يدخل تحت مسماه كما أنه لا يخلو من هوامش نقد رصينة لها مكانتها في باب النقد والتقويم ولها نكهتها الخاصة ورائحتها المميزة في مسار الأدب أو في دنيا الأخلاق.

ثم إن العنوان نفسه «شوقيات وشوكيات» كان من اختياره - يرحمه الله - وقد ذكر هذا في العديد من المقابلات الصحفية واللقاءات الأدبية.. ولذلك قمتُ بكتابة العنوان وجمعتُ تحته ما له علاقة به من قريب أو من بعيد خدمة للأدب وتنفيذًا لرغبة المؤلف في تسمية كتابه وإيمانه بهذا الاسم. وفي يقيني بأنه لو كان الذي جمع هذه المقالات والموضوعات لإعداد كتاب تحت هذا المسمى هو المؤلف نفسه - يرحمه الله - لخرج بصورة غير صورته هذه إما بحذف بعض ما وضع في الكتاب أو بزيادة ما فيه لأن فارق الثقافة والدراية والحس الأدبي والنظرة النقدية والتعامل مع الكلمة بحَرفها وجَرسِها وأضوائها وبُعد مراميها تختلف بين المؤلف والمعد، إذ المؤلف أستاذ من أساتذة البلاغة

والبيان وله باعه الواسع ونظرته الثاقبة.

وخلاصة القول أن كتاب «شوقيات وشوكيات» يمثل محطة من محطات النقد الأدبي في عمقه وفي هوامشه.. النقد بأبعاده وموازينه.. وإيضاح المفاهيم ومناقشة الحقائق.. وهوامش النقد بكل مكملاتها وجوانبها المختلفة وهو في مجموعه يعمق فكرة الإصلاح أدبًا ونقدًا وأخلاقًا ومفهومًا.

وختامًا.. أرجو من المعلِّمين والكُتّاب والأدباء والمفكرين والمعجبين بالأديب الناقد والناقد الأديب الأستاذ عبدالعزيز الربيع..

من أولئك الأدباء والكُتَّاب وأرباب النقد الأدبي الكبار الذين اقتحمتُ خيمَتهم لأنصِبَ فيها هذا المغلَم، أن يتجاوزوا عن هفواتي إن أخطأت في الكيفية التي ولجت فيها تلك الخيمة أو في كيفية تقديم هذا الأثر الأدبي الراقي وأرجو أن يغفروا زلتي إن وجدوها ويقيلوا عثرتي إن كانت.. وحسبي أنني مجتهد وكفى.

محمد صالح البليهشي

مقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ـ وبعد:

فإننا نظلم النقد والنقاد في بلادنا ـ دون شك ـ إذا ما قلنا إن ذخيرتنا من النقد، أو حصيلتنا من النقاد، لا تعدو دوافعها الرئيسية: المجاملات أو الأغراض الشخصية، فمما لا ريب فيه أن شيئًا مما ينشر، ولعله ليس بالقليل، ينبثق عن الرغبة في تقويم العلم الأدبي، وإعطائه ما يستحق، دون مراعاة العلاقات الشخصية بين الناقد والمنقود. كما أن الكثير مما ينشر يستهدف التعبير عن الانطباعات الذاتية للناقد، وقد يكون فيها الكثير من الخطأ والانحراف ولكن ذلك لا يحملنا على اعتبار هذا النقد منبثقًا عن الرغبة في التجريح أو التشفي أو الغرض الشخصي، لأنه في أساسه رغبة صادقة في التعبير عن انطباعات الناقد عن الأثر المنقود، ولكن ضعف مستوى التأثر بالتجربة الفنية أو عدم اكتمال الناقد لمؤهلات النقد المطلوبة وفي مقدمتها الثقافة الواسعة العميقة والمعايشة الدائمة للإنتاج الأدبي الرفيع، واستكمال الدراسات اللغوية والفنية والعلمية الضرورية لإرهاف الملَكة وتقويم الطبع وشفافية الإحساس، كل ذلك حال بين القائم بعملية النقد للأثر المنقود، وبين التقدير الدقيق الذي يستحقه.

كما أن الكثير من الدراسات النقدية، تبدأ بروح محايدة نزيهة بقدر الإمكان، ثم تغلب عليها نزعة التشفي والانتقام، والرد المباغت السريع من الأديب أو

الكاتب الذي ضاق ذرعًا بالنقد، رغم محاولة الناقد التجرد المطلق وحرصه على عدم الإشارة إلا إلى عدد قليل من الأخطاء، وبكل ما يستطيع من الذوق والمجاملة ودماثة الخلق.

ولي أنا شخصيًا عشرات التجارب في هذا المجال، حتى إنني آثرت في الفترة الأخيرة أن أتوقف عن الدراسات النقدية، لأنها سببت لي الكثير من المشكلات، وفصمت أو أضعفت الوشائج والصلات التي تربطني بكثير من أصدقائي.

فقد ترسب في ذهني منذ نشأتي الأدبية الأولى أن النقد مسؤولية ورسالة، وأن كلمة الحق أكبر وأشرف من كل الصلات الشخصية.

وأعترف صادقًا بأنني عانيت الكثير من هذه (الترسبات الذهنية) - إذا صح التعبير - وأنني فكّرت أكثر من مرة في أن التزم الطريق الأكثر يسرًا والأقرب إلى قلوب الناس ومشاعرهم لأن ذلك سيضمن لي أصدقاء جددًا باستمرار، وسيدفع كل كاتب ومؤلف لدينا وبخاصة من شداة الأدب إلى إهدائي مؤلفاته وتدعيم صلته بدلًا من أن يلجأ بعضهم - كما حدث كثيرًا - إلى إخفاء مؤلفاته والادّعاء بأنها لم تُطبع بعد أو أنها نفدت. لقد أصبحت وبعض الإخوة النقاد في بلادنا الحبيبة، أشبه بالبعبع الذي يخوّف به الأطفال أو غير الناضجين من أدبائنا، لا لشيء إلا أننا لا نستطيع أن نتستر على ما نعتقد أنه حق وصواب، وإن كنا نقوله بأقصى ما نستطيع من اللطف والذوق.

ففي بلادنا - كما قلت - يوجد النقد النزيه المخلص، الذي يضطر في نهاية الأمر إلى الدفاع عن نفسه بقوة وفعالية. وهو القليل على أية حال، كما يوجد النقد المنبثق عن المجاملات أو الأغراض الشخصية أو عدم توفر إمكانيات النقد وهو الأغلبية الساحقة مع الأسف، وهي فيما يبدو لي ظاهرة طبيعية. لأن الناس -

ومنهم الأدباء ـ متفاوتون في عمق الثقافة وضحولتها، ورهافة الإحساس وتبلده ولكن الظاهرة التي تبدو أكثر شيوعًا في مجتمعاتنا الأدبية، هي ظاهرة تبرم أدبائنا بالنقد.. فنحن هنا بين أديب كبير يعتقد بأن النقد سيزعزع مكانته الشخصية ويسيء إلى سمعته الأدبية. وأديب دون ذلك يشعر بأنه لا يزال يشق طريقه ويكافح في سبيل الوصول إلى ما يتطلع إليه من شهرة ومجد. ويجد في النقد مهما كان نزيهًا ومحايداً معوقات صعبة تقف في طريق تقدمه، أو معاول صلبة تجعل التراب ينهال تحت قدميه.

والناقد هو الضحية بعد ذلك.. لأنه سيُهاجَم من هؤلاء وأولئك، بسيل من الشتائم والاتهامات.

أما ما هو السبيل إلى إيجاد نقد علمي بنَّاء متجرد؟ مع وجود ظاهرة تبرم أدبائنا بالنقد.. فتلك مشكلة يستطيع الزمن وحده أن يحلها.. لأنني على يقين من أن النضج النفسي والفكري هو السبيل الوحيد، لتقبل النقد بصدر رحب، واعتباره مجهوداً من النقاد لوضع الحق في نصابه، وتوجيه الحركة الأدبية إلى مسارها الصحيح وهو مرتبط بنضوج المشاعر، وتفتح الذهن، وعمق الثقافة.

وهي مكاسب لا تتحقق بين ليلة وضحاها ولا بين يوم وآخر، ولكنها محصلة الوعي والدأب والزمن.

ولدي اقتراح غير عملي ولكنه طريف، سأضعه في صيغة سؤال، ثم أحاول الإجابة عليه:

ما الذي يحدث لو شعر كل أديب بمسؤوليته كاملة تجاه ما يكتب من دراسات أو بحوث أو إنتاج فني بصفة عامة، وأحس في الوقت نفسه بشبه اتفاق أو تعاون بين قادة الفكر والأدب، على أن يقفوا وقفة واحدة ضد كل من

يحاول الدفاع عن نفسه بغير المنطق والحق فأخذ يكيل السباب والشتائم للنقاد «المساكين» ؟.

إنها فكرة طريفة دون شك، ولكنها إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة.. ومع ذلك فدعونا نفكر قليلًا، ونتصور أن الفكرة انتقلت من الخيال إلى الواقع.. ألا تتصورون أن الناقد والمنقود معًا، سيفكر كل منهما ألف مرة قبل أن يبدأ الكتابة أو النقد؟

وسيكون هذا الحل مؤقتًا بالطبع، ريثما نبلغ مرحلة النضوج، وهي المرحلة التي نصل فيها إلى الشعور برقابة ضمائرنا، وهيمنة الإخلاص والصدق والنزاهة على ألسنتنا وأقلامنا بإذن الله.

والله من وراء القصد وهو المستعان في كل حال وأوان،،،

عبدالعزيز الربيع

الوحدة الإسلامية ومقوماتها

في شعر شوقي

★ بحث ألقاه المؤلف في المؤتمر الأول
للأدباء السعوديين، الذي دعت إليه
جامعة الملك عبدالعزيز بجدة،
وانعقد هذا المؤتمر في مكة
المكرمة في الفترة المبتدئة بيوم
الأحد الموافق غرة شهر ربيع الأول
عام (١٣٩٤هـ) أربعة وتسعين
وثلاثمائة وألف حتى يوم الخميس
من الشهر والعام المذكورين.

الوحدة الإسلامية ومقوماتها في شعر شوقي

كثر الحديث عن شوقي ـ يرحمه الله ـ واختلفت آراء الكتاب والنقاد في عمق شاعريته وتعدد خصائصها واتجاهاتها، فأنزله بعضهم مكانة سامقة تجعل بينه وبين كثير من زملائه المجيدين بَوْنًا شاسعًا لا يمكن تخطيه أو حتى مجرد التفكير في تخطيه، وحاول البعض الآخر أن يخرجوا به عن نطاق الشعر إلى إطار بعيد عن الفن الشعري الصادق والموهبة الشعرية السليمة.

ولا شك أن هؤلاء وأولئك تجاوزوا الحدود المرسومة في النقد الأدبي وابتعدوا عن التقدير الصحيح للمكانة التي يحتلها شوقي بين معاصريه، أو بينه وبين الشعراء العرب في الحديث والقديم، فلشوقي ـ دون شك ـ تحليقاته البعيدة وريادته الحقيقية لكثير من ألوان الشعر وفنونه ولا يمكن أن تضيره بعض الهَنَات التي وُجِّهت إليه ـ بالحق أو بالباطل ـ فقد أُخِذت على المتنبي وأبي تمام والبحتري وأضرابهم من شعرائنا الأفذاذ هَنَاتٌ أكثر من الهنات التي أُخِذت على شوقي، ومع ذلك احتفظوا بمكانتهم الفائقة في دنيا الشعر والأدب.. ولقد استلفت نظري ـ منذ سنين، حين كان النقاش على أشدّه بين عدد من أدبائنا حول شوقي ـ استلفت نظري ما رأيته من اتجاهات إسلامية صادقة في شعره، وتلمس لمختلف الجوانب التي تصطبغ بها هذه الظاهرة، فبدأتُ في كتابة بحث أتناول فيه هذه الظاهرة بالتحليل والنقد.. ثم كانت الدعوة التي وجهت إليّ للاشتراك في هذا المؤتمر الذي دعت إليه جامعتنا العزيزة؛ جامعة الملك عبدالعزيز ـ يرحمه الله ـ أحسن ما يمكن أن أنتهزه من الفرص لإتمام هذا البحث على المنهج الذي رسمته لنفسي.

ويسرني أن أشارك به في هذا المؤتمر الحبيب؛ «مؤتمر الأدب السعودي» شاكرًا لكم أيها الإخوة وللجامعة العزيزة هذه الخطوات المباركة، فمن هو أحمد شوقي؟ وما هي طفولته؟ ونشأته ودراسته وحياته الوظيفية؟

هو أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي.

وأحمد شوقي الأخير جده لأبيه قدم مصر يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار والي عكًا إلى محمد علي باشا والي مصر ليعمل فيها وكان كرديًا عربيًّا، فرحب به الوالي محمد علي وضمه إلى حاشيته وكان يحسن العربية والتركية.

وأخذ يتنقل في المناصب العالية حتى وصل إلى منصب الأمين العام للجمارك المصرية وتوفي وهو في هذا المنصب بعد أن ترك ثروة كبيرة لابنه علي وهو والد شاعرنا.

أمَّا جده لأمه فهو أحمد حليم النجده لي وقد دخل مصر شابًّا في عهد إبراهيم باشا ونال حظوة كبيرة لديه مما جعله يزوجه معتوقة أثيرة عنده من أصل يوناني أُسِرت في حرب المورة وعمرها عشر سنوات، وكانت تسمى «تمزار» وقد أخذ يتدرج في مناصب القصر حتى تقلد وكالة الخاصة الخديوية في عهد الخديوي إسماعيل، وقد تزوج علي شوقي والد الشاعر من ابنة أحمد حليم النجده لي حيث ولدت أشهر شاعر عربي في العصر الحديث، وقد نشأ شاعرنا في كنف جدته لأمه (تمزار) حيث أضفت عليه الكثير من ألوان الرعاية والحنو والعطف، وقد ترك ذلك أعمق الأثر في نفسه عبر عنه تعبيراً رائعًا في قصيدته التي رثاها بها والتي يقول في مطلعها:

خلقنا للحياة وللممات ... ومن هذين كل الحادثات
ومن يولد يعش ويمت كأن لم ... يمر خياله بالكائنات

إلى أن يقول:

صلاة الله يا تمزار تجزي ... ثراك عن التلاوة والصلاة
وعن تسعين عاما كنت فيها ... مثال المحسنات الفضليات
بررت المؤمنات فقال كُلٌّ ... لعلك أنت أم المؤمنات

وكانت في الفضائل باقيات وأنت اليوم كل الباقيات
تبناك الملوك وكنت منهم بمنزلة البنين أو البنات
يظلون المناقب منك شتى ويؤوون التقى والصالحات
وما ملكوك في سوق ولكن لدى ظل القنا والمرهفات
فكنت لهم وللرحمن صيدا وواسطة لعقد المسلمات
تبعت محمداً من بعد عيسى لخيرك في سنيك الأوليات
فكان الوالدان هدى وتقوى وكان الولدُ هذي المعجزات

ولد أحمد شوقي الشاعر في القاهرة وحينما بلغ الرابعة من عمره أدخله أبوه الكُتَّاب حيث قضى فيه أربع سنوات نقل بعدها إلى المدرسة الابتدائية ثم إلى الثانوية، وتخرج منها وعمره خمس عشرة سنة وأظهر في هذه المدرسة تفوقًا عظيمًا وفيها تفتحت موهبته الشعرية وبدأت البشائر التي تشير إلى مستقبل الشاعر العظيم، ثم التحق بمدرسة الحقوق وكان قد أنشئ فيها قسم للترجمة انتظم فيها أحمد شوقي فحصل بعد سنتين على شهادته النهائية. وقد رأى الخديوي توفيق أن يرسله في بعثه إلى فرنسا ليكمل ثقافته وترك له حرية اختيار ما يريد درسه فاختار الحقوق لأنها قوية العلاقة بالأدب. وقد أمضى في دراسته أربع سنوات، وفي أثنائها زار عددًا من المدن الفرنسية كما زار إنجلترا وقام بزيارة للجزائر وعندما رجع إلى مصر عين رئيسًا للقلم الإفرنجي في ديوان الخديوي وظل في منصبه إلى قيام الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤م حيث نفته السلطات البريطانية إلى أسبانيا وعندما عقدت الهدنة عاد إلى مصر في سنة ١٩٢٤م وعين عضوا في مجلس الشيوخ.

هذه فكرة موجزة عن طفولة شوقي ونشأته ودراسته وتحصيله العلمي ـ كما كان يعبر أسلافنا ـ ومنها يتضح:

١ ـ أن شوقي لم يكن عربيًا خالص النسب وإنما تشابكت في نسبه أصول أربعة: العربية، والتركية، والكردية، واليونانية.

ونحبُّ أن ننص على ذلك هنا لأن هذه القضية ـ قضية تشابك هذه الأصول في نسب شاعرنا ـ أثارت ضجة كبيرة لدى بعض الأدباء والنقاد ووجد فيها بعضهم مجالًا للنَّيل منه والطعن في أدبه، واتهمه بعضهم بضعف وطنيته. وعزا ذلك إلى نسبه الكردي التركي اليوناني، مع أن شعره في الوطنية وقف وحده متميزًا عن جميع شعراء العصر بروعته وغزارته، بل إن له مجموعة كبيرة من الأبيات سارت مسير الأمثال، وهذا ما لا تجده في شعر أولئك الآخرين الذين حاول بعض الأدباء والنقاد أن يرفعوهم على عرش الشعر الوطني.

هذا رأي خصومه من الأدباء والنقاد، أما أنصاره فلم يجدوا في هذا النسب المتشابك إلا أثر ازدواج النسب العربي واليوناني باعتبار ما هو معروف عن شهرة العرب واليونان بالشعر والشاعرية «وإن ازدواج هذين الأصلين في شاعر ليؤذن أن ينال قمة الشعر» أما أنا فإنني أرى في ازدوج هذه الأصول الأربعة في نسب شاعرنا ميزة من مميزات الإسلام.

فهذا الدين الإسلامي الذي جاء لهداية البشرية قادر على تحويل كل التيارات أو المنابع إلى مجراه وتسخيرها لخدمته، فأنت تجد الهندي والحبشي والألباني من المسلمين يخلصون الإخلاص كله للدين ولغة القرآن، بل إنك لتجدهم يتفوقون على كثير من العرب بالتعصب للعربية والحفاظ عليها. بل إن بعض أعداء هذا الدين ممن جاءوا لهدمه وتحطيمه واقتلاع جذوره سرعان ما يتحولون ليصبحوا من أنصاره والمدافعين عنه بمجرد أن تلمس أرواحهم نفحة من نسماته كما حدث بالنسبة مثلًا للتتار.

لقد تجمعت هذا الأصول بقدرة العلي الكبير لتخرج لنا شاعر الإسلام أحمد شوقي.

٢ ـ أن شوقي لم يدرس دراسة دينية كما لاحظتم من خط سيره، وكان المفروض أن تنتهي به دراسته إلى غاية بعيدة عن هذه الغاية التي انتهى إليها، فقد درس دراسة مدنية وتخصص في الحقوق لا في الآداب، واشتغل بالترجمة في دوائر القصر لا بالتعليم في المدارس ولا بالتحرير في الصحف، ولكنه حدد هدفه منذ البداية وهو أن

يكون شاعر الإسلام وعمل لذلك عملًا متواصلًا لا يعرف الهدوء ولا الراحة، فدرس العربية دراسة فقه ودراية واطّلع على أمهات كتب الأدب العربي وقرأ شعر كل الفحول من شعراء العربية، وسار في دربه غير عابئ بالمعوقين والمعطلين وعثرات الطريق. وأشهد أن شوقيًا كان من أرباب العزائم، ولولا ذلك لانحرف وسار في اتجاه آخر، فقد تعرض لحملات عنيفة ظالمة، كل حملة منها كانت كافية لزعزعته لولا قوة عقيدته وصلابة إيمانه.

وهذا الصبر العجيب يكفي وحده للتدليل على أن شوقي في دفاعه عن الخلفاء لم يكن مدفوعًا بعامل الجنس، وإلا لعدل عن موقفه وسار في طريق مملوءة بالرياحين فأصبح شاعر الوطنية أو شاعر الطبيعة أو ما إلى ذلك من الاتجاهات ـ التي كان يدعو لها كثير من الكتاب محاربة للاتجاه الإسلامي عن جهل أو قصد.

وحسبنا أن نعلم أن على رأس قواد الحملات الظالمة ضد شوقي، العقاد وطه حسين ولعلكم تدهشون حين تسمعون اسم العقاد في هذا المجال، فعباس محمود العقاد ـ كما هو في أذهان الكثيرين ـ من الكتاب الإسلاميين، وممن أغنوا المكتبة العربية بمؤلفات إسلامية ضخمة، ولكن الأستاذ العقاد قد هاجم شوقي فعلًا في كتابه «شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي» لأنه عنيَ بالجامعة الدينية أشد من عنايته بالوطنية المصرية، وعلل العقاد لذلك تعليلًا عجيبًا.

صحيح أن رأيه هذا قد أبداه قبل ثلاثين سنة ولكن آفة الأستاذ العقاد ـ ولكل شيء آفة ـ حرصه على آرائه مهما طال عليها الزمن، مخالفًا بذلك قوانين الحياة متجاهلًا سنة التطور، فلقد سئل قبل وفاته بسنوات قلائل، عن آرائه في شوقي وهل طرأ عليها أي تغيير، فأجاب أن آراءه لا تزال كما هي ولم يطرأ عليها أي تغيير.

إن من معجزات الإسلام أن يكون شاعر الإسلام أحمد شوقي ابن باريس الذي لم يدرس دراسة دينية وهذا ما ألّب عليه الخصوم من كل ناحية ولكن أكثر خصومه لم يجرؤوا على مهاجمته صراحة من أجل اتجاهه الإسلامي فلجأوا إلى مهاجمته عن

طريق آخر، ولكننا لو دققنا النظر لعلمنا أن كل الحملات الظالمة كان سببها اتجاهه الإسلامي.

ولعل آخر ما قرأت من ألوان الهجوم هجوم قام به كاتب قبطي - أصبح ذا شأن قبل سنوات - يدعو فيه إلى إحراق دواوين شوقي جميعها لأن شوقي كان شاعر القصر ولا يجوز أن يقرأ شبابنا وناشئونا شعرًا قيل في مدح أرباب القصور. وهو رأي عجيب وسخيف، ويكفي أن يعلم الناقد القبطي أن الناس في أوروبا - وناقدنا مغرم بأوروبا - يقرأون شعر المديح في القديم والحديث. وأن تماثيل الملوك لا تزال قائمة في أهم الميادين وأنها تلقى من الاهتمام والرعاية ما كانت تلقاه في حياة أصحابها.

ولكن الحقيقة هي أن هذا السبب شكلي، أما السبب الحقيقي في هذه الدعوة المجرمة فهو القضاء على أثر يذكّر الناس دائمًا بالإسلام وأمجاد الإسلام.

عصر شوقي

ولد شوقي سنة ١٨٦٨م، وتوفي ١٩٣٢م أي أنه عاش فترة عجيبة تعتبر أشد الفترات سوءًا بالنسبة لمسلمي العالم، فقد تآمر العالم الغربي الصليبي على دولة بني عثمان الإسلامية وأخذ يحرض الدول الأوروبية المجاورة للدولة ويدعمها بالمال والسلاح من أجل إضعاف هذه الدولة ومن أجل انتقاصها من أطرافها ومن أجل تفريق كلمة المسلمين وتوهين صلاتهم ببعض.

ولم يكتف بذلك بل إنه تسرب إلى قلب الدولة فأخذ ينشر الأفكار الخبيثة بين أجزاء الإمبراطورية كفكرة «حق كل أمة في الحرية والاستقلال» ودعوى «التخلص من العبودية العثمانية». ثم ابتكر دعوى القومية وحاول إقناع العرب «مثلًا» بان رابطة الجنس أحق بالرعاية والاهتمام من رابطة الدين. فقامت البعثات التبشيرية الصليبية بدور عجيب في تسميم أفكار المسلمين في العالم العربي، واستطاعت هذه البعثات التبشيرية أن تستغل حماسة الإسلام بالنسبة لحرية العقائد الأخرى أسوأ استغلال وتمكنت من تحقيق كثير من أهدافها الإجرامية الخبيثة، وزرعت بذورًا يغص المسلمون اليوم بثمرها المر.

ولم تكتف أوروبا المسيحية بذلك بل قامت فرنسا بالاستيلاء على الجزائر عام ١٨٣٠م واستولت على تونس سنة ١٨٨١م وقامت إنجلترا باحتلال عدن سنة ١٨٣٥م وفي سنة ١٨٨٢م قامت باحتلال مصر ثم السودان واستولت إيطاليا على ليبيا سنة ١٩١٢م واستولت أسبانيا على المغرب وبعد انتهاء الحرب العظمى سنة ١٩١٨م فرضت فرنسا سلطانها على سوريا ولبنان وفرضت بريطانيا سيطرتها على العراق وفلسطين والأردن.

ومن الواضح أن كثيرًا من الأمم الإسلامية ـ غير العربية ـ في آسيا وأفريقيا قد وقعت ضحية لدول أوروبية غير من أسلفنا كهولندا وألمانيا وبلجيكا، ويقول (أرنولد توينبي) كبير مؤرخي الإنجليز المعاصرين في فصل عنوانه «الإسلام والغرب» ومن كتابه «العالم الغربي» ـ يقول: «وبعد فشل الأتراك أمام أبواب فيينا عام ١٦٨٣م كان يجب أن يتم الهجوم المعاكس الغربي على العالم الإسلامي في يوم آخر ولكنه تأخر في الظهور بسبب الصورة التي كانت في مخيلة الغربيين عن شجاعة الأتراك والمسلمين وبسالتهم العسكرية وقد أجاب العالم الغربي على استيلاء الأتراك على المسيحية والأرثوذكسية الشرقية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر بتامين سيادته على البحار لتطويق البلاد الإسلامية عوضًا عن مقابلتها وجهًا لوجه، كما فعل خلال الحرب الصليبية التي كانت نتائجها وخيمة عليه، وفي طوافهم حول أفريقيا وصل البحارة البرتغاليون إلى الشواطئ الغربية للهند سابقين لبضع سنوات إلى هناك المغول آخر موجة من موجات الإسلام التوسعية. هؤلاء الذين قدموا من آسيا الوسطى بطريق البر، وعندما حقق الأسبانيون ربط المحيط الأطلسي بالهادي مرورًا بمكسيكو قامت في الفلبين حوادث جديدة آسيوية هذه المرة بين المسيحية الغربية والإسلام اللَّذَين لم يتجاوزا حتى ذلك التاريخ إلا في الطرف الثاني من العالم في وادي الدانوب وغربي لمتوسط وهكذا في نهاية القرن السادس عشر بفضل السيطرة على البحار استطاع الغرب أن يطوق البلاد الإسلامية ولكنه لم يخاطر في شد الحبل إلا في القرن التاسع عشر فيما بعد، وحتى ذلك التاريخ كانت فكرة بسالة المسلمين العسكرية تفرض الحذر على الغربيين وتشد عزائم المسلمين أنفسهم وتجعلهم واثقين من أنفهسم وهذه الثقة المتينة قضي عليها شيئًا فشيئًا على أثر الفشل المتوالي الذي منيت به الإمبراطورية العثمانية وباقي الدول الإسلامية».

في هذا الجو المكفهر الخطير كان الناس في حاجة إلى شاعر يهز عواطفهم ويخاطب وجدانهم ويذكّرهم بأمجادهم ويثير أشواقهم إلى العزة والكرامة واستخلاص الحقوق المهضومة والأوطان المسلوبة والنفوس المغلوبة، وكان هذا الشاعر هو شوقي.

ومن العجيب أن كثيرًا من النقاد سودوا كثيرًا من الصفحات في تصوير أسفهم لأن شوقي لم يتأثر بما شاهده في فرنسا وأوروبا من مشاهد الطبيعة الفتانة ولم ينفعل بما قرأ من الأدب الفرنسي من آثار كانت ستدفع به إلى أن يكون شاعر الطبيعة في الأدب العربي. وهذا كلام أقل ما يقال فيه: إنه صادر من نفوس خلية ناعمة البال تعيش في معزل عن هذا المعترك الذي تعيش فيه أمتنا الإسلامية.

ماذا يجدي قضيتنا وجود شاعر من شعراء الطبيعة؟ إن شاعرًا واحداً يعزف أجمل الألحان مشيداً بعظمة الإسلام مكافحًا في سبيل بقائه مستنهضًا همم أبنائه لهو أجدى علينا من كل من عرفت الإنسانية من شعراء الطبيعة.

أول لقاء بيني وبين شوقي

وأعني به اللقاء الأدبي بالطبع لأنني كنت طفلًا رضيعًا عندما غادر شوقي هذه الدنيا الفانية إلى العالم الباقي.. وكان لقائي معه لقاءً عجيبًا ولعلكم تدهشون إذا علمتم أن صلتي به لم تبدأ بأدب شوقي إلا بعد أن أنهيت دراستي الجامعية أما قبل ذلك فلم تنعقد أية صلة بين وبينه، وكل ما أذكره عن شوقي أثناء حياتي الدارسية هو أنني حفظت من شعره قصيدة وبعض قصيدة.

أما بعض القصيدة فهي أبيات من قصيدته ذات الطابع المشهور «قم للمعلم وفِّه التبجيلا» فَرَض حِفظَها علينا - أنا وزملائي في المدرسة الابتدائية - مدرسٌ فاضل. وأما القصيدة فهي رثاؤه للزعيم الشهيد المسلم عمر المختار وقد علقت بذاكرتي بعد أن قرأتها عددًا من المرات. وقد وجدتها في خاتمة كتاب يتحدث عن سيرة هذا الشهيد العظيم ويبدو أن شدة تأثري بما تعرض له عمر المختار من عسف وظلم واضطهاد هو الذي دفعني لقراءة هذه القصيدة قراءة جادة ساعدت على تثبيتها في ذاكرتي. ويبدو أن لبحر القصيدة وقافيتها ذات الهمزة الممدودة المفتوحة أثرًا في إعجابي بهذه القصيدة وكنتُ أيامها لا أزال في المدرسة الابتدائية.

وانقطعت بعد ذلك كل صلة بيني وبين هذا الشاعر العظيم وسبب ذلك هو أنني كنت منساقًا وراء الحملة الجبارة المضلة التي قام بها خصوم شوقي وعلى رأسهم العقاد وطه حسين والمازني وقد استطاعت تلك الحملة الظالمة أن تحول بيني وبين شوقي، وأن تدخل في روعي وروع زملائي أن شوقي شاعر أرستوقراطي وأن شعره مجرد من كثير من المزايا التي يتمتع بها معاصروه من الشعراء وأن أكبر الشعراء وأبرزهم حافظ إبراهيم العملاق. وأن شوقي بجانبه قزم.

وأذكر لكم بهذه المناسبة أن العقاد - رحمه الله - عندما كتب مقالاته التي جمعها في كتابه الذي سماه «شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي» بدأ بالحديث عن حافظ إبراهيم وهو - كما يقول العقاد: «ليس بأكبر زملائه سنًّا ولا بأقومهم بيئة وطريقة» وقد شعر بما قد يثيره تصرفه هذا من تساؤل فعلل ذلك بقوله: «بدأنا هذه المقالات والكلام في الصحف والمجالس مستفيض عن حافظ وعن تخليد ذكراه» واعتبر ذلك مبررًا معقولاً ومقبولاً. وهو تعليل شكلي، أما التعليل الحقيقي فهو شيء آخر يتصل بسبب من هذه الحملة الظالمة التي حدثتكم عنها. وقد شغلت بشعر حافظ قراءة وحفظًا ودرسًا وتتبعت ما كتب عنه مدحًا وتقريظًا ورثاءً ولكنني أقمت حُجُبًا صفيقة بيني وبين شوقي. وما يذكر في هذا المجال أن صديقي الأديب الألمعي الأستاذ أمين العبدالله مساعد الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي ولعله موجود معنا الآن(١) كان قد أهداني - مشكورًا - ديوان شوقي بأجزائه الثلاثة وتاريخ هذا الإهداء ١٣٦٠/٨/٢٤هـ وكنت أيامها طالبًا في المرحلة الثانوية، ولكنني لم أقرأ هذا الديوان إلا بعد أكثر من عشر سنوات من تاريخ إهدائه. ولولا أن الديوان كان هدية أعتز بمهديها لكنت قد تخلصت منه بالإهداء أو بأي سبب آخر. وقد تساءلت ذات مرة عن السبب في أن مدرسنا اختار لنا تلك الأبيات من قصيدة: «قم للمعلم وفّه التبجيلا» لشوقي ولم يختر لنا بدلها قصيدة لحافظ أو لغيره من الشعراء الآخرين كمحرم أو إسماعيل صبري أو البارودي وكلهم كان - في نظري - خيراً منه، ولم أجد سببًا معقولاً إلا أن هذه القصيدة في تمجيد المعلم، لذلك اختارها مدرسنا الفاضل.

ومرت الأيام إلى أن حدث أمر لا ينسى فقد تقدمت لامتحان الليسانس الشفوي في الجامعة وهو آخر امتحان قبل الحصول على الليسانس وكانت لجنة الامتحان مكونة من ثلاثة من الأساتذة وطلب مني أحدهم أن أقرأ نصًّا أدبيًّا من محفوظاتي،

(١) في الأيام من «١» إلى «٥» من شهر ربيع الأول عام ١٣٩٤هـ التي عقد فيها المؤتمر انظر الهامش السابق.

وبادرت بإنشاد قصيدة لشاعر سوري عنوانها: «الصقر والليل» وهي قصيدة طويلة جداً ولم أقرأ منها غير بيتين، وإذا بأحد الأساتذة أعضاء اللجنة يتفجر كالبركان ويصيح بصوت مرتفع وبلهجة ثائرة: أسكت ما هذا الكلام الفارغ؟ وأخذ يردد بعض الكلمات التي سمعها في البيتين بطريقة هازئة ساخرة. وقال كلامًا لا أذكره بالضبط. ولكنني أذكر تمامًا أن وَقْعَ المفاجأة على نفسي كان صاعقًا وقد ذُهِلت فتلبد فكري وعقَلَت المفاجأة لساني. وبعد أن انتهى الأستاذ من غضبته المضرية ـ التي لم أجد لها تعليلًا حتى هذه اللحظة ـ طلب مني أن أقرأ نصًا آخر. وحاولت أن أتذكر ولكن هيهات فقد نضب معيني وتبخر من ذهني كل ما حفظت ـ وهو شيء كثير لا أحصيه عَدًا ـ وتوقعت الكارثة فالرسوب أمر محتوم لا مفر منه، وحاولت أن أعتصر ذاكرتي ولكن جهودي جميعًا ذهبت أدراج الرياح واستسلمت لليأس وجلست صامتًا، وتداركني الله بلطفه في آخر لحظة فقد كان أحد الأساتذة الثلاثة يعرفني معرفة شخصية ومن المؤكد أنه لاحظ ما أنا فيه من محنة وفوجئ مثلي بثورة زميله التي لا مبرر لها فقد كان في إمكانه أن يلجأ إلى أسلوب آخر، وذلك بأن يطلب مني قراءة نص آخر وثالث ورابع، ما دام أن النص لم يعجبه، وتدخل هذا الأستاذ فوجّه كلامه إليّ وطلب مني أن أهدّئ نفسي وأن أحاول أن أتذكر نصوصًا أخرى وقال لي إنه واثق من أنني أحفظ الكثير من النصوص. وكان لهذه الكلمات أثرها الطيب في نفسي فقدد هدأت قليلًا ولكن ذهني كان قد فقد القدرة على التذكر وخطر ببالي أن أستأذن لجنة الامتحان في مغادرة المكان وليكن ما يكون وفي هذه اللحظة تذكرت قصيدة عدوي اللدود شوقي في رثاء عمر المختار ولكنني رأيت أن من عدم الكياسة أن أنشد قصيدة رثاء تبدأ بتوجيه الخطاب إلى المرثي ورأيت أنها قد تترك أثرًا سيئًا في نفس الأستاذ وربما تشاءم منها أو اعتبرها لونًا من الانتقام المقصود. وحاولت أن أستعيض عنها بقصيدة أخرى ولكني فشلت وأخيراً لم أجد أمامي إلا الأَسِنَّةَ مركبًا فركبتها وقلت: قال شوقي في رثاء عمر المختار:

ركـزوا رفـاتـك في الـرمـال لـواءً ... يـستـنـهـض الـوادي صـبـاح مـسـاءَ
يـا ويحهـم نـصـبـوا مـنـارًا مـن دم ... يحوي إلى جـيـل الـغـد الـبـغـضـاءَ
مـا ضر لـو جـعـلـوا الـعـلاقـة في غـد ... بين الـشـعـوب مـودة وإخـاءَ
جـرح يـصـيـح عـلى المدى وضـحـيـة ... تـتـلـمـس الحرية الحمـراءَ؟

وذكرتُ عددًا طيبًا من أبيات القصيدة وقاطعني الأستاذ الثالث وهو أكبرهم سنًّا ومركزًا وقال لي بحرارة: أحسنت نعم هذا هو الشعر يا بني، وفقك الله. ورأيت علائم الارتياح قد بدت على أسارير ذلك الأستاذ الغاضب الثائر فأخذ يسألني أسئلة أخرى وكان ودودًا معي إلى أقصى حد في نهاية الامتحان بقدر ما كان عنيفًا في بدايته.

كانت هذه الحادثة سببًا في إزالة الحجب الصفيقة عن عيني وقررت يومئذ أن أدرس شوقي لأعرف حقيقة هذا الشاعر وحقيقة هذه الخصومة القائمة بينه وبين حساده ومناوئيه.

وعدت إلى المملكة ولم تمض أيام على وصولي وإذا بصديق يحرر صفحة الطلبة في جريدة البلاد يبعث إلى خطابًا يرجوني أن أجيب على سؤال لأحد الطلاب يدور حول شوقي وإمارة الشعر وأتاح لي هذا السؤال فرصة أول لقاء حقيقي مع شوقي، واستجدت ظروف يعرفها المتتبعون للنشاط الأدبي في هذه البلاد زادت من صلتي بالشاعر العظيم؛ هذه الصلة التي كشفت لي عن عبقرية تقف شامخة في دنيا المجد الأدبي والنبوغ الفكري والثقافة الرفيعة هي عبقرية أحمد شوقي.

أيها الإخوة الأفاضل: وحينما عدت إلى شوقي وصحبته من جديد عبر مئات الصفحات التي ضمت شعره في دواوينه الأربعة، وفي جزئي الكتاب الذي أصدره الدكتور محمد صبري بعنوان «الشوقيات المجهولة» واكتشفت هذه الظاهرة الرائعة بدأت أشعر أن شوقيًا ـ يرحمه الله ـ حينما قال عن نفسه في إحدى قصائده:

أَرَبَّ الـعِـيـدِ هـذا الـعـيـدُ يُجلَى ... وكـم لـك مـن دعـاء فـيه يُـتـلَى
ولـكـن شـاعـر الإسـلام أعـلـى ... وأوقـع في نـفـوس المـسـلـمـيـنـا

لم يقل غير الحقيقة فهو في الواقع شاعر الإسلام غير مُدافَع، وليس اعتزازه بممدوحيه إلا لأنهم يمثلون - في رأيه - الحصن المكين الذي يلجأ إليه المسلمون لدفع أعدائهم ودحرهم، ونستطيع أن نمسك بأية قصيدة من قصائده التي نظمها في مدح الخلافة والإشادة بها لنعرف أن دافعه الأساسي هو إيمانه بأن الخلافة تمثل الإسلام وأنها هي التعبير الصحيح عن الوحدة الإسلامية الكبرى، ففي ملحمته الرائعة «صدى الحرب» في وصف الحروب العثمانية - اليونانية، يقول:

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب ... وينصر دين الله أيان تضرب

ويعتبر الخلافة نفسها باعتبارها رمز التجمع الإسلامي - أكبر القوى التي يهابها أعداء الإسلام:

وهاب العدى فيه خلافتك التي ... لهم مأرب فيها ولله مأرب

وانطلاقًا من مفهومه هذا لأسس الخلافة الراشدة فإنه لا يتورع عن وصف تاريخ بني عثمان بأنه يجمع بين القياصرة وبين الملوك الذين ساروا على هدي الخلافة الراشدة فيقول:

قياصر أحيانًا، خلائف تارة ... خواقين طورًا، والفخار المقلَّب

ولست أعتقد أن هناك شاعرًا غير شوقي وقف يمدح حفيد إحدى الأُسر مهما كانت مكانتها الاجتماعية وتحدث بصراحة عن رأيه في هذه الأُسرة، وليس غير الإسلام: الإسلام الذي يغمر شعاب نفسه بكل معانيه واتجاهاته ذلك الذي يجعله يصنف أبطال وزعماء هذه الأسرة بأنهم قياصرة، وخلائف، وخواقين، بل إن شوقي لم يرحب بالانقلاب العثماني إلا أنه - كما تصور - يمثل العودة السليمة إلى الإسلام ومبادئه القويمة فلم يكن في مجال الرؤيا أمام عينيه وقلبه غير صورة، خالد بن الوليد، سيف الله المسلول - فقال يخاطب مصطفى كمال: يا خالد الترك جدد خالد العرب، كما سنتحدث عنه بعد قليل.

نعود بعد ذلك إلى بائيته الكبرى لنلمح بعض الومضات المشرقة التي دفعت شوقي إلى المديح وتواجهنا في مقدمتها هذه الصورة الرائعة:

وشِيدت منارًا للخلافة في الورى ... تشرّق فيهم شمسُه وتغرُبُ

سهرت ونام المسلمون بغبطة ... وما يزعجُ النوامَ والساهرُ الأبُ؟

فما أجمل هذا المنار وهو يقف بشموخ وينتصب باعتزاز حيث يرسل كالشمس أشعته وأضواءه على أمة نامت في هدوء وغبطة وأمان لأنها في حراسة أب حان مشفق وقف ساهرًا بجوار المنار كالديدبان يحرس أبناءه وأحبته؟ وماذا يزعج النوام؟ ماذا يزعجهم فعلًا وهم في حراسة أبيهم الساهر على راحتهم وأمنهم؟

إنها صورة رائعة ـ لا يعنيني هنا أن تكون صادقة من الناحية التاريخية أو لا تكون ـ لأنها جمعت بين جمال التصوير وبين الانموذج الذي يتصوره شوقي للخلافة الإسلامية.

أما زينب بني عثمان التي ازدهت وفاخرت بقومها فإنها جديرة بالفخر والمباهاة لا لأنها تنتمي إلى العشير الذي يحبه شوقي. ولم يحب شوقي هذا العشير لأنه ـ كما قد نتصور ـ يضم مثل هذه الحسناء المغامرة ولكن لأنه:

يؤلف إيلام الحوادث بيننا ... ويجمعنا في الله دين ومذهب

وصورة أخرى من أروع الصور التي قرأتها في الشعر العربي تمثل الاستجابة السريعة للفرسان حينما يدعوهم إلى الحرب داعي الله يرسمها شوقي في إطار عقيدته الإسلامية العظيمة فيقول:

ونادت فلبى الخيلُ من كل جانب ... ولبى عليها القَسْور المترقب

خفافا إلى الداعي سِراعًا كأنما ... من الحرب داع........................

داع إلى ماذا؟

اسمحوا لي أن أعيد البيت من جديد:

خفافا إلى الداعي سراعًا كأنما من الحرب، داع للصلاة مُثوِّب

وهكذا تلتقي في ذهن شوقي وخياله هذه الصورة الفريدة التي تجمع بين التوثب إلى المعركة والاندفاع إلى الصلاة على لوحة واحدة رسمت الموقفين الجليلين معًا من خلال موقف واحد، وتلك براعة تستحق الإشادة والتنويه، وهناك صور أخرى يجمع فيها بين موقف آخر من مواقف المعركة لهؤلاء الأبطال وبين المصير ينتظرهم بعد أن ينتقلوا إلى العالم الآخر حينما يحفهم رضوان الله ومغفرته:

علوا فوق علياء العدو ودونه مضيق كحلق الليث أو هو أصعب

فكان صراط الحشر ما ثم ريبة وكانوا فريق الله ما ثم مذنب

ما أروع وصفه للمضيق بأنه كحلق الليث وما أجمل الصورة المتحركة التي رسمها لهؤلاء المغامرين وهم يخترقون هذا المضيق.. وترتبط بخيال شوقي الشاعر المسلم ـ وهو ما نلاحظه دائمًا في كل قصائده ـ صور المواقف الحاضرة التي يعيشها بصور المواقف الخالدة التي عاشها المسلمون عبر تاريخهم المجيد. ففي أحد هذه المواقف يتحدث عن الرعب الذي أصيب به الأعداء وهم يواجهون المسلمين فيقول:

ترى الخيل من كل الجهات تخيلًا فيأخذ منها وهمُها والتهيب

فهي تراها من خلفها طورًا ومن أمامها أحيانًا، وأحيانا من كل الجهات، وترى الفوارس في طول البلاد وعرضها تفاديهم وتراوحهم:

فمهما تهم يسنح لها ذو مهند ويخرج لها من باطن الأرض محرب

وتنزل عليها من سماء خيالها صواعق فيهن الردى المتصبب

وترتبط هذه الصورة بموقعة بدر الكبرى وحينما اشتركت الملائكة في الحرب مع المسلمين ولكنه مع ذلك لا يتخلى عن عقيدته الإسلامية السليمة فيقول:

رؤى إن تكن حقًّا يكن من ورائها ملائكة الله الذي ليس يغلب

وهذا الارتباط بين المواقف الحاضرة وحوادث التارخ الإسلامي يبدو بوضوح ـ كما قلت ـ في أكثر قصائد شوقي التي تفيض إلى جانب ذلك بأنبل المشاعر الدينية ففي قصيدته عن مصطفى كمال التي استهلها بقوله:

رَبِّي قد أنكروا الصراط علينا ... وهو الحق فاهدنا كيف تعبد
ذنب مصر ومثل مصر لديهم ... أننا المسلمون يا رب فاشهد

ويقول:

أرى طوفان هذا الغرب يطغى ... وأهل الشرق سادتهم نيام
فإن لم يأتنا نوح بفلك ... على الإسلام والشرق السلام

وهو الذي يقول في قصيدته العظيمة؛ قصيدة: «كنيسة صارت إلى مسجد».

فيا لثأر بيننا بعده ... أقام لم يقرب ولم يبعد

وأي ثار هذا؟ إنني أغالب مشاعر الألم والعذاب النفسي؛ فشوقي ـ طيب الله ثراه ـ كان يستشف حجب الغيب وهو ينظم هذه القصيدة ولم يملك في نهايتها إلا أن يلجأ إلى الله لأنه أدرك بحساسيته المرهفة وشعوره الملهم المشاكل التي سيواجهها المسلمون من بعده:

فكن لنا اللهم في أمسنا ... وكن لنا اليوم وكن في غد

ودعونا نستمع إلى بعض أبيات هذه القصيدة إذا سمحتم:

فيا لثأر بيننا بعده ... أقام لم يقرب ولم يبعد
باقٍ كثأر «القدس» من قبله ... لا ننتهي منه ولا يبتدي
فلا يغرنك سكون الملا ... فالشر حول الصارم المغمد

ولشوقي لفتات إلى القدس يغمرها الإعزاز والحب والحنان بأن مشكلة الصهيونية لم تكن تشكل في حياته أي خطر ولم تكن مأساة القدس بالذات قد حدثت ومع ذلك نسمعه يقول من قبل ما يزيد عن نصف قرن:

فيا لثأر بيننا بعده ... أقام لم يقرب ولم يبعد

باقٍ كثأر «القدس» من قبله لا ننتهي منه ولا يبتدي
فلا يغرنك سكون الملا فالشر حول الصارم المغمد

ولولا أن الوقت محدود ولدي الكثير جداً مما يجب أن يقال في الموضوع الذي اخترته لاستعرضت معكم بعض هذه اللمحات عن القدس.

ولكنني مع ذلك لا أملك إلا أن أعبر لكم عن أسفي البالغ لوفاة شوقي قبل حدوث هذه المأساة فوفاته خسارة كبيرة للشعر العربي يمكن أن يعرف أبعادها كل من قرأ قصيدته «الأندلس الجديدة» عن (أدرنة) وغيرها من القصائد التي يرثى بها العواصم الإسلامية الكبرى والتي أرجو أن أتحدث عنها بعد قليل.

وأحب أن أعود بشيء من التفصيل إلى الموضوع الذي سبق أن أشرت إليه وهو دفع تهمة التعصب للعروبة - والإسلام - التي يلمز بها شوقي بعض ذوي الأقلام المشبوهة إما لمحاربة الأفكار الإسلامية التي يتبناها وفي مقدمتها توحيد كلمة المسلمين وجمع شملهم التي كانت شغله الشاغل - يرحمه الله - أو مجاراة عمياء غبية لهذه الأقلام المشبوهة، أو انسياقاً مع المثل الذي يقول: «خالف تعرف». ففي قصيدة «نجاة» يقول شوقي:

هنيئاً أمير المؤمنين فإنما نجاتك للدين الحنيف نجاة
هنيئاً لطه والكتاب وأمة بقاؤك إبقاء لهم وحياة

ثم يقول بصراحة: إن العداوة التي يواجهها المسلمون تستهدف القضاء على الدين لا على الدولة لأنه يعرف ضراوة الصليبية في عدائها للإسلام ولكل ما يتصل بالإسلام.

يعادون ديناً لا يعادون دولة لقد كذبت دعوى لهم وشكاة
ولا خير في الدنيا ولا في حقوقها إذا قيل طلاب الحقوق بغاة
فلولاك مُلْكُ المسلمين مُضيَّع ولولاك شمل المسلمين شتات

وينفي عن نفسه تهمة ممالأة السلطان أو أمير المؤمنين ـ كما يعبر ـ رغبة في عطاياه وجوائزه بطريقة فيها الكثير من الشمم والإباء:

زهدت الذي في راحتيك وشاقني جوائز عند الله مبتغيات
ومن كان مثلي أحمد الوقت لم تجز عليه ولو من مثلك الصدقات

وفي قصيدة اخرى يقول:

يا واحد الإسلام غير مُدافَع أنا في زمانك واحد الأشعار
لي في ثنائك وهو باق خالد شعر على الشعرى المنيفة زار
أخلصت حبي في الإمام ديانة وجعلته حتى الممات شعاري
لم ألتمس عرض الحياة وإنما أقرضته في الله والمختار

فإخلاصه منبثق من صميم عقيدته وقصائده ليست غير قروض ينتظر جزاءها أو سدادها من الله ومن رسول الله، والدين ليس بالشيء البسيط لدى شوقي فهو يمثل أصدق العلاقات وأوثق روابط الود:

إلى الذين وجدنا ود غيرهم دنيا وودهم الصافي هو الدينا

وهو لذلك يمدح ويرثي كبار القواد الأتراك الذين أسهموا في الدفاع عن الإسلام لا لشيء إلا لمواقفهم البطولية في الذود عنه ويصف هذه المواقف بكثير من الإعجاب والخيلاء، فيقول في رثاء عثمان باشا الغازي:

سل «بلفنا» أكنت تدرك فيها ولو أن المحاصرين الأنام؟
خيم الروس حول حصنك لكن أين من هامة السماك الخيام؟
وأحاطت بعزمك الجند لكن عزمك الشهب والجنود الظلام
كلما جرد المحاصر سيفًا قطع السيف رأيك الصمصام
وعجيب لا يأخذ السيف منكم وينال الطوى ويعطى الأوام
فخرجتم إلى العدا لم تبالوا ما لأسدٍ على سغوب مقام
تخرقون الجيوش جيشًا فجيشًا مثلما يخرق الجواء الغمام

والمنايا محيطة وحصون الر ... وس تحمي الطريق والألغام
ولنار العدو فيكم قعود ... ولسيف العدو فيكم قيام

ويقول عن أدهم باشا:

سلوا عنه «ميلونا» وما في شعابه ... وفي ذروتيه من نسور وأعظم
ليالي بات الدين في غير قبضة ... وزلزل في إيمانه كل مسلم
وقال أناس: آخر العهد بالملا ... وهمت ظنون بالتراث المقسم
فأطلع للإسلام والملك كوكبًا ... من النصر في داج من الشك مظلم

بل إنه يصدر عن روح إسلامية ـ حتى في المواضع التي تبدو في نظر الكثيرين بعيدة عن الإسلام ـ كقصيدته عن افتتاح بنك مصر التي يقول فيها:

أين الوفود الملتقون على القرى ... المنزلون منازل الإكرام
الوارثون القدس عن أحباره ... والخالفون أُمَيَّةً في الشام
الحاملو الفصحى ونور بيانها ... يبنون فيه حضارة الإسلام

فهي تصور استحواذ الإسلام على كل مشاعره وأحاسيسه ليس في القصائد التي نظمها في المناسبات الإسلامية وعند افتتاح المعاهد والجامعات فحسب بل في كل المناسبات يشترك فيها. وأعتقد أن الكثيرين من حضراتكم ـ أيها الإخوة ـ يعرف نشيد الشبان المسلمين الذي نظمه شوقي وقال فيه:

العز للإسلام ... منارة الوجود
هداية الأنام ... ومطلع السعود

★★★

عصابة الصديق ... وراية الفاروق
والحق والوسيلة ... والسمحة الظليلة
ومعقل الفضيلة ... وغابة الأسود

★★★

الفُرس في لوائه ... والهند في ضيائه
في الأرض صار كالعلم ... بعزة تمحو الظلم
بين الكتاب والقلم ... مظفر الجنود

☆ ☆ ☆

الشام في أُسِرَّته ... ومصر نور غُرَّته
من هالة لهالة ... يمزق الجهالة
ويهزم الضلالة ... ويَحْطم القيود

☆ ☆ ☆

علاقة القلوب ... وعروة الشعوب
مشى هدى ورحمة ... بينهما وذمة
فليس بين أمّة ... وأختها حدود

ونستطيع أن نلمح ـ بدون أي تكلف أو تمحل ـ بلادنا المقدسة وهي في مكان القلب من الأقطار الإسلامية التي ضمتها هذه اللوحة في المقطعين الأولين من النشيد، وإن لم يُسَمّها شوقي كما سمى بعض الأقطار التي استظلت براية الإسلام، فهي القاعدة التي ارتكزت عليها منارة الوجود التي ارتفعت لهداية البشرية، وهي مطلع السعود التي التأمت على إشراقته عصابة الصديق ورفرفت على أجوائه راية الفاروق، وهي موطن الحق الذي لا مرية فيه والوسيلة التي يتقرب الناس بشريعتها ومبادئها إلى الله والحنيفية السمحة الظليلة التي جاءت لإسعاد البشر وللأخذ بأيديهم إلى سبل الخير والفلاح، وهي مع ذلك معقل الفضيلة بكل معانيها وأهدافها واتجاهاتها، وغابة الأسود الذين أعادوا الحق إلى نصابه وجاهدوا لتكون كلمة الله هي العليا.

وهذه هي ملامح الصورة التي رسمها شوقي لبلادنا في القصيدة التي وجهها إلى صديقه الدكتور محجوب ثابت حينما أزمع السفر لأداء فريضة الحج والزيارة:

فهناك طب الروح طـبُّ العالمين من الجهالة
وهناك أظلال الفصاحة والبلاغة والنبالة
وهناك أزكى مسجد أزكى البرية قد مشى له
وهناك عذري الهوى وحديث قيس والغزالة
وهناك مجرى الخيل يجري في أعنتها خياله
وهناك من جمع السماحة والرجاحة والبسالة
وهناك خيَّمت النهى والعلمُ قد ألقى رحاله
وهناك سرح حضارة الله فيَّأنا ظلاله

هذا هو حديث شوقي عن بلادنا وعن الوحدة الإسلامية التي تشد المسلمين إليها في ظلال السلم والأمن وهو ـ كما ترون ـ يتناسب في صوره وأوزانه الشعرية مع الحياة الرخية الهادئة. وليس فيه القوة والاندفاع والتدفق الذي نلمسه من خلال قصائده الأخرى حين يتعرض الإسلام والمسلمون للهزات والكوارث أو حين تغمر شوقي مشاعر الحسرة والألم لما وصلت إليه حالتهم.

إن الوحدة الإسلامية وبلادنا وتاريخنا الإسلامي ـ حين ذاك ـ أول ما يتبادر إلى ذهنه وخياله وإحساسه، ففي قصيدته عن مصطفى كمال كانت صورة خالد بن الوليد ـ كما سبق أن قلت ـ أول الصور التي شعت بخياله بعد الانتصار الذي أحرزه مصطفى كمال وبجانب صورتي خالد ومصطفى كمال كانت صورة الإسلام في عهد ابن الوليد تملأ مخيلته بكل عنفوانها وعظمتها وشموخها وبالقرب من صورة الإسلام كما كانت على عهد شوقي ولذلك لم يكد يهتف من أعماق قلبه: «الله أكبر كم في الفتح من عجب». حتى التفت إلى بطل قصيدته ليقول له ـ وقد امتزجت صورتا البطلين معًا: «يا خالد الترك جدد خالد العرب» وكلمة «جدد» تحمل كل مشاعر شوقي التي كانت تتركز في أن يعود إلى الإسلام كل ما كان له من قوة وسلطان ومنعة، وحينما استجاب مصطفى كمال لنداءات السلم بعد انتصاره في

المعركة ومنح المسيحيين حرية أداء طقوسهم الدينية ولم يتعرض لدور العبادة التي يمارسون فيها هذه الطقوس ارتبطت صورته بموقف صلاح الدين الأيوبي خلال الحروب الصليبية فقال:

حذوت حرب الصلاحيين في زمن ... فيه القتال بلا شرع ولا أدب
لم يأت سيفك فحشاء ولا هتكت ... قناك من حرمة الرهبان والصلب

وما أروع قوله: «في زمن فيه القتال بلا شرع ولا أدب»، وقوله «لم يأت سيفك فحشاء ولا هتكت قناك» وهي الصورة النكراء التي نشاهدها اليوم في كل أنحاء العالم بصفة عامة ونشاهد أشدها نكرًا وهمجية وبُعدًا عن الشرائع والأديان والتقاليد في أرضنا المغتصبة؛ فلسطيننا العزيزة على يد الصهيونية المجرمة. وصور شوقي بعضًا منها في قصيدته «الأندلس الجديدة».

ومن الطبيعي - وشوقي شاعر الإسلام - أن يذكر في هذا الموقف سماحة الإسلام وكرمه:

أتيت ما يشبه التقوى وإن خلقت ... سيوف قومك لا ترتاح للقُرُبِ؟
ولا أزيدك بالإسلام معرفة ... كل المروءة في الإسلام والحسب

وأن يقول في نفس القصيدة عن الفتنة التي كانت سائدة:

لم يطعم الغمض جفن المسلمين لها ... حتى انجلى ليلها عن صبحه الشَّنِب

★ ★ ★

سفينة الله لم تقهر على دسر ... في العاصفات ولم تغلب على خشب
قد أمّن الله مجراها وأبدلها ... بحسن عاقبة من سوء منقلب

وتشع من جديد في ذهن شوقي وخياله صورة جديدة رائعة من صور النصر الإلهي الحاسم في تاريخ المسلمين هي صورة موقعة بدر الكبرى. وأحب أن أؤكد من جديد أنني هنا لا أنظر إلى الحقائق التاريخية إطلاقًا، فلست أهدف من هذه المحاضرة التاريخية إلى استعراض حقبة من التاريخ، ولكن كل اهتمامي مُنصَبٌّ على النواحي

الفنية في شعر شوقي، وقد ارتبطت صورة بدر والنصر الحاسم فيها بصورة الانتصارات التي كانت ترد إليه عن طريق الأنباء وهو على بعد آلاف الأميال من مواقع المعركة فقال:

يوم «كبدر» فخيل الحق راقصة ... على الصعيد وخيل الله في السحب
غُرٌّ تظللها غراء وارفة ... بدرية العود والديباج والعُذُب

وعلى أثر ذلك شع في ذهنه وخياله الصورة الكبرى التي عايشته وعايشها طيلة حياته؛ صورة العالم الإسلامي كله كما تشع الهالة حول البدر وكانت موقعة بدر مركز الإشعاع أو بؤرة الضوء:

لما أتيت ببدر من مطالعها ... تلفت البيت في الأستار والحجب
وهشت الروضة الفيحاء ضاحكة ... إلى المنورة المسكية الترب

ثم اتسعت الهالة أو دائرة الضوء:

وازيّنت أمهات الشرق واستبَقَت ... مهارج الفتح في الموشية القشب
هزت «دمشق» بني أيوب فانتبهوا ... يهنئون «بني حمدان» في «حلب»
ومسلمو الهند والهندوس في جذل ... ومسلمو مصر والأقباط في طرب
ممالك ضمها الإسلام في رحم ... وشيجة - وحواها الشرق في نسب

ولم تكن فرحة شوقي بالانتصارات التي حققها مصطفى كمال راجعة إلى أنه مثله تركي - أو كما تردد الأقلام المشبوهة التي تحارب فكرة التجمع الإسلامي عن قصد أو بدون قصد - ولكنه لأنه كان يتصور أن هذه الانتصارات ليست إلا لصالح الإسلام والمسلمين فشوقي لم يكد يشعر بانحراف هذه الحركة وتمزق الخلافة التي كانت تمثل في رأيه الرمز الحي لاتحاد كافة المسلمين واجتماع شملهم حتى أخذ يبكي الخلافة ويستدعي المسلمين على الذين مزقوها في قصيدة «خلافة الإسلام»:

ضجت عليكِ مآذن ومنابرٌ ... وبكت عليكِ ممالك ونَوَاحَ

الهند وآلهةٌ ومصر حزينةٌ | تبكي عليك بمدمع سحّاح
والشام تسأل والعراق وفارسٌ | أمَحَا من الأرض الخلافةَ ماحِ؟
وأتت لك الجمع الجلائل مأتَمًا | فقعدن فيه مقاعد الأنواح

ويصف الخلافة بأنها كانت ملاءة الفخر الموشاة بمواهب الفتاح، واسم الله الفتاح وإن كان من الراجح أن القافية هي التي اختارته ولكنه في الواقع ـ من الناحية الفنية ـ يعبر عن حسرة شوقي على أيام الفتوحات العظيمة التي كانت تكلل هامات المسلمين في عهود وحدتهم واجتماع شملهم. ثم يصف الخلافة بأنها كانت خير قلادة تزدهي بها الأعناق وخير وشاح تتدثر به الأعطاف وأنها الحسب الرفيع الذي تحدى الليالي وأحداثها ثم يقول عنها:

وعلاقة فُصِمَت عرى أسبابها | كانت أبَرَّ علائق الأرواح
نظمت صفوف المسلمين وخطوهم | في كل غَدوة جُمعة ورَواح

ثم يدعو المسلمين إلى أن يؤدوا النصيحة للغازي الذي فصم عرى الخلافة ولا يكتفي بذلك بل يقف موقف التحدي وينذر نفسه للذود عن الخلافة وهو يعرف التضحيات التي تجابهه:

من قائل للمسلمين مقالة | لم يوحها غير النصيحة واح
عهد الخلافة في أول ذائد | عن حوضها بيراعه ـ نضاح

وليس ذلك إلا لشيء واحد هو:

حب لذات الله كان ولم يزل | وهوى لذات الحق والإصلاح
إني أنا المصباح لست بضائعٍ | حتى أكون فراشة المصباح

وهو خلق عرفناه في شوقي من قبل حين قال:

زهدت الذي في راحتيك وشاقني | جوائز عند الله مبتغيات

وقال:

لم ألتمس عرض الحياة وإنما | أقرضته في الله والمختار

ثم عاد فأكده من جديد بقوله:

شَقِيتُ بالشعر في ناسٍ أعوذ بهم ... من أن يقول الأعادي شاعر الهَمَل
وَضِعْتُ بالحكمة الغراء في زمن ... كما يضيع شعاع الشمس في الوحَل

ونعود إلى ما كنا بصدده من دفع تهمة الانحراف عن شوقي وتاكيد إيمانه بوحدة المسلمين في كافة أصقاع العالم الإسلامي ولإيمانه بالروابط الإسلامية الوثقى التي تجمعهم فنقول: إن شوقي قبل أن يزفر زفرته الحرَّى في بكاء الخلافة واستعداء المسلمين على الفئة التي مزقتها حاول أن يبقي على هذه الروابط التي تجمعهم كجزء من العالم الإسلامي وخاصة حين فسر تأييده للحركة الانقلابية تفسيرًا مغايرًا للحقيقة وشوهت الاتجاهات الإسلامية العريقة في قصيدته الأولى بالرغم من وضوح هذه الاتجاهات وتأكيده عليها وتمسكه بها ـ كما لاحظنا خلال استعراضنا السريع لها. أقول: لم يسع شوقي بعد ذلك إلا أن يحيي الحركة من جديد في قصيدته «تكليل أنقرة» ليؤكد اتجاهاته السابقة، وليحاول أن يعيد رجال الحركة إلى الجماعة الإسلامية بأية صورة من الصور:

فُضِّي نيوب الليث ثم خذى به ... في أي ثوبيه به جاؤوك
لا فرق بين مسلط متتوج ... ومسلط في غير ثوب مليك
إني أرى الشورى التي اعتصموا بها ... هي حبل ربك أو زمام نبيك

ويخاطب الدولة الجديدة بقوله:

بيني وبينك ملة وكتابها ... والشرق ينميني كما ينميك
قد ظنني الملاحي نطقت عن الهوى ... وركبت متن الجهل إذ أطريك
لم ينقذ الإسلام أو يرفع له ... رأسًا سوى النفر الألى رفعوك

ويقول للخلافة التي أذنت شمسها بدلوك ـ حسب تعبيره:

يا جذوة التوحيد هل لك مطفئ ... والله جل جلاله مذكيك
خلت القرون وأنت حرب ممالك ... لم يغف ضدُّك أو ينم شانيك

يرميك بالأمم الزمان.. وتارة ... بالفرد واستبداده يرميك
عودي إلى ما كنت في فجر الهدى ... عُمَر يسوسك والعتيق يليك

ويؤكد الوحدة الإسلامية ويتحدث عن بعض مقوماتها في قصيدته «تحية الترك» فيقول:

هبوا بكم وبنا للمجد في زمن ... من لم يكن فيه ذئب كان في الغنم
فنحن إن بَعُدَت دارٌ وإن قَرُبَت ... جاران في الضاد أو في البيت والحرم
ناهيك بالسبب الشرقي من نسب ... وحبذا سبب الإسلام من رحم

ويشير إلى اتحاد العالم المسيحي ضد المسلمين ويدعو إلى جمع الكلمة تحت راية العروبة أو اللغة العربية باعتبارها رمزًا للوحدة، وذلك بعد استعمالهم الحروف اللاتينية فيقول:

شَمل اللغات لدى الأقوام ملتئم ... والضاد فينا بشمل غير ملتئم
فقربوا بيننا فيها وبينكمُ ... فإنها أوثق الأسباب والذمم
وكلنا إن أخذنا بالفلاح يد ... وسعينا قدم فيه إلى قدم

أما قصيدته «الأندلس الجديدة» التي وعدتكم بالحديث عنها فهي صرخة انطلقت من مكامن نفسه بعد سقوط (أدرنة) من قبضة المسلمين ولنستمع إليه في هذه الصرخة الباكية، ونرى كيف ارتبطت صورتها بصورة الأندلس؛ الفردوس الإسلامي المفقود:

يا أخت أندلس عليك سلام ... هوت الخلافة عنك والإسلام
نزل الهلال عن السماء.. فليتها ... طُويت.. وعَمَّ العالمين ظلام
أزرى به وأزاله عن أَوْجِه ... قدر يحط البدر وهو تمام
جرحان تمضي الأمّتان عليهما ... هذا يسيل وذاك لا يَلْتَام
بِكما أصيب المسلمون وفيكما ... دُفِن اليَراع.. وغُيِّب الصمصام

ويعصف به الألم فيهتف في أسى وحرقة:

لم يُطْو مأتَمُها.. وهذا مأتم لبسوا السواد عليك فيه وقاموا
ما بين مصرعها ومصرعك انقضت فيما نحبُّ ونكره الأيام
خلت القرون كليلة وتصرمت دول الفتوح.. كأنها أحلام

وتغلب عليه روح الحكمة - التي فاض بها شعره - فيحمّلنا وِزرَ ما حدث لإهمالنا وتقصيرنا فيقول:

والدهر لا يألو الممالك منذرًا فإذا غفلن فما عليه ملام

ثم يلتفت إلى وشائج القربى والرحم التي تجمع بين مقدونيا وبين المسلمين ولا ينسى في الوقت نفسه أن يؤكد على نوع هذه الوشائج، حتى لا يترك للأقلام المشبوهة أية فرصة للغمز أو اللمز:

مقدونيا.. والمسلمون عشيرة كيف الخؤولة فيك والأعمام
أترينهم هانوا.. وكان بعزهم وعلوهم.. يتخايل الإسلام
إذ أنت ناب الليث.. كل كتيبة طلعت عليك.. فريسة وطعام

وتغلبه الحسرة والكآبة من جديد فيفيض أسى:

ما زالت الأيام.. حتى بُدِّلَت وتغيَّر الساقي.. وحال الجام

فاسمحوا لي أيها الإخوة أن أنقل لكم هذه الصورة الباكية من صور المأساة التي حدثت هناك فما أشبهها بالصور الأليمة التي يعيشها اليوم في فلسطين إخوتنا وأبناء عمومتنا:

كم مرضع في حجر نعمته غدا وله على حد السيوف فطام
وصبيّة هُتِكت خميلة طهرها وتناثرت عن نوره الأكمام
وأخي ثمانين استبيح وقاره لم يُغْنِ عنه الضعف والأعوام
وجريح حرب ظامئ وَأَدوه لم يعطفهمُ جرحُ دَمٍ وأوام
ومهاجرين تنكرت أوطانهم ضلوا السبيل من الذهول وهاموا

السيف إن ركبوا الفرار سبيلهم ... والنطع إن طلبوا القرار مقام
يتلفتون مودعين ديارهم ... واللحظ ماء والديار ضرام

ثم يقول لهم في سياق الأبيات التي رسم لهم فيها طريق العودة:

وقف الزمان بكم كموقف طارق ... اليأس خَلْفٌ والرجاء أمام
الصبر والإقدام فيه.. إذا هُما ... قُتِلا.. فأقْتَلُ منهما الإحجام
يُحصي الذليل مدى مطالبه ولا ... يحصي مدى المستقبل المقدام
هذي البقية لو حرصتم دولة ... صال الرشيد بها وطال هشام
قسم الأئمة والخلائف قبلكم ... في الأرض لم تعدل به الأقسام
سرت النبوة في طهور فضائه ... ومشى عليه الوحي والإلهام
وتدفق النهران فيه وازهرت ... بغداد تحت ظلاله والشام

وما أروع شوقي وأعظمه وهو يقول ـ وكأنما هو يخاطب الجيوش العربية المسلمة المظفرة التي خاضت بشرف وبطولة وإباء معارك العاشر من رمضان المبارك:

شرفًا أدرنة.. هكذا يقف الحمى ... للغاصبين.. وتثبت الأقدام
وترد بالدم.. بقعة أخذت به ... ويموت دون عرينه الضِّرغام
والمُلْكُ يؤخذ أو يرد ولم يزل ... يَرِثُ الحُسامَ على البلاد حُسَامُ

وأستأذنكم في أن أعرض عليكم أبياتًا أخرى من هذه القصيدة، فهي في الواقع إحدى الملاحم الكبرى في تاريخ الشعر العربي ـ إن لم تكن أعظمها على الإطلاق ـ ولولا خوف الإطالة لقرأتها عليكم بأكملها.. ولكني أستأذنكم، في هذه الأبيات:

في ذمة التاريخ خمسة أشهر ... طالت عليك.. فكل يوم عام
السيف عار والوباء مسلط ... والسيل خوف والثلوج ركام
والجوع فتاك.. وفيك صحابة ... لو لم يجوعوا في الجهاد.. لصاموا!

ضنوا بعرضك أن يباع ويشترى عرض الحرائر ليس فيه سوام!

★★★

ضاق الحصار.. كأنما حلقاته فلك، ومقذوفاتها أجرام
ورمى العدى.. ورميتهم بجهنم مما يصب الله لا الأقوام

إني لا أزال أتساءل ماذا كان سيقول شوقي لو شهد مأساتنا في القدس؟ القدس التي قال عنها:

إنما القدس منزل الوحي مغنى كل حبر من الأوائل عالم
كنفت بالغيوب.. فالأرض إسراء مدى الدهر والسماء طلاسم
وتحلت من البراق بطغراء ومن حافر البراق بخاتم

وقال عن بيت المقدس، رد الله غربته وأعاد إليه أهله وأبناءه:

بيت على أرض الهدى وسمائه الحق حائطه وأسُّ بنائه
الفتح من أعلامه والطهر من أوصافه والقدس من أسمائه
تحنو مواكبه على شِعب الهدى وتطل سدته على سينائه
من ذا ينازعنا مقالد بابه وجلال سدته وطهر فنائه
ومحمد صلى على جنباته واستقبل السمحات في أرجائه؟

ويذكرنا بيت شوقي:

والدهر لا يألو الممالك منذرًا فإذا غفلن فما عليه ملام

وأبياته التي دعا فيها النافرين إلى العودة للوحدة الإسلامية قبل أن تدور عليهم الدوائر:

أيها النافرون عودوا إلينا وَلِجُوا الباب إنه الإسلام
غرض انتمو.. وفي الدهر سهم يوم لا تدفع السهام السهام
نمتموا.. ثم تطلبون المعالي والمعالي على النيام.. حرام
شر عيش الجرال ما كان حلما قد تسيغ المنية الأحلام

ويبيت الزمان أندلسيا ثم يضحى.. وناسه أعجام

وشوقي - يرحمه الله - كان عجبًا بين الشعراء بحاسته المرهفة وحدسه الدقيق وخواطره الملهمة.. فله إلى جانب هذه الأبيات، أبيات أخرى عن الشيخ عبدالعزيز جاويش - أحد كبار رجال - الدعوة الإسلامية - أشعر كلما قرأتها، بأن شوقيًا - طيب الله ثراه - أتى بها على هذا النسق لأنه كان يستشف من خلالها حجب الغيب وأن راية الدعوة سينطلق بها من مهابط الوحي إلى غاياتها إمام من كبار أئمة الهدى والإصلاح في التاريخ الإسلامي هو جلالة الإمام فيصل بن عبدالعزيز - وفقه الله - فجاءت قصيدة شوقي على هذا النسق العجيب:

يقولون: ما لأبي ناصر وللترك؟ ما شأنه والهنود؟

وفيم تحمَّل هَمَّ القريب من المسلمين.. وهَمَّ البعيد؟

فقلت: وما ضَرَّكم أن يكون من المسلمين.. إمام رشيد

أتستكثرون لهم واحدا وليَّ القديم.. نصير الجديد؟

سعى ليؤلف بين القلوب فلم يَغدُ هَديَ الكتاب المجيد؟

يشد عرى الدين.. في داره ويدعو إلى الله أهلَ الجحود

وللقوم حتى وراء القفار دعاة تغني ورسل تشيد

وجملة: «يشد عرى الدين في داره».. عجيبة فعلا.. لأنها أكثر انطباقا على جلالة الفيصل المفدى منها على أية داعية آخر في أي بلد إسلامي، أما بيته الأخير فيشير إلى نشاط حركات التبشير وتغلغلها في كل مكان.. ويختتم شوقي مقطوعته هذه بقوله:

فلا تنس أمس وآلاءه ألا إن أمس أساس الوجود

ومن طلب الخُلقَ من كنزه فإن العقيدة كنز عتيد

أيها الإخوة الأفاضل:

لا يزال لَدَيَّ الكثير من شعر الوحدة الإسلامية عند شوقي ونحن لم نصل بعد إلى مقومات الوحدة في شعره.. لذلك أجدني مضطرًّا إلى أن أنتقل إلى الفقرة الثانية من فقرات البحث وهي الأسس التي يرتكز عليها صرح الوحدة الإسلامية والدعائم التي يقوم عليها الصرح الشامخ في شعر شوقي رغم غزارة المادة التي بين يدي من شعره الإسلامي.. فوقت المحاضرة محدود والحديث عن الأسس والدعائم طويل ومتشعب ولكنني مع ذلك أرى من اللازم على أن أختم هذا الجزء من المحاضرة بنقطتين:

الأولى:

الإشارة إلى اعتزاز شوقي بالتاريخ العربي الإسلامي فهو - في رأيه وفي رأي الواقع - أجدر بالإشارة والتنويه من كل ما عرفت البشرية من ألوان الحضارة والثقافة في تاريخها الطويل.. وحسبنا هنا أن نستمع إلى الأبيات التي وردت في قصيدته: «نهج البردة»:

دع عنك روما وأثينا وما حوتا ... كل اليواقيت في بغداد والتوم
وخل كسرى وإيوانا يدل به ... هوى على أثر النيران والأيم
واترك رعمسيس إن الملك مظهره ... في نهضة العدل لا في نهضة الهرم
دار الشرائع روما كلما ذكرت ... دار السلام لها.. ألقت يد السلم
ما ضارعتها بيانًا عند ملتأم ... ولا حكتها قضاء عند مختصم
ولا احتوت في طراز من قياصرها ... على رشيد ومأمون ومعتصم

أما النقطة الثانية:

فهي إيجاز العناصر التي ترتكز عليها الوحدة الإسلامية في شعره وقد أوجزها هو نفسه في هذه الأبيات:

أمم من الإسلام يجمع بيننا ... ماض.. وأحداث خلون كبار
وحضارة الفصحى وروح بيانها ... وقريش العالون والأنصار

وحـــوادث تجري لـــغـــايـــتـــهـــا غـــدا ولـــكـــل جـــار غـــايـــة.. وقـــرار

وبعبارة أخرى هي:

١ ـ الدين الواحد.

٢ ـ التاريخ المشترك.

٣ ـ الثقافة المشتركة المرتكزة على اللغة العربية.

٤ ـ المصير المشترك.

أنتقل بعد ذلك من الحديث عن الأسس التي يرتكز عليها ـ صرح الوحدة الإسلامية ـ إلى الحديث عن الدعائم التي يقوم عليها هذا الصرح الشامخ.. وأولى هذه الدعائم القيادة الرشيدة:

مـا الـسـفـن في عـدد الحـصـا بـنـوافـع حـــتـــى يـــهـــز لـــواءهـــا مـــقـــدام

والمقدام مجرد رمز للقيادة الرشيدة، لأن شوقي ـ بجانب إشادته بالبطولة العسكرية ـ يمجد بطولة الفكر والبيان وبطولة الأخلاق المتينة:

إن الـــشـــجـــاع هـــو الجـبـان عـــن الأذى وأرى الجريء عـــلى الـــشرور جـــبـــانـــا

وهو لذلك يشيد بالنوابغ ويعجب بالنبوغ.. ونسمعه يهتف بحماسة:

أرأيـت الخـــــيـــــر وافـــــى أمـــــة لم يـنـالـوا حـظـهـم مـن الـنـابـغـين؟

يـــصـــلـــح المـــلـــك عـــلى طـــائـــفـــة هـــم جمال الأرض حـــيـــنـــا بـــعـــد حـــين

مـــلأو ا الـــدنـــيـــا عـــلى قِـــلَّـــتـــهـــم وقـــديـــمـــا مـــلـــئـــت بـــالمـــرســـلـــين

وليس ذلك إلا لأنهم ـ في رأيه ـ مصابيح البشرية التي تضيء لها طريق المجد والخلود والرفعة والقدوة الصالحة التي ينهج على منوالها السائرون:

قـــد أقـــامـــوا قـــدوة صـــالحـــــة ومـــضـــوا أمـــثـــلـــة للمـــحـــتـــذيـــن

ويؤكد هذا المعنى مرة أخرى بقوله:

والمـــجـــد في الـــدنـــيـــا لأول مُـــبْـــتَـــنٍ ولـــن يـــشـــيِّد بـــعـــده فـــيـــطـــيـــل

لولا نفوسٌ زلن في سبل العلا ... لم يهد فيها السالكين دليل

بل إن شوقي - يرحمه الله - كان يرى أن المديح أو الرثاء للنوابغ وسيلة من وسائل استعراض الأنموذج أو القدوة الصالحة للآخرين حتى يتبين لهم المنهج الذي يسلكونه، ولعل هذا الدافع كان من أقوى الدوافع التي كانت تحمله على المديح والرثاء، لأننا لاحظنا في مئات الأبيات التي نظمها في هذين الموضوعين إشادة بأخلاق الزعماء ومواقفهم من شعوبهم وتاريخهم وحثًّا على القيام بالمسؤوليات التي يضطلعون بها تجاههم، ومطالبة - تصريحًا أو تلميحًا - بالتمسك بالشورى.. وهو لذلك يقول:

رب مدح أذاع في الناس فضلا ... وأتاهم بقدوة ومثال

ويقول:

وللناس في الماضي بصائر يهتدي ... عليهن غاو أو يسير رشيد

إذا المرء لم يكرم بأرض ثناؤه ... تحير فيها الحي كيف يسود

ولكنه مع ذلك لم يعدم الأقلام المشبوهة التي تغمزه أو تعرض به، حتى في القصائد التي نظمها في رثاء الموتى من رجال القلم أو السيف فصرخ من أعماق نفسه الكليمة:

يقولون يرثي الراحلين.. فويحهم ... أمَّلت عند الراحلين الجوازيا؟

أبَوْا حسدًا أن أجعل الحي أسوة ... لهم ومثالًا قد يصادف حاذيًا

فلما رثيتُ الميْت أقضي حقوقه ... وجدتُ حسودًا للرُّفات وشانيًا

وهو لذلك يقول في قصيدة نظمها في مدح الخديوي.

وأحق الأقوام بالعز قوم ... يقدرون الأمور والأقدارا

ورجال إذا سعوا للمعالي ... ركبوا في سبيلها الأخطارا

لا يبالون بالحوادث ربحًا ... حطّت في بطونها أم خسارا

جمعوا المجد والمفاخر طُرًّا ... وجمعنا صغائرًا وصَغارا

إنما يبلغ الذي بلغوه ... من حذا الحذو واقتفى الآثارا
وسما للعلا سُمُوَّ أبِيٍّ ... يأنف الهون منزلا.. وقرارا
وإذا ما العزيز ساس بلاداً ... علم المجد أهلها والفخارا

والدعامة الثانية: التربية الإسلامية السليمة.

ولشوقي مئات الأبيات التي يحث فيها على الأخذ بتعاليم الدين الحنيف منها قصيدة طويلة وجهها إلى ولي العهد بمناسبة ميلاده نشرت في الصفحة الثانية والثلاثين من الجزء الرابع من الشوقيات تصلح وحدها دستورًا للحياة المثلى ـ من وجهة نظر الشريعة الإسلامية ـ يقول فيها:

ويا جيل الأمير إذا نشأتا ... وشاء الجد أن تعطي وشئتا
فخذ سبلًا إلى العلياء شتى ... وخل دليلك الدين القويما

ولكنني أكتفي هنا بهذه الأبيات من قصيدة أخرى:

إن الأبوة عبء ... ينوء بالحاملينا
من العناية طورا ... إلى الرعاية حينا
رَبَّوه بالله فيما ... يشرف المسلمينا
وخرَّجوه عليما ... وأنشوه مبينا
وقوَّموه كريما ... على الزمان معينا

والإشادة بالأخلاق الكريمة التي عرفت في شعر شوقي وذهبت بعض أبياته فيها مذهب الأمثال تعتبر من مقومات هذه الدعامة، وكلنا نعرف بيته المشهور:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولكنني مع ذلك أستمحيكم العذر في هذه الأبيات من قصيدته عن العلم والتعليم وواجب المعلّم فهي تجمع بين التربية القويمة والقدوة الحسنة:

رَبُّوا على الإنصاف فتيان الحما ... تجدوهموا كهف الحقوق كهولًا

فهو الذي يبني الطباع قويمة ... وهو الذي يبني النفوس عدولًا
ويقيم منطق كل أعوج منطق ... ويريه رأيا في الأمور أصيلًا
وإذا المعلِّم لم يكن عدلًا مشى ... روح العدالة في الشباب ضئيلًا
وإذا المعلِّم ساء لحظ بصيرة ... جاءت على يده البصائر حُولًا
وإذا أتى الإرشاد من سبب الهوى ... ومن الغرور فسمِّه التضليلًا
وإذا أصيب القوم في أخلاقهم ... فاقم عليهم ماتمًا وعويلًا

والحديث عن المعلّم والتعليم يسوقنا إلى الدعامة الثالثة وهي العلم وما أكثر ما تحدث عنه شوقي وأشاد به وبحاملي رسالته وحسبنا مطلع هذه القصيدة:

قم للمعلم وفِّه التبجيلا ... كاد المعلم أن يكون رسولًا
أعلمت أشرف أو أجل من الذي ... يبني وينشئ انفسًا وعقولًا
سبحانك اللهم خير معلم ... علمت بالقلم القرون الأولى
أخرجتَ هذا العقل من ظلماته ... وهديته النور المبين سبيلا
وطبعته بيد المعلم تارة ... صدئ الحديد وتارة مصقولا

والعلم ـ كما يرى شوقي ـ ليس وقفًا على البنين وحدهم، فرسالة الأمهات وضخامتها تتطلب أن تيسر لهن سبل العلم والثقافة بتنشئتها الأجيال الجديدة النشأة السليمة ولذلك يقول للمعلمين:

إني لأعذركم وأحسب عِبْأكُم ... من بين أعباء الرجال ثقيلا
وجد المساعد غيركم وحُرِمتمُ ... في مصر عون الأمهات جليلًا
وإذا النساء نشأن في أمية ... رضع الرجال جهالة وخمولا

ثم يقفز قفزة فكرية وفنية رفيعة فيقول:

ليس اليتيم من انتهى أبواه من ... هَمِّ الحياة وخلَّفاه ذليلًا
فأصاب بالدنيا الحكيمة منهما ... وبحسن تربية الزمان بديلًا
إن اليتيم هو الذي تلقى له ... أُمًّا تخلّت أو أبًا مشغولًا

وهو الذي يقول في قصيدته «مصر تجدد مجدها» عن مكانة الأمهات في التاريخ الإسلامي:

وهـذا مقـام الأمهـات فهـل قـدرت الأمهـات؟
لا تلـغ فيـه ولا تقـل غيـر الفواصـل محكمات
وإذا خطبـت فـلا تكـن خطبـاً على مصر الفتاة
اذكـر لهـا اليابـان لا أمـم الهوى المتهتكات
مـاذا لقيـت من الحضا رة يـا أخـي الترهات
لم تلـق غيـر الرق مـن عسـر على الشرقي عات
خـذ بالكتـاب وبالحديـث وسيرة السلف الثقات
وارجـع إلى سنن الخليـقة واتّبع نظم الحياة
هـذا رسـول اللـه لم ينقص حقوق المؤمنات
العلـم كـان شريعـة لنسائه المتفقهات
رُضـنَ التجـارة والسيا سة والشؤون الأخريات
ولقـد علـت ببناتـه لجج العلوم الزاخرات
كـانـت سُكَينـة تمـلأ الدنيـا وتهـزأ بالـرواة
روت الحـديـث وفسّـرت آي الكتـاب البينـات
وحضـارة الإسـلام تنـطق عن مكان المسلمات
بغـداد دار العـالمـا ت ومنزل المتأدبات
ودمشـق تحـت أُمَيَّـة أم الجواري النابغات
وريـاض أنـدلـس نميـن الهاتفات الشاعرات

والعلم وحده ليس يكفي فلا بد من أن يتحول إلى عمل وإلى واقع يخدم المجتمع ويرتفع به، وفي ذلك يقول شوقي:

العلـم لا يعلي المراتـب وحـده كما قدّم العمل الرجال وأخرا

والعلم أشبه بالسماء رجاله ... خلطت جهاما في السحاب وممطرا

كما أن المعلم حين يتخلى عن أداء رسالته يفقد شخصيته وبالتالي تتزعزع الحقائق العليا في الوجود:

يا أرض مذ فقد المعلّم نفسه ... بين الشموس وبين شرقك حيلا

أما الدعامة الرابعة فهي استلهام التاريخ والاهتداء به والارتكاز عليه في بناء الحضارة الجديدة، وفي ذلك يقول شوقي:

وانظر إلى الماضي فإن المهتدي ... من يجعل الماضي هدى وزمانا

ويقول:

وللناس في الماضي بصائر يهتدي ... عليهن غاوٍ أو يسير رشيد

ويقول:

وما من أمس للأقوام بد ... وإن ظنوا عن الماضي انقطاعا

بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك فقدم لنا هذه الصورة الرائعة:

مثل القوم نسوا تاريخهم ... كلقيط عَيَّ في الناس انتسابا

أو كمغلوب على ذاكرة ... يشتكي من صلة الماضي انقضابا

وطبيعي - وشوقي شاعر الإسلام - أن يركز على التاريخ الإسلامي في استنهاض الهمم وإثارة المشاعر وأن يربطه بالتعاليم الإسلامية القويمة:

سيل الممالك جارف من شدة ... وقوى وأنتم في الطريق نيام

حب السيادة في شمائل دينكم ... والجد روح منه والإقدام

والعلم من آياته الكبرى إذا ... رجعت إلى آياته الأقوام

لو تُقرِئون صغاركم تاريخه ... عرف البنون المجد كيف يرام

ولا يعني ذلك بالطبع - التقوقع داخل هذا التاريخ وانتظار النصر فلا بد من الحركة المستمرة والعمل الدائب:

من عادة الإسلام يرفع عاملا ... ويُسوِّد المقدام والفعَّالا
ظلمته السنة تؤاخذه بكم ... وظلمتموه مفرطين كسالى

ولا بد من الأخذ بأسباب القوة وهي الدعامة الخامسة من دعائم الصرح الشامخ:

والدين ليس برافع مُلكًا إذا ... لم يبن للدنيا عليه نظام
والحق ليس وإن علا بمؤيَّد ... حتى يحوّط جانبيه حسام
خط النبي براحتيه خندقا ... ومشى يحيط به قنًا وسهام

ولا بد لها أن تستند على أحدث ما وصل إليه العلم:

وكل بنيان قوم لا يقوم على ... دعائم العصر من ركنيه منصدع

وأولى هذه الدعائم الصناعة التي تقوم على الاكتفاء الذاتي الناتج عن دراسة التكنولوجيا والعلوم الجديدة دراسة متعمقة واسعة:

لا تفتننك حضارة مجلوبة ... لم يُبْنَ حائطُها بمالِكَ واليد
لو مال عنك شراعها وبخارها ... لم يبق غير الصيد والمتصيد
إني حذرت عليك من أمّيّة ... ربضت كجنح الغيهب المتلبد

وشوقي - يرحمه الله - يعرف قيمة الغطاء الجوي وأثره في تحديد موازين المعركة:

يا سلاح العصر بشرنا به ... كل عصر بِكَمِيٍّ وسلاح
إن عزًّا لم يظلّل في غد ... بجناحيك ذليل مستباح
فتكاثر وتألف فيلقا ... تعصم السلم وتعلو للكفاح

ويقول في قصيدة أخرى:

نسخت بأبطال السماء بطولة ... في الأرض يوشك ركنها ينهار
هذا زمان لا الأعنة منزل ... للبأس فيه ولا الأسنة دار
ما البأس إلا من جناحي خاطف ... في البر والبحر اسمه الطيار

كما يدعو إلى تعزيز الأساطيل البحرية:

يا معشر الإسلام في أسطولكم عزٌّ لكم ووقاية وسلام
جودوا عليه بمالكم واقضوا له ما توجب الأعلاق والأرحام

ودعامة أخرى من دعائم القوة إن لم تكن أقواها هي الدعامة الاقتصادية:

والملك بالأموال أمنع جانبا وأعز سلطانا وأصدق مظهرا

ولا يفوتني أن أشير هنا ـ وأنا أتحدث عن التكنولوجيا والعلوم الحديثة ـ إلى أبيات شوقي التي يقول فيها:

نحن في صورة الممالك ما لم يصبح العلم والمعلم مِنَّا
لا تنادوا الحصون والسفن.. وادعوا العلـ ـم ينشئ لكم حصونا وسُفْنا
إنّ ركب الحضارة اخترق الأر ض.. وشق السماء ريحا ومُزْنَا
وصحبناه كالغبار فلا رحـ ـلًا شددنا ولا ركابا زممنا
دان آباؤنا الزمان مليًّا وملِيًّا لحادث الدهر دِنَّا
كم نباهي بلحد ميت وكم نحـ ـمل من هادم - ولم يَبْنِ - مَنَّا
قد آن أن نقول «نحن» ولا نسـ ـمع أبناءنا يقولون كنا

ونأتي بعد ذلك إلى الدعامة السادسة وهي الثقة:

إذا الثقة اضمحلت بين قوم تمزقت الروابط والصلات
فثق فعسى الذين ارتبت فيهم على الأيام إخوان ثقات

لأن الثقة تدفع إلى التعاون الذي هو الدعامة السابعة:

يا أيها الجيل الذي يبني غدا كن في بنائك حازمًا مقدامًا
واجعل أداتك في البناء محبة وتعاونًا وتآلفا ووئامًا

ويقول:

إن الرجال إذا ما أُلجِئوا لجأوا إلى التعاون فيما جَلَّ أو حَزَبا

ويؤكد هذا المعنى مرة أخرى بقوله:

بـوركـتـمـا مـن صـاحـبـين تـعـاوَنَـا إن الـتـعـاون أُسُّ كُـلٍّ بـنـاء
لـولا الـتـعـاون في الحضـارة لم تـطـر بـعـنـان أرض أو جـنـاح سـمـاء

ثم عاد فأكد من جديد حين قال:

وإذا أراد الله إشـقـاء الـقـرى جـعـل الهداة بها دعـاة شـقـاق
وأرى سـمـوم الـعـالمين كـثـيرة وأرى الـتـعـاون أنـجـع الـتـريـاق

والدعامة الثامنة نستطيع أن نتبينها بوضوح من القصائد الإسلامية - التي استعرضنا القليل منها فيما سبق - وهي غالبًا نتيجة الثقة الكاملة والتعاون المخلص وهذه الدعامة هي الاتحاد:

وكـيـف يـنـال عـونَ الله قـومٌ سُراتُهمُ عـوامـل الانـقـسـام
إذا الأحـلام في قـوم تـولَّـت أتـى الـكـبراءُ أفـعـالَ الـطـغـام

ولذلك يقول شوقي في قصيدته عن صقر قريش - عبدالرحمن الداخل:

حـين في أفـريـقـيـا انـحـل الـوئـام واضـمـحـلـت آيـة الـفـتـح الجلـيل
مـاتـت الأمـة في غـير الـتـئـام وكـثـيـرٌ لـيـس يـلـتـام قـلـيل

ويهتف بنا وبكل المسلمين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي:

المـسـلـمـون الـيوم في حـاجـة إلى ائـتـلاف.. كـائـتـلاف الـصـحـاب
هـبـنـا قـطـيـعًـا هـائـمًـا سـائـمًـا لـو اتحدنـا خـشـيـتـنـا الـذئـاب
في ظـل رايـات إمـام الهدى ولـيـس في عـدل الإمـام ارتـيـاب

وهناك دعامة أخرى لصرحنا الشامخ هي تاسعة الدعائم، التواصي بالحق والتمسك به:

الحق سـهـم لا تَـرِشْـهُ بـبـاطـل مـا كـان سـهـم المـبـطـلـين سـديـدا
والـعَـبْ بـغـير سـلاحـه فـلـربـمـا قـتـل الـرجـال سـلاحـه مـردودا

ويرسم لنا شوقي هذه الصورة الرائعة لغلبة الحق على القوة مهما استبدت وسيطرت واتخذت من وسائل الإرهاب والتدمير:

يا فاتح القدس خل السيف ناحية ... ليس الصليب حديدًا كان بل خشبًا
إذا نظرت إلى أين انتهت يده ... وكيف جاوز في سلطانه القطبا
علمت أن وراء الضعف مقدرة ... وأن للحق لا للقوة الغلبا

لقد قال شوقي هذه الأبيات حينما كانت الصليبية هي التي تحسر عن وجهها البشع وتحاول القضاء على إسلامنا وعروبتنا، ولم تكن مشكلة الصهيونية تشكل أي خطر سافر على كياننا ووجودنا كما هي اليوم، ولكننا نستطيع مع ذلك أن نصفع بهذه الأبيات كل الوجوه البشعة والأيدي القذرة في فلسطين المغتصبة ونقول لهم إن الغلبة للحق لا للقوة.

أيها الإخوة الأعزاء: لا يزال لدينا بعض الدعائم الأخرى: الإخلاص - إتقان العمل - العدل - الصبر - الإقدام والعزيمة - التضحية.. الأهبة والاستعداد - العمل الدائب المستمر، ولكنني أشعر بأنني قد أطلت عليكم أكثر مما ينبغي لذلك أستميحكم العذر وأستأذنكم بأن نعيش معًا بعض الوقت في جزء من قصيدة شوقي: «إلى عرفات» ففي هذه القصيدة تحية عطرة من شوقي لهذه الساحات المباركة المعطرة، وابتهال صادق انطلق من أعماق قلبه في مثل هذه الأيام الكريمة التي عشناها منذ شهرين ولا نزال نستروح شذاها:

لك الدين يا رب الحجيج جمعتهم ... لبيت طهور الساح والعرصات
أرى الناس أصنافًا ومن كل بقعة ... إليك انتهوا من غربة وشتات
تساووا فلا الأنساب فيها تفاوت ... لديك ولا الأقدار.. مختلفات
عنت لك في الترب المقدس جبهة ... يدين لها العاتي من الجبهات
منورة كالبدر، شماء كالسها ... وتخفض في حق وعند صلاة

ثم يخاطب الرسول الأعظم - صلى الله عليه وسلم - فيقول:

شعوبك في شرق البلاد وغربها ... كأصحاب كهف في عميق سبات
بإيمانهم نوران: ذكر وسنة ... فما بالهم في حالك الظلمات

وذلـك مـاضي مجدهـم وفـخـارهـم فـمـا ضرهـم لـو يـعـمـلـون لآتي؟
وهـذا زمـان أرضـه وسـمـاؤه مجال لـمـقـدام كـبـير حـيـاة
مـشى فيه قـوم في الـسـمـاء وأنـشـأوا بـوارج في الأبـراج ممتـنـعـات
فـقـل: رب وفـق للعـظـائـم أمـتـي وزيـن لها الأفـعـال والـعـزمـات

وشكرًا جزيلًا أيها الإخوة.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

شوقي في الخالدين
إمارة الشعر على امتداد
التاريخ الأدبي

شوقي في الخالدين*

الحلقة الأولى

أثار الحديث الثقافي الكبير الذي تم في كرمة ابن هانئ أو في بيت الشاعر العظيم أحمد شوقي وقد قضى فيه جزءًا كبيرًا من حياته وأنتج فيه روائع شعره وأطلق عليه هذا الاسم الشاعري الجميل: «كرمة ابن هانئ».

أثار الحديث الثقافي الكبير الذي تم في أوائل الصيف طائفة من الخواطر في نفسي، وأول هذه الخواطر خاطر حول الشعر أو حول هذا النقاش الذي بدأ منذ فترة حول مستقبل الشعر ولا زال دائرًا حتى الآن. وقد سيطرت نزعة تشاؤمية أو نظرة تشاؤمية - بعبارة أدق - على كثير من الأدباء والنقاد فتنبأوا بمصير مظلم للشعر وبأنه في طريقه إلى الانحدار إلى هاوية سحيقة. وحجتهم في ذلك طغيان المادة في هذا العصر الذي نعيش فيه طغيانا سيطر على النفوس وطغى على كل المشاعر.

وأنا مع القلة المتفائلة من الأدباء والنقاد التي تؤمن بأن الشعر في وجدان الأمة العربية فهو جزءٌ من كيانها خالد خلودها؛ باق في ضميرها إلى أن يأذن الله بانقراض الأرض.

وليس أدل على ذلك التلازم بين بداية تاريخ العرب وبداية الشعر العربي، وإذا كان المؤرخون قد عرفوا البداية التاريخية لهذه الأمة أو ما يدل عليها فإن النقاد ومؤرخي الأدب لم يهتدوا إلى البدايات الأولى لهذا الشعر وأقدم ما وصل إليهم من شعر الجاهلية كان شعرًا ناضجًا محكمًا وليس من المعقول أن يكون هو البداية لأن ذلك يخالف طبيعة الأشياء.

☆ نشرت في جريدة المدينة المنورة عام ١٣٨٦هـ على حلقات في اعداد متتالية.

ولا نريد أن نستمر طويلًا في الحديث عن هذه القضية فذلك أمر يطول شرحه، ولذلك فسننتقل إلى العصر الحديث فنذكر أن سوق الشعر لا زالت رائجة، وقد أتيح لي أن أحضر لقاءات شعرية داخل المملكة وخارجها فراعني هذا الإقبال الكبير على حضور هذه اللقاءات الشعرية بينما لم تحظ المحاضرات والندوات إلا بقسط ضئيل من الإقبال.

وإنني لأذكر أن نادي المدينة الأدبي استضاف أديبًا عربيًّا كبيرًا يعتبر من أقطاب الأدب والتحقيق والتأليف كان في زيارة للمملكة فألقى محاضرة دسمة لم تقابل بالرضا أو الارتياح؛ وقد أدرك ذلك الأستاذ المحاضر فطوى جزءًا من محاضرته، وأثناء إجابته على أسئلة الحاضرين اقترح عليه بعضهم أن يسمعهم شيئًا من شعره، واستجاب الأستاذ المحاضر - مشكورًا - وحدثت المفاجأة وإذا بالحاضرين يعجبون بالشعر وكل ما انتهى من قصيدة ألحُّوا عليه أن يعيدها أو أن يسمعهم غيرها وتحولت المحاضرة العلمية الدسمة إلى أمسية شعرية ناجحة إلى أبعد حدود النجاح تركت في نفوس المستمعين انطباعًا جماليًّا ومؤثرًا، حتى أن بعض الذين خرجوا أثناء المحاضرة ندموا أشد الندم على خروجهم الذي حرمهم من الاستماع إلى ما أنشد المحاضر من شعر رفيع، ومنذ شهور قلائل كان[1] يزور بلادنا الأديب الشاعر الدكتور عبده بدوي وفي لقاء معه بنادي المدينة المنورة الأدبي جرى الحديث عن مجلة الشعر التي يرأس تحريرها.

وقال إنه وجد صعوبة في إقناع الجهات المسؤولة بأهمية صدور مجلة خاصة بالشعر ووجد صعوبة في إقناعها مرة أخرى بطبع الكمية مرة أخرى بالكمية التي اقترحها فقد كانت الفكرة المسيطرة هي عزوف الناس عن الشعر وبالتالي فإن صدور مجلة لا تعنى إلا بشؤون الشعر سوف يقابل بعزوف أكبر، وصدرت المجلة وكانت المفاجأة

(١) كان اللقاء وزيارة النادي بتاريخ ١٣٩٧/٢/٢٥هـ

غير المنتظرة فقد تقبلها القراء بأحسن القبول ولاقت ترحيبًا منقطع النظير وانهالت الطلبات على المجلة تسأل عن الأعداد السابقة.

وفي غمرة الفرحة التي عمت جميع أبناء هذه المملكة الوفية بعودة والد الشعب جلالة الملك خالد بن عبدالعزيز من رحلته الاستشفائية دعا نادي المدينة المنورة الأدبي الشعراء إلى المشاركة في المهرجان الشعري الذي يعتزم إقامته بهذه المناسبة وتقدم ثلاثون شاعرًا شاركوا جميعًا في هذا المهرجان الذي يعتبر بحق من معالم نهضتنا الفكرية في هذا العصر السعيد[(١)].

وكل هذه الدلائل التي قدمناها تؤكد أن الشعر الذي صاحب أمتنا العربية منذ بداية تاريخها حتى اليوم سيظل مصاحبًا لها ما بقيت الحياة والأحياء، وأن الذين يرون غير ذلك مغرقون في التشاؤم وأخيرًا يأتي هذا الاحتفال الكبير بإحياء تراث شوقي وتخليد ذكراه بافتتاح متحفه وصالونه الأدبي في بيته في كرمة أم هانئ.

ويأتي بعد ذلك خاطر آخر يتصل بشوقي نفسه فقد تعرض الشاعر العظيم لهجوم قاسٍ، وحملات ظالمة من طائفة من الأدباء والكتاب تولى كبرها عباس محمود العقاد، وإبراهيم عبدالقادر المازني[(٢)]، وقد اختلفت الدوافع إليها فبعضها كان الدافع إليها سياسيًّا، وبعضها كان الدافع إليها شخصيا فقد كان شوقي قمة عالية، وقد رأى بعض الكتاب من معاصريه أن محاولة تسلق هذه القمة ولو عن طريق خدشها وتجريحها وقذفها بالحجارة خير وسيلة لاقتناص الشهرة والوصول إلى الهدف المأمول.

---

(١) اقيم هذا المهرجان الشعري الكبير بالنادي في مساء يوم الاثنين الموافق ١٣٩٧/٥/١٤هـ وشارك في هذ المهرجان شعراء من مصر، والسودان، وسوريا، وفلسطين بجانب الشعراء السعوديين، وكان للشيخ سعد الناصر وكيل إمارة المدينة المنورة وقتئذ كلمة في هذا الحفل.

(٢) في كتاب الديوان لمؤلفيه عباس محمود العقاد، إبراهيم عبدالقادر المازني في نقد شعراء الطليعة وهم شوقي، وحافظ، وعبدالرحمن شكري، وتلمس مبلغ آثار التحامل، ومدى ظلم هذين الناقدين اللذين جردوا الشعراء الثلاثة من كل حسنه، وللتوسع ارجع إلى مصطفى عبداللطيف السحرتي. في كتاب الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ط٢ في ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م مطبوعات تهامة.

وبعضها كان الدافع إليها دينيًا فقد عز على بعض العناصر الصليبية والملحدة أن يتغنى هذا الشاعر العظيم بالإسلام وأن يدعو للوحدة الإسلامية وأن يحارب الأفكار القومية التي تقوم على الجنس والعرق فشنوا عليه هجومًا عنيفًا واتهموه في وطنيته وعروبته ودعوا إلى حرق شعره وكتبه ودواوينه.

وقد تأثر كثير من الشباب في تلك الأيام ـ وكنت منهم مع الأسف الشديد ـ بتلك الحملات الظالمة فانصرفنا عن شوقي وشعره لأنه شعر تافه واتجهنا إلى حافظ وشعره وحفظنا منه الكثير وتصورنا أنه الشاعر السابق المتقدم.

ومما يذكر في هذا المجال أن حافظًا كان يتميز عن شوقي بميزتين؛ حفظه لشعره، وقدرته الفائقة على الخطابة وتأثيره على السامعين وسيطرته على المشاعر.

وكان شوقي يخالفه في ذلك كل المخالفة فهو لا يحفظ شعره ولا يستطيع أن يقف أمام الجماهير لإلقاء هذا الشعر.

وقد استغل خصوم شوقي ذلك أسوأ استغلال وكسبوا لحافظ من جراء ذلك جماهير لا يستهان بها.

ولم تَنْجَلِ الحقيقة لي وتزول عن عيني إلا بعد وقت طويل، ولسبب بسيط فبعد عودتي من دراستي الجامعية خارج المملكة بأيام وكنت في زيارة لمكة اتصل بي صديق يعمل محررًا في جريدة البلاد السعودية وطلب إلى أن أجيب على سؤال عن شوقي وصله من أحد الطلاب. وعكفت ليلتين على شعر شوقي لأكتشف بعد ذلك أنني أمام عملاق من عمالقة الشعر، ولأكتشف كذلك الوهم الكبير الذي عشت فيه سنوات وسنوات ولأعرف المعنى الدقيق لعبارات الأديب البليغ الأستاذ حسن الزيات التي قالها عن شوقي ونشرها في «مجلة الرسالة» ثم في كتاب «وحي الرسالة»، يقول الزيات: «اجتمع رأي المعاصرين ما عدا الشعراء على أن شوقي ـ طيب الله ذكره ـ كان تعويضًا عادلًا عن عشرة قرون خلت من تاريخ العرب لم يظهر فيها شاعر موهوب يصل ما انقطع من وحي الشعر ويجدد ما اندرس من فهم الأدب.

وأجمعوا على أن فقده كان فقدًا للوجدان الفني في الشعب الذي علمه كيف يتذوق الأدب ويستسيغ الشعر وينضح عواطفه الجافة بفيض هذه القريحة النابضة الثرة، وسيدور الفلك ويدور، ويقصد النقد ويجور، ويتطور الذوق ويسمو، وشعر شوقي ثابت ما ثبت الحق. خالد ما خلد البيان منفردًا ما بقي العرب» ويجرنا هذا الخاطر إلى خاطر جديد يتصل بإمارة الشعر، وكتب داود بركات رئيس تحرير الأهرام في مقال نشره في مجلة «أبوللو»[1] ثم نشر مرة أخرى في كتاب «ذكرى الشاعرين» ـ كتب يقول: «لقد يكون من مفاخر حياتي الصحفية أني لقبت شوقي في سنة ١٨٩٩م على صفحات الأهرام ـ وأنا حديث عهد بتحريرها ـ بأمير الشعر ووصفت قصائده بالشوقيات وكانت الأهرام يومئذ الميدان الوحيد لخياله الراقي. وكان المرحوم صاحبها بشارة نقلا باشا ـ الذي رثاه شوقي بالبيت المشهور الذي ذهب مثلًا:

«رجل مات والرجال قليل» ـ من أكبر المعجبين بشوقي وشعره وبذكائه وحصافته» وإن كان بعض المؤرخين يذهب إلى أن جريدة الأهرام هي التي لقبت شوقي بلقب أمير الشعراء فقد كانت نشرت له قصيدة في ١٨ يناير ١٩٠٨م وحررتها باسم مقرونًا باللقبين وهما شاعر الأمير وأمير الشعراء.

وسواء صح هذا أو ذاك فالشيء الثابت ارتباط اسم شوقي بلقب أمير الشعراء بدأ مع بداية هذا القرن ولكن الأمر الذي لا أزال أجهله ـ مع كثرة ما في مكتبتي من مراجع عن شوقي ـ هو كيف سارت الأمور حتى بلغت مداها بالنسبة لإمارة الشعر حيث بويع بها هذا الشاعر العظيم مبايعة شبه جماعية شارك فيها كثير من الأدباء والشعراء في مصر وفي الأقطار العربية المختلفة.

وكيف بايعه الشاعر المنافس حافظ إبراهيم مبايعة صريحة بقصيدته «العينية» التي يقول فيها:

(١) عدد «أبوللو» ديسمبر ١٩٣٢م انظر بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين مجلد (٣) ص (١٣١٦).

بلابل وادي النيل بالمشرق اسجعي ... بشعر أمير الدولتين ورجِّعي
أعيدي على الأسماع ما غردتْ به ... يراعة شوقي في ابتداء ومقطع
بَرَاها له الباري فلم يُنْبُ سِنُّها ... إذا ما نَبَا العسال في كف أروع
مواقعها في الشرق والشرق مُجدِب ... مواقع صيب الغيث في كل بَلْقَع
لديها وفود اللفظ تنساق خلفها ... وفود المعاني خشعًا عند خشع
إذا رضيت جاءت بأنفاس روضة ... وإن غضبت جاءت بنكباء زعزع
أحن على المكدود من ظل دوحة ... وأحنى على المولود من ثدي مرضع
على سنها رفق يسيل ورحمة ... وروح لمن يأسى وذكرى لمن يعي
تسابق فوق الطرس أفكار ربها ... سباق جياد في مجال مربع
تطير بروق الفكر خلف بروقها ... تناشدها بالله لا تتسرعي
تحاول فوت الفكر لو لم تكفها ... أناملة كف الجموح المروع
ألم تعلموا أنا بِذُخْرَيْ نباغة ... نفاخر أهل الشرق في أي مجمع
نفاخر من (شوقينا) بيراعة ... ونزداد فخرًا من (علي) بمبضع
فذاك شفاء الجسم تدمى جراحه ... وتلك شفاء الواله المتوجع
نمتك ظلال وارفات وأنعم ... ولين عيش في مصيف ومربع
ومن كان في بيت الملوك ثواؤه ... ينشأ على النعمى ويمرح ويرتع
لئن عجبوا أن شاب «شوقي» ولم يزل ... فتى الهوى والقلب جم التمتع
لقد شاب من هول القوافي ووقعها ... وإتيانه بالمعجز المتمنع
كما شَيَّبَتْ هود ذؤابة أحمد ... وشيبت الهيجاء رأس المدرع
يعيبون (شوقي) أن يُرَى غير منشد ... وما ذاك عن عِيٍّ به أو ترفع
وما كان عابًا أن يجيء بمنشد ... لآياته أو أن يجيء بمسمع
فهذا (كليم الله) قد جاء قبله ... (بهارون) ما يأمره بالوحي يصدع
تملكت من مُلْك القريض فسيحه ... فلم تُبقِ يا (شوقي) لنا قيدَ أصبع

فبالله دع للناثرين وسيلة ... تفيء عليهم واتق الله واقنع
عملت على نيل الخلود فنلته ... فقل في مقام الشكر يا رب أوزع
جلا شعره للناس مرآة عصره ... ومرآة عهد الشعر من عهد «تبع»
يجيء لنا آنا (بأحمد) ماثلًا ... وآونة (بالبحتري) المرصع
ويشأو رُقىَ (هوجو) ويأتي نسيبه ... لنا من ليالي (ألفريد) بأربع
وإن خطرت ذكرى الفحول بفارس ... وما خلفوا في القول من كل مشبع
أتانا بروض مزهر من رياضهم ... و(حافظهم) فيه يغني ويرتعي
فقل للذي يبغي مداه منافسا ... طمعت لعمر الله في غير مطمع
فذلك سيف الله سَلّه قاطع ... فأيّان يضرب يَفْرِ درعًا ويقطع
وهل تدفع الدرع المنيعة صارما ... به يضرب المقدار في كف سلفع
نُفيتَ فلم تجزع ولم تك ضارعا ... ومن ترمه الأيام يجزع ويضرع
وأخصبت في المنفى وماكنت مجدبًا ... وفي النفي خِصْبُ العبقري السميذع
أبى الله إلا أن يردك سالما ... ومن يَرْعَهُ يَسلَم ويغنم ويرجع
وعدت فقرّت عين مصر وأصبحت ... رياض القوافي في ربيع موشع
وأدركت ما تبغي وشيّدت آية ... على الشاطئ الغربيّ في خير موقع
يحف بها روض يحيي بدورها ... بكورًا بريا عُرفِه المتضوع
حمى يتهادى النيل تحت ظلاله ... تهاديَ خَوْدٍ في رداء مجزّع
أمير القوافي قد أتيتُ مبايعا ... وهذي وفود الشرق قد بايعت معي
فغنّ ربوع النيل واعطف بنظرة ... على ساكني النهرين واصدح وأبدع
ولا تنس (نجدًا) إنها منبت الهوى ... ومرعى المها من سارحات ورتّع
وحيّ ذُرا (لبنان) واجعل (لتونس) ... نصيبًا من السلوى وقسّم ووزع
ففي الشعر حث الطامحين إلى العلا ... وفي الشعر زهد الناسك المتورع
وفي الشعر ما يغني عن السيف وقعه ... كما روّع الأعداءَ بيتٌ (لأشجَع)

وفي الشعر إحياء النفوس وريها ... وأنت لري النفس أعذب منبع
فنبِّه عقولًا طال عهد رُقادها ... وأفئدة شدت إليها بأنسُع
فقد غمرتها محنة فوق محنة ... وأنت لها يا شاعر الشرق فادفع
وأنت بحمد الله مازلت قادرًا ... على النفع فاستنهض بيانك وانفع
وخذ بزمام القوم وانزع بأهله ... إلى المجد والعلياء أكرم منزع

وهي القصيدة التي تحدث عنها شوقي وأثنى عليها في قصيدته التي رثى بها حافظًا ومطلعها كما هو معروف:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي(١) ... يا منصف الموتى من الأحياء

وقال فيها يشير إلى قصيدة المبايعة:

بالأمس قد حليتني بقصيدة ... غراء تحفظ كاليد البيضاء
غيظ الحسود لها وقمت بشكرها ... وكما علمت مودتي ووفائي
في محفل بشّرت آمالي به ... لما رفعت إلى السماء لوائي

ومع أن أكثر من كتاب قد صدر عن شوقي بعد وفاته ضم كل أو أكثر ما رثى به الشاعر وما كتب عنه من مقالات ودراسات فإنني لم أطّلع على كتاب يحتوي ما قيل في مهرجان يكرم الشاعر، وما كتب عنه من أبحاث ومقالات ربما ألقت الضوء على الظروف التي صاحبت إعلان هذه الإمارة وكيف تجمّع لها هذا العدد العديد من أقطاب الشعر وفرسان الأدب.

وقد علمت أن جريدة السياسة الأسبوعية ـ التي كانت تصدر في تلك الأيام ـ أصدرت عددًا خاصًا بهذه المناسبة ولكن كيف الوصول إليه وقد صدر في عام ١٩٢٧م أي قبل خمسين عامًا. على أن ما صدر من كتب بعد وفاة الشاعر العظيم كان تأكيدًا لهذه الإمارة التي سبق أن قلت عنها في ردي على سؤال ذلك الشاب المكي الذي سبقت

(١) توفي حافظ إبراهيم في يوم الخميس ٢١ من شهر يوليو ١٩٣٢م، أما شوقي فقد توفي في فجر يوم ١٤ من شهر أكتوبر عام ١٩٣٢م الموافق منتصف شهر رجب ١٣٥١هـ.

الإشارة إليه «وستظل إمارة شوقي حدثا فريدا ـ في التاريخ الأدبي كله لم تحدث قبله ولا ينتظر أن تحدث بعده».

ومن الطريف أن اجتماعًا ذا هدف سياسي انعقد بعد وفاة شوقي لمبايعة عباس محمود العقاد بإمارة الشعر وقد شارك في هذه المبايعة طه حسين.

ولسنا بحاجة إلى الحديث عن فشل تلك المبايعة التي تختلف كل الاختلاف عن مبايعة شوقي ، ولا إلى الحديث عن تنصل أولئك الذين دعوا إلى هذه المبايعة ومنهم طه حسين، ولكننا نحب أن نذكر أن عباس محمود العقاد الذي حارب إمارة شوقي حربًا لا هوادة فيها، لم يرفض لقب الإمارة حين وصل إليه بل تقبله بكثير من الرضا والاغتباط، مما يؤكد أن الدوافع وراء تهجمات العقاد على شوقي وإمارة الشعر كانت شخصية وسياسية.

شوقي في الخالدين

الحلقة الثانية

تحدثنا في الحلقة الماضية عن طائفة من الخواطر التي أثارها في نفسي الاحتفال الذي أقيم في كرمة ابن هانئ بمناسبة افتتاح متحف شوقي وصالونه الأدبي. وقد بقيت طائفة من الخواطر نستعرضها في حلقة اليوم ومن هذه الخواطر خاطر يتصل بقصيدة المهرجان التي ألقاها شوقي، أو ألقيت بالنيابة عنه فهو لا يستطيع الإلقاء ولم يسبق له أن ألقى قصيدة بنفسه وقد كان لذلك محاسن ومساوئ، وقد أشرنا إلى بعض ذلك فيما سبق ونضيف اليوم محاسنها: حُفِظَ شعر شوقي لأنه مسجل مكتوب، وبعكس ذلك حدث بالنسبة لشعر حافظ فقد كان من مميزاته أنه يحفظ شعره ويجيد إلقاءه ويعتمد في ذلك على ذاكرته التي تسعفه دائمًا. وقد تسبب ذلك في ضياع طائفة من شعره وقد رأينا التبرير الجميل الذي قدمه حافظ علي قصيدة المبايعة لعدم إلقاء شوقي شعره ودفاعه البارع عنه في هذا المجال.

ونعود إلى قصيدة المهرجـــان ونعني بها القصيدة التي أعدها شوقي بمناسبة أسبوع مهرجان مبايعته في أبريل من عام ١٩٢٧م. فقد ساء شوقي أن يتخلف عن المشاركة في تكريمه قلب الجزيرة العربية وعبر عن ذلك بقوله في قصيدة المهرجان:

يا عكاظًا تألف الشرق فيه ... من فِلسطِينه إلى بغدانه
افتقدنا الحجَاز فيك فلم ... نعثُر على قُسِّه ولا سَحبانه

وقد رد بعض الشعراء على شوقي ولكن بعد فوات الأوان ونذكر بينهم الشاعر الكبير الأستاذ فؤاد شاكر فقد رد بقصيدة[1] قال فيها:

---

(١) عقب الاحتفال مباشرة قدمت هذه القصيدة إلى شوقي ونالت تقديره ونشرت في جريدة «كوكب الشرق» جريدة مصرية - عام ١٣/١٩٢٧م.

يا أمير النهى وربّ بيانه ... هذه روضه وأغصان بانه
أنت رَبّ البيان لا فخر يا شو ... قي وربّ السباق يوم رهانه
من يباريك يا أمير القوافي ... أو يباري النهى وإعلاء شانه
رُبّ شِعر أتيت بالسِّحر فيه ... رقية أو تميمة من بيانه
صغت فيه اليتيم سمطًا نضيدًا ... نسَّقت بينه دراري جمانه

★ ★ ★

إيه شيخ القريض عذرًا وعفوًا ... جئتنا بالبيان في عنفوانه
قد شجاني ما قلت أمس من الد ... ر الذي جل روعة في افتنانه
«يا عكاظًا تألف الشرق فيه ... من فلسطينه إلى بغدانه»
افتقدنا الحجاز فيك فلم ... نعثر على قسه ولا سحبانه»
أنت حملت - دونه هيكل الفصـ ... ـحى وشددت الأساس من بنيانه
إنما العلم في رياضك كَرْم ... طاب عصرًا وأنت رَبّ دِنَانِه

★ ★ ★

يا أمير النهى ورب القوافي ... قم فواسي الحجاز عن أشجانه
أنت لولا أن جئتنا من قديم الشـ ... ـعر بالدر من بحار عمانه
وأعدت «الضليل» يشدو نسيبا ... مصغيا للمديح من حسانه
وبكرت النهى عرائس فجر ... صغتها كالصريم أو كحسانه
ونفحت اللغى بأرواح «هوجو» ... و«شكسبير» رائعًا في افتتانه
لا محى رسم ناطقي الضاد واجـ ... ـتاحهم الدهر في ذيول هوانه

★ ★ ★

يا أمير القريض هذي رجال الـ ... ـشرق ألقت إليك أمر بيانه
سمعوا بلبل الخمائل يشدو ... بين فكّيك في هدي ألحانه

سمعوا عندليبه في ربى النيـ ـل فأشجاهم هدي شيطانه
طرب الشرق منه غنة لحن حرّكت ساكنا ذوى من جنانه
لا تقل في تواضع واتّئاد قولة الأمس وهي من فرقانه!
«وهبوني الحمام لذة سجع أين فضل الحَمَام في تحنانه؟»
«وتر في اللهاة ما للمغنى من يد في صفائه وكيانه»

أما في الاحتفال الأخير فلم يتخلف الحجاز عن الموكب الشعري فقد شارك فيه بقصيدة عصماء شاعر المملكة الكبير صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله الفيصل:

أسدرة المنتهى أم كرمة العنب قد كان شوقي بها صناجة العرب
شدا بها الشعر ألحانًا معطرة لسالف الدهر أو مستقبل الحقب
وكان من قبس الإلهام مقتبسا نورًا يضيء به مُحْلَوْلِك الكُرب
أهدى إلى الشرق من مكنون حكمته جواهره الحكمة الوهاجة اللهب
إني لأحسبه حيًّا فما برحت أنغامه بيننا شوقية النسب
يا رحمة الله حيى قبر صاحبها بالغيث منهمرًا من صَيِّب السحب
يا مصر يا زينة الدنيا وفتنتها ما كنت إلا ملاذ العلم والأدب
النيل يمرح في واديك منعطفا على الخصيب ويروي غير مختصب
والحسن والفن والأغصان وارفة على المرابع من ناء ومقترب
كأنها صورة الفردوس ماثلة لكل مستوطن فيها ومغترب
أم الحضارة والتاريخ من قدم كم سطَّرَت مجدها في رائع الكتب
وكم أقامت حصون المجد شامخة وحطمت من حصون الإفك والحَرَب

★★★

من الجزيرة أهديها مغلغلة إلى الكنانة في تاريخها الذهبي
أودعتها كل أشواقي ومدخري من العواطف والإخلاص والأدب
كأنها من بنات النيل غانية تختال بين مغاني الأنس والطرب

وننتقل بعد ذلك إلى خاطر جديد يتصل بشكل الاحتفال الذي أقيم في كرمة ابن هانئ فقد كان المظنون والمتوقع أن يكون لأولئك الرجال الذين كانوا على صلة بالشاعر العظيم مكان بارز في هذا الاحتفال كالأستاذ الشاعر أحمد رامي، والأستاذ الشاعر حسن كامل الصيرفي، والأستاذ الشاعر سيد إبراهيم وغيرهم، ولكن الأمر وقع على عكس ذلك فلم يكن لهم مكان في هذا الاحتفال العظيم وبالتالي فلم تسمع لهم صوتًا، بل إن الموسيقار محمد عبدالوهاب ـ وتربطه بالشاعر روابط قوية تحدث عنها حديثًا مفصلًا أحد أصدقاء شوقي الأستاذ أحمد محفوظ في كتابه «حياة شوقي»، بل إن عبدالوهاب عرفه في كرمة ابن هانئ كان يلحن فيها الأغنيات التي ينظمها له الشاعر شوقي. نقول: بل إن الموسيقار محمد عبدالوهاب لم يكن له أي دور في هذا الاحتفال مع أن موسيقارًا آخر كان يصاحب بموسيقاه القطعة الشعرية التي ألقيت من شعر شوقي. وكان الأولى بعبدالوهاب أن يكون هو هذا الموسيقار. ونصل بعد هذا إلى الخاطر الأخير نختتم به ما قدمناه من خواطر على الرغم من وجود خواطر أخرى آثرنا أن نتجاوزها بعد أن طال بنا الحديث.

لقد كشفت هذه الأمسية التي اقامتها وزارة الثقافية بمصر في «كرمة ابن هانئ».

إحياء لذكرى أمير الشعراء أحمد شوقي. كشفت هذه الأمسية عن أمور تتصل بهذا الشاعر العظيم فقد رشحوه لجائزة نوبل في قصة طويلة لا يتسع لها هذا المجال.

وعلق عليها أحد الأدباء النقاد بقوله: «ولم يهتم شوقي بالموضوع كله، ولعله لم يلتفت له فقد كان الشاعر يحلق وحده في السماء ويبحث عن قصيدة جديدة لا عن جائزة نوبل».

ومن الأمور التي كشفها الاحتفال في افتتاح كرمة ابن هانئ قضية الباشوية مع أنه كان يطلب هذا اللقب من الخديوي الكثير، وقد اتضح أنه لم يمنح هذا اللقب لسبب طريف؛ فقد قدم الشاعر ديوانه الشوقيات إلى السلطان عبدالمجيد بأبيات رفيعة وقد سر السلطـــتان بذلك سرورًا عظيما «فمنـــح الشاعر شوقي أرفع ألقاب السلطة العثمانية وهو لقب الأمراء مـــن آل عثمان أبنـــتاء السلاطين وهذا اللقب هو لقب أفندي وهو نفس اللقب الذي يحمـــله خديوي مصر، وكان يقال له: أفندينا، لهذا السبب.

ولذلك لم يكن باستطاعة الخديوي عباس حلمي أن يمنح شوقي لقبًا يفوق عن لقبه الذي منحه له سلطان آل عثمان.

وقد كان معاصرو شوقي يقولون له: أفندينا ولكنه كان يفضل أن يلقب بالباشا حتى لا يغضب الخديوي».

ومن الأمور التي كشف عنهـــا الاحتفال أن شعر شوقي لا زال اليوم مبعثرًا فهناك - كما يقول أحد الأدباء: «عشـــرات القصائـــد التي كتبها أمير الشعراء ونشرت في الصحف ليس لها وجود في الشـــوقيـــات» ومن المؤكد أن الأديب الفاضل يعني بالشوقيات ديوان شوقي المســـمى بالشوقيـــات وهو في أربعة أجزاء والديـــتوان الآخر الذي جمعه الدكتور محمد صبري السوربوني وسماه الشوقيات المجهولة.

ونختم هذه الخواطر بكلمة الأديب الناقد الدكتور عبدالعزيز الدسوقي حيث يقول: «شوقي شاعر العروبة والإسلام وأكبر شعراء البعث الذين أعادوا للشعر العربي في العصر الحديث نضارته وسحره وماء روائه.

وهو في رأيي أعظم شاعر من شعراء العربية جاء بعد أبي الطيب المتنبي. وقد اختلفت الناس حوله - كما اختلفوا على المتنبي - وهاجمه البعض وحاربوه حربًا عنيفة استمرت نصف قرن من الزمان، وظل كما هو قمة شامخة من قمم الشعر العربي

تهيم وتؤثر وظلت أشعاره مترددة في كل مكان من أجل هذا انتشت روحي بهذا الحديث الثقافي الكبير الذي تم في كرمة ابن هانئ في الثامن عشر من «شهر يونيو»[1] وأنا أعتبر ما تم في هذه الأمسية أعظم حدث ثقافي تم في الأعوام العشرين الماضية لدلالته العميقة ومغزاه الكبير.».

(١) عام ١٩٦٨م وهو احتفال هيئة اليونسكو بذكرى مرور مائة عام على ولادة أمير الشعراء أحمد شوقي، وقد حرصت الهيئة على أن يكون الاحتفال عالميا عن طريق تدبيج المقالات وتصنف المؤلفات في أكثر من لغة حية، وذلك اعترافا منها بالمكانة السامية التي تمكن شوقي من احتلالها، لا على صعيد الفكر العربي، وإنما على صعيد الفكر الإنساني العالمي، بوجه عام، ارجع «فؤاد عطوى» في أحمد شوقي أمير الشعراء، دراسة ونصوص ط ثانية ١٩٧٣م دار صعب- بيروت.

إمارة الشعر على امتداد التاريخ الأدبي

١ ـ إمارة الشعر.. متى نشأ هذا التعبير.
٢ ـ الرثاء في شعر شوقي وحافظ.
٣ ـ إمارة شوقي.
٤ ـ إمارة الشعر بعد شوقي.
٥ - جوانب غامضة في المعركة حول شوقي.

إمارة الشعر على امتداد التاريخ الأدبي*

الحلقة الأولى

١- متى نشأ هذا التعبير؟

الإمارة في الشعر أو إمارة الشعر تعبير نشأ - فيما وصل إلى علمنا - في منتصف العصر العباسي فقد قدم إلى بغداد أبو عبادة البحتري وكان بها أبو تمام شهرته تملأ الدنيا وشعره يسيطر على المحافل العلمية والأدبية واختياره شغل الرواة والباحثين. وتختلف الرواية في تحديد أول لقاء بين الشاعر العظيم أبو تمام وبين الشاعر الناشئ أبي عبادة البحتري، فتذكر إحداها أن البحتري قال: «أول ما رأيت أبا تمام مرة ما كنت عرفته قبلها أني دخلت على أبي سعيد محمد بن يوسف وقد امتد صيته بقصيدتي التي أولها:

أأفاق صب من هوىً فأفيقا ... أو خان عهدًا أو أطاع شفيقًا

فأنشدته إياها فلما أتممتها سر أبو سعيد بها وقال: أحسن الله إليك يا فتى فقال له رجل في المجلس: هذا - أعزك الله - شعر لي عَلِقَهُ هذا فسبقني به إليك، فتغير وجه أبي سعيد وقال: يا فتى قد كان في نسبك وقرابتك ما يكفيك أن تمت به إلينا ولا تحمل نفسك على هذا، فقلت: هذا شعر لي: أعزك الله، فقال الرجل: سبحان الله يا فتى لا تقل هذا ثم ابتدأ فانشد من القصيدة أبياتًا، فقال نحن نبلغ ما تريد ولا تحمل نفسك على هذا. قال البحتري: فخرجت متحيراً لا أدي ما أقول، ونويت أسأل

☆ نشرت في جريدة المدينة يوم الأحد ١٤/٨/١٣٨٦هـ. العدد (٨٢١).

عن الرجل من هو؟ فما أبعدت حتى ردني أبو سعيد ثم قال: خبيت عليك فاحتمل أتدري من هذا؟ قلت: لا. قال: هذا ابن عمك خبيب بن أوس الطائي أبو تمام فقمت إليه فعانقته ثم أقبل يقرّظني ويصف شعري، وقال: إنما مزحت معك، فلزمته بعد ذلك وأخذت عنه واقتديت وكثر عجبي من سرعة حفظه.

وتذهب الرواية الأخرى إلى أن أبا تمام كان في عصره كما كان النابغة في الجاهلية يقصده الشعراء من كل مكان لعرض شعرهم عليه فقصده البحتري ليسمع رأيه في شعره فلما أنشد، أقبل عليه من بين سائر البشر ممن حضر، فلما تفرقوا عنه قال له: «أنت أشعر من أنشدني».

ويذهب بعض الباحثين إلى التشكيك في صحة الرواية الأولى لأنه يرى أن فيها تعارضًا فربما رأى أبو تمام إقدام شاعر على مدح أمير في حضرته جرأة، باعتباره سيد شعراء العصر وأمير الشعراء.

وقد أدرك البحتري خطأه فسعى إلى أبي تمام في مجلسه الذي يستقبل فيه الشعراء وأنشده ليسمع رأيه الرسمي فيه - إذا جاز التعبير.

على كلٍّ هذا الأمر لا يهمنا في هذا المجال وإنما المهم أن الشاعر العظيم أبا تمام عندما اطمأن إلى كفاءة تلميذه البحتري وحسن استعداده أوصاه بوصية أدبية رائعة في كيفية معالجة الشعر وقال له: أنت والله يا بني أمير الشعراء غداً بعدي.

وبذلك يكون أبو تمام هو أول من تحدث عن إمارة الشعر في الأدب العربي. ومن الواضح أنه كان يعني بها نباهة القدر وبعد الصيت وعظم الشأن. ولم يقصد بها المعنى الذي يرتسم في أذهاننا كلما ذكرنا «إمارة الشعر».

أول أمير للشعر العربي:

وإن كان الواقع أن هناك نوعان من إمارة الشعر سبقت أبا تمام بما ينوف عن مائتي عام ونعني بها ما كان يقوم به النابغة الذبياني من قضاء بين الشعراء في عكاظ

ومن حكم على ما يعرضونه عليه من أشعار فقد كانت تنصب له خيمة حمراء في سوق عكاظ ويأتي إليه الشعراء من كل جانب فينشدونه شعرهم ويستمعون إلى رأيه فيه. ولا شك أن موافقة الشعراء على عرض أشعارهم على النابغة يحمل معنى تسليمهم بإمارة النابغة عليهم في الشعر وقدرته الفائقة على تمييز ألوان الشعر وتفضيل شاعر على شاعر، ولا يطعن في هذه الحقيقة ما ورد في كتب الأدب من أن بعض الشعراء كانوا يتمردون على هذه الإمارة حين يصدر النابغة حكمًا لا يرضون عنه، كما روي عن أحدهم أنه قال للنابغة بعد أن أبدى الأخير رأيًا لم يعجب الشاعر قال له: «أنا أشعر منك ومن أبيك».

إمارة الشعر في العصر الحديث:

وتمر السنون والأجيال فلا نسمع فيها شيئًا عن إمارة الشعر حتى كان العصر الحديث وإذا بنا نفاجأ بحدث نادر هو إمارة شوقي. وهي إمارة صحيحة بايعه فيها الشعراء من جميع الأقطار العربية مبايعة صريحة لا جدال فيها ولا شبهة.

ولا شك أن خصوم شوقي من الأدباء فوجئوا مفاجأة عنيفة حين وقف الشاعر - الذي حرصوا على أن يجعلوه - لأغراض سياسية وحزبية نِدًّا لشوقي ومناوئًا له، وأثاروا حوله من الضجيج والعجيج والدعوى - غير الصحيحة والمغرضة - ما أوهموا الشاعر وأوهموا به كثيرًا من الناس من أنه أشعر من شوقي وأعظم عبقرية منه لقد دهشوا عندما وقف حافظ إبراهيم يبايع شوقي بإمارة الشعر ويقول له على رؤوس الأشهاد:

أمير القوافي قد أتيت مبايعا ... وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

ولم يكتف بذلك بل جعل من شوقي أميرًا للشعر والنثر معًا حين قال:

بلابل وادي النيل بالمشرق اسجعي ... بشعر أمير الدولتين[1] ورجِّعي

---

(١) يريد «بالدولتين» النظم والنثر.

إمارة الشعر
على امتداد التاريخ الأدبي*

الحلقة الثانية

٢- الرثاء في شعر شوقي وحافظ:

تحدثنا في الحلقة الماضية عن حافظ إبراهيم ومبايعته لشوقي، والحديث عن حافظ إبراهيم ومبايعته يقودنا إلى الحديث عن قضية أخرى بين الشاعرين تلك هي قضية الرثاء. وأن ما قيل عن حافظ وبؤسه وعن نشأته الأولى وعن الظروف القاسية التي مر بها في صباه وشبابه وما ذكر من حوادث، ومنها ضيق خاله به مع بداية حياته مما اضطره إلى ترك منزله والانطلاق في الأرض بعد أن ترك له بيتين هما:

ثَقُلَتْ عَلَيْكَ مَؤُونَتي ... إنِّي أرَاهَا وَاهِيَهْ
فَافْرَحْ فَإنِّي ذَاهِبٌ ... مُتَوَجِّهٌ فِي دَاهِيَهْ

وما ذاع بين الأدباء من أن الألم هو الذي يصقل المواهب وينضج العبقريات حتى لقد قال الناقد الجهير: «سيد قطب» في حديثه عن شوقي: «إن شوقي لم يعرف الحب وأغلب الظن أنه لم يعرف «الألم» والألم هو ذلك الزاد الإلهي الذي يفجر عواطف الفنان وبدونه يصبح الفن ـ بل تصبح الحياة كلها ـ متعة رخية توحي باللطف والرقة ولكنها لا توحي بالعمق والصدق. وما الحب وما الحياة بدون الألم الصادق العميق» أقول: إن ذلك كله قد أدخل في روع الناس ان حافظًا هو الذي يجيد الرثاء

(١) نشرت في جريدة المدينة في يوم الأحد ٢١ من شهر شعبان ١٣٨٦هـ العدد (٨٢٧).

أما شوقي فلا يحسنه بل الأعجب من ذلك أن شوقي نفسه قد وقع ضحية هذا الوهم الخادع فشك في مقدرته في الرثاء فقال في رثائه لحافظ:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي يا منصف الموتى من الأحياء

ومن حق الناس أن ينخدعوا نتيجة لهذه الحملة المركزة من مجموعة من الأدباء والنقاد لهم قدرهم ووزنهم وإن كانت الدوافع ـ مع الأسف ـ سياسية حزبية، ومن حقهم أن ينخدعوا وصوت حافظ يرتفع مجلجلًا في كل مأتم فيسحر الناس بجهارته وفخامته ونبرات صوته بينما ينزوي شوقي مكتفيًا بنشر قصيدته في جريدة أو إنشادها في محفل بصوت غيره.

وكيف لا ينخدع الناس وحافظ يسجل شعر المراثي نصف ديوانه ويقول:

إذا تصفحت ديواني لتقرأني وجدت شعر المراثي نصف ديواني

حديث أستاذ جليل:

ولا أريد أن أتبرأ من الانخداع فأزعم أنني تنبهت إلى ما لم يتنبه له الآخرون ولا أنني استطعت أن أرفع الغشاوة التي وضَعَتْها على العيون أقلامٌ لها اعتبارها. فالواقع أنني كنت أحد ضحايا هذا الخداع العجيب، ولم أتنبه لذلك إلا منذ وقت قريب، وقد نبهني إليه أستاذ جليل من أساتذتي الأجلاء فقد كنت في معرض الحديث عن شوقي فقال الأستاذ الجليل ـ أطال الله حياته: «لقد خُدِعنا يا صديقي عن شوقي وخُدِعنا خاصة عن مراثيه، لقد سيطر على أذهاننا أن شوقيًا ربيب القصور لا يحسن الرثاء وأن الرثاء حق ثابت لحافظ، وأننا عشنا هذه السنوات الطوال نقرأ لشوقي ما نظم من شعر فإذا وصلنا الرثاء أشحنا بوجوهنا عنه كأن ضعف شوقي في الرثاء قضية مُسلَّمة لا تقبل الجدال».

وقد أخذ أستاذنا الجليل يقرأ من شعر شوقي في الرثاء ويقف عند كثير من أبياته وقفة الإعجاب وكان يقطع وقفاته بقوله: «يا الله كيف خُدِعنا كل هذه السنوات».

رأي شاعر نابه:

كنت أظن أن ذلك رأي أستاذنا الجليل وحده إلى أن عثرت قبل أيام على رأي شاعر يعتبر في طليعة الشعراء الذين برزوا بعد شوقي، وهو علي محمود طه ولا شك أن رأيًا يقوله شاعر كعلي محمود طه في شوقي بعد وفاته لا مجال فيه للخوف أو المحاباة أو الطمع له شأنه الكبير.

يقول الشاعر علي محمود طه: «أما الرثاء فقد أجاد شوقي فيه وأبدع، بل لا أعدو الحقيقة إذا قلت إنه المتفرد منذ كان شعر عربي إلى اليوم» وليس هناك عبارة أروع من هذه العبارة تصوير روعة الرثاء في شعر شوقي، وناهيك بها من شهادة».

رأي شاعر عملاق:

كنت أظن أن ذلك رأي أستاذنا الجليل - أطال الله حياته - ورأي علي محمود طه ولكنني عثرت أخيراً على رأي لشاعر يعتبر في طليعة الشعراء هو عزيز أباظة يؤيد هذا الاتجاه فهو يقول: «وقد أزاح شوقي الحجاب في شعر الرثاء عن المعاني الكامنة في أطوار الزمن وعن العبارة الماثلة في موكب الأيام ولا ريب أن الرثاء هو المنبع الحزين التي تحوم على حافتيه طيوف الشجى، والأفق الرهيب الذي تنفض النفس إزاءه غبار المعاني الترابية لترنق لحظات في عالم غير منظور، عالم حافل بألوان الفلسفة الإلهية من الأزل البعيد إلى الحاضر المرئي حيث تتراءى نهاية الإنسان ومصيره المحتوم.

وفي هذا اللون من الشعر نجد شوقي السبّاق المجلّي في استخلاص العظة الخالدة ونلمس روحه الشفافة وهي محلقة بأجنحتها الرفافة في آفاق الموت تخاطب الخالدين وتتأمل جلال الحقيقة الكونية في هذا الإنسان الفاني. فليست الحكمة في شعر شوقي ضربًا من ضروب الوعظ الشائع كتلك التي نجدها عند أبي العتاهية مثلًا ، وإنما هي

تجربة روحية عميقة تمتزج فيها مشاعر الحزن الطاغية بسكينة الحياة الخالدة. وقد أبرزها شوقي مجلوة مضيئة كاسمى ما يكون الجلال والروعة والتحليق».

كيف تفوق ربيب القصور في شعر الرثاء:

ولكن ما سر هذه الإجادة في شعر الرثاء من رجل كان يعيش وسط ألوان من الترف والمباهج والمتع النفسية والحسية؟

السر في رأيي يكمن في شيئين:

أولهما: عبقرية شوقي، ومهما حاولت أن تنتقص من شوقي فلن تستطيع أن تنكر عليه هذه العبقرية.

ثانيهما: خوف شوقي من الموت فلقد كان ـ رحمه الله ـ يخاف الموت خوفًا شديدًا ولقد ساعدته أعصابه المرهفة وحساسيته الشديدة على أن تجعل من خوفه من الموت مشكلة تملأ عليه أقطار نفسه وتجعله في شغل شاغل بهذا (الحتم المجاب) كما عبر عنه في قصيدته المشهورة «سلو قلبي» صحيح أنه تمر به فترات ينسى فيها هذا الموت ـ شأنه شأن سائر الأحياء ـ ولكن عقله الباطن أو واعيته الباطنية ـ كما يحب العلامة الرافعي أن يسميها ـ تظل على اتصال مستمر بهذه القضية تقلبها على وجوهها المختلفة. وفجأة يخطف الموت واحدًا من أقطاب أمّته في الداخل أو الخارج فيستيقظ شوقي مُستَفَز الحس مستثار النفس ويعود إلى تلك القضية التي أعياه حلها «في الموت ما أعياه أسبابه» ويتحدث عنها وواعيته الباطنية تمده بألوان من الشعور. قبل أن يهدأ شوقي ويثوب إليه هدوء نفسه يفاجأ بهزة جديدة تدفعه إلى أن يعود للقضية التي كان يكرهها ولسان حاله يقول:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ... عدوًا له ما من صداقته بُدُّ

ومن أجل ذلك يكره المرض كرهًا شديدًا لأنه يذكره مُلحًّا بالعدو والصديق. ولقد كان الله سبحانه رحيما به فقد غادر الدنيا وهو في أكمل صحة ـ يرحمه الله.

وقد سجل بعض مؤرخيه طائفة عجيبة من الحوادث والتصرفات في خوفه من المرض والموت. نذكر منها على سبيل المثال:

١ ـ أنه كان يغسل المبسم الذي يضع فيه سيجارته بالكحول.

٢ ـ ذهب صديق لزيارة نجله المريض فاستوقفه شوقي على باب الغرفة وصب عليه زجاجة كاملة من الكولونيا؟

٣ ـ كان يتعاطى الدواء ولم يكن مريضًا، متوهمًا أن ذلك يدفع المرض.

لقد أطلنا الحديث عن هذه القضية (الرثاء بين شوقي وحافظ) لنُزيل وهمًا وقر في نفوس الكثيرين ولنصحح خطأً أدبيا يجب أن يصحح.

إمارة الشعر
على امتداد التاريخ الأدبي*

الحلقة الثالثة

٣- إمارة شوقي:

ونعود إلى إمارة شوقي فالواقع أنها إمارة من نوع فريد فلم يحدث في التاريخ الأدبي كله أن بويع شاعر أو ناثر بيعة صحيحة شاملة كما حدث بالنسبة لشوقي فقد انعقد في ٢٩ أبريل سنة ١٩٢٧م مؤتمر بدار الأوبرا الملكية بالقاهرة[١] استمر أسبوعًا كاملًا بويع فيه شوقي بإمارة الشعر ولم يتخلف قطر من الأقطار العربية عن هذه المبايعة حتى الأقطار التي لم تتمكن من إرسال شاعر أو أديب بعثت هدية رمزية كالبحرين والجالية العربية في الهند، نقول: لم يتخلف قطر من الأقطار ـ وإن كان الحجاز قد تخلف عن ذلك ـ وسجل عليه شوقي تخلفه في قصيدته التي ألقيت في المهرجان لأن شاعرين من أبرز شعرائه في ذلك الوقت بادرا بالاعتذار عن هذا التخلف هما الأستاذ فؤاد شاكر وشاعر آخر لا أذكر اسمه الآن[٢] وقد حياه الأستاذ فؤاد شاكر بقصيدة مطلعها:

يا أمير النهى ورب بيانه   هذه روضه وأغصان بانه

☆ نشر في جريدة المدينة المنورة في يوم الأحد ٢٨ من شهر شعبان عام ١٣٨٦هـ العدد (٨٣٣).

(١) كان الاحتفال تحت رعاية الملك فؤاد، وبرئاسة سعد باشا زغلول واستمر الاحتفال من ٤/٢٩ إلى ٦ من مايو ١٩٢٧م الموافق لعام ١٣٤٥هـ.

(٢) انظر الشعر الحديث في الحجاز ت عبدالرحيم ابو بكر ط. ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م من إصدارات نادي المدينة المنورة الأدبي.

وإمارة من هذا النوع لم تحدث في التاريخ الأدبي ولن يستطيع أن يزعم زاعم أن صلة شوقي بالقصر هي التي مهدت لشوقي هذه الإمارة قد يكون لها تأثير في ناحية، ولكن من الصعب أن يقال إن هذه الصلة استطاعت أن تؤثر على الأدباء والشعراء في الداخل والخارج، وحتى لو سلمنا جدلًا بإمكان ذلك فلماذا ظل الأدباء والشعراء على تقديرهم لشوقي بعد وفاته وقالوا فيه الثناء والإطراء والتمجيد ما ملأ كتبًا ومجلدات.

على أن شوقي لم يستمتع بهذه الإمارة إلَّا حوالي خمس سنوات ونصف ومعنى هذا أنه كان قد وصل إلى النضج الكامل عندما بويع بإمارة الشعر.

ويذهب خصوم شوقي إلى أن لقب أمير الشعراء ليس إلَّا قلبًا لِلَقب (شاعر الأمراء) ويُلِحُّون في ذلك إلحاحًا عجيبًا وقصدهم القاصد من ذلك غمز شوقي وأنه لم يحصل على هذا اللقب لأنه أهل له بل لعلاقته بالقصر.

لُقِّب شوقي أميرًا للشعراء في أواخر القرن الماضي:

ولعل القارئ يدهش إذا علم أن هذا اللقب ليس جديدًا على شوقي فالأستاذ داود بركات رئيس الأهرام يقرر في صراحة قائلا: «لقد يكون من مفاخر حياتي الصحفية أني لَقَّبتُ أحمد شوقي في سنة ١٨٩٩م على صفحات الأهرام - وأنا حديث عهد بتحريرها - بأمير الشعراء.....» .

ويقول الأستاذ داود بركات: «ولا أدعي جوازًا إطلاق هذا اللقب على شوقي أكبر شاعر في عصرنا على ما أعتقد وقد يكون أكبر الشعراء في العصور الخوالي أيضًا لأنه جمع بين الحضارتين القديمة والحديثة والأسلوبين العتيق والجديد ووفَّق بين الطارف والتليد، ولكن متابعة الكتاب والأدباء للأهرام في ذلك حتى اليوم أعطت اللقب مكانته وأحلَّته المحل الذي أريد منه وأريد له» .

ثم يقول داود بركات: «وبعد أن كان الكُتّاب يلقبون شوقي بأمير الشعراء أعطاه الخديوي بعد إنعاماته الكثيرة التي غمره بها لقب «شاعر الأمير».

ومعنى هذا أن الأهرام بدأت تلقبه بأمير الشعراء قبل أن يبايع بما يقرب من ثلاثين سنة ولم يعترض أحد على هذا اللقب وكان ذلك إرهاصًا بما حدث بعد ذلك من مبايعة للشاعر في مهرجانه العظيم كما أن ما ذكره داود بركات يؤكد حقيقة أخرى وهي أن لقب أمير الشعراء كان سابقًا لقب شاعر الأمير، وهذا ينقض تلك الدعوة التي تزعم أن لقب أمير الشعراء ما هو إلا قلب لِلَقب شاعر الأمراء.

مَشَابهٌ في حياة امير الشعر في القديم والحديث:

وقد لاحظت وأنا أتتبع حياة النابغة الذبياني وحياة شوقي مَشَابِهًا بينهما فلقد كان النابغة مُقرَّبًا من المناذرة والغساسنة وكان يتمتع بنفوذ كبير ومنزلة عظيمة وكان مسموع الكلمة في أمور السياسة وشؤون القبائل كما كان مقبول الشفاعة وكانت صلته ببعض الملوك من المناذرة صلة ود وصداقة وكان يدخل عليهم بغير استئذان وشاركهم كل شؤونهم وكان يعيش عيشة كلها ترف حتى لقد كان يأكل بصحاف الذهب والفضة، وإن كانت هذه المنزلة الرفيعة التي بلغها النابغة قد أوغرت عليه الكثير من الصدور وخلقت له العديد من الخصوم يتربصون به الدوائر وينتهزون الفرص للوقيعة به.

وتلك الحياة شبيهة بحياة شوقي فلقد أتاحت له صلته بالقصر أن يصل ـ كما قال أحمد زكي باشا «شيخ العروبة» إلى الذروة العليا بل إلى الغاية التي ليس وراءها غاية فأصبح من أقرب المقربين، ومن أصحاب الكلمة المسموعة والرأي النافذ.. فكان إذا قال فعل وإذا وعد أنجز.

وقد تعرض النابغة لكثير من المتاعب نتيجة بلوغه تلك المكانة التي لم يبلغها شاعر في الجاهلية كما تعرض شوقي لبعض المتاعب مما جعله يدرك الناس على حقيقتهم ويصورهم هذا التصوير الرفيع:

وداعًا أرض أندلس وهذا ... ثنائي إن رضيت به ثوابا
وما أثنيت إلا بعد علم ... وكم من جاهل أثنى فعابا
تَخِذْتُكِ موئلا فحللتُ أندى ... ذرًا من وائل وأعزَّ غابًا
شكرت الفلك يوم حَوَيْتِ رحلي ... فيا لمُفَارِقٍ شكر الغُرَابا
فأنت أرحتِني من كل أنفٍ ... كأنف الميت في النزع انتصابًا
ومنظر كل خوّان، يراني ... بوجهٍ كالبَغِيّ رمى النقابا

بعض نقائص في حياة شوقي:

على أن شوقي - رحمه الله - ظل أسير بشريته ولم يستطع التخلص من نقائصها ونحن نسجل عليه هنا ثلاثة مواقف:

أولها: أن الظروف أتاحت له أن يحج برفقة الخديوي عباس وهي فرصة ذهبية ما كان ينبغي أن يضيعها فالوصول إلى أماكن الحج المقدسة أمنية المتمنين وإذا كان الأمير أرسلان قد رجع من الزيارة والحج بكتابه القيم «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف» ورجع الدكتور محمد حسنين هيكل من زيارته وحجه بكتابه الضخم «في منزل الوحي» كما رجع أمير الحج إبراهيم رفعت بكتابه الضخم «مرآة الحرمين» فلا شك أن شوقيا لو أتيح له أن يرى هذه المشاهد وأن يشارك الحجاج والزائرين في متعهم الروحية التي لا تعادلها متع أخرى - لأخرج للناس ثروة شعرية رائعة مضمخة بعبير الإسلام، ولكنه - رحمه الله - استصعب هذه الرحلة نظرًا لقلة المواصلات في تلك الأيام وصعوبة السفر. مع أن سفره مع الخديوي كان سيذلل له كثيرًا من الصعوبات ويجعل سفره سهلا ومريحا.

ثانيها: أنه وقف من بعض الأدباء والشعراء موقفًا غير كريم ونذكر في هذا المجال موقفه من حافظ إبراهيم وشاعر العراق الأكبر عبدالمحسن الكاظمي، وإذا اغتفرنا له موقفه من حافظ إبراهيم على اعتبار أن هناك من يحاول أن يوسع شقة الخلاف بينهما لغرض أو لآخر فإن موقفه من عبدالمحسن الكاظمي يعتبر موقفًا كنت أريد

أن أقول إنه غير كريم ولكنني وجدت لشوقي تجاه الكاظمي موقفين متناقضين؛ يروي أحد أصدقائه أن الشاعر العراقي عبدالمحسن الكاظمي بعث إلى شوقي بكتاب «يشكو فيه فقرًا ومرضًا طرحه الفراش فبعث إليّ وأراني الخطاب يسألني أن أتحقق أمر الكاظمي ومكان صدقه من هذا الكتاب وبين لي موضع منزله بالعباسية فأجبته: أني سأذهب إليه وأكشف حاله.

وكنت امرءًا كسولًا وبيت الكاظمي بعيد فقلت لنفسي وما عليك أن تشهد شهادة زور لأديب شيخ كلنا يعلم فقره فذهبت أتلكأ في مشارب القهوات ساعتين ثم عدت إليه ووصفت له مرض الشيخ وحاجته ما استثار كامن رحمته فبعث إليه مع كتابه مقدارًا طيبًا من المال.

وهذا موقف كريم يقف على النقيض من موقف آخر رواه مؤلف كتاب «الكاظمي شاعر العرب» قال: «توسط لدى الخديوي عباس حلمي ليعين له من الأوقاف راتبًا شهريًا يستعين به على سد رمقه فكان الخديوي يأبى ذلك ولكن بإلحاح الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد صدرت الأوراق بالموافقة على ذلك وبتعيين المرتب ونقل الشيخ علي يوسف ذلك إلى عبدالقادر المغربي الذي نقله للكاظمي قال: «ولكني لم أبرح الباب حتى دخل عليه «بعض الناس» ولم يُسَمِّه لي وقال للخديوي:رأيت فلانًا خارجًا من عندك فماذا يبغي؟ قال: قررنا راتبًا للشيخ عبدالمحسن الكاظمي. قال: أنسيت أنه شاعر المفتي «يعني محمد عبده» وقد قال فيه من الشعر كذا أو عرّض فيك كثيرًا قال الشيخ علي: فما كان من الخديوي إلا النكوص عن وعده، قال المغربي: فلما سمعت هذا رجعت إلى الشيخ الكاظمي فأخبرته الخبر فتأثر جد التأثر وقال أتعرف من هو «بعض الناس»؟ قلت: لا، قال: هو أحمد شوقي.

«روى هذه القصة حافظ إبراهيم وقال: إن شوقي خشي منافسة الشاعر العراقي فسد عليه أبواب الخديوي وقطع عليه كل رجاء».

ونحن لا نوافق حافظ إبراهيم في هذا السبب الذي أورده لأن الشيخ الكاظمي كان متقدمًا في السن مكفوف البصر غريبًا عن بلاده فليس من المقبول أن يتقدم لمزاحمة شوقي وهو من هو ويجب ألا ننسى أن حافظًا حاول أن ينافس شوقي في صلاته بالقصر فلم يوفق فهو يضرب على وتر ينفِّس فيه عن نفسه، ولعل السبب الحقيقي أن شوقي قد تضايق من أن يقرر الراتب للكاظمي عن طريق غيره ورأى فيه افتئاتًا عليه باعتباره حقًّا من حقوقه.

وهو موقف كنا نود لو ترفع شوقي عنه.. ولكنه إنسان على أي حال.

إمارة الشعر بعد شوقي*

الحلقة الرابعة

وما دام حديثنا عن إمارة الشعر فإن من واجبنا ـ استكمالًا للبحث ـ أن نذكر محاولة جرت بعد وفاة شوقي وهي محاولة جديرة بالدرس والتحليل لما تحمله من معاني كثيرة.

فمن المعروف أن طه حسين وعباس محمود العقاد كانا من أكبر المناوئين لشوقي وقد أوقفا نفسيهما فترة من الوقت لا هَمَّ لهما إلا النَّيْل من شوقي والسخرية منه ومن إمارته على اعتبار أنه لا إمارة في الشعر واستطاعا أن يغرسا في بعض الأذهان طائفة من الأفكار حول هذا الموضوع. أصبحت بمرور الزمان قضايا مُسلَّمًا بها. ولكن وفاة شوقي كشفت النقاب على أن كل ما بذل من مجهودات للإطاحة بشوقي وإمارته لم تكن لوجه الله فقد وقف طه حسين يعلن بعد وفاة شوقي ـ وكان أيامها في حزب الأحرار الدستوريين قبل أن ينضم إلى حزب آخر (أي حزب الوفد) وفي حفل أقيم للعقاد من أجل نشيد نظمه ـ وقف طه حسين يتحدث عن شعر العقاد حديثًا طويلًا اختتمه بمبايعة للعقاد أميرًا للشعراء، وفسر بعض النقاد هذا الموقف من طه حسين بأنه محاولة لكسب العقاد ـ كاتب الوفد الأول ـ لنفوذه في الحزب. وقد قوبلت هذه المبايعة بكثير من السخط والاعتراض وشن كثير من الأدباء والشعراء حملة شديدة على الدكتور طه حسين والغريب أن طه حسين وجّه إمارة الشعر إلى العراق وشوقي لم يدفن بعد ـ كما قال الأستاذ فاروق عبده سنة ١٩٣٢م ـ ثم عاد فأعطاها للعقاد بعد ذلك بعامين سنة ١٩٣٤م ثم رجع مرة ثانية فأعطاها لخليل مطران سنة ١٩٤٦م.

☆ نشرت في جريدة المدينة المنورة في يوم الأحد الموافق ١٣٨٦/٩/٦هـ العدد (٨٣٩).

والأغرب من موقف طه حسين موقف العقاد وهو من هو في مناوأة شوقي ومحاربته والزراية بأدبه وشعره وإمارته فقد تقبل هذه الإمارة فلم يعترض عليها ولم يرفضها كما كان ينتظر ولم يردد في هذه المناسبة ما كان يقوله عن إمارة الشعر وما كان يوجهه من قارص القول ولاذع العبارات إلى هذه الإمارة والمؤمنين بها والداعين لها.

وهكذا حطم الأديبان الكبيران كل ما بَنَيَاه من مفاهيم حول إمارة الشعر وظهرا للناس على حقيقتيهما وأن هدفهما لم يكن الدفاع عن قضية يؤمنان بها بقدر ما هو هجوم من أجل مسائل شخصية وإذا أحسنًا الظن قلنا إنها من أجل أمور سياسية حزبية. ولن أتحدث عن إمارة بشارة الخوري أو الأخطل الصغير فهي إمارة من الضعف وتفاهة الشأن بدرجة، وأغلب الظن أن التاريخ الأدبي لن يحفل بهذه الإمارة.

كما لن أتحدث اليوم عن الأسباب الأدبية والفنية التي جعلت من شوقي أهلًا لتصدر إمارة الشعر فذلك يطول وأرجو أن أفرغ له في مناسبة قريبة. ولكنني أريد أن أخلص من كل ما سبق إلى الحديث عن هذه القضية التي تثار هذه الأيام حول إمارة الشعر[١]. والتي كانت السبب في كتابة هذا البحث المطول نوعًا ما.

ظاهرة عجيبة في أدب العواد:

ويهمني أن أعلن بهذه المناسبة عن ظاهرة عجيبة في حياة الأستاذ العواد هي غرامه بتوجيه الشتائم من غير أن يكون لذلك أي داعٍ! والعجيب أن هذه الشتائم كثيرًا ما تدفعه إلى مزالق خطرة وكثيرًا ما تجعل أحكامه ضعيفة ومهزوزة وكثيرًا ما تجر عليه وعلى من ينتصر له من الأدباء والشعراء مشاكل واتهامات لا حد لها.

يسأله المحرر هذا السؤال: «الشعراء عندنا هنا في هذه البلاد يتزايد عددهم في كل يوم وقد تضوع أريج كثير منهم إلى حد بعيد. وإذا أردنا اختيار واحد منهم لإمارتهم بجدارة فمن ترشحون لهذه الإمارة؟» فأجاب الأستاذ العواد بهذا الجواب: «كنت

(١) ارجع إلى تاريخ نشر المقال. «الحلقة الرابعة».

أظن أن الشعوذة الأدبية التي طلع بها أحمد شوقي في مصر على الأدباء وبواسطة الصحف التي سميت «المبايعة» وهي مبايعة كنت أظن أنها هي آخر الشعوذات التي يقوم بها دجاجلة الأدب بالإضافة إلى شعوذات أخرى، فالشعراء لا أمير لهم وهم مواطنون مندمجون في سائر المواطنين في كل بلد وليسوا شيئًا آخر غير الشعوب التي هم منها.. ومن هنا أشجب تلك الفكرة؛ فكرة إمارة الشعر والشعراء، إن الشعر رسالة سامية من رسالات الحياة...» لقد كان في إمكان الأستاذ العواد أن يجيب على السؤال ابتداء من قول: «والشعراء لا أمير لهم... إلى آخر الجواب» وبذلك يكون منطقيا. ولكن طبيعته التي جُبِل عليها أو تلك الظاهرة الخطيرة كما سميناها أبت عليه ذلك، وأوقعته على أن يرمي الناس بالأحجار دون أن يدرك ما يفعل، ولقد اتهم شوقي بالشعوذة كما اتهم «جيشًا» من الأدباء والشعراء بالشعوذة كذلك ووصفهم بأنهم دجاجلة. وهو اتهام خطير كنا نود لو أن الأستاذ العواد ربأ بنفسه عن الوقوع فيه. فمن المؤكد أن أي رجل من هؤلاء الدجاجلة أو مشعوذ من أولئك المشعوذين يقعد في دنيا الأدب مكانًا دونه خَرْطُ القَتَاد ـ كما كانوا يعبرون قديما ـ ولن تستطيع كل الشتائم التي يعرفها الأستاذ العواد أن تنال منه إلا كما تنال حصاة تلقى في البحر المحيط.

العقاد أحد المشعوذين:

وقد جنى الأستاذ العواد من غير أن يشعر على علم من أعلام الفكر يحبه الأستاذ العواد ويحب أن يتظاهر أنه من أتباعه ومريديه ونعني به الأستاذ العقاد لأنه أدخله عن غير قصد في جملة المشعوذين والدجاجلة فقد تقبَّل إمارة الشعر كما ألمحنا آنفًا وبذلك دخل في هذه الزمرة، والحق أن الذي يتحمل تبعة هذا الخطأ الذي انزلق إليه الأستاذ العواد إنما هو المحرر الفاضل المتصدي للدعوة لإمارة الشعر وقد كان عليه أن يدعو الأدباء والشعراء إلى مبايعة الأستاذ العواد أميرًا للشعر ولو كان قد فعل لعرف مدى صدق العواد في محاربة إمارة الشعر كما كشفت لنا الأيام مدى

صدق العقاد وطه حسين. فكيف يسأل العواد هذا السؤال، إن معنى هذا السؤال أن يرشح الأستاذ العواد شاعرًا غيره لهذه الإمارة لأنه من غير المعقول أن يرشح نفسه ويقول كما كان يقول المتنبي:

لتعلـــم مصـــر ومن بالعـــراق ومـن بالعواصـــم أنّـي الفتـــى

وبذلك وضع المحرر الفاضل الأستاذ العواد في مأزق ليس الخلاص منه إلا بأن يعلنها كما أعلنها من قبل شمشون «عليَّ وعلى أعدائي يا رب» وكل الشعراء أعداؤه ما دام سيصبح أحدهم أمير الشعراء وهو حي يرزق! ليت المحرر الفاضل جعل الأدباء والشعراء ينادون إلى إقامة احتفال يبايعون فيه الأستاذ العواد بإمارة الشعر ليرى حقيقة هذه الدعوى التي يدعيها الأستاذ العواد في محاربة شوقي وإمارته.

لا أريد في هذا المجال أن أتصدى للدفاع عن شوقي وإمارته فحسبي ما قدمت ولكنني أحببت أن ألفت النظر ـ كما قلت ـ إلى هذه الظاهرة العجيبة في أدب الأستاذ العواد.

العواد.. والنقد:

ولعل من المناسب أن أوجه النظر كذلك إلى كلمة كتبها الأستاذ العواد عن نفسه كناقد وهي كلمة عجيبة حقًّا دهشت وأنا أقرأها وزادت دهشتي حين مر بها الأدباء والكتاب مَرَّ الكرام ولا أدري أن ذلك عن إيمان بها، أم استخفاف وذلك ما أرجحه.

ولعلنا نستطيع أن ندرس ما أسميناه بالظاهرة الخطيرة في أدب العواد على ضوء هذه الكلمة التي أنقلها للقراء.

يقول الأستاذ العواد في كلمة له نشرت في العدد الصادر من جريدة البلاد في ٢١ صفر ١٣٨٥هـ ما يلي: «وأنا لا أرضى لنفسي أن أكون منقودًا حيث في مقدوري أن أتجافى النقد ودوافع النقد بما في طبيعتي من الانتباه وحب الدقة وموهبة الناقد إلى الأعماق من قبل السطوح.

لن أرضى بل أفضل أن أكون ناقداً مستمرًّا على أن أكون منقوداً ولو لمرة واحدة سواء كان النقد على حق أو على غير حق فأما النقد المحق فسبيله إلى وعرة عسيرة السلوك غير مأمونة أن ينزلق عابروها إلى الأخطاء كنتيجة للاضطرابات النفسية التي تهاجمهم حالما يفكرون في سلوك تلك السبيل. وأما النقد غير المحِق فهو أحرى ألا أرضى به لأنه لا يرضى به أحد فمن ذا الذي يرضى بالباطل والأباطيل»!

هذا هو النص الذي كتبه الأستاذ العواد في عدد البلاد الصادر في ٢١ صفر ١٣٨٥هـ وأستأذن القارئ الفاضل في أن نقف فنطيل الوقوف عند هذا النص ففيه ـ كما سنرى ـ يكمن سر ما أسميناه بالظاهرة الخطرة في أدب العواد. وقبل أن نبدأ في تحليل النص أحب أن أذكر للقارئ أنني فوجئت بهذا النص ولم أصدق عيني وأنا أقرأه لأول مرة ولذلك فقد أعدت قراءته عدداً من المرات ثم استعنت بصديق أديب في أن يقرأ لي النص بصوت مسموع، وزيادة في التأكيد سألت صديقي عما إذا كان قد فهم ما فهمت وأكد لي ذلك، وأنا بِدَوري أؤكد للقراء أني نقلت لهم النص نقلًا أمينًا فلم أزد حرفًا ولم أنقص، كما أنه قد مضى وقت طويل على كتابته، لم يصدر أثناءه أي تصحيح أو تعديل أو استدراك، لأن جريدة البلاد الغراء وهي جريدة دقيقة واعية ولأن الكاتب مفضال، وعلى ذلك فهذا النص العجيب صحيح ومعتمد، ومعذرة إذا كنت قد أكثرت من كلمة «عجيب» لأنني أتفادى استعمال ألفاظ أخرى أدق في وصف الواقع ولكن قد يكون فيها شيء من النُّبُوّ في رأي أولئك الذين يحلمون بنقد مثالي.

يقول الأستاذ العواد: «وأنا لا أرضى لنفسي أن اكون منقوداً حيث في مقدوري أن أتجافى النقد ودوافع النقد» وهذا كلام طبيعي لأنه يتفق وما في النفس البشرية من رغبة في الابتعاد عن النقص وتطلع إلى الكمال وينسب الأستاذ العواد تجافيه عن

النقد ودوافع النقد: «بما في طبيعتي من الانتباه وحب الدقة وموهبة الناقد إلى الأعماق من قبل السطوح» ذلك مدح يوجهه الأستاذ إلى نفسه أو هو في الحقيقة دعوى تحتاج إلى دليل، ويبدو لي أن الأدلة شعور الأستاذ الفاضل ـ فقد أتيح لنا أن نقرأ كثيرًا من آرائه وأحكامه فلم تجد فيها ما يشير إليه الأستاذ من الانتباه وحب الدقة وموهبة الناقد إلى الأعماق قبل السطوح، وعلى أي حال فلنتجاوز عن هذا ولنعتبره نوعًا من الثناء مبالغًا فيه لأن في النص ما هو أخطر من ذلك بكثير، يقول الأستاذ: «لن أرضى بل أفضل أن أكون ناقدًا مستمرًّا على أن أكون منقودًا ولو لمرة واحدة» وهذا أمر لا اعتراض عليه لأن كل الناس يرضون بل يفضلون أن يكونوا نقادًا على أن يكونوا منقودين ولكن ذلك نوع من الأماني، وقديمًا قال الشاعر:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه.....

ولو وقف الأستاذ عند هذه النقطة لما كان في الأمر ما يدعو إلى المناقشة والتعليق ولكن الكاتب انزلق ـ من غير أن يشعر ـ إلى حكم يعتبر غاية في الطرافة فهو يقول: «لن أرضى بل أفضل أن أكون ناقدًا مستمرًّا على أن اكون منقودًا ولو لمرة واحدة سواء كان النقد على حق أو على غير حق فأما النقد المحق فسبيله إلى وعرة عسيرة السلوك غير مأمونة أن ينزلق عابروها إلى الأخطاء كنتيجة للاضطرابات النفسية التي تهاجمهم حالما يفكرون في سلوك تلك السبيل» وهذا أغرب نص قرأته في حياتي فالكاتب يقرر صراحة «أن يكون ناقدًا مستمرًّا على أن يكون منقودًا ولو لمرة واحدة» ويقرر بصراحة يحسد عليها «سواء كان النقد على حق أو على غير حق» ونحن معه حين يكون النقد على غير حق أما إذا كان النقد على حق، فنحن نختلف معه كل الاختلاف ومع ذلك فهذه قضية سهلة كبيرة، إذا قيست بالنسبة لهذه القضية التي لا أعرف كيف أصفها، فالكاتب يقول في جراة تثير الدهشة: «إن النقد المحق سبيله إلى وعرة عسيرة»، لماذا يا مولانا الأستاذ؟ لأنها: «غير مأمونة أن ينزلق عابروها إلى

الأخطاء» ولماذا مرة ثانية يا مولانا الأستاذ ينزلق عابروا تلك السبيل الوعرة العسرة إلى الأخطاء؟ يتفضل الكاتب فيقرر بجرأة وصراحة لا مثيل لها أن انزلاق أولئك النقاد إلى الأخطاء: «نتيجة للاضطرابات النفسية التي تهاجمهم حالما يفكرون في سلوك تلك السبيل»!!

أعوذ برب الفلق.. إن الأستاذ العواد يقرر أنه من غير سلالة البشر فهو محروس بقوة خفية موكلة به تمنع عنه الناقدين أيًّا كان نوعهم فما إن يفكر أحدهم في نقده بحق حتى يقع فريسة للاضطرابات النفسية التي تهاجمه بضراوة وعنف. هذا إذا فكر الناقد في نقد الأستاذ العواد مجرد تفكير أما إذا أقدم على ذلك فعلًا فالله يعلم ماذا سيحل به ومرة ثانية أعوذ برب الفلق.

فقد تتبعت كل النقاد الذين فكروا وأقدموا على نقد الأستاذ العواد في شعره أو نثره حتى أولئك الذين اعترضوه قبل أن أعرف القراءة والكتابة أو أثناء دراستي الابتدائية أو في فترات تغربت فيها عن وطني تتبعت كل نقاد العواد ودرست حياة كل منهم دراسة عميقة واتصلت ببعضهم اتصالًا مباشرًا فلم أجد ـ مع الأسف الشديد ـ أحداً منهم وقع فريسة للاضطرابات النفسية ولعل الصواب أن الأستاذ العواد هو الذي كان فريسة الاضطرابات النفسية فيضرب يمينًا وشمالًا ويتهجم على كل واحد بأشنع الألفاظ وأقبح الشتائم.

العواد بين الحقيقة والأسطورة:

لا أدري لماذا خطر ببالي وأنا أقرأ نص الأستاذ العواد بطل الإلياذة الأسطوري (أخيل) ذلك البطل الذي أخذته أمه وهو طفل رضيع إلى نهر الخلود فأدخلته في النهر حتى تحصنه ضد آلات الحرب فلا ينفذ في جسمه رمح ولا سهم ولا سيف. ولكن (هوميروس) لم يخرج (أخيل) من الدنيا البشرية بل جعله موصولا بها فقد ابتل جسم أخيل كله ما عدا الموضع الذي كانت أمه تمسكه منه وهو عنقه فإنه لم

يبتل، وعندما أصبح بطل أبطال اليونان استطاع خصمه الطروادي (باريسس) أن يرميه بسهم في عنقه الذي لم يبتل فأرداه قتيلا.

أما بطلنا العواد فقد تجرد من البشرية فأصبح في منجاة من نقد الناقدين وتعقيب المتعقبين لا يستطيع أحد الوصول إليه أو إلى أدبه بأي حال من الأحوال، فالأرواح الخبيثة واقفة على أهبة الاستعداد تنتظر من تحدثه نفسه للتعرض لشعر العواد أو نثره بالحق أو بالباطل لتسلط عليه الاضطرابات النفسية التي لا تهدأ ولا ترحم!

وأخشى أن يأتي دارسوا الأدب في القريب الآتي أو الذي بعده فيجدون هذا النص فلا يصدقون أن أديبًا كان يعيش في القرن العشرين اسمه محمد حسن عواد ويقعون فريسة للشكوك ويخرجون من شكوكهم هذه إلى تقرير أن محمد حسن عواد لم يكن بشرًا سويًا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ولكنه أديب أسطوري كان يتخيل أن أدبه في حماية الأرواح الخفية!

وعلى ضوء هذا النص (الفريد) الذي أشبعناه تحليلًا وبحثًا تستطيع أن تجد التفسير لما أسميناه بالظاهرة الخطيرة في أدب الأستاذ العواد. ظاهرة السباب المقذع والشتائم التي لا تليق ينزل بها الأستاذ العواد على رؤوس الأدباء والنقاد بسبب أو بغير سبب من الأحياء أو من الأموات ممن يعرفهم أو ممن لم يتصل بهم قط.

وتفسير هذه الظاهرة كشفه لنا النص الذي أوردناه، فهناك شعور غامض يسيطر على الأستاذ العواد بأن أدبه في حماية قوى خفية تحميه من النقاد وتعصمه من الناس وتمنعه من كل ناقد أو معقب أو معلق، فهو أشبه ما يكون بالطفل المدلل أو الفتى المراهق يعبث ما يشاء له العبث فيضرب من يشاء، ويحطم ما شاء ويسخر بمن يشاء وهو شاعر بأنه في مأمن من أن يعاقب أو يزجر لأنه في حصانة من نفوذ أسرته وفي حماية من أتباع أبيه.

وكذلك الأستاذ العواد فهو في وهمه - يعتقد أن أدبه في حماية هذه القوى الخفية ومن أجل ذلك فهو يقول ما أراد ويتهجم على أي أديب ويرسل ألفاظ الشتائم كالحجارة تتساقط هنا وهناك فتقع على رؤوس الناس فينزعجون لها ويثورون ويضجون، وهو واقف هناك يصفق ويضحك في نشوة وحبور وحسبه أن يناجي تلك القوى الخفية التي تعيش في وهمه!! والواقع أن هذه حالة مرضية خطيرة.

جوانب غامضة في المعركة حول شوقي

الحلقة الخامسة

تكشف المعركة الدائرة حول شوقي عن أمور كانت غير واضحة وجوانب كان يلفها الغموض ورأينا أن من واجبنا ألا تضيع هذه الأمور وتلك الجوانب في غبار المعركة وضوضاء الصراع.

ومتابعو هذه المعركة يذكرون قضية (الشركسي الدخيل) وهو لقب أطلقه الأستاذ العواد على شوقي - طيب الله ثراه - بقصد هدمه وتحطيمه والزراية عليه والإساءة إلى أدبه. وقد وفّينا هذا الموضوع حقه وأبَنَّا ما فيه من تحامل وتهافت وسوء قصد. وما نحب أن نعود إلى تكرار شيء سبق أن تحدثنا عنه، ولكن الأمر الجدير بالذكر أن فكرة خاصة كانت تسيطر على ذهني وأنا أكتب الرد على الأستاذ العواد في قضية (الشركسي الدخيل) هي أن الأستاذ العواد (عربي أصيل) وأنه من معتنقي فكرة الأنصار والمؤيدين لوجهة نظرهم، وليس المراد بالأنصار هم الفئة الكريمة الذين يقول الله عنهم في كتابه: ﴿**والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾.

ليس المراد هؤلاء ولكن المراد أنصار مُحدَثُون هم طائفة من العرب اعتنقوا فكرة طريفة وتعاهدوا على تأييدها ونشرها والمناداة بها، تلك هي فكرة التعصب للعروبة والدفاع عنها وتبيان فضل العرب ومآثرهم وعبقرية فكرهم وعلمائهم وكان شعار هذه الطائفة هو: «دعوة الأنصار على أديم الصحراء تخط تاريخها ومن منابع

الضوء ترسل رسائلها» ومن الطريف أنهم حاولوا أن يبتعدوا عن جو المدن الموبوء وقرروا أن يعيشوا في الصحراء، ونفذوا قرارهم فترة من الزمن.

ولعلهم أرادوا بفكرتهم هذه أن يكونوا تيارًا قويًّا يعارض التيار الشعوبي المنحرف الذي كان يحاول أن يضلل العرب عن تاريخهم وأن يجرد العقلية العربية من كل عبقرية أو إبداع وأن ينسبوا كل فضل في الحضارة الإسلامية إلى العناصر الأجنبية، وكان من زعماء التيار الشعوبي سلامة موسى وأضرابه وكثير من المستشرقين والمستغربين فقام هؤلاء النفر بتأليف عصبة هدفها الدفاع عن العرب وإثبات أن العناصر الأساسية للحضارة الإسلامية عناصر عربية كما حرصوا على إبراز عظمة العقلية العربية وتفوقها وأصدروا من أجل ذلك مجلة باسم «الأنصار» تحمل دعوتهم وآراءهم كما أنشأوا عددًا من البحوث القيمة قرأت منها منذ مدة قصيرة كتابًا يقع في حوالي الأربعمائة صفحة باسم «ضوء في تاريخ التوحيد البحث الأول في نظر الإسلام» وهو كتاب رائع حقًّا يثير الدهشة والإعجاب. ولولا أن المجال مجال الكلام في موضوع آخر لعرضت له بالاستعراض والتعليق وأرجو أن أعود إليه في فرصة قريبة.

لقد خطر ببالي وأنا أقرأ تهجم الأستاذ العواد على شوقي ووصفه بأنه (شركسي دخيل) أن الأستاذ العواد يعتنق فكرة هؤلاء الأنصار، ويريد أن يتجاهل فضل كل أعجمي ولو كان في عظمة شوقي وشهرته حتى لا يتخذ دعاة الشعوبية منه نقاطًا في النَّيْل من العرب، ومع أنني لا أرتاح كل الارتياح لهذا الاتجاه لأنه يخلق فوارق كبيرة بين المسلم العربي والمسلم غير العربي وهذا ما يأباه الدين إلا أنني أرى في وجود هذا التيار ما يساعد على إضعاف التيار الشعوبي المستفحل.

كان ذلك تصوري عن العواد وهو يتهم شوقي بالشركسية والدخالة ولكنني فوجئت بالأستاذ أحمد عبدالغفور عطار يتحدث عن الأستاذ العواد في العدد ١٧٧ في ١٢ جمادى الآخرة ١٣٨٣من جريدة عكاظ ويقول: «وأنا أذكّر الأستاذ العواد بأنه قال عن نفسه: إنه آري» ويقول في موضوع آخر من المقال: «والأستاذ العواد نفسه -

باعترافه ـ ينحدر من دم آري، فهل نقول عنه: إنه آري دخيل؟» والأستاذ العطار ثقة صدوق والرابطة التي تربطه بالأستاذ العواد تجعل من الصعب عليه أن يتقوَّل على الأستاذ العواد ـ ولا سيما في قضية كهذه ـ لا شك أنه يملك الدليل أبلغ الدليل متى طولب بذلك، كما وأنه قد مضى على كتابة هذا المقال أكثر من شهر ولم يُبدِ الأستاذ العواد أي اعتراض أو تكذيب ولعله ارتاح كثيرًا إلى إظهار هذه الحقيقة التي لم يكن يعرفها إلا قلة نادرة من الأدباء وكانت المفاجاة بالنسبة لي فقد كنت أتوقع أصالة الأستاذ العواد في عروبته لأنه من الصعب أن يخطر بالبال أن الناقد الذي يتهم شوقيا بأنه شركسي دخيل ليس عربيًّا أصيلًا ولكنني الآن عرفت سر تهجم الأستاذ العواد على شوقي في نسبه وأصله فالأستاذ العواد لا يعتنق فكرة الأنصار كما تصورنا سابقًا ولكنه يعتنق فكرة الفيلسوف الألماني «نيتشه» التي ترتفع بالدم الآري وتجعل السلالة الآرية سلالة ممتازة تصلح للحكم والاستعلاء والتمجيد بينما يهبط بالسلالات الأخرى السامية منها وغير السامية وهي الفكرة التي اعتنقها الزعيم النازي السابق «هتلر» وقسَّم على ضوئها العالم في كتابه المشهور «كفاحي»، ومن المعروف أن العرب من السلالة السامية أو الجنس السامي ومن سوء حظ شوقي أنه ساميٌّ وليس آريًّا ولو كان آريًّا لوجد ثناءً وترحيبًا واستقبالًا حافلًا من العواد وأضرابه فهو شركسي من آسيا والشراكسة ينتمون إلى الجنس القوقازي الأبيض وموطنه الأصلي شمال آسيا وقد أقاموا لهم دولة في مصر عرفت بدولة المماليك الشراكسة بدأت بالسلطان برقوق في سنة ١٢٨٢م واستمرت حتى عام ١٥١٧م فالشراكسة آسيويون ساميون ومن أجل ذلك فهم في نظر الأستاذ العواد عنصر أدنى استحق من نيتشه العالم اللعنة وسوء المصير ولعل الأستاذ العواد بعد أن أثبت للعالم بطلان نظرية تفوق الجنس الآري يعود إلى الاعتزاز بالساميين عامة وبالعرب خاصة هذا الجنس الذي ميزه الله بميزة فريدة فبعث منه الأنبياء والرسل وهم المصطفون الأخيار وخيرهم وخاتمهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ النبي العربي المختار.

ولعله بعد ذلك يمتنع عن نبذ المسلمين بالألقاب بعد أن حرم الإسلام ذلك في نص ورد في كتاب الله الخالد وبعد ثبوت غضب الرسول - عليه الصلاة والسلام - على رجل من كبار الصحابة لأنه عيَّر آخر بأمّه السوداء وقال له زاجرًا ومؤنبًا: «**أعيَّرته بأمّه إنك امرؤ فيك جاهلية**».

هذا حادث من الحوادث التي تكشفت عنها المعركة أما الجانب الآخر فهو هذا الجواب الذي أجاب به الأستاذ العواد على السؤال الذي وجهه إليه الأستاذ الفاضل مندوب جريدة عكاظ في العدد الصادر في ١٣٨٣/٦/٢٦هـ لقد سأله محرر صفحة الآداب والفنون هذا السؤال: «رد بعض الأدباء هنا على قولك شوقي صنم شركسي دخيل» رد قائلا: إن أغلب أدباء العرب ومفكريهم غرباء ودخلاء على العرب واللغة فما رأيك في هذا القول؟».

هذا هوالسؤال فماذا كان الجواب؟ لقد كان جوابًا عجيبًا يذكّر المثقفين بمحاورات السوفسطائيين في بلاد الإغريق؛ تلك المحاورات التي لم تكن تهدف إلى إيضاح فكرة أو كشف حقيقة ولكنها ترمي إلى مجرّد إظهار البراعة في التلاعب بالألفاظ والتفنن في تشقيق العبارات والهرب من مواجهة الحقائق ثم لا شيء غير ذلك وإلا فما معنى هذا الجواب الذي تفضل به الأستاذ العواد وسجله قائلا: «هذا القول أو الرد ليس منطقيًا وإنما هو خروج عن الموضوع فأنا لم أقل قط في يوم من الأيام إن كل أدباء العرب ومفكريهم من دم عربي صريح ولم أعب على شوقي أنه غير عربي فهذا ليس عيبًا وعلى هؤلاء أن يتعمقوا في قول الشاعر:

يعاب الفتى فيما أتى باختياره ... ولا عيب فيما كان خلقًا مركبًا

فالدم غير العربي الذي يجري في عروق بعض أدباء العرب ومفكريهم خلق مركب ومن ثم فهو ليس بعيب ثم إن الرد بهذا لا يصح أن يكون ردًا على الصفات الثلاث التي ذكرت على شوقي وإنما الرد الصحيح يجب أن يعالج نفي الصنمية والشركسية والدخالة نفيًا أو إيجابًا بالدليل والحجة. هذا وإلا فالكلام بهذه الطريقة لا يكون إلّا

مجرّد تهويش وهرجلة ومكابرة بالسطور والصفحات شأن المراهقين دفاعًا أعمى يتهالك من الضعف والانحلال.

لقد كان على الذين تصدوا للدفاع عن شوقي أن يقولوا هو شركسي دخيل ولكن في تاريخ الأمة العربية كثير من أمثاله وأن هذا لا يعاب عليه وهنا نشعر أننا أمام أناس لهم منطق العقلاء ولا تخرج المناقشة معهم من صفتها العلمية إلى صفة أخرى هي أشبه بالجدل الحزبي العاطفي»!

هذا هو جواب الأستاذ العواد نقلناه بحذافيره لم نحرّف منه حرفًا وأنا أسأل أصدقاء العواد والمؤمنين بعبقريته عن رأيهم في هذا الكلام وهل يمكن وصفه بأنه أكثر من سفسطة لا طائل تحتها، يقول له المحرر إن بعض الأدباء رد على قولك بأن شوقي صنم شركسي دخيل «بأن أغلب أدباء العرب ومفكريهم غرباء ودخلاء على العرب واللغة» فيرد العواد: «أنا لم أقل قط في يوم من الأيام إن كل أدباء العرب ومفكريهم من دم عربي صريح ولم أعب على شوقي أنه غير عربي فهذا ليس عيبًا» إذا فماذا يعني وصف شوقي بأنه شركسي وبأنه دخيل وهل هذه عبارات يقصد بها العواد مدح شوقي والثناء عليه! ربما ولكن آخر كلام العواد ينفي هذا الفهم فهو يقول «لقد كان على الذين تصدوا للدفاع عن شوقي أن يقولوا نعم هو شركسي ودخيل ولكن في تاريخ الأمة العربية كثيرا من أمثاله وأن هذا لا يعاب عليه» فهو يرى أن وصف شوقي بالشركسية والدخالة عيب ويطلب من المدافعين عن شوقي أن ينفوا عنه هذا العيب.

وإذا كان العواد يعرف ـ كما يقول ـ أن عدم صراحة النسب العربي بالنسبة للأدباء ليست عيبًا فلماذا يعيب على شوقي شركسيته ودخالته ولماذ لا يتكلم مشكورًا فيذكر لنا بوضوح هدفه من وصف شوقي بأنه شركسي دخيل وهل لهاتين اللفظتين معنى في ذهنه غير المعنى الذي استقر في أذهان الأدباء والشعراء، إننا نستبعد أن يكون لهما معنى آخر وخاصة وقد وردتا في معرض الذم وبعد كلمة صنم وهي

كلمة عيب ونقيصة ما دام العواد يعرف وجهة الحق في موضوع الشركسة والدخيلة ويعرف الجواب عليها فلماذا يكررها في حديثه؟ أليس ذلك نوعًا من السفسطة؟ ثم تصور هذا الكلام الذي يقوله العواد قال: « لقد كان على الذين تصدوا للدفاع عن شوقي أن يقولوا نعم هو شركسي ودخيل ولكن في تاريخ الأمة العربية كثير من أمثاله وأن هذا لا يعاب عليه».

فهل رأى القراء أمرًا أشد غرابة من هذا الكلام؟ إن أشد ما أخشاه أن يكون العواد قد أصيب بداء النسيان إلى درجة مزعجة وإلا لما جرأ على أن يقول هذا القول: فكل الذين تابعوا دفاعي عن شوقي حول هذه النقطة عرفوا أنه كان يدور حول هذا الجواب ولو عاد الأستاذ إلى مقالي المنشور في العدد ١٣٧٢ من جريدة المدينة الصادر في ١٣٨٣/٥/٩هـ بهذا النص: «أما كلمتا الشركسي الدخيل فإني أدهش منهما، فمهما قيل عن شوقي فإنه لَيَسرُّ كثيرًا من الأمم أن ينتسب إليها وأعتقد أن الشراكسة يقدمون كل ما يعرفونه من عبارات الشكر للأديب الكبير على طرد «شوقي» من حظيرة الأمة العربية ونسبته إليهم وكم من المناقشات والمحاولات ثارت من الأمم حول أديب أو مفكر أو شاعر لأن كل أمة تحاول أن تكسب فخر انتسابه إليها، ولا أريد أن أدخل في أبحاث حول تحديد كلمتي العروبة والعرب بيد أنني أكتفي بهذا التساؤل؟ ترى لو طبقنا هذه النظرية على المواطنين المحدثين في بلادنا فكم أديبًا أو عالـمًا أو صاحب قلم يستطيع أن يؤكد عروبته ونسمح له بالانتساب إلى أمة العرب» هذه فقرة مما ورد في ذلك المقال وهذا الأستاذ الجليل محمد حسين زيدان يقول في العدد ١٣٨٤ بجريدة المدينة الصادر في ١٣٨٣/٥/٣هـ « «شوقي ترجم لنفسه بما أفاد أنه غير عربي عرقًا وصليبة وإنما جرت في عروقه دماء شرقية مسلمة، فلو أبعدناه بأنه غير عربي الأصل لأبعدنا الأولين من أئمتنا وشعرائنا فأين نذهب بالحسن البصري، وابن سيرين، وعطاء، وسيبويه، وأبي حنيفة، والبخاري وأمثالهم ثم أين نذهب ببشار، وأبي نواس، وابن الرومي، ومهيار وغيرهم.

إن هؤلاء الأئمة كانوا من الموالي ثم أصبحوا سادة المسلمين فالحسن البصري، والبخاري ومن إليهم أعرق في العروبة من عربي عرقًا لم يُسلِم. وبشار عبد مضر، فخر بمضر بما لم يقله مضري قبله ولا بعده لم يقله النابغة الذبياني ولا الشريف الرضي وهما مضريان، ومهيار مولى الشريف الرضي الفارسي المجوسي الذي أسلم على يد الشريف قد أصبح في طليعة شعراء العربية حتى لقد خلط على الناس شعره بشعر الشريف؛ اتحدا أسلوبًا ونسجًا وبعض قصائد الرضي في ديوان مهيار وبعض قصائد مهيار في ديوان الرضي، وهذا الأستاذ الجليل أحمد عبدالغفور عطار يقول في مقاله عن شوقي في العدد ١٧٧ من عكاظ الصادر في ١٢/٦/١٣٨٣هـ إما أن شوقي شركسي فصحيح، والرجل لم ينكره، وهو أول من قال عن ذلك: أما إنه دخيل فيجب أن نسأل: أهو دخيل على العربية والعرب؟

الحق أن شوقي شرف للعربية ولا تطعن شركسيته في عروبته ولأول مرة أسمع من يتهم شوقيًا بأنه دخيل، ولو طبقنا نظرية الأستاذ العواد فإن أعظم أئمة الإسلام واللغة العربية ينفون من رحاب العربية.

وأما ما ذكره الأستاذ العواد بأنه قال عن نفسه إنه آري فلو انبرى أحد وزعم على الأستاذ ما زعمه عن شوقي فما يكون أمره؟ أيرضى أن ينفى من هذه الجنسية.. والعرب يتشبثون بشوقي لأنه مفخرة من مفاخر العروبة وإن أية أمة حتى الأمم المتقدمة تتشرف بانتساب شوقي إليها والأستاذ العواد لا يجهل أن الأستاذ العقاد نفسه يمتد من ناحية أبيه من دم كردي فهل نقول عنه إنه (كردي دخيل)».

هذه مقاطع من مقالات بعض الأدباء الذين تصدوا للرد على الأستاذ العواد في طعنه على شوقي بأنه شركسي وبأنه دخيل فهل تراهم يقولون نعم هو شركسي ودخيل، ولكن في تاريخ الأمة العربية كثير من أمثاله وإن هذا لا يعاب عليه، أم أن الأستاذ العواد أصيب بداء النسيان، أم أنه يتهم الناس بالغباء ويسخر بوعيهم ومدى

قدرتهم على استيعاب ما قيل وهل تراه ينتظر منهم أن يصيحوا مهللين بهذا الفتح الذي هبط عليه من علٍ، ولم يهتد إليه أحد من الأدباء والنقاد؟

وبقي بعد ذلك حديث آخر هو قصيدة العواد في رثاء شوقي وهي قصيدة نشرت في الصفحة الأدبية من جريدة البلاد في العدد الصادر بتاريخ ١٣٨٣/٦/١٦هـ وهذه القصيدة منقولة من ديوان العواد: «نحو كيان جديد» وهو ديوان صدر منذ فترة قصيرة وإذا كانت القصيدة قد قيلت قبل ثلاث سنوات قلائل يدل على اعتزاز الشاعر بهذه القصيدة وإعجابه بها وإلا لكان أهملها ولم يضمها إلى قصائد الديوان وحسبه أنها نشرت منذ زمن طويل ولكن حرص الشاعر على نشرها في ديوان من دواوينه طبع منذ قريب يعطيها أهمية خاصة وتجعل من حقنا أن نناقش الأستاذ العواد في آرائه الأخيرة على ضوء ما ورد في القصيدة، فالأستاذ العواد يقرر في قصيدته إعجابه بالشاعرين حافظ وشوقي فهما:

زميلان كانا فرقدين تلألآ ... على فلك للشعر في مصر عاليا

ويقول عن شوقي إنه واحد فنه وإنه سلس البيان وديعه وإنه رقيق حواشي اللفظ:

قضى اليوم شوقي وهو واحد فنه ... نسيجًا وأوزانًا وصقلًا مواتيًا

قضى شاعر سلس البيان وديعه ... رقيق حواشي اللفظ يزجي الأغانيا

قضى إذ قضى في الشعر عمرًا موسعًا ... وكاد يعيد العمر بالفكر ثانيا

ثم يتحدث عن أهم آثار شوقي الشعرية «مجنون ليلى » و «كيلوباترا» و «قمبيز» و «علي بك الكبير».

ملاحم التمثيل زين عاطلًا ... من الأدب المصري قد عاد حاليًا

أثار به شوقي من الفن ما به ... غدا عربيُّ الشعر نشوان شاديًا

ثم يرد على النقاد الذين حاولوا النَّيل من شوقي لأنه لم يَنْظِم شعره المسرحي إلا في شيخوخته فدافع عنه دفاعًا كريمًا مدعمًا بالحجج فهو يقول:

وإن قيل لم ينتج من الشعر مثلها ... قديمًا وقد عاش السنين التواليا

فشاعر ذبيان المعظم قدره ... تحامى إلى قرب المشيب القوافيا
وماضى زياد كان خلوًا ومُضفِرًا ... وزان لشوقي سائغ الشعر ماضيًا

ويختم الشاعر قصيدته بأبيات منها:

على الشاعر المصري في عقر رمسه ... سلام فتى أعطى الشعور الأغانيا
سلام عليه طيب كقريضه ... فانٍ من لا يستقل الأياديا
سلام فتى جارى حجاه بيانه ... وعاش صريحًا زاكيًا لا مرائيًا

ولم ينتقد الأستاذ العواد في قصيدته إمارة شوقي للشعر فقال:

فإن لقبوه بالأمير تطاولًا ... على الشعر وافتاتوا وراموا التعاليا
فللشيخ فضل في الروايات شافع ... وإن لم تكن إلّا صغارًا دوانيًا

وعلق على موضوع الإمارة في ديوانه فقال: «نحن المنكرين على شوقي وعلى شاعر آخر أكبر منه لقب «أمير الشعراء» لأنه لقب خيالي خلقته المجاملة أو الرياء أو التدليل وكل هذه مبعثها الجهل بحقيقة الشعر فالشعر لا يقبل الإمارة وليس للشعراء أمير ولو كان في موهبة المتنبي أو ابن الرومي أو شكسبير أو جوتيه».

وإمارة شوقي ـ كما قلت عنها في مقال نشر بجريدة البلاد قبل سنوات ـ ستظل حدثًا فريداً في التاريخ الأدبي كله لم تحدث قبله ولا ينتظر أن تحدث بعده وهي إمارة انعقدت لشوقي وبايعه كل البارزين من شعراء العربية وكتّابها ولم يتخلف عن هذه المبايعة إلا الحجاز، ويقول الأستاذ الجليل عبدالقدوس الأنصاري عن ذلك ـ في مقاله المنشور بجريدة البلاد العدد ١٤٤١ الصادر في ١٣٨٣/٦/٧هـ: «أوليس شوقي هو الذي أهاب بشعراء الحجاز منذ نحو أربعين عاما أن ينهضوا من سبات ركودهم العميق، أوليس هو الذي نبّههم دون سواه ـ إلى كيانه ودعاهم إلى إحياء مجدهم في تقريع لطيف مؤثر وفي توجيه سديد موفّق، أوليس هو الذي صرخ فيهم صرخته الخالدة في مهرجان إمارته للشعر العربي مهيبًا بهم إلى اليقظة والحياة ومبديًا لهم

بالغ أسفه أن لم يكن في ميدان المهرجان فارس من فوارس الحجاز يقوم مقام قس أو سحبان في هذا الزمان.

لا ريب أن هذه الصرخة المدوية التي أطلقها شاعر العروبة الأول مخلصًا كانت «الطلقة» الأولى التي أيقظت المحدثين من سباتهم العميق بعد إغفاءة أو إغماءة طويلة المدى فكل شاعر حجازي وجد أو يوجد بعد صرخة «شوقي» في عنقه «طوقِ» من منَّة «شوقي» بآية أنه المنبه الأول والداعي الوحيد للحجاز في الجَوَلان في هذا الميدان، يقول شوقي في مهرجانيته العظمى:

يا عكاظًا تألف الشرق فيه — من فلسطينه إلى بغدانه
افتقدنا الحجاز فيك فلم نعثر — على قسه ولا سحبانه

وقد استجاب بعض شعراء الحجاز بصيحة شوقي ووجهوا إليه قصائد ذات مستوى رفيع ومنهم الأديب الشاعر فؤاد شاكر الذي وجه إليه قصيدته المشهورة ومطلعها:

يا أمير النهى ورب بيانه — هذه روضه وأغصان بَانِه

وهكذا بايعت جميع الأقطار العربية شوقي عن رضىً واختيار ويجوز أن يكون هناك بعض ظروف ساعدت على إقامة مهرجان الإمارة ولكن من المبالغة والتطرف في الحكم أن تكون العوامل التي ساعدت على هذه الإمارة محصورة في المجاملة أو الرياء أو التدليل ومصير هذه العوامل في الأشياء الثلاثة فيه إساءة لمجموعة من الأدباء والشعراء في مصر وفي خارج مصر وكلهم اعلام الفكر والبيان في عصرهم، ومهما يكن من أمر فإن موضوع إمارة شوقي ليست ذات أهمية كبيرة وسواء اعتُرف به أميراً للشعر أم لم يعترف به فإن ذلك لن يؤثر في مكانته وسيظل رغم كل شيء رائد الشعر الحديث ـ كما قال الأستاذ الأنصاري فلنعد ـ إلى موضوع القصيدة.

لقد رأينا كيف أن الأستاذ العواد قد أثنى على شوقي ومجد شعره وفنه ووصفه بكثير من أوصاف التقدير والإعجاب وقال بصراحة:

فشاد به للشعر صرحًا ممردًا — ولم يك هدَّامًا وقد قام بانيًا

وقد نشرت هذه القصيدة في ديوان «نحو كيان جديد» المطبوع ١٩٥٥م فهل رجع العواد عن رأيه؟ وهل كان هو نفسه ضحية لأحد العوامل الثلاثة (المجاملة أو الرياء أو التدليل)؟ ولماذا يكون ضحية؟ ومن الذي فرض عليه أن يرثي شوقي هذا الرثاء البارع أو يثني عليه الثناء الجميل؟ وخاصة بعد أن انتقل شوقي إلى جوار الله وانقطعت أسبابه بأسباب الحياة ولم يعد هناك مجالًا للمجاملة أو الرياء أو التدليل وكيف نستطيع أن نوفِّق بين رأي الأستاذ الأخير عن شوقي وما كاله له من أنواع السباب وما حرص على أن يلصقه به من شتى التهم محاولًا تجريده من كل ميزة أو افتنان ونبوغ؟ كيف نستطيع أن نوفِّق بين رأي الأستاذ العواد في قصيدته ورأيه الذي نشره على الناس منذ قريب؟ وهل هناك ما يبرر هذا الاختلاف الكبير أو النقد العجيب - إن شئت الحقيقة؟ أم أن كل عيب شوقي هو الاستشهاد بشعره في نقد ديوان الأوزان الباكية؟ وهل هذا السبب وحده كافٍ لأن يهوي العواد بشعره وبمجده إلى الحضيض؟ وأن يرجع عن رأيه فيه؟ وهل يصح أن ينسب هذا التصرف إلى ناقد يعتبر نفسه في الطليعة هذه أسئلة نضعها أمام القارئ الواعي ولن يعيه الجواب وهو جواب لن يحدد منزله شوقي في عالم الأدب، فهي ممددة واضحة، ولكنه سيحدد منزلة الأستاذ العواد في عالم النقد.

شوقي وأخطاء الآخرين

فكرت طويلًا قبل أن أقدم على كتابة هذا البحث وسبب ذلك أنني أكره أن أعزف عن رسالة النقد الحقيقية أو أنساق وراء أولئك الذين يَجرُّون الآخرين جرًّا في طريق مضلل لا يوصل إلى هدف واضح أو غرض نبيل كما أكره أن أحيد عن الخطة التي رسمتها لنفسي منذ أول يوم أخذت فيه معالجة شؤون النقد في الأدب، وهي خطة قائمة على احترام الآخرين مهما كانت ثقافتهم أو كفاءاتهم أو أقدارهم في الحياة الاجتماعية، وهي قائمة كذلك على إبراز الأثر الفني بمحاسنه وبعيوبه دون التعرض لكاتبه بمدح يخرج عن دائرة النقد إلى دائرة المجاملة والنفاق أو قدح غرضه التشويش والتشهير والتشنيع.

ولكن التزام الخطة القاسية في مجتمعنا الأدبي بما يحيط به من خوف وتراجع وانهزامية من أكثر الأدباء وتسلط وادّعاء وعنجهية من بعض الأدباء فيه صعوبة لا تعدلها صعوبة.

ولقد عبر الأستاذ نعمان يونس تعبيرًا رائعًا عن هذه الحالة المؤسفة المزعجة في كلمة قصيرة نشرها في العدد ١٤١٤ الصادر في ٨ جمادى الأولى ١٣٨٣هـ من جريدة الندوة فقال: «حدثني صديق من الأدباء أنه قرأ رأيًا اعتباطيًّا غريبًا لأديب كبير لا يستطيع ازدراءه على الرغم من إعجابه بالأديب الكبير فقلت: لم لا ترد عليه وتنقد رأيه؟ قال: إن الأستاذ حروري أزرق، قلت: وأي شيء هذا الحروري الأزرق أفادك الله؟ قال: فتش عنه بطون الأشعار، ومن أيام قرأت في العقد الفريد ما يلي:

كتب ابن هشام عن جعفر بن برقابه قال: سألت ميمون بن مهران قلت:... كيف ترى في الصلاة خلف رجل يذكر أنه خارجي؟ فقال: إنك لا تصلي له وإنما تصلي

لله، فقد نصلي خلف الحجاج وهو حروري أزرق، قال: فنظرت إليه فقال: أتدري ما الحروري الأزرق؟ هو الذي إن خالفت رأيه سمَّاك كافرًا واستحل دمك! وكان الحجاج كذلك. ثم يقول الأستاذ نعمان:

ما أكثر الحروريين الأزارقة في صفوف أدبائنا الأعلام وأكثر منهم أولئك الذين يرتعدون خوفًا من سطوتهم وسلاطة أقلامهم. فيا لضياع الآراء الصافية التي تنبجس من الثقافات الهادفة، وتقارع الحجج، ويا لضعف الأمل في ازدهار النقد الرصين».

ومن المؤكد أن أكثر القراء مَرُّوا بهذه الكلمة دون أن تثير فيهم شعورًا بالثورة والغضب أو حتى الاشمئزاز من هذه الحالة.

ولكن هذه الكلمة رغم قصرها تعبّر تعبيرًا صادقًا عن الغيظ المكظوم في نفوس المثقفين والحنق المكبوت والثورة العارمة التي لا تجد سبيلها إلى الانطلاق.

لقد جنى هؤلاء «الحروريون الأزارقة» على أدبنا جناية لا تغتفر فأضعفوا من شأنه وحَدُّوا من آفاقه ووضعوا السدود والمتاريس في طريقه فلا يندفع أو يتدفق، وهكذا غار ماؤه وأصبح يتوارى خلف المقالات الصحفية والتعليقات الخاطفة وكلها عفو الخاطر ووحي الساعة وبِنْتُ اللحظة، وأصبح من الظواهر المألوفة في أدبنا (اختراع) الأعذار للتخلص من نقد كتاب أو تقديم ديوان، فهذا يعتذر بضيق الوقت، وذاك يعتذر بكثرة المؤلفات، وثالث يعتذر بالسفر، أو بما تيسر له من أعذار! والعجيب في الأمر أن أولئك «الحروريين الأزارقة» يصرون على أن يظلوا كذلك، فهم معجبون بسلطانهم، يملأ الكِبر أعطافهم وعقولهم ويسد عليهم كل نافذة يمكن أن يصلهم منها نسيم الحرية. كما أن أولئك «المرتعدين خوفًا» لا يزيدهم الزمن إلا رعدة وخوفًا، من جرّاء ذلك يهذل الأدب ويخفت صوت النقد وتضيع القيم بين هؤلاء وأولئك، وكل ما يفعله المتحمسون من الشباب عندما يشعرون بوطأة «الحروريون» هو التأوه والتفجع والتحسر وكل ذلك لن يجد فتيلًا. ولو أنهم أضافوا إلى ذلك شيئًا

من الشجاعة ووقفوا في ثقة وإيمان يعبرون عن وجهة نظرهم ويدافعون عن الحقيقة ويصححون المفاهيم الخاطئة لحققوا مكاسب أدبية لا يستهان بها.

لقد راعني هذا الوضع المؤسف فأخذت أسير في الخطة التي انتهجتها لنفسي في محاولة للقضاء على الركود الذي يسيطر على النقد والنقاد وصدر في هذه الأثناء ديوان «الأوزان الباكية» وتناوله بالنقد الهادئ الرصين صديقنا الأستاذ/ حسن عبدالله القرشي وسررت لذلك واعتبرتها بادرة طيبة، فنقده موضوعي بعيد عن التحامل أو الإثارة، ولكنني فوجئت بالأستاذ/ العواد (يهجم) بدون ترفق ولا استبقاء على الأستاذ القرشي (مقلدا) طريقة البطل القديم (عنترة بن شداد) فارس بني عبس، مستغلًّا رقة الأستاذ القرشي وكرم نفسه وجمال طبعه ونبل خلقه وشديد حيائه وعظيم وفائه ولقد كان الأستاذ القرشي عند حُسْن ظن الأستاذ العواد فقد تقبل هجومه بالرضا والانسحاب، وبذلك أعاد الثقة إلى نفس العواد بعد أن كاد يفقدها، وكنت أتوقع أن يكون الأستاذ «القرشي» قد اكتسب بعض صفات «فارس بني عبس» بعد أن رافقه كثيرًا وصاحبه طويلًا صحبه امتدت سنوات حتى أخرج عنه كتابه القيم «فارس بني عبس» الذي وصفه المؤلف نفسه في العدد الأخير من مجلة الإذاعة بأنه «قد صدر حلقة في سلسلة لا يمكن لشخص لا يحمل شهادة الماجستير أو الدكتوراه أن ينشر فيها وهي سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية التي تصدرها دار المعارف بالقاهرة» كنت أتوقع ذلك ولكن الأستاذ القرشي آثر الحسنى كما فعل أخ له من قبل وهو «شاعر الوطنية» حافظ إبراهيم وغلبه طبعه. وخلا الجو للأستاذ العواد كما خلا من قبل للقُبَّرة المعروفة الخالدة في أدبنا العربي فأخذ يستعيد سلطانه ويصدر أحكامه العجيبة بعد أن هيأ الأستاذ القرشي له الفرصة.

ووجدنا أنه لا مناص من الدخول في نقاش مع الأستاذ العواد وإلا فقد انحرفنا عن الخطة التي رسمناها لأنفسنا، ونصحني صديق بألَّا أفعل، ووصف الأستاذ العواد بكلمة وردت في شعر عنترة، ورغم ذلك ورغم ما سمعته من الأستاذ العواد ـ ورغم

ما قاله لي صديقي الأديب الرقيق الأستاذ عبدالله بن إدريس من أن العواد يتقول عليك ما لم تقل ثم يبني على ذلك أحكامه العجيبة كما فعل في نقده لكتاب «شعراء نجد المعاصرون»، أقول رغم كل ذلك كنت حَسَنَ الظن بالأستاذ العواد وكنت أعتقد أن أكثر الأخطاء التي وقع فيها تعود إلى حماسته وتسرعه وعلى هذا الأساس أخذت في مناقشته فلم أخرج عن حدود اللياقة والأدب، أو كما عبر الأستاذ الجليل أحمد عبدالغفور عطار في مقاله المنشور بالعدد ١٨٦ من الرائد الصادر في ١٣٨٣/٥/٢٦هـ حيث قال: «وثار الأستاذ عبدالعزيز الربيع في جريدة المدينة المنورة ثورة لم تخرجه عن الأدب وحسن المقال في نقده» ولكن الأستاذ أثبت أنني «حسن الظن» أكثر مما ينبغي، وأن حكمة الشيخ صالح بن عبدالقدوس في بيته الذي كتب لها الدوام والاستمرار، فقد انهال علينا الأستاذ سبًّا وشتمًا وتجريحًا في خطابه بجريدة المدينة ثم وجد أن ذلك «غير كافٍ» لفرض وصايته الفكرية وأستاذيته على الناس فكتب مقالا آخر ووضع له «لافتة» عريضة كتب عليها: «على هذا المستوى يكون النقد» ونظرت إلى هذا المستوى الذي يتحدث عنه الأستاذ فماذا وجدت؟

١ ـ أهمل الأستاذ العواد جميع النقاط التي ناقشناه فيها وأثبتنا بالدليل خطأه فيها فلم يعرض لها من قريب أو بعيد. واعتبرنا عمله هذا تسليمًا بصحة ما ذهبنا إليه.

٢ ـ لم يتخل الأستاذ عما اعتاده من حشو مقاله بكمية طيبة من رصيده في الشتائم فأضاف إلى ألقابه التي تفضل فمنحها لشوقي لقبًا جديداً نرى من الواجب أن نلفت إليه الأنظار فما يجوز أن يغفل عنه القراء واللقب الجديد هو «الكسيح المثير للضحك» ولسنا ندري من هو الكسيح المثير للضحك؟ أهو الشاعر الذي «ملأ الدنيا وشغل الناس» حتى لقد أصبحت الكتب التي ألفت عنه تملأ مكتبة وأصبح شعره على كل لسان وذكره في كل مكان أم هو «الشاعر» الذي سوَّد عشرات الصفحات بما سماه شعرًا ومع ذلك فلا يعرف الناس له بيتًا مشهورًا أو حكمة مذكورة؟!

٣ ـ لجأ الأستاذ العواد إلى عادته حين يعجزه المنطق ويعوزه البرهان فحشر في كلامه عن شوقي كلمة «شاعر الإسلام» ولكن الأستاذ قد أعياه البحث عن شيء يتكئ عليه وخاصة بعد أن شعر بفشله في كسب عطف الناس على دعاواه السابقة وجد في «شاعر الإسلام» شيئًا يمكن أن يسترد به ما فقد من القراء والأصدقاء، ونحب أن نطمئن الأستاذ بأننا لا نرمي بكلامنا هذا إلى التخلي عن قضية شاعر الإسلام التي أثارها اعتباطًا وبقصد استغلالها استغلالاً سيئًا، أجل فنحن لا نريد الإعراض عنها لأننا نعتقد أن «شوقي» هو خير من يستحق هذا اللقب من شعراء العصر الحديث، وإذا لم يقنع الأستـــاذ المفضـــال فعليه أن يثبت العكس ومن المؤكد أن أية مقارنة بين شوقي وغيره من شعراء العصر الحديث ستوصلنا حتمًا إلى هذه النتيجة.

ولعل الأستاذ المفضال يدهش إذا أخبرناه أن أستاذًا جامعيًا كبيراً ألف كتابًا ضخمًا عنوانه «الدين والأخلاق في شعر شوقي» نقتطف منه بعض المقاطع؛ فالأستاذ العلامة مؤلف الكتاب يقول: «وتتمثل روحانية شوقي الفنية في الإشادة بفضل الدين وإجلال آدابه والتغني بأيامه وامتداح رسوله الكريم والصفوة الممتازة من أبطال المسلمين ثم في إكبار الفضائل النفسية والدعوة إليها كلما واتت مناسبة أو دعت داعية».

ويقول الأستاذ العلامة: «ومهما يكن من شيء فلم يكن شوقي في شعره الروحي كما تكون الصورة الناقلة أو المرآة العاكسة تجلو الصور على علاتها وفي أي وضع تكون ولكنه كان الباحث المصلح والشاعر الصناع ينظر في أحوال قومه وعشيرته وفي أحوال جيرته وأبناء ذويه يترصد الأحداث التي تصيبهم والأطوار التي تمر بهم يصور في كل أولئك شعره فيسير في الناس فنًا بارعًا ومتاعًا بريئًا وإن فيه ـ مع ذلك ـ لهداية وتقويمًا وإصلاحًا وإن فيه لدعوة إلى الحق وتشجيعًا عليه وصداً عن الباطل وتنفيراً من التورط فيه، وفيه غير ذلك مما يتطلبه الموقف وتقتضيه الحاجة.

هذه حال شعره الروحي من الناس، أما حاله من الأدب فقد جدد الاهتمام بشعره الديني ودعا عملًا إلى القول فيه والاقتداء به بعد ما سكت عنه الشعراء دهرًا».

ويقول العلامة: «وشعر شوقي الروحي أحق عندي أن يدرس قبل أشعاره الأخرى لا لأنه فقط أجلُّها موضوعًا وأشرفها غايةً وأطهرها منزعًا، ولكن لأنه أيضًا أصفاها معدنًا وأشدها إشراقًا وأبرؤها من شوائب المطامع والأهواء».

هذه سطور قليلة نقلناها من كتاب الأستاذ العلامة علي الجندي أحد الأساتذة بجامعة القاهرة من كتابه القيم «الدين والأخلاق في شعر شوقي» فهل ترى يقتنع بها الأستاذ العواد أم أنه سيضيف الأستاذ العلامة إلى قطيع «الحمُر المستنفرة»؟! ومن الغريب أن شوقي المترف الذي نشأ في العز ودرس في فرنسا واطّلع على الآداب الأجنبية وخاصة الأدب الفرنسي لم يمجِّد أي إله من آلهة اليونان أو الرومان بل من المدهش أن نعرف أن قصيدته التي قالها بعد أن انتخب رئيسًا لجماعة «أبوللو» الشعرية التي أنشأها الدكتور أحمد زكي أبو شادي ليس فيها أي تمجيد لهذا الإله الوثني بينما لو حاولنا أن نحصر عدد المرات التي ورد فيه اسم هذا الإله الوثني في دواوين الأستاذ العواد ومقالاته لأعيانا الحصر من كثرتها. وتصور الفارق الكبير بين الاثنين في الظروف والتربية والبيئة والثقافة ثم ضع إلى جانب كل ذلك عمل الأول في تمجيد الإسلام وعمل الثاني في تمجيد آلهة اليونان والرومان والوثنية! ولك أن تدهش بعد ذلك حين تقرأ غيرة الأستاذ العواد على الإسلام وتهجمه على شوقي من أجل أبيات قالها في مدح الإنجليز لها أكثر من وجه وأكثر من تفسير، وقد أشار بعض الباحثين إلى أن شوقي قال قصيدته عن «شكسبير» عندما كان في منفاه مبعدًا عن مصر وأنه قصد بها مداهنتهم ليعيدوه إلى مصر من ذلك المنفى السحيق، وبالرغم من أن هذا العذر لم يشفع لشوقي في نظر هذا الباحث فإننا نراه عذرًا مقبولًا وشافعًا ذا قيمة كبيرة. وليس رأينا هذا مبينًا على التعصب لشوقي وتبرير أخطائه ـ كما يفعل الأستاذ العواد مع «بعض» تلامذته ومن يعجب بهم من الأدباء

ولكنه رأي مبني على فكرة إنسانية فمن الخطأ الكبير أن نحكم على تصرفات إنسان بعيدًا عن ظروفه وملابسات حياته لأن ذلك الحكم سيكون قاسيًا ظالـمًا بعيدًا عن العدل والحق. وليكون الحكم صحيحًا بعيدًا عن الخطأ يجب أن يضع الناقد نفسه موضع المنقود ثم ليحكم بعد ذلك. لنتصور رجلًا مترفًا كشوقي تضطره الظروف إلى أن «ينفى» من بلده ليعيش وحيدًا غريبًا بعيدًا عن أهله وأصدقائه وملاعب صباه ومراتع شبابه.

إن «النفي» عن الأوطان عقوبة كبيرة فهي نوع من القتل النفسي فالقرآن المجيد يقول: **﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا أن يُقتَّلوا أو يُصلَّبوا أو تُقطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفَوْا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾**.

فاعتبر الله سبحانه وهو العليم بأسرار الخلق أن النفي عقوبة صارمة ووصفها ضمن العقوبات الأخرى بأنها خزي في الدنيا.. نعوذ بالله.

فاضطرار شوقي إلى أن يقول قصيدة كقصيدته عن «شكسبير» - مع كل التفسيرات السيئة التي أوردها العواد وغير العواد - اضطرار له ما يبرره، ومع ذلك فقد عبر شوقي عن رأيه في الإنجليز كشعب ولم يغفل عن النواحي الاستعمارية في سياسة الإنجليز فعبر عنها بأسلوبه الذي يتناسب والظروف التي تحيط به، ولو كان شوقي من بلد غير مصر التي يسيطر عليها الإنجليز وقال قصيدته هذه لما أثارت كل هذه التعليقات ولكن الخطأ أنه قالها والاستعمار يجثم على صدر الشعب المصري فاعتبرت - في عهود الاستقلال - مداهنة وتملقًا للإنجليز لا تليق بشاعر وطني، ولكن لو نظرنا إليها في ضوء الظروف المذكورة أيضًا لوجدنا أن الخَطْب أيسر من أن يثير كل هذه الضجة التي اختلط فيها الحق بالباطل واستغلها خصوم شوقي أشنع استغلال.

ومن العجيب أن قصيدة شوقي هذه - وهي قصيدة «معتدلة» إذا قيست بغيرها - أثارت من الضجيج والعجيج ما لا يكاد ينقطع، مع أن بعض أنداد شوقي نظموا

قصائد أخرى في مدح الإنجليز والثناء عليهم وبالغوا في ذلك مبالغة شديدة، ومع ذلك لم تثر قصائدهم ما أثارت هذه القصيدة بل مر بها أكثر النقاد مر الكرام وحاول بعضهم تبرير ما صنعوا ولكنه كان تبريرًا متصنعًا مُتَكلَّفًا، ويمكن تفسير هذا بأن مجد شوقي الأدبي وعظمته الشعرية أوجدت له كثيرًا من الخصوم ينتقصون قدره ويتتبعون أخطاءه ويبرزون نقائصه، ويخلقونها - إن لم توجد - ويؤولون أقواله وتصرفاته تأويلا يتفق مع غاياتهم ومآربهم.

وهناك شاعر مصري مشهور سماه الناس شاعرًا وطنيًّا، وشاعر الشعب، وشاعر النيل، واقترن اسمه باسم شوقي؛ هو حافظ إبراهيم، لقد كانت الشهرة التي أضفاها عليه النقاد لأسباب كثيرة - ومنها الغض من شأن شوقي غطت هذه الشهرة على «أخطاء» وطنية وقع فيها «شاعر الوطنية» فمن ذلك أنه نظم قصيدة يدعو فيها - كما يقول مؤلف كتاب «وطنية شوقي» - السلطان حسين كامل «إلى موالاة الإنجليز لأنهم كرام ميامين النقيبة ذوو مُلْك مَجيد وخُلُق حَميد وليس مثلهم في صدق الود ومعونة مصر!!» لنستمع إلى حافظ وهو يقول:

فعش للنَّيل سلطانًا أبيًا ... له في مُلْكِه عقد وحَلٌ
ووال القوم إنهمُ كرام ... ميامين النقيبة أين حَلُّوا
لهم مُلْك على التاميز أضحت ... ذراه على المعالي تستهل
وليس كقومهم في الغرب قوم ... من الأخلاق قد نهلوا وعَلُّوا
فإن صادقتهم صدقوك وُدًّا ... وليس لهم إذا فتَّشتَ مِثْلُ
وإن شاورتهم والأمر جد ... ظفرت لهم برأي لا يَزِلُّ
وإن ناديتهم لباك منهم ... أساطيل وأسياف تسل

وهذه قصيدة واحدة من عدة قصائد أثنى فيها حافظ على الإنجليز ومجد ملكهم ودعا لهم بالنصر والتأييد، وربما عدنا إليها في فرصة قريبة.

ويقول صاحب كتاب «وطنية شوقي» بعد أن عرض لبعض الشعراء الذين مدحوا الإنجليز، ومنهم حافظ قال: «هؤلاء الشعراء ملومون إذًا وأقلُّهم ملامة شوقي؛ فقد كان في أضعف حالاته أقوى عزيمة وأعز نَفْسًا من حافظ، فلم يشد بالإنجليز كما أشاد حافظ ولم يصور مصر ضعيفة ذليلة تستظل بجناح إنجلترا كما صورها حافظ».

ونضيف نحن إلى ذلك أن لشوقي بعض العذر - إن لم يكن كل العذر، كما أسلفنا - ومع ذلك فلم يندفع كما اندفع غيره ولكن ما عذر حافظ «شاعر الوطنية» «وشاعر الشعب» «وشاعر النيل» الذي يمجده عباس محمود العقاد ويرفعه فوق شوقي درجات؟ وما رأي الأستاذ العواد وآراؤه في شعر شوقي التي تكاد تكون هي آراء العقاد مصبوغة بلون قاتم؟!

والأستاذ العواد في اعتبار نفسه واعتبار الخائفين المرتعدين من سطوته هو الناقد الأول وميزته التي «ينفرد» بها بين الأدباء هي قدرته البارعة على النقد، ونحن لا نحب أن نسأل عن الأثر الفني الذي قدمه الأستاذ في عالم النقد لأننا نعرف أنه لم يقدم سوى بعض مقالات حفلت بألوان السباب والتهجم والدعوى، ولو جردنا مقالاته من ذلك لما وجدنا شيئًا وحتى هذه اللحظة لم يقدم دراسة جادة أو نظرية نقدية سليمة.

وليعرف القراء مدى تفهم الأستاذ لمهمة الناقد نذكر لهم بعض أمثلة وردت في مقاله الذي نحن بصدده عن شوقي هذا المقال الذي يطلب إلينا فيه أن يكون النقد على مستواه!

يقول الأستاذ العواد: «ولتكن قصيدة شوقي عن شكسبير هي الأطروحة المفضلة في هذا البحث لأنها أو هي الحجر الأساسي فيه ولأنها هي القطعة المعدنية التي وضعناها في البوتقة في أول مقالة كتبناها في الشهر الماضي..» وإن سألت الأستاذ العواد: ولماذا اخترت هذه القصيدة بالذات؟ فلن تحصل على جواب علمي تطمئن

إليه بل ستسمع كلاما كثيرًا مثل قوله: إنه كتب ما كتب لإبراز «الهلفتة» والانسلاخ من الشعر الحي عند هذا الشوقي المرموق عند جماعة اللافكريين»!!

وتسأل أي مطّلع على أصول النقد عن قصد الأستاذ العواد في الحكم على شاعر من خلال قصيدة واحدة فيجيبك بكل قوة وصراحة بأن هذا العمل خطأ في المنهج النقدي، فما يجوز أبدًا تقويم أديب أو شاعر أو رسام من خلال قطعة من النثر أو قصيدة من الشعر أو لوحة مرسومة ولو أردنا أن نطبق طريقة الأستاذ العواد في النقد على شاعر مهما بلغت عظمته كالمتنبي مثلًا فهل ترانا نعجز عن النزول به إلى الحضيض الأوهد. ولو قام ناقد وأخذ قصيدة واحدة من قصائد العواد وطبق عليها نظرية العواد نفسه وخرج بنتيجة تؤكد ضعف المستوى الفكري وتخلخل الأداء النفسي واضطراب التعبير البياني عند الأستاذ فهل تراه يتقبل هذه النتيجة بصدر رحب أم تراه يومها يملأ الدنيا صراخًا ووعيدًا واستنكارًا ويتهم الناقد بالجهل والغباء وعدم الفهم وقصر النظر.

هذا خطأ وقع فيه الأستاذ العواد نتيجة تسرعه وتحمسه واحتضانه آراء فَجّة. وما نعتقد إلا أن الأستاذ سيبادر إلى تصحيح هذا الخطأ النقدي والعدول عن هذه الطريقة المعوجة.

أما إذا أصر على خطته النقدية الخاطئة فنحن مضطرون إذًا أن نصدق ما قاله الأستاذ عيسى الناعوري الناقد الأردني المعروف وصاحب مجلة «القلم الجديد» المحتجبة حين قرأ «معلقة» العواد أو ملحمته الشعرية: «الساحر العظيم» ويد الفن تحطم الأصنام مع أن هذه «المعلقة» باعتبارها أثرًا فنيًا متكاملًا تصلح للحكم عليها، والأستاذ الناعوري أديب ناقد له وزنه ومكانته ورأيه في هذه المعلقة لن يرضي الأستاذ العواد بحال من الأحوال ويبدو أن «الساحر العظيم» قد عجز عن «سحر»الأستاذ الناعوري.

وإذا كان الأستاذ العواد قد قال: «ولو كان للرجل ـ شوقي ـ محامون بارعون لساقوا الأستاذ الربيع إلى محكمة بدعوى أنه ورط موكلهم فيما لم يخطر على بال أحد أن

يتورط فيه» إلى آخر كلامه. والمحامي ـ كما يعرف الأستاذ العواد ـ ليس (ضمانا) لنجاح القضية، فما بالك وقد نجحت فعلًا ـ كما رأى القراء فيما سبق، وكما رأوا في هذا المقال ـ نقول: إذا كان الأستاذ العواد قد قال ذلك فكيف يكون حكمه على تصرفاته هو وقد أوقع نفسه ـ نتيجة لها ـ في مأزق يصعب الخروج منه؟!

وخطأ آخر وقع فيه الأستاذ العواد عندما قال: «والذي يجعلني أهتم بصفة خاصة لهذا الموضوع هو القيمة الفلسفية والقيمة الفنية الحقيقية للشعر» فقياس الشعر على أساس القيمة الفلسفية قياس خاطئ فليس الشعر هو مجال الفلسفة ولا ميدانها، وقل أن تعثر على شعر ذي قيمة فنية إذا كان صاحبه فيلسوفًا اهتم بإبداعه نظريات الفلسفة وافتراضياتها ولو أحب ناقد أن يطبق هذه النظرية على الشعر العربي بل وغير العربي واعتبرها أساسًا لمقدرة الشاعر وروعة الشعر لأخرج أكثر الشعر وطرد أكثر الشعراء ولأصبح الشعر نوعا من نظم المتون.

ومن الواضح أننا نعني الفلسفة بمعناها الواسع الدقيق. أما الحكمة فلها شأن آخر، وليس من الضروري بعد هذا أن نعود إلى الكلام الكثير الذي كتبه عن قصيدة شوقي في «شكسبير» ومحتوياتها ولكننا نحب أن نسجل عليه بعض أخطاء في (الفهم) وخطأ كبيرًا في (العلم) وأشهد أنني كنت ـ رغم النقاش الهادئ بيني وبينه ـ كنت أكبره وكنت أنسب الأخطاء التي تورط فيها إلى الحماسة والسرعة، ولكنني شعرت ـ بعد وقوع الأستاذ في الأخطاء التي وقع فيها أخيراً ـ بكثير من خيبة الأمل، فهل من المعقول أن يفهم الأستاذ العواد التعابير الشعرية والبيانية هذا الفهم الملتوي الذي لا يخطر على بال أي مثقف؟!

لا بأس من أن يحاول الناقد الانتصار في معركة الرأي ولكن بالأساليب المنطقية المعقولة والمفهومة، أما أن يلجأ إلى تحميل الكلمات ما لا تحتمل وأن يخرج عن المعنى الواضح السامي القريب إلى معنى يتكبد له مشقة السفر ووعثاء الطريق فذلك أمر لا يليق بناقد يحترم نفسه.

لقد أخذ الأستاذ العواد يفسر بيت شوقي «أغلى الممالك ما كرسيه الماء» تفسيرًا لم يخطر أصلًا على بال الشاعر ولا على بال أحد ممن قرأوا شعره وحاول أن يربط بين هذه الشطرة من بيت شوقي وبين الآية القرآنية الكريمة ﴿وكان عرشه على الماء﴾ ولو كانت النصوص تفسر بهذه الطريقة لأصبحت البلاغة العربية عبثًا في عبث.

وتصور شاعرًا إسلاميًا يقول:

إني تذكرت والذكرى مؤرِّقة ... مجدًا تليدًا بأيدينا أضعناه
أنَّى اتجهت إلى الإسلام في بلد ... تجده كالطير مقصوصًا جناحاه
ويح العروبة كان الكون مسرحها ... فأصبحت تتوارى في زواياه
مُلك كمُلك بني التاميز ما غربت ... شمس عليه ولا برق تخطاه
ما دين أحمد إلا نور معرفة ... شق الوجود وليس الجهل يغشاه

تصور شاعرًا يقول هذه الأبيات في تمجيد الإسلام والتحسر على ماضي العروبة فيأتي ناقد - كالأستاذ العواد مثلًا - فيحكم بأن الشاعر خارج عن الإسلام لأنه وصف ملك الإنجليز بأنه ملك لا تغرب عنه الشمس ولا تتخطاه البروق وهذا الملك لا يمكن أن يكون إلا لله ونظرًا لأن الشاعر قد نسب ذلك إلى الإنجليز فقد خرج عن نطاق الإيمان.. والعياذ بالله، ترى لو فعل ناقد ذلك فما هو حكم «العقلاء» عليه؟!

وقد كفانا الأستاذ لقمان يونس مؤنة تبيان ما في كلام الأستاذ العواد من خطأ وخطل فقال - في مقاله المنشور في جريدة الندوة في العدد ١٤١٤هـ الصادر في ١٣٨٣/٦/٨هـ بعنوان «العرش الذي على الماء» ما يلي:

«لا أعتقد أننا في حاجة إلى سؤال المسلمين المستنيري البصيرة ولا السياسيين أو الجغرافيين أو الوطنيين عن المعنى الذي يعنيه المرحوم أحمد شوقي من مطلع قصيدته في شاعر إنجلترا الأكبر وليم شكسبير «أعلى الممالك ما كرسيه الماء» فحسبنا أن نتوجه بالسؤال إلى حصافة أستاذنا الكبير محمد حسن عواد الذي يدرك قبل أي إنسان آخر أن بريطانيا في أيام شوقي وإلى أيامنا هذه دولة كبرى جُل اعتمادها حتى

في تأمين أقوات بنيها على البحار وأن سيطرة أساطيلها الجبارة على بحار العالم هي التي مكنتها من التوسع وإملاء إرادتها على الشعوب ولقد فطن نابليون إلى «شعر شمشون» هذا فكان همه الأول أن يخنق بريطانيا عن طريق الاستيلاء على قواعدها البحرية وتدمير سفنها، فأي خطأ عقائدي أو تعبيري أو علمي في أن يقال: إن بريطانيا - وهي أقوى وأعتى دولة فعلا في عصر شوقي - قامت عظمتها - والعرش والكرسي رمز صادق لها - على الماء؟

نعم أي خطأ عقائدي أو تعبيري أو علمي في ذلك؟ ذلك سؤال نشترك في توجيهه مع الأستاذ لقمان إلى الناقد الأول الأستاذ العواد. وكلام الأستاذ لقمان هو التفسير الواضح القريب الطبيعي المنطقي لقول شوقي ولكن كيف يتمكن الأستاذ العواد من تحقيق أهدافه في تجريح شوقي لو فهم هذا الفهم السهل الواضح الذي لا غموض فيه ولا التواء؟ هذا هو الخطأ الأول.

أما الخطأ الثاني - وهو خطأ في الفهم أيضًا - فينصب على الفهم العجيب الذي فهمه الأستاذ من قصيدة شوقي في تحية ثوار دمشق ومن بيته:

دم الثوار تعرفه فرنسا ... وتعلم أنه نور وحق

وهو فهم بعيد كل البعد عن أن يكون طبيعيًا ومنطقيًا ومن الغريب أن قصيدة شوقي هذه وعنوانها «نكبة دمشق» والتي ألقيت في مؤتمر أقيم بمصر لتأييد سورية[1]، قد غاظت هذه القصيدة فرنسا حتى لقد حرمته أن يزور بلاد المغرب الخاضعة لها - على رغبته في الزيارة - ولو كان الأمر كما يقول الأستاذ العواد لرحبت به فرنسا أجمل ترحيب، ويصف أحد الباحثين هذه القصيدة فيقول: «وقصيدته - نكبة دمشق - تحية لدمشق وجزع مما أصابها وتمجيد لماضيها وحاضرها لعزازتها وحزن لما أحدثه الفرنسيون بآثارها الإسلامية المجيدة واستنكار

(١) القيت القصيدة في حفل لإعانة منكوبي سورية بمسرح حديقة الأزبكية في يناير ١٩٢٦م لما ضربها الأسطول الفرنسي بمدافعه ٢٤ ساعة.

شديد لوحشيتهم وحملة صادقة عليهم وتنديد بهم لأنهم تنكروا لمبادئ ثورتهم التي زعموا أنها كانت قد نادت بالحـ:ريـــ:ة والإخـــاء والمساواة، وإن حرارة العاطفة تتجلى في كل بيت من أبيات القصيدة الخمســـة والخمسين» ويقول الباحث الكبير: «ثم تهكم بفرنسا لأنها نكلـــت بالأحرار في سوريا عقابًا لهم على نشدان الحرية ونسيت أن الفرنسيين قد ثاروا في آخر القرن الثامن عشر ينشدون الحرية وأن الدماء التي أريقت على أرض فرنســـا كانـــت مباركة نافعة غزت الثورة وأقامت دولة جديدة.. فيا للعجب كيـــف تتنكر لماضيها وتستبعد الأحرار وتنكل بالمجاهدين وهذا ما يفهمه كل ذي عقـــل سليم وبصيرة نيرة ولذلك فليس من حق الأستاذ العواد أن يتساءل: «أليـــس في هذا البيت تنويه بوطنية فرنسا يحشر حشرًا شاذًا في قصيدة يندد بها عن وطنيـــة السوريين.. أوليس هذا البيت وما معه مدحًا للثورة الفرنسية المشهـــورة؟..» إلى آخر أسئلته التي لا تقوم على أساس والتي يهدف من ورائها إلى حاجـــة في نفس يعـــقوب.. والجواب أنه ليس في هذا البيت تنويه بوطنية فرنســـا بل فيه سخـــرية مرة بالدولة التي تدعي أن ثورتها حققت العدالة والحـــرية والمساواة ثم ترتكب في سوريا ما يناقض ذلك تمامًا، وليس في هذا البيت وما معـــه مدحًا للثورة الفرنسية بل فيه تهكم بارع..»

وقد أشرت في بداية الحديث إلى ما حدثني به الأستاذ عبدالله بن إدريس من أن الأستاذ العواد يقوّلك ما لم تقل ويغير في النصوص المنقولة لتحقيق أغراضه على طريقة «زنا فحده» وقد وجدت مصداق ذلك في البيت الذي نقله عن شوقي فقد نشر البيت هكذا:

دم (الأحرار) تعرفه فرنسا ... وتعلم أنه (صدق) وحق

وصحة البيت كما ورد في الديوان وكما أشار الأستاذ لقمان في مقالة بالندوة هو:

دم (الثوار) تعرفه فرنسا ... وتعلم انه (نور) وحق

وقد استغل الأستاذ العواد ـ بسوء نية ـ كلمة «الأحرار» التي لم يكتبها شوقي وبنى عليها بناء طويلًا ولكنه يشبه البناء الذي يقوم على أساس من الملح فقد اكتشف النقاد (تغيير) الأستاذ العواد كلمة (الثوار) واستبدلها بكلمة (الأحرار) وبذلك سقط كل البناء الذي أقامه الأستاذ العواد وعلى القراء أن يرجعوا إلى مقال الأستاذ ليروا البناء وقد انهار وأصبح أثرًا بعد عين، ولو كانت هناك محكمة للنقد لوجب أن يحاكم أمامها الأستاذ على تغييره النصوص الأدبية والشعرية لغرض غير كريم.

والفرق واضح بين كلمة «الثوار» وكلمة «الأحرار» وكلمة «صدق» وكلمة «نور» وما يمكن أن تؤديه كل كلمة من المعاني من خلال سياق البيت.

ولا أدري ماذا يمكن أن تسمى هذه العملية في عرف القانون وفي عرف النقاد إنني أترك ذلك للقراء وللتاريخ الأدبي.

وخطأ آخر «في الفهم» وقع فيه الأستاذ وما أوقعه فيه إلا رغبته الصادقة في تكديس الأخطاء والمآخذ على شوقي ـ على اعتبار أن ذلك سيهوي بمجده ـ ولو حرص الأستاذ على أن يكون في جانب الحق من غير تحيز أو تعصب أو انحراف لما «تكدس» على نفسه كل هذه الأخطاء ولما وقع في الحفرة التي حفرها لشوقي.

يقول الأستاذ العواد: «فأين وطنية شوقي في دعوة شكسبير لأن يقوم من قبره ليؤيد الحق، ولو حصلت هذه المعجزة ـ على الفرض أيظن شوقي بكل حسن النية هذا أن شكسبير سيتخلى عن تأييد سياسة بلاده ونصرها وينحاز إلى جانب المصريين» وهنا ـ كما يرى القراء ـ أكثر من خطأ فدعوة شوقي لشكسبير لأن يقوم من قبره ليؤيد الحق لا يجوز أن يفهم منها أن شوقي يجهل أن الأموات لا يبعثون إلا يوم الحشر والحساب ولكن المفهوم الواضح السليم ـ بعيدًا عن التعنت ـ هو تذكير الإنجليز بما كان يردده شاعرهم الذي يعتزون به من دعوات لتثبيت الحق ومحاربة لغرائز الشر ومدافعة لعدوان الباطل، ولعل ذلك يضعف من شرهم ويكفكف من غلوائهم. ولذلك فليس هناك ما يدعو الأستاذ العواد إلى أن يقول: «ولو حصلت هذه

المعجزة على الفرض» فشوقي يعرف أنها لن تحدث، وما رأى الأستاذ العواد في هذا المقطع من قصيدة لشاعر سوري معاصر هو الأستاذ أمجد الطرابلسي قالها بمناسبة الاحتفال بالعيد الألفي للمتنبي، يقول مخاطبًا المتنبي:

يا أبا الشعر أين منك دوي ... هو للظلم والطغاة وعيد
أين صيحاتك التي تتنادى ... بصداها يوم الزحام الأسود
قم واصرخ بين الغفاة مهيبًا ... فلقد طال بالنيام الهجود
واثر نخوة الضراغم حتى ... يرخصوا كل مهيبة ويجودوا

نعم ما رأي الأستاذ العواد في هذا المقطع الرائع من القصيدة العصماء حقًّا، وهل كان أمجد الطرابلسي يعتقد أن المتنبي سيقوم حقيقة من قبره ليصرخ بين الغفاة مهيبًا بهم وليثير نخوة الضراغم من شباب العرب، أم أن كلا الشاعرين كان يتمتع بسذاجة نادرة وغباء لا حد له، وأمجد الطرابلسي كما يعرف الأستاذ - أو كما لا يعرف - «دكتور» في الآداب من السوربون وأستاذ بجامعة دمشق.

أما الخطأ الثاني فهو افتراض الأستاذ العواد أن شكسبير لو قام من قبره فإنه لن يتخلى عن تأييد سياسة بلاده، ولست أدري كيف عرف الأستاذ العواد ذلك وهل من المستحيل أن يحدث هذا، إن الأمر سهل قريب وأمامنا الآن دليل حي قائم، فالقراء يذكرون - دون شك - تلك «العريضة» التي وقعها قبل عامين مئات من أعلام الفكر الفرنسي والمثقفين ونجوم السينما من الفرنسيين واستنكروا فيها بشدة سياسة الحكومة الفرنسية في الجزائر ونددوا بالعدوان الفرنسي، والمثقفون من القراء يذكرون عددًا من الكتب أصدرها كتاب فرنسيون بارزون وقفوا فيها إلى جانب الشعب الجزائري يؤيدون حقه ويدعمون كفاحه ويندون باعتداءات الجيش الفرنسي وأعماله الشائنة، وأستطيع أن أذكر أكثر من كتاب.

وجورج برناردشو الكاتب الإنجليزي المشهور، ألم يقف في صف المصريين يدافع عنهم ويؤيد وجهة نظرهم؟ أما خطأ الأستاذ العواد في «العلم» فهو جهله بأقدار الأدباء

وبما ينشر من مؤلفات رغم أنه «الناقد الأول» أو «الناقد الأكبر» فقد زعم ـ حفظه الله ـ أن مؤلف كتاب «وطنية شوقي» رجل من النكرات، وأرجو أن يتمالك الأستاذ نفسه وأن يضبط أعصابه ـ كما ضبطها حين تحدث عن ديوان «الأوزان الباكية» ـ لأنني سأخبره بأن مؤلف هذا الكتاب ليس نكرة من النكرات ـ مع بالغ الأسف ـ ولكنه أستاذ للأدب العربي في «جامعة القاهرة وجامعة الملك سعود بالرياض» هو الدكتور «أحمد محمد الحوفي»!!

فكيف غفل «الناقد...» عن ذلك؟ والمفروض أن يكون على صلة مستمرة بكل التيارات الأدبية، ولكن الأستاذ معذور فأين يجد الوقت للقراءة والاطلاع وهو مشغول بالتهجم على خلق الله، وبتغيير الحقائق؟ ولو قام أحد الأدباء بعملية إحصائية لكلمات الشتائم ـ الواردة في آثار الأستاذ الأدبية ـ لخرج برصيد ضخم لا يستهان به.

كتاب عن شوقي

وشوقي صديق قديم عرفته منذ كنت طالبًا في المرحلة الابتدائية... عرفني به وإليه أستاذ فاضل كان من المعجبين به المقدرين لشاعريته... ولقد حفظت في تلك السن المبكرة مجموعة منتقاة من شعره.. وأتاحت لي الأيام بعد ذلك فرصة قراءة كثير مما كتب الكتاب والناقدون عنه فزادت معرفتي به وقويت صلتي بأدبه حتى كان ذات يوم وُجِّهت إلى جريدة البلاد السعودية طائفة من الأسئلة بعث بها إليها طالب من القصيم يطلب مني الإجابة عليها وكانت مجموعة طيبة من الأسئلة تدور كلها حول شوقي؛ حول شعره وفنه وأثره في الشعر وإمارته ومنزلته الشعرية ومكانة الشعر قبله وبعده وأجبت على هذه الأسئلة إجابة مطولة نشرتها الجريدة المذكورة كاملة ولكن بالرغم من ذلك ظلت بعض النقاط في حياة شوقي وأدبه غامضة في نظري تحتاج إلى جلاءٍ وإيضاح وسبب ذلك أن أدب التراجم في الأدب العربي لا يزال ضعيفًا بل ربما لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إنه أدب نادر لا يلقى العناية الكافية من الأدباء والنقاد. مع اعتراف الجميع بأهميته في تطور الأدب وفي فهم الأدب العربي كله.

وبعد ذلك فيما نتصور إلى أننا ننظر إلى الأخلاق من نظرة من خاصة تختلف كثيرًا عن نظرة الغربيين إليها ثم إننا نفترض وجود علاقة قوية بين الأدب والأخلاق الفاضلة بالإضافة إلى أن الحديث عن الحياة الخاصة للأديب يعتبر تطفلًا وحشرًا للناقد أو المترجم فيما لا يعنيه، وكل هذا صرف الأدباء والناقدين في الأدب العربي عن أدب الاعتراف وأدب التراجم.

وربما كان أحسن الأدباء حظًا في عصرنا الحاضر هو المرحوم مصطفى صادق الرافعي فقد أتاحت له صداقته القوية بتلميذه وصديقه الأستاذ محمد سعيد العريان أن كتب عنه الأخير بعد وفاته ترجمة دقيقة ممتعة لعلها الترجمة الوحيدة

التي تستحـــتق التقـــدير والإشادة ولعل مما ساعـــد الأستاذ العريـــتان في مهمـــته أن الأســـــتاذ الرافعـــي كان رجـــلًا متدينًا وأن حيـــاته تميل إلى الاستقامة والفضيلة.

ونعود إلى شوقي ـ طيب الله ثراه ـ فقد كنت ولا أزال من المعجبين به وأقرأ كل كتاب يصدر عنه، وقد وقع في يدي أخيرًا كتاب باسم «حياة شوقي» ومع أن الكاتب مؤلف غير معروف فقد راقني اسم الكتاب وتوقعت أن أجد فيه شرحًا للنقط الغامضة التي سبق أن أشرت إليها وقرأت الكتاب وكان كما توقعت أو قريبًا مما توقعت على وجه الدقة فقد تحدث مؤلفه عن حياة شوقي الخاصة حديثًا شائقًا ممتعًا ووضع كثيرًا من النقاط على الحروف ومع أنه قال في مقدمة الكتاب: «عزمت أن أطرح الحسد والحقد واستمسك بالحقيقة كما ألمسها أنا فكل ما علمته واعتقدت أنه حق أودعته صحائف هذا الكتاب».

ومع ذلك فإن المؤلف لم يستطع أن يتحدث بصراحة تامة عن الكثير من الموضوعات التي تمس حياة شوقي بل كان يضطر إلى أن يقدم للموضوع الذي يريد الحديث عنه بمقدمات طويلة ليمهد ذهن القارئ لما يريد قوله وليتخلص مما قد يثيره حديثه من ألوان الاستنكار الذي يتوقعه من القارئ العربي وبعد أن يصل إلى موضوعه يحاول أن يصوغه في أسلوب يسير ولا يحدد ويومئ ولا يصرح، ويغمغم ولا يبين، ولا نشك في أن للكاتب عذره بعد أن عرفنا بعض الأسباب فيما سبق وحين نعرف أن أبناء الشاعر وأقاربه كلهم أحياء يحتلون مراكز لها قيمتها في الحياة الاجتماعية ولكن كل هذا لا يسوغ لنا أن نتجاهل قيمة هذا الكتاب ولا أن نهون من شأنه فلقد سد هذا الكتاب فراغًا في مكتبة شوقي ومؤلف الكتاب قضى في صحبة الشاعر اثني عشر عاما وهي فترة غير قصيرة وكانت تربطه بالشاعر وأولاده روابط وثيقة وهذا يدلنا على أن المؤلف كان أهلًا لما تعرض له من حديث عن شوقي الشاعر وعن حياة شوقي.

عقد المؤلف عن نشأة شوقي فصلًا تحدث فيه عن طفولته وعن أبيه وجده وأمه وجدته وعن علاقة أسرته بالقصر وعن أثر هذه العلاقة في نشأته ودراسته، والمطّلع على تاريخ شوقي يشعر بأن هذا الفصل لا يحوي معلومات جديدة ولكنه يروي في تسلسل حياة الشاعر وفيه إشارات وملاحظات لها قيمتها وخاصة ما ورد فيه ظهور بوادر تشير إلى المستقبل العظيم الذي بلغه الشاعر في دنيا الشعر.

وعقد المؤلف بعد ذلك فصلًا عن صفاته وعاداته، وهو فصل له أهميته وقيمته بالنسبة لمن يعني بتاريخ شوقي، وفيه وصف دقيق لصفات الشاعر وحديث طويل عن عاداته، وفيه حقائق لا يستغني عن معرفتها الباحثون، ومن شذوذ العبقرية فيه، ومن اتصاله بطوائف من الناس والأصدقاء، ومن إقباله على أنواع من المآكل والمشارب، وفيه تحديد لبعض الصلات ذات الأهمية بالنسبة لحياة الشاعر الخاصة. فهو من أهم فصول الكتاب ويجد فيه الباحث النفساني تفسيرًا لكثير من حوادث الشاعر وأشعاره.

أما الفصل الثالث في الكتاب وهو عن (أخلاق) شوقي فيعتبر متمما للفصل السابق إذ هما فصلان يتمم أحدهما الآخر وقد بدأه بتمهيد عن كلمة الأخلاق وعن تضارب الأفهام في تحديد معناها وضرب طائفة كبيرة من الأمثلة للتدليل على رأيه وتحدث عن عدد من الأدباء المشهورين في الآداب العربية والغربية وذكر ألوانا من أخلاقهم ثم دخل إلى موضوعه فتحدث عن شوقي في ضوء حوادثه التي وقعت منه وقد علق على بعضها والتمس له العذر في بعضها الآخر ونسب أكثرها إلى ما سماه بشذوذ العبقرية.

وهذا الفصل كسابقه له أهمية كبرى لدى الباحثين في التاريخ الأدبي أو الناحية النفسية لشاعر ونرجو أن نعود لشوقي فندرسه على ضوء ما ورد في هذا الكتاب من أخبار شوقي وحوادثه وهناك فصل آخر في الكتاب هو الخامس بالنسبة لترتيب المؤلف ولكنه وثيق العلاقة بالثلاثة الفصول الأولى التي تحدثنا عنها وجزء متمم لما وضعه المؤلف تحت عنوان (طرائفه معي) وهي حوادث لها طرافتها حقًّا ولها دلالتها

على نفسية شوقي وتفكيره وجهازه العصبي ويبقى من فصول الكتاب ثلاثة فصول إحداها وهو السادس والأخير بالنسبة لترتيب المؤلف تحدث فيه عن الأيام الأخيرة للشاعر وعن التبدل الذي طرأ عليه وعن نظرته إلى الموت وهو فصل حزين ولكنه مشوق، من أهم المعلومات التي وردت فيه أن شوقي نظم كل مسرحياته ـ باستثناء كيلوباترا ـ في فترة مرضه الذي أسلمه إلى الموت.

أما الفصلان الآخران فقد عنون لإحداهما (شوقي الشاعر) وعنون للثاني بعنوان (شوقي وحافظ) ويبدو للقارئ لأول وهلة أنهما فصلان لدراسة شعر الشاعر وعقد مقارنة بينه وبين حافظ والواقع أنهما فصلان استعرض المؤلف في الفصل الأول منهما بعض قصائد الشاعر التي عارض فيها المتقدمين من الشعراء كالمتنبي والمعري والبحتري وأبي تمام وحاول أن يصدر أحكاما في الموازنة بين الاثنين رغم أنه لم يقصد موازنته بالمعنى الفني.

وحدثنا بعد ذلك عن عناية شوقي بالتاريخ وأثر ذلك في شعره ثم عن (شوقي وجزالة الألفاظ) ونفى الزعم القائل بأن (شوقي) مهتم بالمعاني دون الألفاظ، وتعرض لما سماه (إضافاته اللفظية) وأشار إلى ما فيها من جمال (لم يسبق إليه في اللغة العربية) وأتى بطائفة من الشواهد، وتحدث عن عناية شوقي بالوصف وقال عنه إنه: (كان شاعر وصف من الطراز الأول) وعرض لبعض أوصافه وخاصة وصفه للنخيل وعجب من أن الشعر العربي لم يتغنَّ به مع أنه فاكهة العرب.

ونقل قصيدة شوقي في وصف النخيل وهي قصيدة جميلة حقًّا ورائعة، وأشار إلى الأغراض الأخرى التي تعرض لها الشاعر كالرثاء والوطنية والحكمة والإسلاميات والغزل وأثناء حديثه عن الحكمة في شعر شوقي ذكر المتنبي وحاول أن يعقد مقارنة عابرة بين الحكمة في شعر الشاعرين وفعل مثل ذلك أثناء حديثه عن الغزل فقد وازن بين العاطفة في شعر شوقي وشعر قيس بن الملوح، وتحدث عن مسرحياته

وعن علاقتـه بشعراء عصره ورأي الكتاب والشعراء فيه وأشار إلى طريقته في نظم الشعر وفي نثره وتطرق لموضوعات أخرى لها أهميتها بالنسبة لمن يدرسون شعر شوقي وآثاره.

وقد تحدث المؤلف في الفصل الثاني عن العلاقة بين الشاعرين شوقي وحافظ وأورد طائفة من الحوادث والنوادر التي وقعت بين الشاعرين وهو فصل ليست فيه مقارنة تفصيلية ولكنها إجمالية على أن لهذين الفصلين قيمتهما الأدبية التي لا يستهان بها فالمؤلف لم يقم بدراسة دقيقة وافية لشعر الشاعرين ولكنه قدم للباحثين والأدباء حوادث وأخبارًا تعينهم على الدراسة والبحث، ومن الغريب أن المؤلف كان معتدلًا في أحكامه الأدبية اعتدالًا يدعو إلى التقدير ولكن هذا الاعتدال لم يعجب كاتب المقدمة الأستاذ (عزيز أباظة) فلم يرض عن حكم المؤلف عندما وازن بين المتنبي وشوقي في مجال الحكمة وقدم المتنبي على شوقي وقال عن رأيه هذا إنه: (رأي فيه نظر) فشوقي كان أعمق فكرًا وأبعد مدى وأوسع ثقافة من المتنبي وآية ذلك أن ديوان المتنبي لم يضم بين دفتيه قصيدة برمتها في التأمل وفلسفة الحياة، اللهم إلا تلك القصيدة القصيرة التي مطلعها:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا　　　وعناهم من أمره ما عنانا

وما ورد بعد ذلك من شعر الحكمة في ديوانه فهو أشتات متناثرة بعضه وليد التجربة والبعض الآخر إما مقتبس من شعر أسلافه أو متفرع عن حكم الإغريق وغير الإغريق ومستخلص منها ولسنا نعرف للمتنبي مذهبًا فلسفيًّا محدد المعالم والأصول وإنما هي خطرات لا تؤلف بينها وحدة في رأي أو عقيدة أو مذهب، وهكذا نجد الأمر عند شوقي فما كتبه في هذا المجال لا يدخل في نطاق الفلسفة الحق مثله في ذلك كمثل صديقه المتنبي وإن امتاز شوقي - بصفة عامة - بإشراق الديباجة ويسر الأداء ووضوح التنغيم وجمال الطلاوة وهذه المميزات من أهم خصائصه الشعرية وهي التي مهدت له السبل إلى منافسة المتنبي والاستعلاء عليه في كثير من الحلبات

التي استبقا فيها وبينها حلبة الحكمة ولعل شوقي قد وفق أبعد توفيق في تحديد مكانته من المتنبي بهذا البيت المشهور:

ولي درر الأخلاق في المدح والهوى　　　وللمتنبي درة وحصاة

وحين نقارن بين الشاعرين في مجال الحكمة نكاد نقطع بأن شوقي كان أغزر من المتنبي مادة وأشد أصالة.

ثم يشير الأستاذ عزيز - كاتب المقدمة - إلى قصيدة شوقي المشهورة:

ألا حبذا صحبة المكتَبِ　　　وأحبب بأيامه أحبب

ويأتي بها مثلًا مؤيدًا لما يقول، وينتقل بعد ذلك إلى شعر الرثاء وبعد أن يتحدث طويلًا يقول في هذا اللون من الشعر: «تجد شوقي السباق المجلي في استخلاص العظة الخالدة» ويزيد فيقول: «إن فن شوقي يضفي على معانيه وضوحًا يسمو بها عن كل لبس وإبهام في حين أن المعنى ذاته عند المتنبي يتطلب كد الذهن وإمعان الفكر حتى يتضح ويبين» ويقارن بين بيتين للمتنبي وشوقي حيث يقول الأول:

من أطاق التماس شيء غلابًا　　　واغتصابًا لم يلتمسه سؤالًا

ويقول الثاني:

وما نيل المطالب بالتمني　　　ولكن تؤخذ الدنيا غلابًا

كما يقارن بين بيتين آخرين فيقول المتنبي:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد　　　ذا عفة فلعله لا يظلم

ويقول شوقي:

قسمًا لو قدَروا ما احتشموا　　　لا يَعِفُّ الناسُ إلا عاجزين

وهكذا يحاول الأستاذ عزيز كاتب المقدمة أن يستنكر حكم المؤلف بتفضيل المتنبي فيصدر أحكامًا غريبة لا نعتقد أن أحدًا من النقاد يوافقه عليها وقد اعترف الأستاذ عزيز بأن الشاعرين يتفقان في عدم وجود مذهب فلسفي واضح المعالم لكل منهما.

أما إشراق الديباجة ووضوح التنغيم ويسر الأداء والتي اعتبرها كاتب المقدمة من مميزات شوقي فإن المتنبي يشاركه فيها والأدلة على ذلك أكثر من أن يحصيها العد، ولا شك أن كاتب المقدمة أسرف حين قرر أن شوقي نافس المتنبي واستعلى عليه، وحين وافق شوقي على أن له درر الأخلاق وللمتنبي درة وحصاة، فالمتنبي قمة شامخة في الأدب العربي لا يعتقد أن شوقي يطاولها.

أما الموازنة التي عقدها بين الشاعرين وخرج منها بتفضيل شوقي ففيها نظر وأي نظر فبيت المتنبي:

من أطاق التماس شيء غلابًا ... واغتصابًا لم يلتمسه سؤالًا

أجمل وأروع وأدل على المعنى من بيت شوقي:

وما نيل المطالب بالتمني ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وخاصة حين تضم بيت المتنبي إلى البيت الذي قبله:

إنما أنفس الأنيس سباع ... يتفارسن جهرة واغتيالًا

من أطاق التماس شيء غِلابًا ... واغتصابًا لم يلتمسه سؤالًا

فالبيتان يكونان صورة جميلة رائعة مستكملة لنفوس الناس وما جبلت عليه وتجد فيها نوعا من التماسك المحبب لا تجده في بيت شوقي، كما أن بيت المتنبي:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفة فلعله لا يظلم

أروع وأدل على المعنى من بيت شوقي فالمتنبي يقرر أن الظلم من شيم النفوس ثم يستدرك فيذكر أن الذين لا يظلمون - إن وجدوا - فلا شك أن هناك علة تمنعهم من الظلم فهي صورة واضحة المعالم لا نجدها في بيت شوقي:

قسما لو قدروا ما احتشموا ... لا يَعِفُّ الناسُ إلا عاجزين

على أنه لو صح أن بيت شوقي أدق في تصوير المعنى من بيت المتنبي، فإن ذلك لا يكفي في الدلالة على تفوق شوقي على المتنبي واستعلائه عليه.

ولم يرض كاتب المقدمة عن الحكم الذي أصدره المؤلف عن غزل شوقي وقال عنه: (ونحن نستطيع أن نؤكد أن شوقي لم يكن شاعر غزل قط فكل ما صدر عنه من الشعر الرقيق في هذا الباب إنما هو وليد صنعة متقنة ولم يكن ينبع من قلبه إنما كان ينبع من فنه).

ولم يرض هذا الحكم الأستاذ عزيز رغم قول المؤلف: (ولقد حدثني شوقي ـ رحمه الله ـ قائلا: إنه لم يعرف اللوعة في الحب قط). ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يتعرض لما أورده المؤلف من مقارنة بين أبيات أوردها لكل من الشاعرين - شوقي وابن الملوح - في الحب وخرج منها بهذه النتيجة: «وقد أراد أن يستعلي على المجنون كعادته في معارضته للشعراء ولكنه فشل فالمجنون صادق اللوعة وشوقي يصطنعها» بل اكتفى بأن يفرق بين عاطفة الشاعر الحضري وعاطفة الشاعر البدوي وحاول أن يتخذ من هذه الفروق عذرًا لشوقي ولكن هيهات.. فالشعر الغزلي في ديوان شوقي شعر مصنوع وأسباب ذلك يعرفها مؤرخو شوقي ويعرفها بصورة خاصة من يقرأ كتاب (حياة شوقي) الذي نتحدث عنه، ويبدو أن كاتب المقدمة شعر بضعف دفاعه وتهافته عن شوقي في موضوع الغزل فقال: (وإذا كانت عاطفة شوقي في الغزل كالسلسل الهادئ فإنها صلصلة كالتيار المندفع تتجاوب أصداؤها فيما نظم عن العرب والعروبة).

وما دمنا قد قد عرضنا لبعض ما ورد في المقدمة التي كتبها الأستاذ عزيز أباظة فإن من الواجب أن نشير إلى نقاط مهمة جدًا أثارها الكاتب عن مسرحيات شوقي ومن الخير للباحثين في شعر شوقي وأدبه عامة أو المسرحية الشعرية بصورة خاصة أن يمعنوا النظر في هذه النقاط التي أوردها الكاتب في مقدمته، ولا نشك بعد ذلك في أن النقاد الذين نقدوا مسرحيات شوقي سيعدلون كثيرًا من أحكامهم وسيعرفون تماما الأسباب والملابسات التي نظم شوقي بها مسرحياته، وسيعرفون له فضله وجهده في خدمة الأدب العربي.

وبعـــد فهذا كتاب رائع عن شـــوقي فيـــه متعة وفيه دراسة عن شوقي وعصره وفيه تصوير للمجتمـــع الأدبي عامة فهو سجـل للتاريخ الأدبي في عصر من أزهى العصور.

ولا نشك ـ كما سبق أن قلنا ـ في أنه سد فراغًا في مكتبة شوقي الخاصة والمكتبة العربية عامة.

شوقي والآخرون

هذه جناية من جنايات الأستاذ القرشي على الأدب فلو أنه آثر الصمت ولم يعرض لديوان (الأوزان الباكية) أو عرض له كما فعل غيره بكلمات قصيرة تحمل معنى التمجيد والإعظام لكفانا وكفى اللغة والأدب شر طائفة من الأحكام أطلقها أديب من الرواد الأوائل في تاريخ أدبنا الحديث.

ولكن الأستاذ القرشي وقد تسلطت عليه شهوة الكلام أو الغيرة على الأدب أو الإخلاص للفن أو كلاهما معًا أبى إلا أن يعرض لديوان (الأوزان الباكية) بعدد من المقالات الطوال وإن لم يشفع لها تعددها أو طولها من أن تنال حكمًا من الأحكام التي أشرنا إليها (فهو - القرشي - يصف الديوان وصفًا عابرًا لا دليل فيه على نية التحليل) كما يقول أديبنا الكبير.

وهذا (الوصف العابر) الذي قام به الأستاذ القرشي ليعرف الناس بشاعرة ناشئة ليقدمها إلى القراء والمثقفين أثار ثائرة الأديب الكبير فوقف يدافع في حماسة وحرارة عن ديوان الشاعرة وأخطائها.

والدفاع بالحق أو بالباطل أمر لا اعتراض لنا عليه ولكننا نعترض كل الاعتراض على قلب الحقائق الواضحة أو تغيير القيم أو تشويه المعاني ولن يشفع للأحكام المرتجلة حماسة أو حرارة أو اندفاع.

وقد وقف الأديب الكبير يدافع عن خطأ نحوي وقعت فيه الشاعرة كان أعجب دفاع سمعته أو قرأته حتى اليوم فقد أهملت الشاعرة رفع فعل كان يجب أن يكون مرفوعًا بالواو والنون لأنه من الأفعال الخمسة وكان في إمكان أديبنا الكبير أن يعتذر عن الشاعرة بأنها في بداية الطريق وأنها بمرور الأيام ستقوى شاعريتها ويشتد

عودها وتستطيع التخلص من الضعف اللغوي والنحوي ولكن أنى يستطيع ذلك وقد بدأ مقالته فوصف الشاعرة بأنها (الخنساء الثانية) (الخنساء الجديدة) أو (خنساء الجزيرة العربية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين، والعشرين والحادي والعشرين الميلاديين) إلى آخر ما ورد في «الرائد»، كيف يستطيع أن يقول ذلك بعد أن قال ما قال، لقد لجأ إلى أسلوب آخر يعتبر غاية في الطرافة إذ قرر أن الشاعرة على حق في حذف النون، ولماذا؟ (لأن الشعر أكبر من اللغة الحرفية والشعر هنا يفرض ويمهد ويستنكر ويسهدون لسببين فنيين.

أولا: تحقيق الموسيقى الخارجية وهي في الشعر أولى بالتقديم من الآجرومية الصبيانية والموسيقى لا تتحقق إلا من اللفظة التي وضعتها الشاعرة أو التي تنازع في وضعها «الأخفش» و«أبو لون» فأصغت الشاعرة إلى «أبو لون» وتركت الأخفش.

ثانيا: أن تفاعيل الوزن قد كملت ولم يبق محل شعرة لهذه النون ثم لماذا لا تلاحظ هذه الملاحظة بالنسبة للشاعر العربي الأصيل الذي فعل في عصر الجاهلية عصر عنفوان اللغة وسلطانها ما فعلته الشاعرة اليوم في عصر تهافت ذلك السلطان الضخم حين غفا حُماته.

عندما قال ذلك الشاعر:

أبيت أسري وتبيتي تدلكي … شعرك بالعنبر والمسك الذكي

إنه لم يقل، وتبيتين تدلكين كما هو الواجب عند جماعة الحروف) نستعرض فيما يلي بعض الأحكام التي أطلقها الأديب الكبير.

تحقيق الموسيقى الخارجية وهي في الشعر أولى بالتقديم من الآجرومية الصبيانية هذه قاعدة جديدة يضعها الأديب الكبير وما نشك في أنها ستستقبل من أدبائنا الناشئين ومن شعرائنا وشواعرنا ومن طائفة كبيرة من دعاة التجديد الذين لا يهدفون إلا إلى التبديد ومن أنصار العامية ومن المستشرقين والمستغربين ومن الحاقدين على العروبة والناقمين على الإسلام ـ ستستقبل من كل أولئك بترحيب حار لا مثيل له،

فأما الناشئون والمجددون والمجددات فإن هذه القاعدة (الذهبية) ستزيح عن كاهلهم إصرًا شديدًا يحول بينهم وبين أن يعبثوا باللغة كما يريدون فما عليهم إلا أن يقولوا شعرًا لا يتقيد بقيد أو قافية فالمرفوع ينصب والمجرور يرفع وليس هناك من داع إلى تطابق بين الوصف والموصوف والقاعدة (الذهبية) حاضرة (الموسيقى الخارجية في الشعر أولى بالتقديم من الآجرومية الصبيانية، وهي كفاية لأن يصكّوا بها وجه أولئك المتعنتين المتحذلقين الجامدين أما أنصار العامية والمستشرقون والمستغربون والحاقدون والناقمون فإن هذه القاعدة ستحقق لهم نصرًا قضوا في سبيل الحصول عليه سنوات وسنوات بل بذلوا الكثير في سبيله من الجهد ومن المال دون جدوى).

إن العرب يتكلمون في كل قطر من أقطارهم لهجة عامية خاصة وكثيرًا ما التقيت بإخوان في المغرب أو السودان أو العراق أو قطر أو جنوب الجزيرة ولكنني لا أستطيع أن أفهم ما يقولون عندما يتحدثون بلهجاتهم المحلية بينما أنني أفهمهم ويفهمونني عندما نتكلم بالعربية الفصحى وأقرأ صحفهم وكتبهم بكل سهولة ويقرأون صحفنا وكتبنا ويفهمونها. ولعل القراء يذكرون حفل الاستقبال الذي أقيم بصالة الاحتفالات بجامعة القاهرة لاستقبال المجاهدة الجزائرية (جميلة بوحريد وزميلتها) وكيف أن جميلة وقفت ترد على تحيات المحيين والمحتفلين باللغة الفرنسية وابتدأت خطبتها بالاعتذار عن ذلك لأنها لا تحسن العربية الفصحى أما اللهجة المحلية فهي بالإضافة إلى أنها ليست لغة الثقافة والفكر لا تفهم، وكانت خطبتها باللغة الفرنسية أشد إيلاما للنفوس وأدعى إلى إثارة الحقد على الاستعمار والمستعمرين.

إن هذه القاعدة التي وضعها أديبنا الكبير هدمت بجرة قلم جهودًا استنفدت أعمار الآلاف من العلماء الأعلام واستطاعت أن تقيم هذا البناء الشامخ الذي نفخر به.

وقد أقام (رجال الآجرومية الصبيانية) كما سماهم أديبنا الكبير ـ من أنفسهم حراسًا على هذه اللغة وكان كل منهم كالديدبان واقفًا بالمرصاد لكل من تسول له نفسه أن

يعبث أو يكسل أو يستهين فهم كانوا لا يقبلون أي تسامح مهما قل لأن التسامح البسيط يفتح الثغرات إلى أبواب ضخمة وفتحات كبيرة يصعب إغلاقها بل ويستحيل.

إن رجال الآجرومية الصبيانية وجماعة الحروف ـ كما يعبر أديبنا الكبير في السخرية بهم والزراية عليهم ـ جديرون حقًّا بشكر كل عربي وكل مسلم إن لهم في عنق كل عربي وكل مسلم دين لا سبيل إلى أدائه إنهم الحراس الأشداء الأقوياء المخلصون الذين حافظوا على الوحدة العربية التي أقامها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى في أشد عصور الانحطاط بل لعل من المدهش أن يعرف القراء أن العناية باللغة كانت تزيد في عصور الانحطاط فكثير من الموضوعات اللغوية الضخمة والقواميس الكبيرة ألفت في هذه العصور المنحطة.

إن العرب هم مادة الإسلام وكثيرًا ما أوصى بهم النبي الكريم وخلفاؤه من بعده كما كان نبي الإسلام حريص على سلامة اللغة من كل شائبة فقد لحن أحد الناس في حضرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يغتفر ذلك له وقال لأصحابه: «**أرشدوا أخاكم فقد ضل**».

غفر الله للأرواح الطاهرة لقاء ما أنفقت من جهد وعمر ونظر ومداد في سبيل الحرف والآجرومية الصبيانية بل في سبيل إعزاز اللغة وإعلاء دين ورفع أمة.

وبارك الله في أبناء أمتنا العربية الذين لا يزالون يقومون بواجبهم في حراسة اللغة متحدين كل التيارات الخبيثة والاتجاهات المنحرفة، ولعل من المناسب أن أذكر حادثة طريفة ذات دلالة عميقة فمنذ سنوات حضرت حفلا أقامه مجمع اللغة العربية بالقاهرة لاستقبال عضو جديد هو الأستاذ محمود تيمور القاص المعروف وقد قدمه للمجمع صديقه الأستاذ الدكتور طه حسين وقد تحدث الدكتور طه في محاضرته القيمة عن أسرة تيمور وعن ثقافته ومؤلفاته ولكن الدكتور طه لم يغتفر لصديقه خطأً لغويًا وقع فيه وذلك أنه سمى إحدى مجموعاته القصصية باسم (شفاهن غليظة) والصواب كما يعرف المختصون (شفاهن غلاظ) ولذلك نبه الدكتور طه

صديقه إلى هذا الخطأ ولم تمنعه صداقته لتيمور والحفل العام ولا تقدم تيمور للمجمع اللغوي والمفروض في أعضاء المجمع أنهم يحيطون باللغة ويلمون بأسرارها وقواعدها لم يمنعه كل ذلك من أن يسجل عليه في أول يوم يدخل فيه المجمع هذا الخطأ الذي وقع فيه وكأنه ينبهه إلى أنه لا هوادة في أمر اللغة ولا تسامح وقد أكبرت يومها طه وشعرت بسعادة لا توصف.

(إن تفاعيل الوزن قد كملت ولم يبق محل شعرة لهذه النون).

وهذا حكم عجيب كسابقه أو قاعدة جديدة فما دامت تفاعيل الوزن قد كملت فعلى اللغة وقواعدها السلام وحسب كل شاعر أن ينظم على هذه الطريقة التي تروق له وأن يعبث بقواعد اللغة كما يشاء وإذا سأله سائل قال إن تفاعيل الوزن قد كملت فلا عليّ من سؤالك، وهل نستطيع بعد ذلك لأن نميز الشاعر المتمكن والموهوب من الشاعر الضعيف المتصنع الذي يريد أن يكون شاعرًا بالقوة فتخونه قدراته وتعوقه ضوابط اللغة. لقد كان هذا الشاعر - فيما سبق - يتهم اللغة بالعجز والتقصير في التعبير عن المعاني الرائعة التي تجول في خاطره أما الآن وعلى ضوء هذه القاعدة الجديدة التي وضعها الأديب الكبير فقد حلت مشكلة من أعقد المشاكل.

إن هذه القاعدة - كسابقتها - فيها خطورة على اللغة وفيها تجاهل لمقاييسها وضوابطها ومتى أهملت المقاييس والضوابط فقد انحلت وانتهى أمرها. وهل يتمنى أعداء العربية مصيرًا لها شرًا من هذا المصير.

أما استدلال الأستاذ الكبير بالبيت:

أبيت أسري وتبيتي تدلكي   شعرك بالعنبر والمسك الذكي

فنحن واثقون كل الثقة من أن الأستاذ لا يجهل أبدًا أن الاستدلال غير قائم كما يقولون.

لأسباب ليس أهمها أنه بيت منفرد لا يوجد ما يؤيده فهو شاذ يحفظ ولا يقاس عليه وأن اللهجات قبل الإسلام كانت مختلفة ثم أخذت في التقارب إلى أن سيطرت لهجة

قريش والحجاز وبها نزل القرآن وإننا لو اتخذنا من هذا البيت وأمثاله من الشواهد الشاذة دليلا نتبعه لقضينا على اللغة العربية السليمة وعلى القواعد التي اكتسبت صفة القوة والإجماع، فلهذه الأسباب وغيرها مما لم نذكر فإن الاستشهاد بهذا البيت غير وارد رغم تلك العبارات البراقة التي حاول الأستاذ أن يلف بها القضية حتى تبدو وكأنها قضية مسلّمة.

مع شوقي والآخرين

في حديث الأستاذ القرشي عن ديوان الأوزان الباكية عرض لبيت ورد في الديوان هو:

ونبارك العهد الأمير وكلنا   قلب يهب بهمة تتجدد

وتساءل الكاتب عن مقصد الشاعرة في جملة (العهد الأمير) وتطرق الكاتب لموضوع الألقاب الاستعمارية التي كان يضيفها المستعمرون على السوريين واللبنانيين وساقه الحديث إلى ذكر نصيحة شوقي للسوريين في بعض قصائده وقد أثارت هذه الكلمة الأديب الكبير فمن هذا القرشي حتى يجرؤ على التعليق على هذا البيت الفريد إنه ليس إلا متعلقًا بأهداب شوقي ومدرسته. ومن هذا (الشوقي) القزم التافه الذي يستشهد به القرشي وكيف يستطيع أن يقف أمام صاحبة الأوزان الباكية (الفتاة العبقرية) التي تملك من الوعي وسعة الأفق ما تغبطها (أو تحسدها) عليه الكثرة الكاثرة من الرجال ومن هذه الكثرة الكاثرة القرشي ولا شك فهو (من المدرسة الاتباعية التي ينتسب إليها شوقي) ثم عاد الأديب الكبير ففسر جملة (العهد الأمير) تفسيرًا آخر واتهم الأستاذ القرشي بعدد من الاتهامات يمكن الرجوع إليها في مقال الأستاذ المنشور في (الرائد) وقال في تفسيره فالتعبير أوضح وأشد بهاء أو إرسالا لتمام معنى كريم من أن يقف أمامه شاعر رقيق يحتار في فهمه ويعلن حيرته ويقرر عدم درايته أن معناه بكل بساطة «أنها - أي الشاعرة - تؤيد وتهنئ هذا العهد الحديث المستقل في لبنان.. إنه إذا أمير العهود التي تقدمت).

وعلى ذلك فليس هناك من داع إلى التعليقات التي كتبها الأستاذ القرشي وأدخل فيها نصائح شوقي للسوريين.

وإذا كان الأستاذ الكبير قد نسب للأستاذ القرشي إصابته بعقدة التذكير بشوقي أو ما سماه بعملية الترتيب أو الجذب إلى الوراء فإننا نرى أن (بعض الناس) مصابة بعقدة (الشوقية العَقَّادية) ولعل أحد علماء النفس ينحت لنا من الكلمتين كلمة واحدة فما دام العقاد يكره شوقي وينقصه فعلينا متابعته في ذلك وهذا نصف العقدة أما النصف الآخر فهو أن (شوقي) رغم كل جهود خصومه يزداد صفوًا وتألقًا وهذا مما يزيد في حنق هؤلاء الخصوم فتربت لهم بمرور الأيام هذه العقدة.

وأصبح مجرد اسم شوقي يثير فيهم مشاعر عجيبة ويدفعهم إلى أن يهبوا من جديد لتحطيم هذه الشخصية التي يخيل لهم الوهم أنهم استطاعوا القضاء عليها وإذا بها تنتفض من جديد معلنة أنها حية باقية رغم كل شيء.

وبتأثير هذه العقدة اندفع الأستاذ الكبير يهاجم شوقي بكل أنواع الهجوم وينقصه بكل ألوان الانتقاص. وكنت أتصور أن ينفي أديبنا الكبير عن شوقي صفة العبقرية وأن يسخر من إمارته وأن يهون من شعره ولكنني لم أكن أتصور أبدًا أن يقول عنه إنه (دجال مخبول) وإنه (الصنم الشركسي الدخيل) وإن أدبه (أدب الموميات الموبوء) فذلك ما كنا نستبعده تماما.

وما كنا نود لو أن أديبنا الكبير نزّه قلمه عنه ولو أنه فعل ذلك لأبعد عن كتابته تهمة التحامل التي لصقت بها فليس من المعقول أن تتفق الكثرة الكاثرة من الناس وفيهم عدد كبير من الأدباء والشعراء والباحثين والناقدين والعلماء ورجال الفكر على تقدير شوقي والإعجاب به وأن تكون هذه الكثرة الكاثرة في ضلال وإذا صح أن للقصر تأثيرًا على الناس في هذه الناحية فماذا يقال عن التقدير الذي حازه شوقي بعد وفاته وبعد أن تغيرت الظروف فمنذ سنوات قلائل أنشئ كرسي للأدب الحديث في جامعة القاهرة أطلق عليه اسم شوقي ومنذ عامين وضع تمثال له في حديقة الخالدين في روما.

إن شوقي واحد من القلائل في الأدب العربي كله لو جمع ما كتب عنه لكون مكتبة ضخمة ولو أردنا أن نقوم بإحصاء لما يكتب عنه لوجدنا كتابًا على الأقل يصدر عنه في كل عام وأمامي الآن ثلاثة من الكتب عن شوقي صدرت في أقل من عامين وهذا ما اطلعت عليه ولعل هناك كتب أخرى صدرت ولم أطلع عليها ومن الواضح أنني أعني الكتب التي تختص من بدايتها إلى نهايتها بشوقي وأدبه أما الكتب الأخرى التي لا تختصه بالحديث فهي أكثر من أن تحصى ومن المصادفات اللطيفة أنني أقرأ هذه الأيام كتابًا صدر منذ شهور قليلة باسم (تراثنا الأدبي المعاصر) للأديب اللبناني الأستاذ نجيب مسعد وقد عرض لشعر شوقي في كتابه وأحب أن أنقل إلى القراء بعض رأيه ليروا الفرق بين أديب يحرص على الدقة في أحكامه وبين أديب لا يهمه إلا التحطيم والهدم يقول الأستاذ نجيب مسعد في الصفحة (١٧٩) من كتابه: (شوقي لا شك بأنه من الشعراء المجلين في هذا العصر ومن أكثرهم إنتاجًا وإن كان البيدر الكبير ليس من المحتم أن يكون كله قمحًا بل يشتمل على التبن والزؤان فهو من حيث الشاعرية موهوب وموسيقى ألفاظه تكاد أن تكون كل واحدة منها ربابة ويغلب على ظني أن الرجل لو لم يكن شاعرًا لكان موسيقيًا وهو قوي الرصف متين التركيب، في الغالب من شعره لا يظهر عليه طابع التكلف والتعقد لأنه شاعر بطبعه فهو شاعر ناظم وليس بناظم غير شاعر ولولا تكراره بالمعنى الواحد حتى ربما في القصيدة الواحدة وإتيانه بالحكم البدهية كقوله:

وكل مسافر سيؤوب يومًا إذا رزق السلامة والإيابا

أجل لولا الإتيان بهذه الحكم التي يسف بها تكرار المعاني واستعماله أحيانا بعض القوافي وألفاظها المهدورة لكاد الرجل أن يقف بصف المتنبي وإن كان المتنبي أعمق غورًا في التفكير وأخصب لفظًا في الدلالة على المعنى).

هذا بعض ما يقوله الأديب اللبناني وأين منه تلك الشتائم التي انهالت على شوقي من قلم أديبنا الكبير وسامر بهذه الشتائم مر الكرام ولكنني سأقف عند جملة واحدة

هي: (الصنم الشركسي الدخيل)، وكلمة صنم تذكرني (بمكتوب) كان قد أطلعني عليه صديقنا الأديب الألمعي الأستاذ/ محمد العامر الرميح وهو المرسل إليه من الأديب الأردني المعروف الأستاذ/ عيسى الناعوري وفي هذا المكتوب كلام حول الديوان الشعري أو الملحمة الشعرية (الساخر العظيم، أو يدُ الفن تحطم الأصنام) لأديبنا الكبير ومع أنني لا أزال أذكر أهم العبارات التي وردت في هذا المكتوب فإنني أرجو صديقنا الأستاذ محمد العامر أن ينشر ما ورد في مكتوبه حول هذا الديوان أو يتفضل بإرسال صورة فوتوغرافية لهذا الجزء من مكتوبه كما أرجو أن يتفضل صديقنا الشاعر النابه الأستاذ/ محمد هاشم رشيد ـ وقد اطلع على مكتوب الأستاذ الناعوري، كما اطلعت ـ أن ينشر ما قرأ ولعل صديقنا الشاعر الأستاذ الصيرفي قرأ ما قرأنا.

أما كلمتا (الشركسي الدخيل) فأنا في دهشة منه فمهما قيل عن شوقي فإنه لَيُسَرُّ كثير من الأمم أن ينتسب إليها وأعتقد أن الشراكسة يقدمون كل ما يعرفون من عبارات الشكر للأديب الكبير على طرد شوقي من حظيرة الأمة العربية ونسبته إليهم وكم من المناقشات والمجادلات ثارت بين الأمم حول أديب أو مفكر أو شاعر لأن كل أمة تحاول أن تكسب فخر انتسابه إليها.

ومنذ شهر تقريبًا احتفلت أسبانيا بذكرى العالم العربي الأندلسي المسلم ابن حزم وإن كان من المؤكد أن ابن حزم لو قام من قبره لأبى أن ينتسب إلى أسبانيا النصرانية الصليبية التي أخرجت العرب والمسلمين وأذاقتهم كل ألوان العذاب والتشريد.

ولا أريد أن أدخل في أبحاث معقدة حول تحديد كلمة العروبة والعرب بيد أنني أكتفي بهذا التساؤل: ترى لو طبقنا هذه النظرية وهي استبعاد كل من كان في عرقه دم أجنبي فكم رجل من رجال الفكر أو العلم أو الفن نستطيع أن نضمه لأمّتنا ولو طبقنا هذه النظرية على المواطنين المحدثين في بلادنا فكم أديب أو عالم أو صاحب قلم نستطيع أن نؤكد عروبته ونسمح له بالانتساب إلى أمّة العرب.

وحسبي هذا فما أحب أن أسترسل في الحديث ولكنني أحب أن أسجل موقفين متشابهين لشوقي.

(الشركسي الدخيل) ولأديبنا (العربي الأصيل) وعلى ضوء تصرف كل منهما نستطيع أن نحكم على مدى إخلاص كل من الأصيل والدخيل للعربية والأدب العربي.

يحدثنا الأستاذ/ إبراهيم عبدالقادر المازني في مقال له بعنوان (بعض الذكريات عن شوقي) فيقول:

(ومما يستحق الذكر أن شابًّا رآني أنقد شوقي فتوهم أن النقد معناه العداء والظلم وإنكار الحق فزارني وشكى إليَّ أنه قصد إلى شوقي يسترشد به في دروس الأدب فأوصاه بدرس كتابين، قال الشاب: فاشتريتهما فإذا هما كتابان في النحو والصرف فأفهمت هذا الشاب أن شوقي لم يخطئ فقد رآه جاهلا بلغته ولا بد لكل من يطلب الأدب أن يطلب أولا اللغة - نحوها وصرفها وفقهها - وإلا فبأي لغة يريد أن يكتب أو يقرأ الشعر. إن هذه المبادئ لا غنى عنها قبل تحصيل الأدب العربي أو معه).

هذا موقف شوقي من ناشئ أحب أن يختصر الطريق وأن يصعد إلى قمة المجد الأدبي من غير جهد ولا عرق ولا سهر وكان في إمكان شوقي أن يغالط نفسه وأن يكسب هذا الأديب الناشئ إلى صفه وأن يجعله من مؤيديه وأن يسهل له الأمر، ولكن حب شوقي لعروبته ولغته كان أقوى من هذا العَرَض الزائل فقال له ما يعتقد أنه الحق وكسب بذلك غضب هذا الشاب الذي أراد أن ينتقم لنفسه من شوقي فذهب إلى خصمه المازني وكان هو الآخر مؤمنًا بعروبته فأكد للشاب أن الطريق الذي دله عليه شوقي هو الطريق الصحيح.

أما الموقف الآخر فهو موقف الأستاذ الكبير من صاحبة (الأوزان الباكية) فبدلا من أن يحثها - وهي ناشئة في بداية الطريق - على دراسة لغتها وأن يدفعها إلى أن تجيد قواعدها وتتعرف على أسرارها وأن تقرح أجفانها بالسهر ومواصلة الجهد نصب

نفسه (محاميا) يدافع عن أخطائها النحوية واللغوية والعروضية ويشجعها على تجاهل القواعد وعلى السخرية برجالها والاستهانة بشأنهم ويقول لها على رؤوس الأشهاد إنها أشعر من شوقي ومن كل شعراء قريش.

هذان الموقفان متشابهان ووضعهما في مجال المقارنة يغني عن البحث الطويل.

فهل لا يزال أديبنا الكبير مُصرًّا على أن شوقي (شركسي دخيل)!

مع شوقي والآخرين

بالرغم من أننا نحرص على أن لا نحذو حذو الأديب الكبير في الدفاع عن شوقي وتبرئته من كل خطأ كما فعل مع صاحبة (الأوزان الباكية) فإننا نحب أن نعلق تعليقًا خفيفًا على بعض النقاط التي وردت في مقاله.

١ - يقول الأديب الكبير عن الأستاذ القرشي: (وكيف ساغ لوعيه أن يقارن بين حديث القصيدة عن انتصار لبنان انتصارًا اجتماعيًا في النصف الثاني من القرن العشرين إلى حديثه هو نفسه - الكاتب - عن الاستعمار الفرنسي في القرن التاسع عشر وفيما يحشر شوقي في أمر لا ناقة له فيه ولا جمل).

وربما كان التفسير الذي عرضه الأديب الكبير لمعنى (العهد الأمير) أقرب إلى المنطق رغم أن التعبير فيه ما فيه ولكننا مع ذلك لا نرى ما يمنع الأستاذ القرشي من أن يقارن - على ضوء تفسيره هو - بين حديث القصيدة وحديثه عن الاستعمار الفرنسي ولسنا مع الأستاذ الكبير في أن الاستعمار الفرنسي للبنان كان في القرن التاسع عشر فقط إذ قد بقي الاستعمار الفرنسي إلى عام ١٩٤٦م ولم يجل الفرنسيون عن سوريا ولبنان إلا في هذا العام تقريبًا، صحيح أن الاستقلال بدأ قبل ذلك بقليل ولكنه استقلال مدخول.

٢ - يقول الأستاذ: لست أرى معنى طبيعيًا للنصح الذي وجهه شوقي إلى السوريين وهم أوعى منه في قصيدته دمشق التي استظهرها الأستاذ القرشي فإن بلاده كانت أحق بهذا النصح).

ونحن نخالف الأستاذ في رأيه فليس هناك ما يمنع شوقي من أن يوجه النصح إلى السوريين وهم جزء من الأمة العربية وكل نصر يحققونه هو كسب للأمة العربية

(وكلنا في الهم شرق) وإذا تجاهلنا الفرق بين الاستعمار الفرنسي والاستعمار الإنجليزي فإن عدم استطاعة شوقي توجيه هذا النصح لشعبه هو لأسباب لا يقوى على مدافعتها لا يمنعه من توجيه النصح لغيره من أمة العرب بلى ربما كان ذلك أدعى إلى توجيه هذا النصح، فقصائده تقرأ وتنشر في مصر - وطريقة إياك أعني واسمعي يا جارة - طريقة معروفة منذ قديم الزمان كان الكتاب والمفكرون يلجأون إلى التعبير عن آرائهم - إذا حالت الحوائل دون تمكنهم عن التعبير عنها - إلى الحديث على لسان الحيوانات والطير أو القصص المنسوبة إلى بلاد أخرى ولم يعب عليهم أحد ذلك، لو كان أديبنا مكان شوقي أكان يستطيع أن يفعل غير ما فعل؟!

٣ - عاب الأستاذ الكبير على شوقي أنه (كان يباهي لأنه ولد على أبواب إسماعيل) ولسنا نعرف أي عيب في هذا، فهل يعاب على الإنسان أن يباهي بأنه ولد في حجر ملك أو عظيم أو بيئة راقية؟ .. يقول الأستاذ نجيب مسعد في الصفحة (١٧٣) من كتابه، (تراثنا الأدبي المعاصر): «ولد أحمد شوقي عام (١٨٨٦م) بباب إسماعيل حيث الغنى والثروة، وحيث الترف والطبقة الأرستقراطية فاعتز بنفسه، ورأى أن الدهر يبتسم له، فتفاءل وتبسَّم خيرًا فلمَّا أتم دراسته الثانوية ذهب إلى باريس حيث الأدب والفن والانطلاق من كبوة القديم فتفتح تفكيره على النهضة الحديثة وأخذ في المسرح الفرنسي فأعجبه فيكتور هوجو وراسين وكورناي ووجد فيهم ضالته المنشودة ودخل علب الليل ووقف على ما يجيش في خاطر الشعب فنقل انطباعاته العربية وعاد إلى وطنه حيث كانت تنتظره المناصب الرفيعة، والثروة الطائلة، ودخل القصر في خدمة الخديوي، وسمعت مصر شدوه فأطربت وثملت، وانتقل هذا التغريد وهذا الإعجاب إلى دنيا العرب، فشاطرت مصر تكبيرها لشاعرها المجيد».

فلم يَرَ الكاتب الباحث أن ولادة شوقي بباب إسماعيل من شأنها أن تحط من شأنه بل بالعكس، ولقد أتاحت له هذه الولادة ظروفًا كم كان يتمنى بعضًامنها حافظ إبراهيم، والغالبية العظمى من شعراء مصر فليس في ذلك (غاية الذلة النفسية) ولا

بدايتها، بل ربما كانت تحمل إلى المباهاة نوعًا من الحب والوفاء لأولياء نعمته، والوفاء محبوب على أي حال.

٤ ـ عاب كاتبنا الكبير على شوقي تملقه للإنجليز في شخص شاعره شكسبير، ونحن لا ندّعي العصمة لشوقي فهو إنسان له أخطاؤه وعيوبه وله ظروفه ومشاكله الخاصة والعامة، ولكننا نستبعد على شوقي أن يتهاون في وطنيته، وشعره الوطني كثير، حتى لقد أصدر أحد المؤلفين كتابًا باسم (وطنية شوقي)، ومع الأسف فإن طائفة من قصائده في ديوانه لم توضح المناسبات التي قيلت فيها ولا الدوافع التي دفعته إلى نظمها، ومن تلك القصائد قصيدته عن شكسبير، وبذلك فقد عُدنا إلى القصيدة نستلهمها السر فوجدنا الشاعر ينهي قصيدته بهذه الأبيات:

يا واصف الدم يجري ها هنا وهنا ... قم انظر الدم فهو اليوم دأماء

لاموك في جعلك الإنسان ذئب دم ... واليوم تبدو لهم من ذاك أشياء

وقيل: أكثر ذكر القتل ثم أتوا ... ما لم تسعه خيالات وأنباء

كانوا الذئاب وكان الجهل داءهمو ... واليوم عِلمُهُمُ الراقي هو الداء

لؤم الحياة مشى في الناس قاطبة ... كما مشى آدم فيهم وحواء

قم أيِّد الحق في الدنيا أليس له ... كتيبة منك تحت الأرض خرساء؟

وأين صوت تميد الراسيات له ... كما تمايد يوم النار سَيناء؟

وأين ماضية في الظلم قاطبة؟ ... وأين نافذة في البغي نجلاء؟

أيترك الأرض جانوها وليس بها ... صحيفة منك في الجانين سوداء؟

تأوي إليها الأيامي فهي تعزية ... ويستريح اليتامى فهي تأساء

وهي واضحة الدلالة في مهاجمة الأوروبيين المستعمرين، وبريطانيا على رأس تلك الدول، ولا شك فقد كانت الدولة العظمى في العالم، وإذا كانت ظروف شوقي ومركزه في القصر معروفة ومرموقة ـ لا تسمح له بمهاجمة الإنجليز جهارًا نهارًا ـ فقد لجأ إلى هذا الأسلوب فعبّر عن رأيه دون أن يحرج نفسه أو رجال القصر الذين

يعمل معهم. ومن الظلم والتحامل أن نؤاخذ شوقي لأنه لم يتخل عن مركزه ورتبته ويخرج إلى الشارع يهاجم الإنجليز ويرميهم بالطوب ويدخل السجن ليقضي حياته فيه ومن السهل جداً أن تتحدث وأنت تجلس في بيتك عن المبادئ والمثل وعن إهمال هذا وعن تقصير ذاك، كما أن من السهل أن تقف على الساحل ثم توجه النقد المَر لذلك السابح في البحر الموشك على الغرق وهو يكافح الأمواج المتلاطمة والتيارات المتعارضة فلو أنه فعل كذا لكان أحسن ولو لم يفعل ذلك لكان أفضل.

أما النقد الذي وجهه الأستاذ الكبير لأبيات شوقي عن شكسبير فهو لا يخرج عن كونه نقداً لمبالغة شوقي في الثناء.. ومبالغات الشعراء معروفة، وقل أن يسلم منها شاعر، وكل المثقفين يعرفون مبالغات عمرو بن كلثوم وغيره في الجاهلية، ومبالغات المتنبي وغيره، وهي مبالغات وصلت في بعض الأحيان إلى درجة السخف والاستحالة ومع ذلك فلم يُخرِج النقاد هؤلاء الشعراء عن دائرة الشعر وإن سجلوا عليهم هذه المبالغات. ولسنا نريد أن ندخل في بحث فلسفي عن المبالغات في الشعر والغلو في الخيال وآراء الفلاسفة ونقاد الشعر من العرب وغير العرب، فلذلك مجال غير هذا المجال.

وليت أديبنا الكبير وهو يقسو على شوقي بسبب مبالغاته لم يقع في نفس الخطأ فيبالغ في تقدير مواهب صاحبة الأوزان الباكية ويضفي عليها من الألقاب والأوصاف ما أثار دهشة النقاد والأدباء والمثقفين.

مناقشة هادئة حول شوقي والعقاد

أرجو ان يصدقني الأستاذ العواد حين أقول له: إنني راثٍ له، مشفق عليه من هذا (الشوقي) و (الشوقيين)، فهو من أجْلِهم في هَمّ مقيم مقعد يعكرون صفوه ويهزون أعصابه، ويثيرون غضبه لمجرد أن يذكر لهم مذكر ولو بطريق غير مباشر، وما أكثر المذكرين في هذه الأيام، فشوقي والشوقيون بالنسبة للأستاذ العواد كالمتنبي بالنسبة لأعدائه حين تحدث عنهم في بيته المشهور:

مــن لــو رآني مــاء مــات مــن الــظــمــأ ولــو خــطــرت لــه في الــنــوم لم يــنــم

وأرجو ألا يعد القارئ أن في الأمر مبالغة أو تهويلا، بل إن ذلك هو كل الحقيقة والواقع وإلا كيف يمكن أن نفسر تصرف الأستاذ العواد بالنسبة لبعض المواقف.. نذكر منها موقفين؟

١ ـ كتب أحد النقّاد ينقد ديوانًا من الشعر وعرض في مقاله بيتًا من شعر شوقي بصورة عابرة، وفجأة رأينا الأستاذ العواد يستجمع كل ما لديه من معاول ينزل بها على رأس شوقي والشوقيين وعلى رأس الناقد المسكين الذي دفعه سوء حظه إلى الاستشهاد ببيت من شعر شوقي وكانت المفاجاة مذهلة، فقد أغفل الأستاذ العواد الحديث عن النقدات الواردة في صلب المقال ووجه كل هَمّه إلى كلمة على الهامش.

٢ ـ تُوفي الأستاذ عباس محمود العقاد العملاق العظيم وأخذ الأستاذ العواد في دراسته وتحليل آثاره، وحمدنا للأستاذ صنعه والعقاد جدير حقًا باهتمام الأدباء والباحثين، ولكننا فوجئنا بأن الحديث عن شوقي والشوقيين في مقالات الأستاذ العواد وقد استأثرت بنصيب الأسد وكما يقولون وكأن هذه المقالات إنما أنشئت أصلًا للحديث عن شوقي والشوقيين لا عن العقاد وآثاره وكان كل عظمة النقاد مرصودة على نقد

شعر شوقي، ومجال الحديث عن العقاد متسع، فلم يغادر العقاد عالم الفناء إلا بعد أن ترك تراثًا ضخمًا متشعب الجوانب سيظل خالدًا ما بقى الإنسان. صحيح أن معركته مع شوقي كانت من أولى المعارك الأدبية في العصر الحديث ولكنها كانت مرحلة في حياة العقاد تليها مراحل كثيرة أغزر إنتاجًا وأكثر ولكن من يقرأ مقالات الأستاذ العواد يشعر وكأن كل آثار العقاد محصورة في مهاجمته شوقي والشوقيين.

وهكذا فإن الأستاذ العواد دون أن يشعر يضفي على شوقي حللا جديدة من المجد في الوقت الذي يغض فيه من عظمة العقاد من غير أن يشعر كذلك.

ويطيب لي أن أتساءل هل كان رأي العقاد في شعر شوقي سيّئًا إلى الحد الذي يصوره الأستاذ العواد في مقالاته؟

وإذا افترضنا أنه كان سيّئًا فعلًا كما صوَّره الأستاذ العواد، فهل استمر العقاد على رأيه فيه حتى في الفترة الأخيرة التي كان يشرف فيها على لجنة الشعر في المجمع اللغوي، هذه اللجنة التي منحت جوائز المجمع لدواوين من الشعر لا يمكن أن تصل بحال إلى مستوى شعر شوقي؟!

ولو أعاد العقاد النظر في رأيه السابق عن شعر شوقي بعد أن كاد (الشعر الجديد) يطغى على دنيا الشعر - للأستاذ العقاد رأي معروف واضح في هذا الشعر كان يبديه في كل مناسبة وهو رأي لا يرضي رجال الشعر الجديد بما فيهم الأستاذ العواد نفسه الذي أخذ يتنكر لطريقته الماضية في الشعر كما أخذ ينساق مقلدًا هؤلاء الشعراء في شعرهم الجديد والعقاد لا يعترف بهذا الشعر ولا بناظميه.

أقول لو أعاد العقاد النظر في رأيه السابق عن شعر شوقي على ضوء الشعر الجديد وعلى ضوء الشعر الذي استحق جائزة المجمع اللغوي أكان يُصر على رأيه ذاك؟

هذا تساؤل أعتقد أن الجواب عليه كافٍ في إقناع الأستاذ العواد بأن يترك شوقي والشوقيين وأن يصرف جهوده في اتجاهات أخرى أجدى وأنفع.

ولو كان الأستاذ العواد يكتب شيئًا جديدًا عن شوقي كما يفعل العقاد والباحثون لرجوناه أن يواصل جهوده ولو كانت في سبيل نقد شوقي، ولكن الأستاذ العواد لم يكتب حتى الآن كلمة جديدة أو رأيًا مبتكرًا عن شوقي ولم يزد على أن ردد ما كتبه العقاد وطه حسين وآخرون.

ويبدو أن حقد العواد على شوقي والشوقيين أصبح يهز (المرئيات) أمام عينه، فتبدو قلقة مضطربة، وأخطر شيء على الكاتب اهتزاز (المرئيات) أمام عينيه لأنه يشوه الصورة في ذهنه ويقلب الحقائق على قلمه، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في مقال الأستاذ العواد الأخير (في رحاب الخلود) فهو غاضب أشد الغضب لأن طائفة من الناس تُعجب بشوقي وتُعجب في نفس الوقت بالعقّاد أو كما ورد في مقاله (وإني أعرف ـ شخصيًا ـ طائفة من هؤلاء الناس مضطربي الفكر والضمير والثقافة يكتبون التأييد الأعمى والمدح الرخيص والتظاهر السخيف بحب شوقي وأمثاله من الأحداث ـ وهم الذين كان العقاد يتناولهم بالنقد المؤلم المثير ـ وهم في نفس الوقت يحترقون لهفًا على رؤية العقاد وزيارته في ندواته تلك ويوسطون للحصول عليها معارفه وأصدقاءه ممن اعتادوا معاوداته بهذه الزيارات ـ لست واحدًا من هؤلاء بالطبع فما يستطيع أي جليس مذهول أن يزعم أنه رآني في مجلس العقاد ولو مرة واحدة ـ وهذا منهم منتهى النفاق والذل وحطة النفس).

ثم يقول: (وخذ مثلًا أولئك الذين يحرصون على زيارته وهم لا يؤمنون بمبادئه ولا يقبلون من أحد أن يمس شوقيًا بنقد، هؤلاء ما داموا هكذا فما الذي يدفعهم إلى التهافت على دار العقاد ومكتبه والاندساس بين أصحابه كل جمعة أو كل يوم).

ففي هذه السطور التي نقلناها من مقال الأستاذ العواد أكثر من مثال على (اهتزاز المرئيات) في نظره، فهو لا يستسيغ أن يعجب أديب أو ناقد بالعقاد ثم يُعجب في نفس الوقت بأديب آخر وخاصة إذا كان بينهما صراع فكري أو أدبي. وهذه نظرية عجيبة، وصدورها من الأستاذ العواد أعجب فإن كل مجد الأستاذ العواد ينحصر في

أنه كان من أوائل الداعين إلى التحرير الفكري والحرية الأدبية، فإذا جاء بعد خمسين سنة قضاها في خدمة العلم لينقض ما بنى وليحطم كل الأساس الذي تبنى عليه شهرته فإن ذلك أمر يدعو إلى الرثاء والأسى والإشفاق.

ولابد أن (اهتزاز الرائي) في نظره هو الذي قاده دون أن يشعر إلى هذه الهاوية الشنيعة.

كيف تريد ـ ياسيدي ـ أن تمنع معجبًا بطه حسين أن يكره الرافعي والعقاد والمازني وشوقي؟.. وكيف تفرض على من يحب الرافعي أن يبغض طه حسين والعقاد وزكي مبارك؟.

أتريد ـ يا سيدي ـ أن تفرض على الناس عبودية فكرية..؟ .. فما داموا يعجبون بالعقاد فيجب عليهم أن يصمّوا آذانهم وعيونهم وقلوبهم وعقولهم عن آثار غيره؟.. لست أتصور أن هناك ما يمنعني من أن أعجب بطائفة كثيرة من الأدباء إعجابًا حقيقيًا حتى ولو كان بينهم خلاف في الرأي او خصومة في الأدب أو تخالف في الاتجاه.

فانا أحب العقاد، والرافعي، وطه حسين، وزكي مبارك، وأحمد أمين، والمازني، وشكري، وشوقي، وحافظ، والمنفلوطي.

كما أحب عشرات آخرين من الأدباء والشعراء في الشرق والغرب وأقرأ لهم وقد أتفق معهم في الرأي وقد اختلف معهم اختلافًا شديداً، ولا يمنعني إعجابي الشديد بأديب من الأدباء أن أخالف رأيه أو أنقد هذا الرأي.. ليس هناك عبودية فكرية وإنما هناك حرية فكرية، وقد أُعجب بجوانب أديب من الأدباء ولا يعجبني جوانب أخرى، وقد أعجب بأديب في فترة من فترات حياته ثم لا أُعجب في فترات أخرى.

فأنت يا سيدي تحب أن تفرض على الناس عبودية فكرية، وإذا جاز فرض هذه العبودية على أوساط الناس وأوشابهم ـ وهو ذا ـ فما يجوز فرضها مع الأدباء.

إنك تريد ممن يحب العقاد أن يفنى فيه فناء المريد في شيخه كما يفعل رجال التصُّوف، وكما تفعل أنت، وإذا كان علماء الدين قد أنكروا هذا التفاني فقال الشافعي (ما منا إلا رادو مردود عليه إلا صاحب هذا القبر - عليه الصلاة والسلام).

ورفض مالك أن يفرض كتابه (الموطأ) على المسلمين عندما عرض عليه الرشيد ذلك.

إذا كان ذلك موقف العلماء فهل تريد أن تفرض هذا التفاني في دنيا الأدب؟

وإذا كنتم قد أخذتم على شوقي أنه تلقب بلقب (أمير الشعراء)، وأنكرتم أن يكون للشعر قائد أو أمير، فكيف تريد أن تحجر على الناس وتمنعهم من أن يقرأوا ما شاءوا من آثار الأديب هذا أو ذاك أو أن يتعرفوا على هذا الكاتب أو ذلك الشاعر.

إن الجلوس إلى كبار العلماء والأدباء والشعراء والاستماع إلى حديثهم متعته لا تكاد تعدلها متعة، وإنني أشعر بكثير من الأسى كلما ذكرت أن أحد أصدقائنا من الإسكندرية كان قد رتَّب موعداً لزيارة الشاعر المعروف عبدالرحمن شكري قبل موته بسنتين وتواعدنا لنذهب سويًّا لزيارة الشاعر المريض، وطرأ طارئ - حال بين صديقي وبين الحضور، ولم نذهب طبعًا لزيارة الشاعر العظيم وضاعت فرصة ثمينة. ومات شكري ورثاه صديقه العقاد بقصيدته الرائعة ذات المطلع:

لقد ذهب شكري اليوم إذا أيها الموت قد أسرعت جدا

ولو لم تهتز المرثيات في نظر الأستاذ العواد لعلم أن ندوة العقاد وغيرها من الندوات الأدبية مفتوحة الأبواب للجميع، وأن دخولها لا يحتاج إلى وساطة أو شفاعة بل إن العقاد كان يسرُّه أن يزور الأدباء والناشئون ندوته ولم يكن بعد لها نظام خاص، فكان المبكّرون في الحضور يحتلون أقرب المقاعد إلى العقاد أما المتأخرون فكانوا يجلسون حيث انتهى بهم المجلس ولو كانوا من كبار الأدباء والعلماء. وكان العقاد يرحب بزوار ندوته ويقف لهم واحداً واحداً ويصافحهم بحرارة وإخلاص.

وكان العقاد يحب ندوته ويعتز بها وقد سافر مرة إلى الإسكندرية ولكنه لم يمكث بها غير أسبوع ثم عاد إلى بيته بمصر الجديدة مضحيًّا بالاستجمام في الإسكندرية حتى لا يُحرم من لقاء إخوانه وتلامذته في ندوته الأسبوعية، وذلك شأن العلماء المخلصين الذين يضحُّون براحتهم في سبيل تعليم الآخرين وإفادتهم، فكيف يمتنع الأستاذ العواد من ذلك وكيف تورط في هذا الخطأ؟.

وقد قاده هذا الخطأ إلى خطأ آخر أشنع من سابقه وما كان ينبغي لأديب يعالج شؤون النقد ارتفع فيه فقد قال هيًّا (فما يستطيع أي جليس مهزول أن يزعم أنه رآني في مجلس العقاد ولو مرة واحدة).

وأي فخر في هذا؟ وأية مباهاة أيها الأستاذ؟ فهل تعتبر أن زيارة العقاد والظهور في مجلسه جريمة يجب التبرؤ منها؟

وما رأيك في أن العكس هو الصواب، فعدم ظهور الأديب في مجلس العقاد مع قدرته على ذلك وخاصة إذا كان من المعجبين بالعقاد المنافحين عن أدبه أمر يدعو إلى التساؤل والدهشة!

لقد فاتك حظ كبير وسيظل كلامك عن العقاد ناقصًا لأنك لم تحضر ندوته ولم تستمع إليه متحدثًا يملأ السمع والبصر والفؤاد، إن العقاد في ندوته أعظم منه في كتبه، ولقد سبق أن تحدثت عن ذلك، أكثر من مرة في جريدة الرائد الأسبوعية فما أحب أن أعود إلى الحديث مرة أخرى، وحسبي أن أسجل هنا للأستاذ العواد أن (اهتزاز المرئيات) أمام عينيه جعله يباهي بأمر لا مجال فيه للمباهاة، بل كان حقه الستر والسكوت، أم أن الأستاذ العواد اضطر إلى ان يتحدث عن هذه المباهاة ليستر أمرًا أخطر كما حدثني ذات ليلة أديب كبير وربما عرضت لحديثه في فرصة مناسبة.

ومن اهتزاز المرئيات أمام الأستاذ العواد اتهامه لبعض من يزورون ندوة العقاد بتهم عجيبة منها (الطمع في تناول الطعام ـ عينيه باردة ـ على مائدته) وهذا الكلام لا ينبغي أن يقال وكنت أحب أن يمسك الأستاذ العواد قلمه عن أن يكتب كلاما كهذا.

ومنها (التجسس على تصرفات الرجل لحساب أشخاص كبار).. والندوة مفتوحة للجميع لا معنى لهذا التجسس ولا أن تسرق الكلام من شخص أو أكثر من غير أن يعلم أو يشعر والعقاد في ندوته يتحدث إلى العشرات ويعرف أن كثيرًا من أحاديثه تنشر في الصحف بل إنه هو نفسه ينشر بعض هذه الأحاديث.

ومنها اختلاس فرصة يأملون أن يجدوا فيها ما يأخذونه به في المستقبل إذا لزم الأمر عندما يتعرض لنقد الأدب الذي يخدعون به من مدرسة شوقي وشركائه).

وهذه تهمة للعقاد معناها أن العقاد قد يقول في ندوته كلامًا يخالف مبادئه وآراءه التي ينشرها على الناس وهي تهمة كان العقاد حريصًا طوال حياته ألا تنسب إليه ولكنها نسبت إليه بعد وفاته وكانت ممن يعتبر من مريديه ومحبيه والمعجبين به، ولو كان الأستاذ العواد بعد هذا يكفكف عن غضبه على شوقي والشوقيين فإن هذا يهز المرئيات أمام ناظريه فينقلها للناس مهزوزة مشوشة.

وإذا كان العقاد وطه حسين والمازني وغيرهم كثيرون لم يستطيعوا أن يحطموا شوقي بل كلما حاولوا تحطيمه زاد سطوعًا فهل يظن الأستاذ العواد أن باستطاعته بكلمة هنا وكلمة هناك أن ينال من هذا الصرح أي منال.

بعد أن انتهيت من كتابة ما سبق وصلني العدد الأخير من مجلة المعرفة الدمشقية ووجدت ضمن مقالاته مقابلة مع الأستاذ وديع فلسطين والأستاذ وديع كما ورد في مقدمة المقابلة (من رواد الحركة الأدبية في مصر وقد تفرد في إنتاجه الغزير بأسلوب سلس وبيان مشرق وحقائق علمية تقوم على دعامات قوية من التحليل والتركيب والعمق مما جعل الكثيرين يحرصون على مواصلة السير على نهجه في البحث الموجَّه والنقد العفيف البنَّاء).

وقد تحدث الأستاذ وديع في إجابته على ما وجه إليه من أسئلة علمية حديثًا علميًا مركّزًا يمكن الرجوع إليه هناك، ولكن الذي يهمنا هنا نقطتان في حديثه لهما علاقة بموضوع الحديث، إحداهما عن رأيه في العقاد وقد أجاب يقول (عرفت العقاد

العظيم عن قرب، وكان آخر لقاء لي معه في جلسة خاصة بمنزله يوم ٣١ ديسمبر ١٩٦٣م).

فاستقبلني بالقبلات وودعني بالعناق، والعقاد كالقاموس المحيط لا يُعرف له أول ولا آخر، وعسير إلزامه قواعد القياس بالمتر والشبر والفتر وما إليها.

رجل تحالفت إليه أسباب العوز وقلة التعليم والنفي في قرار الصعيد فلا تصل إليه في أسوان ذرة من أصداء العرفان في الغرب ولكنه استطاع بجهد أسطوري وعناء صخري ومثابرة ومهارة وتحدٍ جبار أن يصبح الكاتب الكبير وأن ينشر سلطانه الفكري نصف قرن أو يزيد قليلا.

ونلخص حياة العقاد في نقطة أو نقطتين فنقول إنها العصامية موسعية) ولا خلاف على ذلك حتى بين خصومه الألداء.

ولكني وإن كنت أجل العقاد وأكبره وأعظمه حيًّا وميّتًا فلست من عبدة الأوثان فننقل آراءه جميعها بغير مناقشة ولا تمحيص؛ فكثير من آراء العقاد ولا سيما في الأدب المعاصر توافق هواي وتلقى تأييدي المطلق ولكنه في بعض آرائه انبعث عن دافع شخصي وأسلمه الاندفاع إلى الشطط، كآرائه في الشاعر شوقي مثلًا، وإني في حِلٍّ من قبولها وإن يكن العقاد استطاع ببراعته في الدفاع ان يكسب بعض الناس إلى جانبه).

وكلام الأستاذ وديع كلام رجل يزن الأمور بميزان دقيق كلام رجل يحترم نفسه ويُجل شخصيته عن أن تغني في عظيم مهما يكن هذا العظيم ولو كان عباس محمود العقاد.

وأين هذا من كلام الأستاذ العواد؟

أما النقطة الثانية التي تهمنا في مقابلة الأستاذ وديع للطالعين من الأدباء، وهي نصيحة ذات شعبتين نذكر منها قوله:

(الاتصال بالأعلام المعاصرين من رجال الفكر لأن محاجتهم تفتق الذهن وتقدح زناده فليس هناك (جيل بلا أساتـــذة) كما يزعم بعض المغترين من الأدباء إنما لكل جيل أساتذته ورواده. ومن الواجب على الطالعـــين أن يقـــروا لهم بهذه المنزلة وإن يأخذوا عنهم ما يسترفدون به في حياتهم الأدبيـــة المقبلـــة) ويستطيع القارئ الواعي أن يقارن بين القول الذي يمتاز بالأصالة والفهم والعمق وبين ما أوردناه للأستاذ العواد من آراء حول هذه النقطة ليرى الفرق الكبير بين أديب وأديب وبين كاتب وكاتب.

قمبيز
بين شوقي والعقاد

الحلقة الأولى

المعروف لدى القراء أن العقاد تعرّض لشوقي وإنتاجه في كتابه المشهور «الديوان»، ولكن العقاد لم يكتفِ بما كتبه عنه في كتابه الديوان بل تعرّض له في مجالات أخرى، وقد عثرت منذ عام على كتاب صغير في إحدى المكتبات القديمة للعقاد عن شوقي هو (رواية قمبيز في الميزان).

وقمبيز هو القائد الفارسي العظيم وفاتح مصر في القرن السادس قبل الميلاد، وقد رأى شوقي أن يختار سيرة هذا الفاتح في مصر موضوعًا لروايته التمثيلية، غير أن العقاد في نقده اعترض على اختيار قمبيز موضوعًا لرواية وطنية (ونظن أن كارثة الفرس هي آخر ما يحق للشاعر المصري أن يبدأ باختياره إذا أراد الكتابة في تاريخ وطنه، فإذا كتب فيها بعد أن يكون قد استنفد صفحات المجد في ذلك التاريخ فإنما عذره الذي يسوغ له طرق هذا الباب أنه استخرج منه عبرة وفخرًا وحال ما فيه من هزيمة إلى معنى أشبه بالنصر وأستر للعار وذلك ما لم يصنعه شوقي مؤلف رواية قمبيز التمثيلية).

وعلى هذا الأساس أخذ العقاد في نقد رواية شوقي، وقد أدار الحديث حول موضوعات ثلاثة هي:

(١) حسن النظم والصياغة.

(٢) تمحيص حوادث التاريخ.

(٣) ابتكار الخيال فيما قصر فيه المؤرخون، وقد حاول العقاد كعادته أن يجرد شوقي من كل ميزة وأن يظهره للناس (هيكلًا) من السيئات).

صحيح أن للعقاد كثيراً من الملاحظات الصائبة، ولكن له إلى جانب ذلك غير قليل من الملاحظات المتعسفة والتي لم يهدف بها إلى خدمة الحق والفن والخير بقدر ما هدف بها إلى النيل من شخصية شوقي وأدبه وسمعته.

ونأخذ على سبيل المثال ما أسماه العقاد (قصر النفس واضطراب القوافي والأوزان) ويرى أن تغير الأوزان (في البيتين الاثنين يلقي بهما الممثل والممثلان في الحوار الواحد أو في النفس الواحد) دليل على الخلل والإسفاف والهبوط والعجز والسخف والغثاثة. وإذا كان هذا رأي العقاد في شوقي أو في زعيم من زعماء الشعر العمودي كما يسمونه، فماذا يقول عن الشعر الجديد بأنواعه المختلفة الحر والمرسل والمنثور والمنطلق إلى آخر هذه المسميات الجديدة التي طلع بها علينا شعراء آخر الزمان، وليس هذا فقط ولكن العقاد يأخذ على شوقي أنه اختار لروايته من البحور الشعرية (البحور السهلة الذلول) ولست أدري هل يعني العقاد ما يقول؟ وهل كان يفضل حقيقة أن يكتب شوقي روايته عن فترة من تاريخ مصر القديمة بأسلوب جذل يذكرك بشعر فحول الشعراء في الجاهلية؟ وهل لو فعل شوقي ذلك أكان يرضى عنه العقاد أم كان سيرميه بالتنطع والتكلف وفساد الذوق، وبصرف النظر عن رأي العقاد كيف يا ترى كان الناس سيستقبلون رواية شوقي التمثيلية هذه وعلى أي مسرح سوف تُمثَّل وكم عدد المشاهدين لهذه الرواية التي لن يفهمها إلا قلة نادرة خاصة إذا عرفنا أن هذه الرواية كتبت قبل أربعين سنة تقريبًا؟!

لقد كانت ميزة الشاعر أبي العتاهية والشاعر الآخر البهاء زهير أن شعرهما كان سهلا كأنه كلام الناس يفهمه العامي والمثقف، ولعل شعرهما لو كانا في عصرنا الحاضر هو الذي يصلح للروايات التمثيلية. على أن شوقي كان يحسن اختيار الأسلوب الشعري، فنحن نجد الفرق واضحًا بين أسلوبه في رواية قمبيز - وهي تتحدث عن

فترةمن تاريخ مصر القديم ـ وبين أسلوبه في رواية مجنون ليلى حيث أبطال الرواية عرب أقحاح يعيشون في صدر الإسلام، فنجد في هذه الأسلوب الرصين والعبارة القوية والبيان المشرق وكل ذلك من غير إسراف ولا شطط، بينما تجد في تلك الأسلوب السهل والعبارة السلسة والألفاظ السهلة.

ومن أمثلة التعنت الظاهر من العقاد مع شوقي أنه اتهمه بالسرقة (الظاهرة) كما عبَّر لأنه سرق شطرًا من أحد الشعراء وهو شطر ليس فيه براعة ولا معنى نادر يقول شوقي:

كذبت عليّ يا ابنة أبرياس حذار حذار من بطشي وفتكي

وهو مأخوذ ـ كما يقول العقاد ـ من قول الشاعر معين الدنيا:

تقول لكل مستمع إليها حذار حذار من بطشي وفتكي

ولو افترضنا أن شوقي سرق هذا الشطر سواء أكان ذلك عن قصد أو عن غير قصد فهل هذه السرقة كافية لتقويض مجد شوقي.. وهل لو وضع شوقي هذا الشطر بين قوسين أكان هذا حلًّا مرضيًا للعقاد؟. وهل كان يعتبره اقتباسًا، وهل لو أهمل شوقي وضع هذين القوسين لأن هذا الشعر مشهور معروف أو لأنه علق بذاكرته أكان ذلك داعيًا لأن يشيل كفة ميزانه؟

وسجل العقاد على شوقي سرقة أخرى أفظع وأخطر، فقد ورد في أحد أبياته هذا الشعر (تعيش مصر وتبقى) وهي كلمات البهاء زهير مأخوذة من بيته:

تعيش أنت وتبقى أنا الذي متُّ عشقا

فهل رأى القراء أفظع من هذه السرقة التي يستحق شوقي من أجلها قطع لسانه وقلمه، وأي سرقة في مثل هذه الجملة التي تعتبر من الكلمات التي تجري على كل لسان (تعيش.. وتبقى).

على أننا نطالب العقاد أن يأتينا بشاعر عربي ولو واحد لم يسجل عليه النقاد عديدًا من السرقات!

قمبيز
بين شوقي والعقاد

الحلقة الثانية

ويقول العقاد في قمبيز (ولقد نطقت الأخبار بأن ملوك الفرس كانوا يشربون الخمر ويتشاورون على أمور الدولة في مجالس الشراب، ووصفت الأخبار قمبيز بأنه كان سكيرًا مدمنا ما يكاد يفيق، حتى شاع عنه ذلك وتقول الفرس أن رعشة الإدمان أصابته في يديه فما يقوى على تسديد سهم إلى غرض. ومن أجل هذا تناول قوسه وسدد سهمه إلى قلب ابن (بركساسب) ساقية الفتى الجميل فأرداه كما روى هيرودوت ليرى الناس أن الخمر لم ترعش يديه ولم تزغ عينيه) وبناء على هذه الحقائق أخذ العقاد على شوقي قوله على لسان أحد الفارسيين:

لكن له شغل عن الـ خمر بطول غزوته!!

وربما كان هذا النقد مقبولا لولا أن العقاد نسي هذه الملاحظة حين تعرض لنقد بيت آخر لشوقي وصفه بأنه تبذل اللفظ حين قال بلسان قمبيز:

لست بالعجل أبالي وعلى النار أبول

وأي تبذل في هذا اللفظ؟ وهل من المستغرب على فاتح طاغية سكير (ما كاد يفيق) كما روى العقاد أن يقول هذا القول؟ ليس في هذا اللفظ تبذّل بل إنه هو اللفظ الذي يُنتظر من طاغية سكير مستهتر لا يعبأ بشيء، وتصور مدى النكاية بهذا الشعب المغلوب على أمره حين يطفئ ناره المقدسة لا بالماء ولكن بالبول وما رأي العقاد في قول جرير:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهمو قالوا لأمِّهمو بُولي على النار
فتمنع البول شحًا أن تجود به ولا تجود به إلا بمقدار

وهل يعتبر هذا تبذُّلًا في اللفظ؟.. وهل لو عبّر جرير بتعبير (مهذب) أكان يصل إلى ما وصل إليه من إيجاع وإيلام ونكاية وهو يصوّر لك الشُّح بهذه الصورة الخالدة التي ستظل ما بقي الأدب العربي.

لقد قصَّ علينا جرير قصة تموج بالحركة والحياة في بيتيه الخالدين وتصور هؤلاء القوم وقد (هرت) كلابهم تشير إلى أن أضيافًا في الطريق إليهم وتصور مدى الرعب الذي سيطر عليهم وهم يتلقون هذا الخبر المزعج من كلابهم وتصورهم والهمسات تتسابق على ألسنتهم طالبين من (أمهم) أن تسرع فتطفئ النار لا بالماء ففي ذلك خسارة كبيرة.. ولكن بالبول وأمهم في الحقيقة ليست بحاجة إلى هذا التذكير (فلا توصِ حريصًا) كما يقول العامة اليوم.. ولكنه الشُّح المتأصل. وتصور باقي الصورة: تصور هذه المرأة العجوز وقد نهضت بسرعة ـ رغم كبر سنها ـ لتقوم بأداء هذه المهمة الكبيرة، تصورها وهي توشك أن تسقط ولكن حرصها يحول بينها وبين السقوط وتصور منظرها العجيب وهي تؤدي مهمتها، إطفاء النار وعدم الإسراف في وسيلة (الإطفاء) وتصور رأسها الأشيب وحركتها المضطربة من الكبر ومن الخوف المسيطر عليها من أنها لا تستطيع أداء مهمتها في الوقت المناسب بأقل التكاليف!

ومن أمثلة التعنت الظاهر ما أخذه العقاد على شوقي من أنه سمى الفاتح الفارسي (قمبيز) كما سماه الإغريق وكان في وسعه أن يسميه كما سماه الفرس (كمبوجة) أو المصريون (كمباثت) ويبدو لنا لو أن شوقي سمى الفاتح الفارسي (كمبوجة) أو (كمباثت) بدلا من قمبيز لاتهمه العقاد بالافتعال والحذلقة وإلّا كيف يترك الاسم المشهور بين جماهير المؤرخين ليتعلق باسم مجهول بدعوى أن فعله هذا ليس من إنصاف الوطنية المصرية في شئ، وما أهون هذه الوطنية وما أتفه شأنها إذ كان كل همها التعلق بلفظة، وكان من المصادفات الغريبة انني كنت أتصفح دائرة المعارف الحديثة تأليف الكاتب المصري أحمد عطية الله. فوقعت عيني على كلمة قمبيز، فوجدته قد تحدث عنه وعن تاريخه ولم يذكر له اسما غير قمبيز، ولا أعتقد أن ذلك

يطعن في وطنية الأستاذ أحمد عطية الله، وحتى العقاد نفسه ظل محتفظًا باسم قمبيز في كل صفحات كتابه عن قمبيز رواية شوقي بل وحتى في روايته هو الشعرية (غير التمثيلية) التي ختم بها كتابه، احتفظ العقاد باسم قمبيز ولم يُسمِّه (كمبوجة) ولا (كمباثت).. فهل نستطيع أن نستعمل المقياس الذي وضعه العقاد فنقول له إن فعلك هذا ليس من إنصاف الوطنية المصرية في شيء.

قمبيز
بين شوقي والعقاد

الحلقة الثالثة

على أن أغرب ما في كتاب العقاد عن رواية قمبيز التمثيلية لشوقي هو خاتمة الكتاب، لقد ختم العقاد كتابه النقدي برواية شعرية وصفها بأنها (غير تمثيلية) سماها: شوقي بين يدي قمبيز، وهي عبارة عن محاكمة لشوقي على ما اقترف من (جرائم) في حق (قمبيز) يفتتحها كالآتي:

قمبيز لكاهنه سابور:

سابورُ! من ذاكَ القَزَمْ ... في جانبٍ من الهَرَمْ
يظهر حيناً ويرو ... غ روغان المتَّهَم

سابور الكاهن:

مولاي، هذا شاعرٌ ... في مصر يغتاب الأمَمْ
يرجمها ويحتمي ... خلف الدهور في أجَمْ
أضعفُ من صاغَ مديحـ ... ـا في القصيد أو شَتَمْ
يرعى ذوي البأس ولا ... يرعَى العهودَ والذِّمَمْ
ما قال لا قط ولا ... يصدِقُ إن قال نعم
وناطق إذا جرى ... حديثه على القلم
لكنه في صمته ... أبله أو فيه بكم
وربما شاهدته ... في حيث جال أو جثم
خالسَ حيناً نظرةً ... عَجْلى وحيناً اقتحمْ
تطير عيناه ولو ... لبى هواه لهجم

قـــد عـــانـــــد الأقـــدار لا ... يـكـــــون يــومـــا ذا شـمـــم

لــو ارتــقـــــى الــعــرش ارتــقـــا ... ه وهـــــو فــــــي زي الـخـــــدم

ثم تدور مناقشة بين قمبيز وكاهنه سابور مؤداها طلب قمبيز أن يرى شوقي عن قرب فيقول له الكاهن: دعه يا مولاي فهو (يسلينا فيما نظم) ويستفسر قمبيز من الكاهن بأنه يتهم مولاه بالظلم وبالحط من شأنه فيثير ثائرة قمبيز فيصيح قمبيز:

يـا ويـلَـــــــهُ جِـئْـنـي بِـــهِ ... أشـفـيـهِ مِـــــنْ داءِ الـبَـكَـمْ

جِـئْـنِـي بـــه إنْ جَـسَـــدًا ... حـيًّـا يُـــــرى، وإن عَـــــدَمْ

ويستعين الكاهن بإله الشر والظلام (أهرمان) فيحضره له ويمثل أمام قمبيز وتدور مناقشة أو استجواب بين الاثنين نفهم منها أن شوقي يتنصل من هجومه على قمبيز ويقلب الأمر ويزعم أنه مدح قمبيز وأشاد بمجده ويتدخل سابور الكاهن فيواصل تقريع شوقي ويقول له الكاهن:

ألـــــم تُـلَـفِّـــــقْ قِـصَّـــــةً ... سـمـيـتَـهـــا بـاسـم (الـعـلـم)

فـيهـــا تـقـــول مـا تـقـــو ... ل مـــــن هَـــــراءٍ وتُـــهـــمْ؟

ويخيب شوقي هذه الإجابة العجيبة:

حـــاشـــــاي! لــــم أنـظـم ولا ... كـــان لـســانـــــي إن نـظـــمْ

كـــلا! وحـــق الــنــار والــنــو ... ر، وحـــــقٍّ ذا الـحَـــــرَمْ

لـكـنـه (الـعـقـــــاد) سـواهـــ ... ـــا.... ومـثـلـــه اجـتـــرم

ألَّـــفَ قـمـبـيـــــز والـقـــ ... ـــاهـــا عـلـــيَّ واعـتـصـم

أحـلـــف كـــل حـلـفـــةٍ! ... أُقـسـم أحـــرجَ الـقـسـم

ولا يقبل قمبيز هذا الجواب ويسأل كاهنه عما إذا كان شوقي هازلا أم أصيب بجنون في عقله، ويرد الكاهن بأن تلك شيمته فهو متقلب، فيقرر قمبيز (إهلاكه)، ويأخذ شوقي في استعطاف الكاهن هذا الاستعطاف الغريب.

شوقي:

يا رجل الدين أغثني لا طغت بك القسم
كن شافعًا كن حكمًا أنت الشفيع والحكم
ولا تزده غضبًا حسبي من الخطب الندم
أنا مدحت سيدي وما جحدته العظَمَ
انا هدمت بيدي من مصر فوق ما هدم
أنا سلبت أهلها خيم الرجال والهمم
رميتهم بالجبن والوهن وبالجهل والعَمَمْ
وبالفجور تارة وبالغرور والوخم
وقلت: كل مارق يخون مصر لم يلم
وقلت: أنتم الذئاب وبنو مصر الغنم
فكيف لا ترحمني وأنت أولى من رحم
هذي ضلوعي كاللظى هذي دموعي كالديم
الرأفة الرأفة بي من يربح الحمد أغتنم

ويرفض الكاهن استعطاف شوقي وينتهي الأمر بأن يطلب قمبيز من الكاهن أن يختار له (ميتة) وتدور مناقشة قصيرة بين قمبيز وشوقي والكاهن تنتهي بأن يقترح الكاهن أن يوكل أمره إلى بعض الخدم ويكلف قمبيز حاجبه بدعوة الخدم فيدخلون فيقول لهم:

يا حشم القصر انظروا إليه من حيثُ نجم
هذا سليطٌ ينتحي بالشعر شاهات العجم
فاقترحوا فيه المنا يا وأسالوا فيه النقم
صُفُّوا له مائدة لا يتخطاها الوحم
يحرق؟ أم يغرق؟ أم يرمى به؟ أم يصطلم

وتدور مشاورة بين الخدم عن الطريقة التي تقضي على حياة شوقي حتى يقترح أحدهم:

إن شــاء مولاي ففــي الخــــ ـــازوق تكفيــرُ الأثَـــمْ

وينتهزها العقاد فيغمز شوقي غمزة عنيفة ويقول على لسان شوقي:

شوقي:

وكــيـــف بالخـــازوق فـــي غــيـــر عنـــاءٍ والـــم؟

ويقترح الكاهن أخيرًا أن يكتفي بما ناله من عذاب فقد مات ولا يزال حيًّا وقد حال لونه إلى لون الحمم مع أنه لم يواقع النار.. ويرد قمبيز:

لا بـــل كفـــانـــا ضحكـــا مــنـــه وتـــرفيـــهَ سَــأَمْ
فـانـفـــض رقـــاك وأعـــده وعـــد بنـــا إلى الـــرُّجَـــمْ

وينتبه شوقي فيصيح:

مـــا هـــذه الأشبـــاح؟ مـــا هــذي الـــرؤى؟ مـــاذا الـــم؟
عـيـنـــيَ طـــال نـومـهـــا أم هـــي يـقـظـــى لم تـنـــم؟

وبهذين البيتين تنتهي الرواية (غير التمثيلية) التي نظمها العقاد في تحطيم شوقي والزراية به والسخرية بأدبه وخلقه، وهي رواية تجاوزت أبياتها المائة بيت. وأول ما يلاحظ على هذه الرواية (غير التمثيلية) أن أبياتها سلسة سهلة رقيقة واضحة المعنى قريبة الفهم وهي ميزة لا تتوافر في شعر العقاد.

كما أن ماء الشاعرية ينساب في هذه الأبيات، فتشعر لدى قراءتها بروعة وجمال، وهذه أيضًا ميزة قلَّ أن تتوفر في شعر العقاد.

أما الملاحظة الثانية فهي فكرة الرواية، فنظم رواية (غير تمثيلية) لهجو شاعر والزراية بآدابه والحط من شأنه، فكرة طريفة وإن كانت غير جديدة، فقد سبق إليها شعراء اليونان، وإن كان يبدو أنهم لم ينزلوا إلى المستوى الذي نزل إليه العقاد، وإن كان العقاد قد انساق مع الظاهرة التي سيطرت بعض الوقت على الأدب العربي الحديث وهي ظاهرة الهجاء ومهاجمة الكاتب أو الشاعر في شخصه كما فعل العقاد والمازني في (ديوانهما) وكما فعل الرافعي في (على السفود) الذي هاجم فيه العقاد بقسوة وعنف، وكما فعل في فصوله التي كتبها على طريقة (كليلة ودمنة) في مهاجمة طه حسين. وننقل للقراء قصيدة الرافعي في مهاجمة طه حسين أو في هجوه إن شئت الحقيقة: يقول مصطفى صادق:

يا عجبًا (طه) أديب العصر
أصبح مثل إنجلترا في مصر
أسطوله يراعة في شبر
وبحره زجاجة من حبر
وملكه متر بنصف متر
في مجلس للدرس بل للهتر
يجلس فيه مثل ضب الجحر
معقدًا من ذنب لظهر
تعقيد من قد خلقوا للمكر
وهبطوا للدنيا لأمر نكر
يحتك في كل أديب حر

يخيفه بالشتم أو بالشر
كأن فيه روح حرف جر
يا ويحه من واهم مغتر
يفزع الليث بوجه هر
أسفنجة جاءت لشرب البحر
وشمعة ضاءت لشمس الظهر
والشيخ طه في انتقاد الشعر
ثلاثة مضحكة لعمري

فتمثيلية العقاد هي انسياق مع هذه الظاهرة التي سيطرت على أدبنا الحديث فترة من الوقت.

ويبدو أن العقاد أراد أن ينافس شوقي وأن يباريه ليطلع الناس علىأن شوقي ليس وحيداً في الميدان وأن له منافسين في الشعر التمثيلي، فنظم تمثيليته لأسباب ليس أهمها كثرة الأبطال في رواية شوقي وقلتهم في رواية العقاد وإن الموضوع الذي يتحدث عنه شوقي واسع وعريض بينما المجال الذي يتحدث فيه العقاد ضيق محدود.

ومع هذا لم يستطع العقاد أن يواصل السير في هذا الطريق فلم نسمع او نقرأ له أي تمثيلية بعد روايته (غير التمثيلية)، وكان في ذلك الخير كل الخير فقد اتجه في الطريق السوي نحو الهدف الذي هياته له الأقدار.

أما الملاحظة الثالثة فهي أن العقاد ظل محتفظًا باسم قمبيز ولم يسمه (كمبوجة) ولا (كمباثت) ومع ذلك لم يطعن أحد في وطنية العقاد أو ينقص من إخلاصه لبلده.

أما الملاحظة الرابعة فهي أن العقاد قد وقع في جريمة كبيرة هي جريمة السرقة فقد قال في روايته (غير التمثيلية) على لسان سابور الكاهن:

ما قال لا قط ولا يصدق إن قال نعم

والسطر الأول سرقه العقاد من بيت للفرزدق هو:

ما قال لا قط لا في تشهده لولا التشهد كانت لا ونعم

ليس في قولنا هذا تمحك أو تعنت فنحن نستعمل المقياس الذي وضعه العقاد وقاس به شعر شوقي.

أما الملاحظة الخامسة فهي أن القارئ لرواية العقاد يشعر أن العقاد حاول أن ينتصر لقمبيز ويقتص له من شوقي لأنه أساء إليه، وهذا اتجاه عجيب من العقاد ففي الوقت الذي شن فيه حملة على شوقي لأنه اختار قمبيز موضوعًا لروايته وهو الحاكم الأجنبي وفي هذا الوقت الذي حاول أن ينتقص هو من قمبيز وأن ينقل آراء المؤرخين في حكمه المضطرب وتصرفاته الطائشة يأتي في روايته فيدافع عن قمبيز ويضع شوقي في قفص الاتهام ويستصدر الحكم عليه بالإعدام لأنه أساء إلى قمبيز، وهذا تناقض عجيب.

أما الملاحظة السادسة والأخيرة فهي اختيار العقاد لأحد الأوزان السهلة في روايته (غير التمثيلية) وهو ما عابه على شوقي مع أنه كان في إمكان العقاد اختيار وزن من الأوزان الطويلة الصعبة خاصة وأن أكثر أبطال روايته من الطبقة المثقفة، ولكنه آثر هذا الوزن السهل لأنه يساعده على التعبير عما يريد من جهة، ومن جهة ثانية يمكّنه أن يلتزم قافية واحدة حتى يستطيع أن يباهي شوقي وغير شوقي بأنه حقق ما عجز عنه الآخرون، وعلى رأسهم شوقي.

هذه ملاحظات عنّت لنا أثناء قراءاتنا لكتاب العقاد (رواية قمبيز في الميزان)، وقد أهملنا بعض الملاحظات الاخرى لأن في نيتنا أن نعود إلى هذا الكتاب بدراسة أوسع وأعمق.

ولعل سائلا (فضوليا) يسأل عن السبب في الكتابة الآن عن هذا الكتاب الذي كتب قبل أربعين سنة.. والسبب واضح وسهل، فقد أعلن العقاد أنه لا يزال على رأيه في شوقي وشعره، وأن مرور هذا الزمـــــن الطويل لم يغير شيئًا من آرائه في شوقي. هذا سبب وجيه فيما نعتقد، أما الســـــبب الثاني فهو تعريف القراء بهذا الكتاب من كتب العقاد.

ورحم الله شاعر العربية الراحل[1] وطيب ثراه وأطال في عمر أديب العربية الكبير[2].

(١) توفى شوقي فجر يوم ١٤/١٠/١٩٣٢م/ ١٣٥١هـ.

(٢) توفى الأستاذ العقاد في عام ١٩٦٤م.

لقاء كل أسبوع*

الحلقة الأولى

عجيب أمر هذا الرجل.. ذكره يتجدد كل حين، واسمه كلما نسيه الناس عاد فطفا فجأة فشغلهم وأثار بينهم خلافًا في الرأي وجدالا من أجله. والناس بين محب له إلى درجة التقديس، وكاره إلى درجة تجريده من كل الفضائل والمميزات، وهذا دليل عظمة الرجل - أي رجل كان - كما يقول المنفلوطي.

قال عنه الناس في حياته: إنه عبقري ،وإنه نابغة، وإنه فلتة من فلتات الزمان، وقال عنه آخرون: إنه رجل عادي وإن شعره حافل بالغلطات والسقطات، وإن ديوانه لو غُربل لما بقي منه شيء يذكر، لأنه لا يستمده من فكر محلّق أو نبوغ خلاق وإنما يستمد شهرته من أنه شاعر الأمير.

وظل طول حياته بين مادح وقادح حتى مات كما يحدث لكل حي من الأحياء، وخُيِّل لبعض الناس أن موته هو النهاية لأدبه وفنه لأنه لا سند له من أصالة أو فحولة، ولكنهم فوجئوا بعاصفة عنيفة تثور بين أنصاره وخصومه، بل ولم يكن يتخلّ أحد من حملة الأقلام عن الانضمام إلى أحد المعسكرين، وظهر للناس أن شوقيًا كان حدثًا أدبيًا ضخما في تاريخ الأدب.

وتطورت الأمور السياسية في مصر تطورها المعروف، وظن الناس وخاصة خصومه أن شوقي قد انتهى، وأنه قد آن الأوان لوضع خاتمة لذكرى هذا الرجل التي تأبى أن تموت، وإذا بهم يُفاجاون بما لم يكن بالحسبان وإذا بهذه الذكرى تتجدد بشكل (عنيف) إن صح هذا التعبير، فتقرر الجامعة - وكثير من أساتذتها كان من خصومه - إنشاء كرسي للأدب الحديث يُطلق عليه اسم أحمد شوقي، وتُقرر بعض الهيئات

(☆) نشر بمجلة الرائد في يوم الاثنين الموافق ٩/٨/١٣٨١هـ/١٥/١/١٩٦٢م العدد (٩٧).

الرسمية الاحتفال بذكرى شوقي احتفالًا رائعًا، وتقوم الحكومة الإيطالية في بداية هذا العام[1] بوضع تمثال كبير لشوقي في حديقة الأعلام الخالدين في روما.

ولا يمر زمن دون أن تثور مشكلة حول شوقي إما في مصر وإما في غير مصر من بلاد العروبة، وما هذا الخلاف القائم الآن في صحفنا المحلية بين الأستاذين الكبيرين أحمد عطار وحمام والذي سيشترك فيه أدباء آخرون إلا دليل جديد على ما نقول[2].

إن (شوقي) حدثٌ ضخم في أدبنا المعاصر، أو كما يقول الأستاذ الزيات: (اجتمع رأي المعاصرين ـ ما عدا الشعراء ـ على أن شوقي ـ طيب الله ذكره ـ كان عوضًا عادلا عن عشرة قرون خلت من تاريخ العرب لم يظهر فيها شاعر موهوب يصل ما انقطع من وحي الشعر ويجدد ما اندرس من نهج الأدب ويحفظ للبيان العربي قسطه المأثور من التعبير الملهم عن كلمة الله المنبثة في الكون وأسرار الجمال المضمرة في الطبيعة ومعاني الخير الغامضة في الحياة).

إن (شوقي) في عالم الشعر أعلى قمة في عصره وأن أثر شوقي في عصره أثر واضح ملموس لا سبيل إلى جحوده أو نكرانه.

لقد كان شوقي لسان الشرق الناطق المعبر عن آلامه وأحزانه، وبهذا استحق إمارة الشعر واستحق هذا الإجماع الرائع على الإشادة بمجده والاعتراف بفضله، وستظل إمارة شوقي كما قلنا في مقال نشرناه منذ أعوام في جريدة (البلاد السعودية) حدثًا تاريخيًا في الأدب العربي كله لم تحدث قبله ولا ينتظر أن تحدث بعده.

إن هذا الإجماع من معاصري شوقي من الأدباء والشعراء ـ نعم نخص الشعراء لأنهم ـ عادة ـ لا يقرون لأحد ولا يعترفون لاحد بالتميز أو التفوق فكل واحد منهم أمير في

(١) انظر الهامش بصفحة (١٧٥).

(٢) كانت تنشر مقالات حول شوقي تختلف فيها آراء الكتّاب وكان ذلك في الأعوام ١٣٨١هـ/١٩٦١م وما بعده.

رأي نفسه ـ نقول إن هذا الإجماع دليل حي على أن شوقي في رأي معاصريه ذروة شامخة دون الوصول إليها خرط القتاد كما كانوا يعبرون قديما. وإلا فكيف نفسر هذه المبايعة النادرة التي اشترك فيها جمهرة من الشعراء البارزين في العالم العربي في ذلك الوقت؟.. بل واشتركت فيه الأقطار العربية والأقطار الأخرى بهدايا رمزية قيِّمة ولم يتخلف غير الحجاز وإن كان قد بادر شعراؤه بعد ذلك إلى الاعتذار لأمير الشعر ورب البيان. ويصور شوقي هذه الظاهرة الرائعة بهذا البيت الرائع:

موكب الشعر حرك المتنبي ... في ثراه وهزّ من حسانه

أما مسرحيات شوقي الشعرية فهي وحدها فتح جديد في الأدب، لا يمكن إغفاله أو طمسه، وحَسْبه أنه خلق بمسرحياته التي كتبها نصرًا ضخما للغة العرب وردًّ على أعداء العربية كيدهم، وأثبت بالدليل القاطع أن لغة العرب لغة حية نامية متطورة لا يؤودها تصوير ولا يعجزها تعبير ولا يشق عليها طريق مهما طال، ولا غاية مهما بعدت.

وحَسْب شوقي مزية أن يعجز الشعراء بعده ـ رغم دعاواهم العريضة ـ عن مسايرته أو اللحاق به، ولا أقول عن فتح آفاق جديدة في المسرح الشعري.

وأستثني من ذلك الشاعر المعاصر عزيز أباظة، فهو في رأي النقاد لم يتفوق على شوقي رغم ما لدى اللاحق عادة من فرص لا تتاح للسابق، باعتباره يشق طريقًا جديدًا وهذا الجهد قد يصرفه عن ملاحظة ما قد يحدث من أخطاء في استقامة الطريق أو تمهيده، وإن كان يظل ـ رغم كل شيء ـ محتفظًا بأفضلية السبق والابتكار وهو فضل ليس بالقليل على أي حال.

أذكر أن الدكتور زكي مبارك كتب مرة يقول إنه كان يتحدث مع الدكتور طه حسين فجاء ذكر شوقي فقال الدكتور زكي إن شوقي عرض عليه أن يكتب مقدمة ديوانه ولكنه اعتذر لأسباب ذكرها فقال الدكتور طه إنه لو عَرَض عليه شوقي ذلك لبادر إلى كتابة المقدمة، فكتابة مقدمة لديوان شوقي شرف كبير، وقد كتب مقدمة الديوان

الدكتور محمد حسين هيكل[1] ـ رحمه الله ـ وهؤلاء أقطاب ثلاثة لكل منهم وزنه الراجح في معيار الأدب وميزان النقد.

ولو أن أديبًا مثقفًا أراد أن يجمع كل ما كتب عن شوقي لكوّن مكتبة قيّمة، ولعل بعض القراء الأفاضل يفعل ذلك، وهذا وحده دليل على عظمة هذا الشاعر وعلى روعة فنه وعلى سمو مكانته وعلى أنه قمة عالية جداً لا تطاولها أي قمة مهما علت.

(١) أديب وصحافي، وسياسي مصري (١٨٨٨ - ١٩٥٦) تولى رئاسة صحيفة (السياسة ١٩٢٢م) وضع مؤلفات كثيرة في القصة، والدراسة، والسيرة منها: زينب، في أوقات الفراغ (١٩٢٥)، عشرة أيام في السودان (١٩٢٧)، ثورة في الأدب (١٩٣٣).

حياة محمد، هكذا خلقت (١٩٥٥).

انظر المعجم الأدبي، ت جبور عبدالنور ص ٥٠٣.

لقاء كل أسبوع*

الحلقة الثانية

نعود مرة أخرى إلى شوقي والعقاد.. فأما شوقي فقد قلنا فيه رأينا ورأي الحق وأما العقاد فهو مفخرة من مفاخر العرب ودليل حي على عبقرية الأمة العربية وصفاء معدنها.

وبينما كان من دواعي فخر جيلنا أنه جيل عاصر العقاد وآثار العقاد الأدبية والعلمية ودليل عظمة هذا العبقري المبدع ما في ذلك شك.. ولكن حديث العقاد أدل على عظمته المتعددة الجوانب المتشعبة الأطراف. ولست آسفًا في حياتي إلا على أشياء قليلة في مقدمتها حرماني من الاستماع إلى العقاد في ندوته صباح كل جمعة، إن هذه الندوة الصغيرة كنز لا يقدر ولا يعرفه إلا من جلس في بعض هذه الندوات، ولست أدري لماذا لا يهتم المشرفون على الإذاعة هناك بإذاعة هذه الندوة وفيها كل جميل من القول وجليل من الثقافة بدلا من هذا الهراء الذي يحشدونه لإذاعته على الناس وفيه الكثير من سخف القول والكثير مما يفسد الأخلاق ويفصم الروابط ويقطع ما أمر الله به أن يوصل. لست أدري لماذا لا يهتم (البرنامج الثاني) بإذاعة هذه الندوة؟ وهي أفضل بكثير مما يذاع - لا أستثني إلا القرآن الكريم وحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم.

لست أدري لماذا لا يحرص المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب على تسجيل هذه الندوات على أشرطة تباع للناس، وتظل على مر الأجيال (جامعة) متنقلة تنقل إلى الناس صوت هذا الرجل الذي قل أن يجود بمثله الزمان؟

---

(١) ☆ نشر في مجلة الرائد يوم ١٦/٨/ ١٣٨١هـ الموافق ٢٢/ ١/ ١٩٩٢م.

ولست أدري لماذا لا يحرص تلاميذ هذا النابغة العبقري، ومريدوه على تسجيل هذه الندوات على أشرطة، أو على الأقل تسجيلها على الورق.

لقد نشر العقاد منذ سنوات كتابا سماه (في بيتي) ضمنه بعض أحاديث هذه الندوة، وأنا واثق من أن تلامذة العقاد يستطيعون أن يخرجوا كتابا عن كل ندوة، وهذا كسب للعربية ليس بالقليل.

«إنني أرجو ألا يظن القراء أن في الأمر مبالغة وأن المسألة كما تقول الحكمة القديمة (حبك الشئ يعمي ويصم) أرجو ألا يظن القراء الأمر على هذا النحو فالواقع أنه ليس في الأمر مبالغة وليتصور القراء رجلًا يجلس على كرسي (الامتحان) حوالي ثلاث ساعات في صباح الجمعة من كل أسبوع ليجيب على أسئلة نخبة مثقفة من الناس.. أسئلة تشمل (كل) فروع المعرفة - وليتنبه القارئ جيدًا إلى كلمة كل - فيجيب عنها جميعًا من غير سابق إعداد إجابة صريحة واضحة مركزة ليس فيها تخلص أو هروب أو مغالطة.

ويجب أن يكون واضحًا أن الدخول إلى هذه الندوة مباح للجميع من الراغبين وأن ممن يحضرون هذه الندوة طائفة من خصوم العقاد بقصد إثارته أو إحراجه أو توريطه أو تعجيزه.

ليتصور القراء هذه العقلية الجبارة التي تحيط بألوان المعرفة هذه الإحاطة الشاملة التي تثير الإعجاب والدهشة.

ولعل القراء قد لاحظوا أنني كررت رغبتي في تسجيل الندوات على أشرطة وقصدي القاصد من ذلك أن أنقل إلى القراء صورة حية للعقاد عندما يتحدث ساخرًا، وعندما يتحدث جادًّا، وعندما يتحدث غاضبًا، ونبرات صوته في كل هذه الحالات، وفي حالات هجومه ودفاعه، هذه الحالات فيها من الروعة ما يفوق الوصف لا تستطيع الكتابة أن تنقلها لقرائه كما تستطيع الأذن.

إنها خسارة كبيرة أن تمر الأيام وأن يلحق العقاد ما يلحق كل حي بعد عمر طويل[(١)] - إن شاء الله - ثم لا يجد الناس من آثاره إلا كتبه، أما هذه الثروة من الثقافة التي يقدمها العقاد لرواد ندوته صباح كل جمعة فتصبح هدرًا.

إن هذه الندوات خلاصة مركّزة لطائفة من المعلومات يقضي الإنسان عشرات السنين في البحوث والاستقصاء والمراجعة قبل أن يُلم بها هذا الإلمام الدقيق.

أرجو أن أكون قد وُفقت في نقل صورة صادقة عن العقاد وعن ندواته للقراء وإلى اللقاء في مقال آخر نتحدث فيه عن علاقة العقاد بشوقي فقد استأثر العقاد بكل هذا المقال.

(١) توفى - يرحمه الله - في عام ١٩٦٤م.

لقاء كل أسبوع*

الحلقة الثالثة

نعود مرة أخرى إلى الحديث عن العقاد وشوقي، وقد كتب الأستاذ الكبير أحمد عبدالغفور عطار يعلّق على ما كتب الأستاذ حمام عن شوقي والعقاد وينكر على الأستاذ حمام[1] دعواه بأن الأستاذ المازني قال: (لم نجد قمة نتسلقها إلى المجد أعلى من شوقي) ويرى أن من أول الأدلة على استبعاد نسبة هذا القول إلى المازني أن المازني لم يهاجم شوقيًا في الديوان. ورأينا في هذه القضية أن الأستاذ العطار على حق في أن المازني لم يهاجم شوقيًا في الديوان، فذلك شيء ثابت لا ريب فيه، كما أننا نستبعد أن يلجأ الأستاذ حمام إلى نسبة كلام للمازني لم يقله فهو أديب فاضل يقدّر المسؤولية الأدبية وتَبْعة ما يقول فكيف نفسر إذًا هذا التناقض؟

أما التفسير الذي نراه هو أنه من المعقول أن يكون المازني قد كتب مقالا أو أكثر عن شوقي في إحدى الصحف أو أحد الكتب التي ألّفها، ومن المؤسف أن كُتُب الأستاذ المازني ليست جميعها تحت يدي الآن.. هذا إذا افترضنا أن جميع مقالاته تضمها كتبه، هذه واحدة.

أما الثانية فأنا أذكر انني قرأت مقالا للمرحوم المازني في مجلة الكتاب التي كانت تصدرها دار المعارف في مصر وفيه - إن لم تخنِّي الذاكرة - يتراجع المازني عن رأيه في شوقي، مما يدل على أن للمازني رأيًا في شوقي كرأي زميله العقاد. وليست مجموعة

☆ نشر بمجلة الرائد يوم الاثنين الموافق ٢٣/٨/١٣٨١هـ/ ٢٩/١/١٩٦٢م العدد (٩٩).

(١) الأستاذ حمام هو «محمد مصطفى حمام» شاعر مصري ولد في ١٨/٨/١٩٠٤م وتوفي في ٢٣/٣/١٩٦٤م وله ديوان شعر «ديوان حمام» قدم له «ثروت أباظة، ومحمد عبدالمنعم خفاجي، والأستاذ/ محمد حسين زيدان». وأصدرته تهامة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م طبعة أولى.

أعداد الكتاب في مكتبتي.. فلعل أحداً من الأدباء الأفاضل ممن لديه أعداد هذه المجلة يراجع مقالات المازني فلعله يجد هذا المقال.

أما الثالثة فمن المعقول جداً أن يكون قد تم تفاهم كامل بين العقاد والمازني حول الأسس التي سيقوم عليها النقد في كتاب (الديوان)، فهما ـ وإن كان قد استقل كل منهما بقسم من الديوان متضامنان في المسؤولية ـ الأدبية على الأقل ـ ومن غير المعقول أن يقف كل منهما من آراء زميله المنشورة في الكتاب الموضوع عليه اسمَيْهِما موقفاً سلبيّاً، بحيث لو سئل أحدهما عن رأي من آراء زميله أحال السائل إلى الكاتب المختص وتبرّأ من الإجابة او التوضيح أو التعليق. فهذا وضع غير طبيعي.

ومن هنا كان للمازني الحق في أن يقول الجملة التي ذكر الأستاذ حمام أنه سمعها منه في إحدى الحفلات.

أما بالنسبة لشهرة كل من العقاد وشوقي فإن الذي لا مراء فيه هو أن شوقي كان عَلَماً بارزاً يشار إليه لا بالبَنَان فقط ولكن بالأصابع العشرة - إن جاز هذا التعبير ودلّ على أهمية أكبر ـ عندما كان العقاد في بداية حياته الأدبية، وكانت جريدة الأهرام وغيرها من الجرائد تنشر قصائده في أبرز مكان فيها وتقدم له بمقدمة تُضفي عليه فيها أعظم الألقاب وأضخمها مثل أبو الشعر غير منازع ولا مدافع. ومن الطبيعي أن يفكر العقاد وزميله المازني في البروز والشهرة وهما في بداية الطريق، ومن الطبيعي كذلك أن يتجها إلى الأسلوب الذي اتجها إليه، وهو الأسلوب المعروف في الآداب العالمية وهو مهاجمة الكبار البارزين الذين اعتادوا السيطرة على الثقافة والصحافة والذين يحتلون منزلة سامية في قلوب القراء. فإن هذه المهاجمة تستلفت نظر القرّاء وخاصة إذا تكررت فإنها تدفع هؤلاء الكبار إلى المدافعة ورد التهم أو على الأقل تدفع أنصارهم إلى القيام بهذا العمل إما بدافع من أنفسهم أو بإيعاز من هؤلاء الكبار. وهذا النقاش وما يدور حوله من شأنه أن يكثر من تكرار أسماء

هؤلاء الصغار فتعلو مكانتهم وترتفع شهرتهم.. ويحضرني من الأمثلة على ذلك ما رواه بشار بن برد من أنه هاجم في بداية حياته الشاعر الفحل المشهور جرير. يقول بشار: و«لكن جريرًا استصغرني ولم يرد عليّ ولو أجابني لكنت أشعر الناس».

وأحب أن يكون واضحًا أن هذا لا يطعن في نفاسة معدن العقاد أو المازني ولا في ثقافتهما أو أصالتهما لأن الذي تتحدث عنه هو الشهرة.

ونادرًا ما تأتي الشهرة عن الطريق الطبيعي وحده وإلا فهل يستطيع أحد أن يعلل شهرة هذا النفر القليل من الأعلام في مصر كالعقاد وطه حسين وزكي مبارك دون غيرهم من الأدباء والعلماء والباحثين.

تُرى لو طُلب إلى جمهرة القراء أن يذكروا أساطين الثقافة في مصر مثلًا، فهل كانوا يستطيعون أن يتجاوزوا عشرة أسماء..؟، وهل تقوم الجامعات والثقافة بوجه عام على هؤلاء العشرة من الأحياء والأموات؟.. أنا أعرف عددًا من الأساتذة الذين يقف المرء ذاهلا أمام نبوغهم وثقافتهم وبعضهم يحمل أرقى الألقاب العلمية من أكبر جامعات العالم ولكنهم مجهولون تماما من القراء. من يعرف شفيق غربال أو الدكتور وهيب كامل أو الدكتور علي عبدالواحد أو عبدالرحمن شكري ومحمد السباعي وعشرات بل مئات غيرهم، وكم من القرّاء من يعرف إحسان عبدالقدوس ويوسف السباعي، فالشهرة إذًا لا تقوم دائما على أساس صحيح. ولولا الظروف التي صاحبت ظهور العقاد ولولا اندماجه في السياسة وإشادة سعد زغلول به والحملات الكثيرة التي قام بها أو تعرض لها لكان رجلًا في دنيا الشهرة كبعض من ذكرت، ومرة أخرى أرجو أن يكون مفهومًا أنني لا أقصد بكلامي هذا الانتقاص من عبقرية العقاد الذي أجله وأرفع أدبه إلى أسمى مكان.

ونود أن نتساءل عن السبب في توقف العقاد والمازني في مواصلة إصدار باقي أجزاء الديوان، فأنا أذكر أنهما وعدا بإصداره في عشرة أجزاء ولكنهما لم يصدرا غير جزءين

فقط؟ والواقع أنني لا أستطيع أن أقطع بالسبب الحقيقي ولكنني أميل إلى أن السبب أن الجزءين قد أوفيا بالغرض الذي قدر الكاتبان أنه يحتاج تحقيقه عشرة أجزاء، وليس هذا الغرض إلا التقدم في دنيا الشهرة تقدمًا واضحًا ملموسًا يفتح لهما الأبواب المغلقة ويرفعهما في عالم الصحافة مكانًا عليا.

ونرى لزامًا علينا في ختام هذا الحديث أن نشكر الأستاذ الكبير أحمد عبدالغفور عطار، فإليه يرجع الفضل في إثارة هذا النقاش الطريف كما نشكر مجلتنا الحبيبة الرائد ورئيس تحريرها الكاتب الألمعي النابه الأستاذ/ عبدالفتاح أبو مدين[1].

(١) الرائد: مجلة أدبية واجتماعية، سارت في اتزان، بعيداً عن الأعاصير، والتزمت المسار الوسط، وشجعت الشباب الطامح بنشر ما يكتبون، تشجيعا لهم، ودافعا لهم نحو العمل والبناء.

وكان تاسيس هذه المجلة في ١٣٧٩هـ واستمرت تؤدي دورها الثقافي حتى قيام المؤسسات الصحافية في المملكة العربية السعودية في نهاية عام ١٣٨٣هـ حيث احتجبت بتاريخ ١٣٨٣/١١/٢٩هـ، والأستاذ أبو مدين هو الكاتب والصحفي والأديب ورئيس نادي جدة الأدبي الثقافي الآن، وله عدة مؤلفات.

للتوسع: ارجع إلى كتابه «حكاية الفتى مفتاح». ط (١) في ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

شوقي والمازني*

تحدثنا عن شوقي ثم تحدثنا عن العقاد ثم كان موضوع المقال الثالث عن العلاقة بين شوقي والعقاد، وكان مما تعرضنا له في مقالنا الأخير هو تفسير التعارض بين ما ذهب إليه الأستاذ الكبير العطار من أن المازني لم يكتب كلمة عن شوقي في (الديوان)، وعليه فمن المستبعد أن يكون قائل الجملة التي أوردها الأستاذ حمام وهي قوله: (إننا لم نجد قمة نتسلقها أعلى من شوقي) وأوردنا عددًا من التفسيرات منها احتمال أن يكون الأستاذ المازني قد كتب مقالا أو أكثر عن شوقي في غير الديوان، وهو الذي يهمنا في هذا المقال، وقد بقي الأمر مجرد احتمال حتى كان يوم أمس[1] إذ كنت أتحدث مع مدير جامعة الإسكندرية وهو يقوم حاليًّا بزيارة للمملكة، وكان ما عرض له هو أنه كان مرشحًا لأن يكون مديرًا لجامعة الأزهر في عهدها الجديد، وقد أخذ يذكر الصعوبات التي تصورها في قيامه بهذا المنصب، وكيف سينتقل من جو إلى جو.

ولست في حِلٍّ من ذكر التفصيلات في حديثه، ولكنه أذكرني كتابًا لأستاذ جامعي كنت قد استمتعت بقراءته استمتاعًا كبيرًا يتحدث عن حالة مشابهة هو كتاب (شيخ التكية). وافترقنا على أمل أن أعثر له على هذا الكتاب ودخلت إلى مكتبتي الصغيرة أبحث عن (شيخ التكية)، وطال البحث كثيرًا ولكنني لم أعثر على شيخ التكية وإنما عثرت على عدد من مجلة الهلال، على غلافه صورة شوقي، وحيث إنني حديث عهد بالكتابة عنه أخذت العدد لأقرأ بعض ما كتب عن شوقي وتوقعت أن أجد اسم كل كاتب ولكن كاتبًا واحدًا لم يخطر ببالي أنني ساجد له مقالاً عن شوقي

☆ نشر في مجلة الرائد يوم الاثنين الموافق ١/٩/١٣٨١هـ ٦/٢/١٩٦٢م العدد (١٠)

(١) انظر تاريخ نشر المقال اعلاه.

هو إبراهيم عبدالقادر المازني.. وكان من المصادفات اللطيفة حقًا أن أجد مقالا له عن شوقي وقرأت المقال فإذا بي أجد المازني يقرر طائفة من الأمور الهامة أولها أن رأيه في شعر شوقي ما زال كما كان، ومعنى هذا أن للمازني رأيًا في شعر شوقي سبق أن نشره وأذاعه وثانيهما أنه يقرر صراحة أنه نقد شوقي فيقول:

«ومما يستحق الذكر أن شابًا رآني أنقد شوقي بعد ذلك فتوهم أن النقد معناه العداء والظلم وإنكار الحق، فزارني وشكا إلي أنه قصد إلى شوقي يسترشد به في درس الأدب فأوصاه بدرس كتابين، قال الشاب: فاشتريتهما فإذا هما كتابان في النحو والصرف، فأفهمت هذا الشباب أن شوقي لم يخطئ فقد رآه جاهلا بلُغَتِه، ولا بدَّ لكل من يطلب الأدب أن يطلب أولًا اللغة نحوها وصرفها وفقهها ـ وإلا فبأي لغة يريد أن يكتب او يقرض الشعر، إن هذه مبادئ لا غنى عنها قبل تحصيل الأدب العربي أو فنه».

وأما الأمر الثالث فهو قوله في موضوع (أن شوقي كان أنضج شعراء طبقته وكان أدقهم تعبيرًا وأبلغهم) ثم يقول في آخر المقال (ورحم الله شوقي فقد كان عنوانا ورمزًا لمصر في الشرق العربي كله).

فهل هذه التعبيرات على اختلافها كافية للتدليل على الرأي القائل إن شوقي كان أعلى قمة في عصره، وخاصة حين تصدر عن المازني زميل العقاد وشريكه في (الديوان).

ولقد فاتني أن أذكر أن عدد الهلال الذي أشير إليه هو الجزء العاشر من المجلد (٥٥) الصادر في أكتوبر عام ١٩٤٧م، وقد صدر على غلافه صورة نصفية لشوقي وكتب تحتها (ذكرى أمير الشعراء). على أنني أحب أن يكون واضحًا أو أنني لا أقصد بما كتبت الدفاع عن الأستاذ حمام، فليس بيني وبينه أي علاقة ولم ألقه غير مرة واحدة في المدينة ولمدة لا تزيد على دقيقتين.

ولكنني أرمي إلى إيضاح حقيقة رأيت من الواجب إيضاحها.

وهل تكفي هذه النصوص في إثبات رأى الأستاذ حمام؟

نعم.. ذلك ما أعتقده ولعل لبعض الأدباء رأيًا آخر.

شوقي بين النقاد والعمّال*

يظهر أن لمسة سحرية من لمسات الخلود قد أصابت شوقي الشاعر العربي العملاق، فلا تكاد تهدأ ضجة أثيرت حول أدبه أو معركة نشبت حول أثر من آثاره إلا وثارت ضجة جديدة وقامت معركة أخرى.. ولا يدل هذا إلا على نفاسة معدن هذا الشاعر وإلا على أصالة أدبه. والضجة التي أثيرت أخيرًا أثارها بعض الكتّاب الذين يقيسون الأمور بمقاييس ماركسية وينظرون إلى الأشياء نظرة متأثرة باتجاهات منحرفة يرفضها العقل وتأباها الفطرة.

وتفاصيل القصة أن لشوقي قصيدة منشورة في الجزء الأول من ديوانه (الشوقيات) تحت عنوان (أيها العمال) يبلغ عدد أبياتها ستة وثلاثين بيتًا، وتعتبر في الحقيقة من عيون قصائد شوقي، وقد اختار لها بحرًا سهلا يستطيع القارئ البسيط أن يقرأه من غير عناء وأن يتفهم المعاني التي صبَّها الشاعر فيه دون أي جهد.

ويدل هذا على ألمعية الشاعر كما يدل على مدى إخلاصه لأمته بجميع طبقاتها، ويدل أخيرًا على عظمة الشاعر وقدرته الخلاقة على اختيار المعاني والقوالب المناسبة لها الصالحة لمن يخاطبهم.

وقصيدة شوقي (أيها العمال) تصلح أن تكون دستورًا للعمال في الشرق، وقد ضمَّنها مجموعة من أجمل النصائح وأغلاها، ومن المؤكد أن أي مجموعة من العمال تسير على هذا النهج الذي رسمه شوقي في قصيدته ستنجح نجاحًا رائعًا وستقدم لنفسها وأمّتها أجل الخدمات.

(☆) نشرت بجريدة المدينة المنورة بتاريخ ١٦/٨/١٣٨٥هـ العدد (٥٣٩).

وسيدهش أولئك المتأدبون الذين ينظرون إلى شوقي كواحد من الطبقة الغنية المترفة التي تفصلها عن الطبقات الدنيا فروق وحواجز، سيدهشون عندما يقرأون هذه القصيدة التي تفيض رقة وإخلاصًا ومحبة لهذه الطائفة الكريمة التي لولا سعيها لأصبحت الأرض خرابًا كما يقول شوقي، ويود الشاعر أن يوجه بعض النصائح إلى هذه الطائفة فلا يقف منها وقفة الآمر المتسيطر يقذفها (بالنصائح) ويهددها بالسوط ويصفها بالضعة. بل إنه يبدأ قصيدته بالاعتراف بجهود هذه الفئة، ويقرر في صراحة أنه لولا سعيها لأصبحت الأرض خرابًا، فكل عظمة هذا العالم الأرضي تعود إلى جهود العمال والصنّاع. ثم يرى أن العمال في بلده في حاجة إلى طائفة من الإرشادات على ضوء ما لمسه من مشاكل يتعرض لها العمال وعادات ضارة قد انغمس فيها بعضهم أو ستؤثر على أعمالهم أسوأ التأثير، ومع ذلك فلا يفاجئهم بهذه النصائح وإنما يخبرهم بأن لديه طائفة من النصائح وبعض العُتْبى ويستأذنهم في ذكرها وخاصة في زمن (غبي الناصح فيه أو تغابى) وبعد ذلك أن يذكرهم بعظمة أجدادهم في دنيا الصناعة ويوضح لهم طريقة اختيار من يمثلهم، ويعود إلى مخاطبتهم بأسلوب يكاد ينوب رقة وعذوبة.

أيها الغادون كالنحل ارتيادًا وطلابا

في بكور الطير للرزق مجيئًا وذهابا

ثم يسوق إليهم طائفة من النصائح فيدعوهم إلى الاستقامة. فمتى استقاموا فسيفتح الله لهم أبواب الخير.. وينهاهم عن شرب الخمر ففي هجرانها طاعة الله وطاعة الرسول، فهي رجس من عمل الشيطان، هذا من الناحية الدينية أما من الناحية الدنياوية فإن المداومة عليها من شأنها أن ترعش الأيدي (ومن يرعش من العمال خابا) ثم يقدم لهم طائفة من النصائح المقتبسة من الحديث النبوي المشهور «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك» إلى آخر الحديث، ويختم قصيدته الرائعة بدفاع كريم عن هذه الفئة، فإن بعض الكبراء قد وصفهم

بأنهم (ذنب) الهيئة الاجتماعية فيقول شوقي: لقد أصاب من وصفكم بهذا الوصف لأن الهيئة الاجتماعية عبارة عن طاووس وأجمل ما في الطاووس ذنبه.

هذه هي قصيدة شوقي وهي كما رأينا عقد منضود، كل حباتها من اللؤلؤ (الحر) الخالص.. فما الذي أثار الضجة التي أشرنا إليها في بداية الحديث؟

كلمة واحدة في قصيدة شوقي هي التي أثارت هذه الضجة ودعت إلى إعادة النظر في وطنية شوقي وإلى ضرورة النظر في إرجاعه إلى طبقته (المتعالية) وإلى الشك فيما قال من شعر يمس الناحية القومية.

أما هذه الكلمة فهي (برفق) والباء حرف جر والرفق معروف، لقد كانت إحدى نصائح شوقي - طيب الله ثراه - التي أسداها إلى العمال قوله لهم: (اطلبوا الحق برفق) و(اجعلوا الواجب دابا).. فكيف يُقدم شوقي على أن ينصح العمال بأن يطلبوا الحق برفق وأن يجعلوا دأبهم أداء الواجب لولا أنه واحد من الطبقة المتعالية يريد أن يغرر بهؤلاء العمال وأن يخدعهم وأن يجعلهم مطية للسادة والكبراء.

لقد قال بعض النقاد أن (شوقي) حاول أن يخدع الشعب بكلماته الرقيقة التي أودعها قصيدته ولكن طبيعته غلبته دون أن يشعر على الطريقةالتي تقول (ما أضمر أحد شيئًا إلا وظهر على فلتات لسانه) فهو بطريقة لا شعورية كتب كلمة (برفق) وكان يستطيع أن يجعلها (بعنف) مثلًا أو (بعزم) أو (دواما) او ما أشبه ذلك من كلمات ولكنه من وراء اللاشعور كتب هذه الكلمة لتفضح نيته واتجاهاته الطبقية المتخلفة.

وقال نقاد آخرون أن شوقي لم يقل هذه الكلمة من وراء اللاوعي بل إنه قالها بمنتهى الوعي والإدراك (ومع التعمد وسبق الإصرار) وأن القصيدة لم تقم أساسًا إلا على هذا البيت، وأن هذه الصياغة الحلوة إنما تهدف في الدرجة الأولى إلى تثبيت هذا المعنى في العقول وأن هذا البيت هو بيت القصيد وكل ما عداه فحواشٍ وهوامش.

هذا ما ذهب إليه أولئك النقاد الأماثل، أما أنا فارى أن النقاد قد كلّفوا أنفسهم شططًا مدفوعين بمنطق الماركسية المضّلل، أما الحقيقة فهي أن شوقي لم يصدر في نصيحته هذه عن دوافع لا شعورية كما يقول الأولون كما أنه لم يهدف بقصيدته إلى تخدير العمال كما يزعم الآخرون ولكن شوقي - أحسن الله جزاءه - كان كثير التأمل في مجتمعه شأن كبار المصلحين، وقد هداه تأمله إلى أن مجتمعه وكل المجتمعات الشرقية يهتم بالحق الشخصي فلا يهمله أو يتنازل عنه أو يتراخى في المطالبة به أما الواجبات فلا تلقى إلا التهاون وعدم الاكتراث، فالموظف لا يرى مانعًا في أن يتأخر عن عمله في الصباح ساعة أو أكثر ثم لا يرى مانعًا في أن يضيع ساعة أو أكثر في شرب الشاي وقراءة الصحف وممازحة الزملاء. ثم لا يتورع عن الإساءة إلى المراجعين وتعطيل أعمالهم والعبث بمصالحهم، ولكن هذا الموظف نفسه لا يقبل أبدًا أن يجلس إلى مكتبه دقائق بعد انتهاء الدوام الرسمي، ثم لا يقبل أبدًا أن يتأخر ترفيعه أو علاوته متى حان وقتها، وهو مستعد لأن يقيم الدنيا ويقعدها، ولا يتورع على أن يملأ الدنيا صراخًا وعويلًا واحتجاجًا على هذا الظلم القاسي الذي تعرَّض له، وإذا حلّ موعد إجازته فكل الأسباب والمبررات التي قد تحول بينه وبين هذه الإجازة لا قيمة لها، وإذا حدثته عن ضرورة العمل ووجوب الإخلاص ولزوم الاتقان لوى وجهه وأخذ يحدثّك عن المادة والمرتب وأولئك الموظفين الذين لا يعملون شيئًا ومع ذلك فهم يأخذون المرتبات الكبيرة، وتحدّثه عن الخلق والضمير فيضحك في سرّه إن لم يستطع أن يضحك في وجهك، من غبائك وسذاجتك وغفلتك!

ما يقال عن الموظف يقال عن العامل والصانع والأجير فليس هناك روابط أخلاقية بين العامل وصاحب العمل سواء أكان صاحب العمل هو الدولة أو هيئة من الهيئات أو فردًا من الأفراد، وإنما هناك رقابة صارمة وعداء خفي بين الأجير وصاحب العمل، والويل لصاحب العمل إن غفل أو شغل.

ومن هنا أصبح المخلصون عرضة لطائفة عجيبة من الاتهامات، فإذا عملت أكثر من الوقت الرسمي وسهرت لأداء أعمالك ولم تستطع أداءها في وقت الدوام الرسمي لضيق الوقت وكثرة الاعمال اتُّهمتَ بأنك تعمل من أجل مصلحة مادية خاصة، فإذا وجدتَ من يدافع عنك لأنه يعرفك ويعرف أهدافك وجدت نفسك أمام اتهام لا علاج له وهو أنك «حمار شغل» وأنت حر بعد ذلك في أن تختار أن تكون من بني آدم الذين يعملون لصالحهم الشخصي ولا يهمهم مصلحة عامة ولا أهداف نظيفة أوتختار أن تنزل إلى دنيا الحمير!!

هذه هي الظاهرة الخطيرة التي لاحظها شوقي فرأى أن من واجبه أن يدعو العمال إلى التخفيف من غلواء المطالبة بالحقوق، والإهمال في والواجبات وهي ظاهرة موجودة في كل بلاد الشرق والشرق العربي بوجه خاص لا يستطيع إنكارها إلا جاهل أو غافل أو مغالط.

وشكرًا لشاعرنا الكبير.. وألف تحية..

رحم الله عليًّا وأبا علي

نعى إلينا الأستاذ عثمان شوقي في مقاله القيّم في العدد الصادر في جريدة البلاد في ١٣٨٤/٤/١٩هـ نعى إلينا ابن شوقي الأكبر (علي)، وقال إنه توفي - رحمه الله - في هذا الشهر[١]. وعلي هو الابن البكر للشاعر الكبير. ويدعوه الشاعر صاحب عهده، ويبدو أنه وُلد بعد أن تقدم الشاعر في السن ولذلك نجد الشاعر في مقطوعاته التي نظمها عنه يرحب به ترحيبًا حارًّا ممزوجًا بشيء من اللوم لأنه (جاء في الزمن الأخير)، ولسنا نعرف أسباب تأخره في المجيء، وهل يعود ذلك إلى أن الشاعر لم يبكِّر في الزواج أم يعود إلى أسباب صحية أو عائلية؟!

على أن الشاعر لم يغادر دنياه إلا بعد أن أصبح ابنه علي رجلًا محترما ذا مركز مرموق في السلك الدبلوماسي، ويبدو أنه بقي ملازما للعمل الدبلوماسي حتى آخر حياته. ومن الطرائف التي تذكر في هذا الباب ان بعض المساعي كانت تُبذل لتعيين (علي) في وزارة الخارجية، وفي هذه الأثناء كتب شوقي مقالًا رأى أنه وبعض المتصلين به أن في نشره ما يعرقل هذه المساعي إذا ما أسيء فهمه من بعض الجهات التي كانت غاضبة على شوقي لأسباب معينة، وحاولوا أن يثنوا الشاعر الكبير عن نشره وأن يقنعوه بان تأخير نشر هذا المقال أو طيه إلى الأبد أفضل من تعريض مستقبل(علي) للخطر، ولكِّن العجيب أن الشاعر رفض كل محاولة وأصر على نشر مقاله وفعلا نُشر المقال ولطف الله، فمرَّ دون أن يثير غضب أحد وتدل هذه القصة على اعتزاز شوقي بإنتاجه الشعري والنثري، وهذه سمة الأديب الأصيل، ووُلد للشاعر بعد «علي» ابنته أمينة ثم حسين.. وهؤلاء الثلاثة هم كل

(١) المقصود شهر ربيع الآخر عام ١٣٨٤هـ - انظر تاريخ نشر النعي في أول المقال.

أولاد الشاعر الكبير، ويحدثك مؤرخو حياته بأنه كان متوهج العاطفة بالنسبة لأولاده وأسرته وقال عن ذلك أحدهم أنه (كان يحب أولاده وزوجته حبًّا فاق المألوف عند البشر، فقد كان يغرم بهم غرامًا ناصبًا فلا يفتر عن تدليلهم ولا عن رعايتهم رغم بلوغهم سن الشباب، وقد خصّ أصغرهم حُسينًا بحب جعله يتبرم بهذا الحب، فهو لا يغبه تقبيلا ولا سؤلا عن العاقبة، وهذا الشغف بأولاده ألزمه بأن يقيم لابنته دارًا تجاور داره بالمطرية يوم كان يسكنها.. ودارًا في الجيزة حيث انتقل إليها ويضم هذه المنازل سور واحد في البلدتين، وقد سرى هذا الحب للحفدة أيضًا فهو مشغول بهم يهاديهم باللعب ويوسعهم تقبيلا وشمًّا وضمًا).

ولعل هذا الحب لأسرته قد استأثر كل عواطفه فلم يترك مجالا لعواطف أخرى يتجه بها نحو نساء أخريات، يشبب بهن ويتغزل في محاسنهن ولعل هذا هو السر في ضعف غزله كمايقول بعض النقاد، وإن كانت الدكتورة بنت الشاطئ قد كتبت عن (المرأة عند شوقي) فوصفتها بأنها في رأيه وشعره (صانعة الرجال وملهمة الأبطال، رد إليها اعتبارها وصوّرها فأبدع تصويرها).

وتقول في مقالها عن (المرأة عند شوقي) (إن القارئ لمسرحيات شوقي تلفته تلك الصورة المشرقة النبيلة التي صوّر بها الأنثى في شتى أوضاعها، وهو ملحوظ قلما يتخلف في مسرحية من مسرحياته، ومهما تختلف موضوعات قصصه بل مهما يختلف المسرح الذي يؤثره لكل واحدة منها، فإن لحواء عنده دائما دورها الخطير، وكأنها المؤثر الفعال، وإلا فتؤثر لديه دائما - حتى في الست هدى - وهي صانعة الرجال وموجهة الحياة ثم هي غالبًا ملهمة الأبطال وملهبة الحماس ومثيرة أعنف ما في الرجال من مشاعر تستوي في ذلك المجال (آمال) الجارية المستعبدة في مسرحية (على بك الكبير) و (كيلوباترا) الملكة المتوّجة الفاتنة. فليست الأولى في إبائها للذل وتمردها على الرق المهدد لإنسانيتها وتشبثها بعزة أنوثتها في أصعب

المواقف دون الثانية في إيثارها الموت انتحارًا على أن تعرض على شعب روما في موكب (اوكتافيوس القيصر المظفر).

وترى الكاتبة (أن الشاعر ألقاها حيث يخلق شخصيات أراد تمثيلها أو يجلوها فيؤثر إلى حد بعيد بنوازعه وآرائه ومثله، ومن هذه كانت دلالة القصة على مكانة المرأة عند شوقي أدق وأصدق من دلالة المعاني الجزئية في بيت عابر أو في قصيدة ربما أوحت بها مناسبة خاصة).

فشوقي بهذه الصورة قد سما بالمرأة وارتفع بها على ان تكون هدفًا تافهًا للمتعة والابتذال، ووضعها في موضعها الحقيقي الذي يجب أن توضع فيه.

ونعود إلى علي وحسين وأمينة ونلاحظ أن الشاعر رغم أرستقراطيته يتمسك بالأسماء الكريمة العربية الإسلامية فلا يلجأ للأسماء التركية أو المتفرنجة كما يفعل الكثيرون هنا وهناك.

وعلى هذا النمط الذي سار عليه الشاعر في دراسته سار أبناؤه علي وحسين فدرسا في مصر ثم في فرنسا، ولكن الميول الأدبية كانت لدى حسين النجل الأصغر أقوى منها بكثير لدى علي، فقد نشر حسين طائفة من المقالات والقصائد في المجلات الأدبية المختلفة أذكر منها (أبوللو) و (الرسالة)، كما ألّف كتابًا عن أبيه أحمد شوقي بعد وفاته سماه (أبي شوقي) تحدث فيه عن الكثير من شؤون شوقي الخاصة من الأمور التي لا يعرفها عادة إلا الأبناء، والذين تربطهم بالشاعر أوثق الصلات العائلية ويعتبر كتابه هذا مرجعًا من المراجع الهامة عن حياة شوقي، أما علي فليس له آثار تذكر، وكل ما يمكن أن يسجل له في عالــم الأدب ممــا اطلعت عليه أنه كتب كلمة قصيرة جدًا عن أبيه بعد وفاته، وشارك في تصحيــح الجزء الثاني من ديوان أبيه الشوقيات بإيعاز من والده وكان يرمي من وراء ذلــك إلى تزويد ابنه بثروة لغوية وأدبية وهذا كل آثاره في الناحية الأدبية وإن كان برز في الناحية الدبلوماسية ووصل إلى مراكز مرموقة، على أن الطريف بعد هذا أن شوقي - طيب الله ثراه -

تحدث عن علي وعن أمينة في مقطوعـــات كثيرة من شعـــره تحوي ألوانا من عواطف الأبوة السامية يجد فيها الدارسون الباحثـون مجالا واسعًا لدراسة هذا الجانب من جوانب الشاعر.

تحدث الشاعر عن علي وعن أمينة في مقطوعات كثيرة من شعره في دواوينه المختلفة ولكنه لم يتحدث ولا في مقطوعة واحدة مستقلة عن ابنه حسين مع أنه كان الأصغر وكان أحبهم إليه وكان لا يطيـــق فراقه، وهذه ظاهـــرة نفسية عجيبة، فهل كان الحبُ يسيطر عليه ويملأ أقطـار نفسه حتى لا يكاد يجد نفيسًا يعبر فيه عن هذا الحب الأبوي السامي. وهل نستطيع أن ننسب إلى هذه الظاهرة موقفه من أبيه بعد موته فلم يرثه إلا بعـــد فترة مما أثار تســـاؤل الناس، والرجل الفرد من الناس ملك نفسه يصنع ما شـــاء أما الرجل العظيم فهو ملك غيره، ويرى الناس من حقهم أن يسألوه أو يناقشـــوه عن تصرفاته وهو مسؤول عن تبريره هذه التصرفات.

وقد بلغ الشاعر وهو في منفاه بأسبانيا نبأ وفاة والدته في الوقت الذي كان يستعد فيه للعودة للقاء تلك الحبيبة بعد غياب بضع سنوات، فأثاره ذلك النبأ وأثَّر فيه تأثيرًا بليغًا، فاندفع يرثيها ولم يمضِ ساعة حتى كانت قصيدته وقد تجاوزت الخمسين بيتًا مستوية ـ كاملة، ولكن الغريب بعد ذلك هو أن الشاعر تحاشى أن ينظر إلى هذه القصيدة وبقيت مطمورة بين أوراقه الخاصة فلم تنشر إلا بعد وفاته أي بعد أربعة عشر عاما.

وفي قصيدة الشاعر عن أبيه ما يدل على طريقة هذه الأسرة في تربية الأبناء وهي طريقة مثالية، فهو يتحدث عن أبيه فيقول عنه: (من رآنا قال عنا أخوين) وهذا كما يقول الأستاذ محمود أبو الوفا (أعظم ألوان المدائح التي توجه لوالد، فإن الوالد الذي لا يشعر ابنه بسلطة الأب هو الوالد المشتمل على مكارم الأخلاق البالغ أعلى درجات الحكمة).

ويؤكد علي بن شوقي هذه الطريقة في الكلمة القصيرة التي أشرنا إليها فيقول (كان أبي يتغنى في حبنا صغارًا ويلاعبنا ونلاعبه أطفالًا ثم.. صادقنا وصادقناه شبانًا، كان في ذلك يلقي علينا الدرس الذي ألقاه عليه أبوه من قبل). وقد شرح شوقي ذلك الدرس في قصيدته الرائعة في رثاء أبيه ويستطيع القارئ الرجوع إليها في الجزء الثالث من ديوانه.

ونختتم هذا الحديث عن (علي وأبي علي) بالإشـــارة إلى مصادفة غريبة في حياة الشاعر العظيم وقد كانت ولادة ابنتـــه أمينة ووفاة والده علي في ساعة واحدة، وقد سجّل ذلك في مقطوعة منثورة بديوانه، وهذا من غرائب المصادفات. رحم الله عليًّا وأبا علي.

قصة القصة
بين الرافعي والعقاد

لي رأي بالقصة بألوانها المختلفة ربما اعتبر شاذا في عصرنا الذي نعيش فيه وهو العصر الذهبي للقصة، إذ أخذت تسيطر على ألوان الأدب الأخرى وتحتل مكانة الصدارة.

ورأيي في القصة أنها أقل ألوان الأدب شأنا، وهو رأي لا أستطيع أن أحدد دوافعه وبدايته وأسبابه ثم إيماني به واعتناقي له، وإن كنت لا أستبعد عنصر (العجز كأحد العناصر الفعالة المؤثرة المكونة لهذا الرأي، فأنا لم أعالج هذا اللون الأدبي إلّا ثلاث مرات وكلها كانت في فترة الدراسة) واثنتان من هذه المحاولات لم أطلع عليهما أحدًا رغم اعتزازي.. أما المحاولة الثالثة أو الأولى لا أدري فلها قصة يجب أن تُذكر في هذا المجال فلعلها تكشف عن بعض الدوافع الخفية..

ففي أحد دروس الإنشاء كلفنا أستاذنا ـ أمد الله في حياته النافعة ـ بكتابة موضوع عن (مضار التبغ) ولم يرقني ـ يومها ـ هذا العنوان وأقول يومها لأنني عدت بعد سنوات فكتبت مقالا مطولا عن هذا الموضوع كتبته في العام الماضي أو العام الذي قبله ونشرته في مجلة الرائد[1].

أقول إنه لم يرقني هذا العنوان ولكن لم يكن في إمكاني اقناع الأستاذ بتغييره، كما لم يكن من طبعي التهرب من أداء الواجبات مهما كانت عسيرة أو ثقيلة على نفسي، وفكّرت في طريقة أتغلب بها على (ثقل) هذا الموضوع فهداني تفكيري إلى أن أفضل شيء هو صوغ الموضوع في قالب قصصي، وهذا القالب يتيح لي أن أبيّن تأثير (التبغ)

(١) نشر في ٦/١٢/١٣٨٢هـ الموافق ٣٠/٤/١٩٦٣م العدد (١٦٣).

دون أن ألجأ إلى تكرار العبارات التقليدية المحفوظة التي تقال عادة في هذا المجال، وكتبت قصة وصفت فيها حالة شاب كان قبلة الأنظار بجسمه المشوق وقوامه المتناسق وفتوته البارعة ثم ما آلت إليه حاله بعد أن اتصل بطائفة من الرفاق كان لها تأثيرها البالغ على دفعه إلى شرب التبغ، ثم في إدمانه عليه. ثم ما كان لهذا الإدمان من تأثير على صحته وصدره كان السبب في هزيمته هزيمة منكرة أمام منافسيه في مباراة رياضية.

هذا هو هيكل القصة أما هوامشها وحواشيها وتفصيلاتها الجزئية فذلك ما لا يتسع له المجال، وقدمت موضوعي أو قصتي وأنا معتز بها. ويبدو أنها كانت مفاجأة للأستاذ فقد كان يتوقع أن يقرأ موضوعًا عن مضار التبغ لا أن يقرأ قصة، ومع أنه حرص على مجاملتي لأنني كنت من الطلاب المتفوقين في الإنشاء فقد لمحت في عينيه عدم الارتياح وأكد لي هذا أنه وقف عند أحد المواضيع في القصة وقال لي لقد كان عليك أن تتحدث هنا عن مضار التبغ بشيء من التفصيل وفعلا كتب هو بعض الجمل، ولم أجد من اللائق أن أبيِّن له أنني هدفت من وراء كتابة هذه القصة إلى تبيان تأثير التبغ عن طريق أحداث القصة وشخوصها ولأخلص من لوك العبارات المكرورة والجمل التقليدية.

وكانت تجربة غير ناجحة ويبدو أنه كان لموقف الأستاذ أثر في نفسي جعلني أتنكب طريق القصة واتجه بكليتي إلى الشعر وإلى المقالة والبحث.

ولعل من المفيد أن أذكر أن أستاذنا ـ حفظه الله ـ كان شاعرًا من طراز ممتاز.

ويبدو أن التأثير كان قويًا إلى درجة أنني أصبحت لا أقرأ القصص إلا نادرًا وكل القصص التي قرأتها من القصص التي تعتبر في الذروة وهي قليلة على أي حال.

وقد اتيح لي أن أعرف مؤخرًا أن أديبين عملاقين لهما في القصة رأي يتفق مع رأيي، وإن كانت الأسباب مختلفة والدوافع متباينة، ومن الطريف أن بين هذين الأديبين

من أسباب النزاع والشقاق ما يعرفه القريب والبعيد ولعلهما لم يتفقا إلا في التهوين من شأن القصة، وإلا في تجويد الأسلوب والعناية به.

أما هذان الأديبان الكبيران فهما الأستاذ مصطفى صادق الرافعي والأستاذ عباس محمود العقاد، ويهاجم الرافعي من سمَّاهم (التابعين في الرأي والمقلدين في الهوى والضعفاء بطبيعة التقليد والمتابعة) لأنهم يدعون إلى فن القصة الذي شاع في أوروبا ويقول عنهم (شاع أدب القصة في أوروبا وطغى عندهم على المقالة والكتاب وديوان الشعر جميعًا، فقام عندنا التابعون في الرأي والمقلدون في الهوى والضعفاء بطبيعة التقليد والمتابعة قاموا يدعون إلى هذا الفن من الكتابة ولا يرون من لا يكتب فيه إلا مُدْبرًا عن عصره وأدب عصره.. ولا جرم إذا كانوا هم أنفسهم مُدْبرين عن الحقيقة ومعنى الحقيقة وانت متى كان وجهك إلى الباطل وظهرك إلى الحق فمهما تتقدم في رأي نفسك فإنما تتأخر في رأي الحق).

وبعد أن يحدد الرافعي دوره في الأدب يعود فيهاجم القصة ويقول عنها: (إن أكثر ما تراود من القصص ونجاحه هي التي غمرت الكتابة عندنا إنما هي صناعة لهو ومسليات فراغ وهذا قد يكون له وجه في علاج الحياة العملية وفي تخفيف وطأة الاجتماع في أوروبا وأمريكا ولكن ما موضوعه عندنا في الشرق والشرق إنما نعمل في نهضته لمعالجة اللهو الذي جعل نصف وجوده السياسي عدمًا ولملء الفراغ الذي جعل نصف حياة الإنسانية موتا؟ وهذا الضرب من القصة هو لرجالنا ونسائنا إذا قرأوه وتلهوا به أشبه بإدخال أولئك الرجال والنساء إدخالهم وإدخالهن على الكبر في مدارس رياض الأطفال).

ولا يكتفي الرافعي بذلك بل يشتد في قسوته على القصةوهجومه على كتَّابها وقرائها فيقرر أن (الأطفال يستلذون الحكاية بالفطرة لأنها تجنبهم بالدنيا التي يعسر عليهم أن يذهبوا إليها ويغامروا فيها وتهيئ لهم أن يشعروا خيالهم قوة الخلق فكون لنتهم على مقدار من بعده هذه الدنيا عنهم وعلى هذا مقدار مثله من طبيعة العجز في

خيالهم وهذا الضعف في الناحيتين هو بعينه الذي يجعل لأكثر القصص شأنًا عند سخف الناس وفراغهم يسعرهم شهوات وخيالات وأوهامًا من الباطل فذلك إذن ليس أدبًا يكتب ويقرأ بل هو بلاء اجتماعي يطبع ويوزع في الناس الا ترى أن تلك الروايات توضع قصصًا ثم تقرأ فتبقى قصصا؟ وإن هي صنعت شيئًا في قرائها لم تزد على ما تفعل المخدرات، تكون مسكنات عصبية إلى حين ثم تنقلب هي بنفسها بعد قليل إلى مهيجات عصبية)، ويعترف الرافعي بعد ذلك بأن القصة أدب عالٍ ولكن بعد أن يحدد دور القصة يقرر أنه (لا ينبغي أن يتناولها غير الأفذاذ من فلاسفة الفكر) (أما من عداهم ممن يحترفون كتابة القصص فهم في الأدب رعاع وهمج وقد كان من أثر قصصهم ما يتخبط فيه العالم اليوم من فوضى الغرائز).

قصة القصة بين العقاد والرافعي

يتفق العقاد مع الرافعي في هو أن شأن القصة بين ألوان الأدب الأخرى وفي أن هناك بعض القصص التي جادت بها قرائح العباقرة ولكنه يقرر أن (إيماننا بها لا يلزمنا أن نضع القصة في الذروة العليا من أبواب الآداب، ولا يمنعنا أن نقدم عليها غيرها في التقدير والتمييز)(١).

وهو يقرر بوضوح قائلا إنني (لا أقرأ قصة حيث يسعني أن أقرأ كتابًا أو ديوان شعر ولست أحسبها من خيرة ثمار العقول)(٢).

وهو يرى أن (الثمار العبقرية طبقات على كل حال، وقد يكون الراوية أخصب قريحة وأنفذ بديهة من الشاعر أو الناثر البليغ، ولكن الرواية تظل بعد هذا في مرتبة دون مرتبة الشعر، ودون مرتبة النقد أو البيان المنثور والمثل هنا أقرب إلى الإيضاح من سَوْق القضية بغير تمثيل، إن الحديقة التي تنبت التفاح لا يلزم أن تكون في خصبها ووفرة ثمارها أوفى من الحديقة التي تنبت الجميز أو الكراث. ولكن الجميز والكراث لا يفضلان التفاح وإن نبتا في أرض أخصب من الأرض التي تنبته وتزكيه)(٣).

ويوضح العقاد مقاييسه التي يعتمد عليها في ترتيب الآداب فيقول:

(غير أنني أعتمد في ترتيب الآداب على مقياسين يغنياني عن مقاييس أخرى وهما الأداة بالقياس إلى المحصول ثم الطبقة التي يشيع بينها كل فن من الفنون، فكلما قلّت الأداة وزاد المحصول، ارتفعت طبقة الفن والأدب، وكلما زادت الأداة وقلّ المحصول مال إلى النزول والإسفاف.

(١) في مكتبتي، الفصل التاسع من كتاب «أنا» عباس محمود العقاد ص٢٢٧.

(٢، ٣) المرجع السابق.

وما أكثر الأداة وأقل المحصول في القصص والروايات؟. إن خمسين صفحة من القصة لا تعطيك المحصول الذي يعطيكه بيت كهذا البيت[1]:

وتلفتت عيني فمذ بعدت ... عني الطلول تلفَّت القلب

- وبعد أن يذكر عددًا من الأبيات يقول: (لأن الأداة هنا موجزة سريعة، والمحصول مسهب باق، ولكنك لا تصل في القصة إلى مثل هذا المحصول إلا بعد مرحلة طويلة في التمهيد والتشعيب وكأنها الخرنوب الذي قال التركي عنه - فيما زعم الرواة - إنه قنطار خشب ودرهم حلاوة!..).

(أما مقياس الطبقة التي يشيع بينها الفن فهو أقرب من هذا المقاييس إلى أحكام الترتيب والتمييز. ولا خلاف في منزلة الطبقة التي تروج بينها القصة دون غيرها من الفنون والأدب، سواء نظرنا إلى منزلة الفكر أو منزلة الذوق أو منزلة السن او منزلة الأخلاق، فليس أشيع من ذوق القصة ولا أندر من ذوق الشعر والطرائف البليغة، وليس أسهل من تحصيل ذوق القصة ولا أصعب من تحصيل الذوق الشعري الرفيع حتى بين النخبة والمثقفين)[2].

والعقاد يتفق مع الرافعي في هذا المقياس لأن الرافعي يرى أن القصة أدب أطفال، والعقاد يراها أدب الدهماء والطبقات الشعبية.

والغريب بعد ذلك أن العقاد يستدل على هبوط القصة وأنها ليست في منزلة الآداب الرفيعة يستدل بشيوع الدعوة الشيوعية (بين طائفة من طلاب الهدم والانقلاب فعند هؤلاء أن القصة أشرف أبواب الأدب لأنها تكتب للجهلاء وتصلح لبث الدعاية الشيوعية وعندهم أنها لا ينبغي أن تدار على موضوع غير موضوع القضايا الاجتماعية كأنهم يضربون الجهل على الفقر ضربة لازبٍ أو كأنما هذا الفقير لا يكفيه الضنك الذي يضنيه في ساعات العمل أو في طِلاب العيش فلا يزال في ضنكه حين

(١، ٢) المرجع السابق.

يفتح الكتاب وحين يقرأ الصحيفة وحين يناجي ضميره وحين يجب أن يعرف له من خصائص الإنسانية شيئًا غير المعدة والزاد).

فالأديبان الكبيران متفقان على مهاجمة أدب القصة وانتقاص شأنه واعتباره أدبًا رخيصًا، ولكن الرافعي يكتفي بالهجوم دون الدخول في تفصيلات فنية.

أما العقاد فيعقد مقارنة بين القصة وبين الشعر يخرج منها بتفضيل الشعر على القصة.

ولا يكتفي العقاد بذلك بل يلجأ إلى أسلوب جديد فيربط بين القصة والشيوعية ربطًا عجيبًا محكمًا ليضرب الاثنين بعد ذلك ضربة فيها براعة وفيها عبقرية وفيها دهاء.

وليس معنى ذلك أن العقاد يبعد عن الدليل العلمي لضعفه وتهافته إلى المداورة السياسية بل إنك ستجد أمامك برهانًا علميًا ساطعًا لا تستطيع نكرانه أو غمز قناته. على أن أمرًا هاما يجب ألا يغرب عن بالنا ونحن بصدد الحديث عن رأي الأديبين الكبيرين في القصة هو أن الأديبين الكبيرين يتحدثان عن رأيهما في القصة مدفوعين بعامل القوة لا بعامل العجز.

فقد كتب العقاد قصة قوية صدرت في عام ١٩٣٨م باسم (سارة) وقد ترجمت إلى أكثر من لغة ويصفها الأستاذ الزيات أنها (من النوع التحليلي البارع وبالأسلوب المنطقي المشرق والقصة التحليلية هي آخر أطوار القصة) وبعد أن يلخص الأستاذ الزيات القصة يعلق عليها فيقول: (ليس في القصة إذًا من حادثة تروعك ولا مفاجأة تدهشك ولا عقدة تشوقك ولكن هذا الحادث العادي المطرق أصاب ذهنًا شديد النفاذ وفكرًا دقيق الملاحظة وشعورًا صادق الحس فتحول في (سارة) صورًا واضحة الخطوط ناطقة الملامح عبقرية الألوان).

ويقول الزيات: (إن سارة تقدم مثلًا جديدًا في بلاغة الأسلوب وتفتح فصلًا جديدًا في أدب القصة وتسجل اتجاها جديدًا في أدب العقاد).

فالعقاد إذن عالج القصة ونجح فيها نجاحًا ملحوظًا واستطاع أن يسجل في دنيا القصة قصة فريدة احتلت - ولا تزال - مكانًا مرموقًا لا ينازعه فيه منازع.

أما الرافعي - رحمه الله - فقد كتب ما يقارب العشرين قصة وكلها قصص رفيعة حازت إعجاب القراء واحتلت مكانًا ساميًا في دنيا الأدب وترجم بعضها إلى اللغات الأجنبية، ويذكر الأستاذ محمد سعيد العريان الرافعي في هذا الصدد أنه (لم يكن له مذهب فني خاص يحتذيه ويسير على نهجه ولكنه كان يقص كما تلهمه فطرته غير ملقٍ باله إلى ما رسم أهل الفن من حدود القصة وقواعدها فإننا بذلك نستطيع أن ندرس طبيعته وطريقته القصصية خالصة له وحده غير متأثر فيها بمذهب من مذاهب المتقدمين أو المتأخرين من كتّاب القصص، على ما قد يكون فيها من نقص وتخلف، أو ابتكار وتجديد).

فكل من الأديبين الكبيرين عالج وحقق فيها نجاحًا ملحوظًا ولكنهما متفقان على استصغار شأنها بين فنون الأدب والسخرية ممن يقصر جهده على معالجتها واعتبارها (ضربًا من العبث ولونًا من ألوان الأدب الرخيص لا ينبغي أن تكون هي كل أدب الأديب وفن الكاتب).

ولكن الأديبين الكبيرين يختلفان في نقطة صغيرة، فالعقاد يقرر بأنه لا يقرأ قصة حيث يسعه أن يقرأ كتابًا أو ديوان شعر، أما الرافعي فكان (يجد لذة في قراءة القصة على أنها لون من ألوان الرياضة العقلية لا باب من أبواب الأدب كما يشاهد رواية في السينما أو يقرأ حادثة في جريدة).

وهما متفقان في أنهما لا يقرآن القصة بعناية واحتفال وإنما يقرآنها كوسيلة من وسائل التسلية وتزجية الفراغ.

ولست أدري عمـــا إذا كان في مقـــدوري أن أتخـــذ من نظرة الأديبين الكبيرين إلى القصة دليلًا اعتمـد عليـــه في تقريـــر أن العرب في أوج حضارتهم قد اطلعوا على الأدب القصصـــي اليونانـــي والهنـــدي والفارســـي ولكنهم لم يحفلوا به فهم قوم جادون وعندهم من الأبحاث الجادة الرصينة ما يشغلهم عن هذا اللون العابث.ولا سيما ما وجدوه في بعض هذا الأدب من تعدد للآلهة وتنافس بينها ومشاركة للبشر في كل حروبهم وحياتهم حتى في انحرافاتهم الخلقية وشذوذهم الجنسي ونزواتهم الطارئة.

اقتراح عن العقاد

الأستاذ أحمد محمد الصائغ أديب شاب يمتاز بحبه العميق للأدب وتحمسه للثقافة وتتبعه لأخبار الأدباء وحرصه على أن يكون وطنه مشاركًا في كل مجال، سبَّاقًا إلى كل نهضة، وقد راعه احتفال إذاعة العراق بنبأ تأبين فقيد الشرق والإسلام عباس محمود العقاد احتفالًا كبيرًا وتقريرها جمع كل ما قيل في كتاب يطلع عليه من فاته سماع الحفلة المذاعة ويعتبر مساهمة كريمة في تكريم المفكر الكبير - رحمه الله.

لقد راعه ذلك فكتب في اليمامة الصادرة في ١٣٨٤/٢/٩هـ يقترح على الجهات المعنية بشؤون الأدب أن تجمع المقالات التي كتبت في صحفنا عن العقاد في كتاب (لكي ندلل للرأي العام العربي على مدى تقديرنا لأعلام الفكر ولفضلهم علينا بما يجري في محيط الأدب العربي).

والاقتراح كما يرى القراء اقتراح وجيه، فإن الواجب أن نسهم في تكريم أعلام الفكر العربي والإسلامي.

وقد خطر لي أن أكتب مؤيدًا رأي الأستاذ الأديب لولا أنني تريثت قليلا لأسأل نفسي عن أهمية هذه المقالات التي كتبت عن العقاد في صحفنا وهل هي جديرة بأن تجمع في كتاب يطلع عليه الناس؟ وماذا ستكون انطباعات الناس عن هذا الكتاب؟.

وقد خرجت من تساؤلي بنتيجة لا ترضي الأستاذ الصائغ - مع احترامي لاقتراحه - وهو أنه من الخير أن تبقى هذه المقالات حيث هي في بطون الصحف فأكثرها مقالات كتبت للتفجع والتحسر وإعلان الحداد، وقد أدت هذه المقالات مهمتها في هذه الحدود، فليس من الخير لأدبائنا ولسمعتنا الأدبية أن تُجمع هذه المقالات في كتاب، وهذه ظاهرة تستحق الاهتمام والبحث فمع وجود نفر من أدبائنا

يحبون العقاد ويعتزون به ويؤثرون كتبه فلم يُعنَ أحد منهم بكتابة مقالات جادة أو دراسات واعية عن كتبه وآثاره رغم تشعُّب نواحيه الفكرية وتنوُّع اتجاهاته العقلية، ومما يستلفت النظر أن الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار تربطه بالعقاد أكثر من رابطة فقد شارك (في حركة الركود هذه) إن جاز هذا التعبير، فلم نقرأ له دراسات قوية عن العقاد وإنما قرأنا له مقالات صحفية تتضمن بعض الذكريات عن الفقيد العظيم، ومع هذا فإن مقالات الأستاذ العطار تعتبر خير ما كتب عن العقاد في صحفنا، ولعل الأستاذ العطار ينوي كتابة دراسة جادة قوية عن العقاد ينشرها للناس في كتاب، ومن العجيب ان الشعر تخلَّف أيضًا عن القيام بواجبه في هذه المناسبة فلم نقرأ غير قصيدة واحدة في رثاء العقاد كتبها احد سفرائنا الكبار، وغير قصيدة كتبها أديب ناشئ، وكان التوقع أن نستمع لطائفة من القصائد القوية الرصينة في رثاء أديب العربية الكبير، ولكن خاب الظن وتخلَّف الشعر والنثر عن القيام بواجبهما تجاه الكاتب الشاعر المفكر.

ولعل الأدباء والقرّاء يتساءلون: وأين أنت من سلسلة المقالات التي كتبها الأستاذ العواد عن العقاد تحت عنوان (في رحاب الخلود) وهي (دراسة مسلسلة عن العقاد)، وهل نسيتها أم تجاهلتها؟ والواقع إنني لم أنسَ هذه المقالات فقد كنت أتابعها باهتمام على أمل أن اقرأ دراسة قوية قائمة على أساس من العلم والمنطق عن العقاد، ولو كتب الأستاذ العواد هذه الدراسة في هذا الإطار لكان حسبه ذلك لا سيما والأستاذ العواد يعتبر نفسه من حواريي الأستاذ العقاد ومريديه، ولكنني فوجئت - علم الله - بمقالات طويلة بلغت ستًّا حتى الآن حفلت بالأخطاء والمغالطات والدعاوى العريضة التي لا يؤيدها ولا يسندها برهان، وأسفت أشد الأسف لنشر هذه المقالات بهذه الصورة وعجبت من جراة الأستاذ العواد على كتابة هذه المقالات وتقديمها للنشر، وسألت نفسي عما إذا كان الأستاذ العواد يجهل ما في مقالاته من أخطاء أم أنه لا يجهلها ولكنه يستهتر بعقل القراء والأدباء؟ وسواء أكان هذا

الافتراض أو ذلك فإن هذه المقالات لا تصلح أن تُجمع في كتاب يقرؤه الناس ـ كما يقترح الصائغ ـ وقد عرضت لبعض الأخطاء والمغالطات في مقال مطوّل سينشر قريبًا.

ولكنني ساعرض من هنا لنقطة أتحدث عنها في ذلك المقال ليرى القراء نموذجًا من الدعاوى العريضة في مقالات الأستاذ العواد. وأبين أن الأستاذ العواد يشك في عظمة العقاد فيتلمس له أمجادًا موهومة ويلصق به مجدًا زائفًا ويضفي عليه حالات مصطنعة، وليس أدل على ذلك من هذه الدعاوى العريضة تصورها الأستاذ العواد بقوله في العدد ١٦١٦ من جريدة البلاد الصادرة في ١٣٨٤/١/١٨هـ (ويكاد العقاد أن يكون الأديب الوحيد الذي رأى مجده في قمته وهو على قيد الحياة، فعرضت عليه جائزة نوبل ـ وفووضَ على الأصح في السعي للحصول عليها ولكنه رفض بطبيعة الحال وعلل رفضه وأعلنه في عدة مقالات نشرها في عدة أحاديث مسلسلة ألقاها في راديو القاهرة في أواخر حياته وقبل أن يلازم السرير في مرضه الأخير).

وهذه دعوة ينكرها الواقع جملة وتفصيلا. ولا أريد ان أناقش قول الأستاذ العواد عن أن العقاد (هو الأديب الوحيد الذي رأى قمة مجده وهو على قيد الحياة) لان العقاد ليس الأديب الوحيد الذي رأى قمة مجده وهو على قيد الحياة بل هناك أدباء آخرون يشاركونه هذا المجد إن لم يفوقوه لا أريد ان أناقش هذه النقطة لان الأستاذ العواد خلافًا لعادته كان محتاطًا في كلامه فبدأ بقوله (يكاد).

أما النقطة التي لا مناص من مناقشتها وبيان ما فيها من خطل أو خلل واضطراب فهي حكاية جائزة (نوبل) وما زعمه الأستاذ العواد من أنها عرضت على الأستاذ العقاد أو فووض في السعي للحصول عليها، وهذه قضية مرفوضة جملة وتفصيلا فإن جائزة نوبل لم تعرض حتى الآن على أي عَلَم من أعلام الفكر أو الأدب أو العلم أو السلام، وهذه بدهية يعرفها كل مطّلع على شروط هذه الجائزة من قريب أو بعيد، وكان الأستاذ العواد قد أدرك أن كلمة (عرضت) غير مساغة فأحب أن يلطف من وقعها مقدما إلى (وفووض على الأصح في السعي للحصول عليها) ولكن

ما رأي الأستاذ العواد في أن هذه المفاوضة غير صحيحة على الإطلاق فلم يثبت أن فاوضت لجنة جائزة نوبل أي عَلَم من الاعلام في منحه جائزة من جوائزها وليس أدل على ذلك من أن يرفض برناردشو هذه الجائزة التي نالها، ولو كان الأمر عرض ومفاوضة لأصبح هذا الرفض تافهًا مثيرًا للتساؤل غير مقبول، ولردت عليه اللجنة بأن رفض هذا الأمر لها بعد أن تفاوض مع اللجنة وأبدى استعداده لقبول الجائزة.

هذه واحدة أما الثانية فما ورد من أخبار في مطلع هذا العام عن نيل الشاعر اليوناني (جيورجيوس سفريس) لجائزة نوبل للشعر لعام ١٩٦٣م وهو اختيار مفاجئ للأوساط الأدبية الأوروبية و(عندما سئل سفريس ذاته، وهو في عزلته في جزيرة يونانية صغيرة عن انطباعه حول هذا الاختيار أجاب: إنني لا أشعر بانني ألبس جلد (نوبل) وإنما لدي إحساس بأن هذا وقع لشخص آخر غيري، وانا مع الآخرين أنظر إليه من بعيد، أما بالنسبة لليونان الوطن فهذا اختيار جيد جداً والجميع تلقوه بسعادة وعظمة وفرح.. أنا شخصيًا سمعت بائع الصحف ينادي بأعلى صوته (ربحنا جائزة نوبل.. جائزة نوبل لنا.. لنا).

فهل هذا كلام رجل سبق أن عرضت عليه الجائزة أو فووض في الحصول عليها من قبل أن ينالها رسميا؟.

أما الثالثة فهي جائزة نوبل التي حصل عليها الأديب (ا. السوفياتي) (بوريس باسترناك)[1] على إثر صدور رواية (دكتور زيفاجو) فهل حصل على الجائزة نتيجة مفاوضات مسبقة، وكيف أمكن أن تتم هذه المفاوضات للكاتب (ا. السوفياتي) وهو يعيش جحيم الشيوعية الأحمر، ومن المؤكد أنه لو كانت هناك مفاوضات مسبقة لانتهت باعتذار الكاتب عن قبول الجائزة فقد سبب له حصوله عليها كثيرًا من الإزعاج والمتاعب والمضايقة كما أثارت ضجة كبيرة في أنحاء العالم.

(١) حصل على الجائزة في عام ١٩٥٨م في الآداب.

أما الرابعة فهي اعتراف العقاد اعترافًا صريحًا في آخر مقال نشره قبل وفاته عن برناردشو (الرجل الوحيد الذي رفض جائزة نوبل) وقال في مقاله هذا الذي نقلته جريدة البلاد في عددها الصادر في ١٩/٢/١٣٨٤هـ (ولهذا الأديب ـ برناردشو ـ قصة غريبة ـ مع الجائزة ـ كسائر قصصه وأطواره في حياته وفي أعماله فهو الوحيد الذي رفض هذه الجائزة بين مئات ممن نالوا جوائز على اختلافها، وكانت له حجة في رفضها انه في غنى عنها لأنه وصل إلى الأمان فلا حاجة به إلى عوّامة النجاة.. فبرناردشو لم يرفض الجائزة لهذا السبب ولكنه رفضها لأنه رأى بحق أنها تخطته عدة سنوات ووصلت قبله مرات عديدة إلى أناس لا يساوونه في نظر الناس ولا في نظر نفسه وقد كان هو على رجاحة قوية يرتفع بهذا القدر فوق ميستوله بكثير)[(١)].

فالعقاد يقر في صراحة ووضوح بأن برناردشو هو الأديب الوحيد الذي رفض جائزة نوبل ولم تكن أسباب رفضه هو تعاظمه على هذه الجائزة السنية ولكنه احتجاج لأنها (تخطته عدة سنوات ووصلت قبله مرات عديدة إلى أناس لا يساوونه في نظر الناس ولا نظر نفسه).

وهذا كلام واضح صريح يحمل أبلغ رد على دعوة أن العقاد رفضها أو رفض السعي في الحصول عليها. هذا والعقاد يعرف جيداً أن هذه الجائزة لا يمكن أن تمنح له لسبب بسيط فهو مفكر مسلم يدافع عن الإسلام وعن تراث العرب والمسلمين، ولا تستطيع لجنة جوائز نوبل أن تغفل عن هذه الناحية في تقديرها، فهي تمنح هذه الجائزة للمسيحي واليهودي والبوذي والوثني ولكنها لا تستطيع ان تمنحها للأديب المسلم، حتى لو حدث في المستقبل أن حصل كاتب مسلم على هذه الجائزة [(٢)] ـ وهو أمر مستبعد جداً ـ فإن الذي سيحصل عليها سيكون مسلما بالاسم فقط ولن يكون له أي جهد في الكتابة عن الإسلام أو الدفاع عنه، أما أن تمنح هذه الجائزة

(١) منح جائزة نوبل في عام ١٩٢٥م في الآداب. المنجد ص ٧٠٦.

(٢) هذه نظرة ثاقبة من الكاتب قبل ان تمنح لمسلم بسنوات عديدة.

لأديب يتصدى للدفاع عن الإسلام ومهاجمة خصومه ودحض أباطيلهم فذلك أمر في حكم المستحيل، ومن المسلّم به أن العقاد ومعه طائفة من الأدباء المسلمين الذين يكتبون أدبهم بالعربية والإنجليزية والفرنسية وغيرها من اللغات الحية هم أفضل من كثير ممن مُنحوا هذه الجائزة، ولو أردت أن تعقد مقارنة بين هؤلاء وأولئك لوصلت إلى نتيجة باهرة تؤيد صحة ما ذهبنا إليه، ولا نريد أن نذهب بعيداً فلو عقدنا مقارنة بين العقاد مثلًا وبين (جورج سفريس) أكان يمكن أن يتفوق (سفريس) على العقاد؟.. ذلك أمر بعيد الاحتمال، ولو عقدنا مقارنة بين طه حسين وتوفيق الحكيم وبين (بوريس باسترناك) أكان الثاني يرجح على الأولين؟.. ذلك شيء في حكم المستحيل.

إن (نوبل) مسيحي ولجنة الجائزة مسيحية والخصومة بين المسيحية والإسلام تزداد حدة وشدة رغم كل المحاولات الوهمية التي تبذل في التقريب بين الديانتين.

فليس من المعقول أن تمنح هذه الجائزة لأديب مسلم يدافع عن دينه وحضارته في حماسة وصدق.

والعقاد في نظرنا ـ نحن المسلمين ـ كبير وعظيم يمثل أعظم مكانة في نفوسنا ولن تستطيع جائزة نوبل أن تزيد من قدره إذا ما حصل عليها بل إن عدم حصوله عليها يزيد في إكبارنا له وإعظامنا لتراثه الفكري العظيم لأننا نعرف أسباب عدم حصوله عليها، وهي أسباب تُجل من قدره وترفع من مكانته.

وبعد هذا فلن نطلب من الأستاذ العواد بأن يذكر لنا المقالات التي زعم أن العقاد قد ذكر فيها رفضه للحصول على جائزة نوبل، وتعليل هذا الرفض ولا في أي صحيفة أو كتاب نشرت. لن نطالبه بذلك لأن العقاد لم يكتب تلك المقالات المزعومة ولم يُدلِ بتلك الأحاديث التي نسبت إليه بغير وجه حق.

ولعل الأستاذ الصائغ قد اقتنع بأنه ليس من الخير لأدبنا ولا لسمعتنا الفكرية أن نجمع مقالات عن العقاد في كتاب.. وله تحياتي.

خواطر عن مصطفى صادق الرافعي

من الظواهر الأدبية التي يجب ألا يمر بها الباحث دون أن يقف عندها طويلًا ما حظيت به صحفنا في الشهر الماضي من أحاديث عن مصطفى صادق الرافعي بمنَاسبة حلول الذكرى السنوية لوفاته، ففي ٩ مايو سنة ١٩٣٧م ودع إمام الأدب وصنَّاجة العرب هذه الدنيا بعد أن ترك تراثًا خالداً وذكرى عطرة، وقد مضى على وفاة الرافعي ما يقارب الثلاثة عقود وكلما مر عام كلما تراكم غبار النسيان على ذكراه، حتى لقد خُيِّل لبعض تلامذته ومقدري أدبه وعارفي فضله أنه سيندرج في طي النسيان فلا يذكره ذاكر أو يحفل به إنسان.

حتى كانت ذكراه التي حلت في الشهر الماضي وإذا بالأدباء يحتفلون بهذه الذكرى احتفالًا رائعًا فيكتبون عن الرافعي عدداً كبيرًا من المقالات عن تاريخه وأدبه ويذكِّرون الناشئة بعَلَم من أعلام الإسلام ونابغة من نوابغ القلم وعبقري من عباقرة العربية.

وهذه ظاهرة طيبة يجب أن نسجلها وأن نقف عندها وأن نفسر دوافعها، وخاصة وأنها قد حدثت وطوفان الكتب الجنسية وأدب الفراش والقصائد العارية يكاد يفوق الجميع، فما تكاد تجد النفوس المؤمنة عنه مهربًا ولا مناصًا.

وقد استهجن القُرَّاء حقًا أدب الجنس المكشوف، لأنه يخاطب الغرائز الدنيا ويستثير شهوات المراهقين ويزلزل القيم الإنسانية ويحطم ما تعارف عليه المجتمع من تقاليد ويعفي القراء من تبعات القراءة الجادة وما تتطلبه من صبر على الدرس وضغط على النفس وتفهم لأسرار البيان.

وقد استغل هذا الاتجاه الشاذ طوائف معينة وغذّته بكل ما تملك من وسائل، فهناك طائفة من المؤلفين وجدت فيه أسرع وسيلة للكسب السريع والثراء المادي الحرام وهناك طائفة المبشّرين ومن يدعمهم بالمال والنفوذ وقد وجدوا في هذا الاتجاه أسهل طريقة لتحقيق مآربهم في التهوين من شان العربية وفي الإضعاف من سلطان الإسلام فحببوا للناس هذا الأدب المنحرف ودعموه بكل ما يملكون، تارة باسم العلم، ومرة باسم التجديد، وأخرى باسم التطور، وقد نجحوا في ذلك نجاحًا كبيرًا حتى فَقَدَ ناشئة العرب كل إيمان بتراثهم وكل تقدير لأمجادهم، وكلما جلست إلى واحد منهم أو أكثر راعك بما يبديه من ألوان السخرية بالتراث الإسلامي قديمه وحديثه وكأنه يتحدث عن تراث أمة من الزنوج لا أثر لها ولا تاريخ، لا عن تراث أمة أتت بخير الأدباء وأنبل الحضارات وقدمت للإنسانية من ألوان الخدمات ما لا سبيل إلى طمسه وتجاهله ووضعت الأسس القوية لكثير مما ينعم به الناس في عصرنا الحاضر.

وهناك الصليبيون والفرعونيون والفينيقيون ممن أشربوا حُب الصليبية والفرعونية والفينيقية وما نشأت من قوميات بائدة وحضارات بدائية وقد عز عليهم أن تنتصر العروبة وأن تعلو كلمة الإسلام، فهم يحاربونه حربًا خفية باسم تيسير العربية وباسم القومية الضيقة وباسم مسايرة التطور وكلها عناوين ينخدع بها الناشئ المراهق والشاب المضلل والمثقف المغرور.

وأذكر بهذه المناسبة حديثًا للكاتب السوري الدكتور ممدوح حقي في كتابه القيّم (ليبيا العربية) الذي أقرأه هذه الأيام يقول الكاتب في فصل بعنوان (إيطاليا في ليبيا) (وقليلون جدًّا هم الذين درسوا خارج ليبيا كانت الحكومة تنتقيهم بدقة وشدة وترسلهم في الغالب إلى مدرسة اللغات الشرقية في نابولي وتعيدهم بعد أربع سنوات من دراسة سطحية وهم يحملون لقب دكتور ليتوهم الناس بلقبهم العلمي الضخم وهو فارغ أجوف..).

وإذا ذُكِرَ الصليبيون والفرعونيون ذُكرَ على رأسهم سلامة موسى فقد أصاب حظًا كبيرًا من الشهرة أتاحتها له ظروف مواتية فقد كان الرائد الأول لشباب جمعية الشبان المسيحية وهي جمعية منظمة تنفق عليها المنظمات الصليبية بسخاء وتمدها بألوان من العون المادي والأدبي وكان يجد فيها الشبان المسلمون ألوانا من المتعة والانطلاق والاستمتاع البريء والاختلاط الحر لا يجدونها في جمعيات الشبان الإسلامية (إن وجدت) وعن طريق هذه الريادة الخطرة استطاع سلامة موسى أن يسيطر على القلوب الصغيرة وأن يوجّه العاطفة الغضة وأن يغرس بذور مبادئه الفاسدة في إطار التجديد والتقدمية والتحرر.

وكان يتهجم على الدين الإسلامي والثقافة العربية، فإذا أصابه من جراء ذلك عنت أو شدة تظاهر بأنه شهيد الحرية، وأنه ضحية الظلم والطغيان، ووجد من مريديه والمخدوعين به والمؤيدين لانحرافاته من يقف إلى جانبه يتباكى ويذرف الدموع مدرارًا على (شهيد الحق) و (ضحية الطغيان).. ومن المدهش أن تتضافر جهود لأصدقائه في كل مكان لنشر مؤلفاته وطبعها المرة تلو المرة بعد وفاته ليس ذلك فحسب بل تعدى الأمر إلى تأليف الكتب الضخمة عنه تشيد بعبقريته وتمجد مؤلفاته وتضعه في الطليعة من رجال الفكر وحملة الأقلام، والويل لمن يتعرض له بتعقيب أو نقد فهو جامد ومتخلف رجعي.

وأحب ان أسجل هنا أن مريدي سلامة موسى والمعجبين به لم يسهموا أي إسهام في تحية الرافعي أو الإشادة بأدبه فسلامة بانحرافاته وصليبيته وبغضه للعرب وعداوته للإسلام يقف أقصى اليسار، بينما يقف الرافعي المسلم المؤمن المجاهد المتفاني في حب القرآن الكريم ولغته والمدافع عن العربية وكرامتها في أقصى اليمين، وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال.

وما دام الحديث عن الرافعي فإنني أذكر قصة تبين مدى تخوف اعداء الإسلام من تاثير العربية ذكرها الرافعي في كتابه (المعركة بين القديم والجديد تحت راية القرآن)

بعنوان (الجملة القرآنية) يقول ـ رحمه الله ـ (كنت أعرف أن صاحبنا الكاتب البليغ المدقق الشيخ إبراهيم اليازجي لما أرادوه على تصحيح ترجمة الأناجيل رغب إليهم ان يصرّف قلمه في الترجمة فينزلها منزلتها من اللسان ويتخير ألفاظها ويزيل عجمتها ويخلصها من فساد التركيب وسوء التأليف ويفرغ عليها جزالة ويجعل لها حلاوة فأبوا عليه كل ذلك ومنعوه منه وأقاموه فيها بمنزله من يعرب آخر كلمة فعليه أن يترك الكلمة إلا آخرها).

كما تحدث أمير البيان شكيب أرسلان في مقال له نشره الرافعي في كتابه المعركة بعنوان (ما وراء الأكمة) عن قصة مماثلة فيقول: (وليس الأمر من قبل ما ذكره أحمد فارس[1] في (الفارياق) من أن بعض خدمة الدين ممن كان يتكلم عنهم يتبركون بالركيك من القول ويستوحشون من العربي الجزل البليغ وهو من نمط ما وراه في(كشف المخبأ عن فنون أوروبا)[2] من أنه كان يعرب التوراة وهو في إنجلترا فكان يقف على الترجمة العربية قسيس إنجليزي شدا شيئًا من العربية فكان كلما رأى لأحمد فارس جملة شم منها رائحة الفصاحة مسخها واستبدل بها جملة ركيكة، فكان الشدياق يعجب من أمره، وقد نقل عنه من هذا النسق جملا يستغرب لها الإنسان من الضحك، إذا يرى كيف كان ذلك القسيس يتعمد قلب العالي بالساقط والجيد بالرذيل تعمدًا، ويتهافت على الركيك تهافت الذباب على الحلواء ويصرح بأنه إنما يتوخى بذلك إبعاد الكلام عن شبه القرآن، وقد قرأت قسمًا كبيرًا من الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) باللغة العربية، كما قرأت قسما من العهد القديم باللغة العبرانية، فكنت أشعر باستيحاش وأنا اقرأ الكتاب

(١) احمد فارس الشدياق اديب وصحافي ولغوي لبناني (١٨٠٥ - ١٨٨٧) عمل في النساخة والتعليم في بعض الأسر، ورحل إلى مصر حيث تعمق في اسرار العربية، وتولى الكتابة في القسم العربي من (الوقائع المصرية).. في عام ١٨٤٨ سافر إلى إنجلترا ليتولى نقل لكل التوراة إلى العربية ولما انهى مهمته تنقل بين لندن، وباريس، وتونس. انظر المعجم الأدبي ت جبور عبدالنور عن دار العلوم للملايين ص (٤٩٢).

(٢) من مؤلفات احمد فارس.

المقدس باللغة العربية بسبب فساد التركيب واضطراب النُّظُم وسوء الأسلوب ولذلك فقد أساء المترجمون من حيث أرادوا الإحسان؛ لقد أساءوا إلى الصليبية من حيث أرادوا الإحسان، لأنهم بهذه الترجمة الرديئة والأسلوب المعوج حرموا القارئ العربي من قراءة كتابهم المقدس - بعهديه - وكان في ذلك الخير كل الخير وقد دفعهم إلى ذلك خوفهم من تأثير اللغة العربية وتوهمهم أن الأسلوب العربي السليم سيذكر القارئ العربي في كل لحظة بلغة القرآن.

وللعواد مع المعلمين قضية!

أيها الأساتذة المعلمون.. ما أهون شانكم.. وما أسخف عقولكم، وما أتفه أعمالكم.

أيها الأساتذة نعم أيها الأساتذة جميعًا ابتداء من العاملين في الجامعات وانتهاء بالعاملين في رياض الأطفال والعكس بالعكس لا يهم، كم أنتم مخدوعون، حين تظنون أنفسكم شيئًا وحين تتصورون أنكم تؤدون واجبًا مقدسًا، فلستم في الواقع إلا أناسًا آليين، إن الذي يجب أن تعلموه جيداً هو أنكم (قشر) ولستم (لُبابًا) و (عرض) ولستم (جوهرا) و (قصدير) ولستم (ذهبا).

نعم - أيها المعلمون والأساتذة - ابتداء من المعلمين في رياض الأطفال وانتهاء بالعاملين في الجامعات.. هذه حقيقتكم، وعليكم أن تعرفوها جيداً وأن تعوها وعيًا كاملا وأن تسيروا في حدودها وفي إطارها الضيق وجوّها الخانق، أفهمتم جيدا؟

ثم ماذا؟ ما هذا الضجيج؟ أصوات غاضبة؟ ماذا تريدون؟ أنتم تحتجون على هذا الكلام، وتطلبون مني سحبه، لا لا.. لن أفعل، تهددون وتتوعدون، لا.. لن أكترث بتهديدكم ووعيدكم، تسألونني: لماذا؟ لأنني لست قائل هذه الكلمات او الإهانات، تسألونني من قائلها؟ وما دوري أنا فيها؟ اما دوري فيها فدور الناقل.. وهل هدأتم قليلا.. نعم أنا ناقل وناقل الكفر ليس بكافر، تريدون أن تعرفوا من القائل؟لا بأس ستعرفونه بعد قليل.

والآن دعوني لأبدأ لكم القضية من أولها، فما هي هذه القصة؟

لقد حلا لأحد محرري صفحة من صحيفة يومية سماها «كل شيء» وأطلق على محررها صاحبنا بطل القصة لقب (الصحفي الشاب محرر الثلاثاءات) أن يطلب إلى عدد من أدبائنا أو شيوخ الأدب عندنا أن يكتبوا له مقالا بعنوان (ذكريات معلم

سابق)، واستجاب نفر كريم أذكر منهم الأساتذة أحمد قنديل وضياء الدين رجب ومحمود عارف، وأشهد أن كتاباتهم كانت نماذج في الأدب الرفيع والخلق السامي. وكان من هذا النفر المستجيب من شيوخ الأدب الأستاذ محمد حسن عواد، وكان مقاله نشازًا بين هذه المقالات وقد عنون المقالة بهذا العنوان (المهنة التي كنت نشازًا فيها).. وأحب في البداية أن أؤكد للقراء الأعزاء أنني لا أتصيد أخطاء الأستاذ العواد وأكره تماما ان أصطاد في الماء العكر، وأنا ممن يؤمنون إيمانا عميقًا بالفكرة التي عبَّر عنها شاعر العربية العظيم أحمد شوقي حين قال:

اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية

ولكن المؤمنين بهذه الفكرة من الأدباء والقراء لا يمثلون الكثرة الكاثرة ومن أجل ذلك فانا مضطر إلى توضيح موقفي قبل أن أدخل في صميم القضية، وكم كان بودي لو تقدم غيري لمناقشة ما ورد في هذا المقال ولكن الأدباء والكتاب (والمعلمين على اختلاف طبقاتهم) سكتوا عن هذا الباطل كما سكتوا من قبل على باطل آخر اعتدى فيه الكاتب اعتداء منكرًا على لغتهم وعلمائهم وزعماء الشعر فيهم.

فمن أجل ذلك تقدمت لتوضيح ما في المقال من أخطاء لا يجوز السكوت عنها، وللدفاع عن كرامة المعلمين التي حاول صاحب المقال أن يلطخها بالوحل وأن يغمسها بالحمأ المسنون وكان بينه وبين المعلمين ترة قديمة، ومن يدري فلربما كان بينه وبينهم ثار عجزت عشرات السنين عن إطفاء لهيبه او التخفيف من حدته، ولعله كان كامنا في نفسه كمد من النار في الرماد، فأهاجه الصحفي الشاب حين اقترح عليه أن يكتب عن (ذكريات معلم سابق) من يدري فلعل هذا الصحفي الشاب قد أسدى خدمة - دون أن يشعر - إلى تاريخ الأدب ولعلي قد فعلت نفس الشيء حين وجهت العناية إلى هذه النقطة في حياة هذا الكاتب.

إذ إن هجومه على المدرسين والمعلمين ليس أمرًا طبيعيًا بل ربما كانت الدوافع إليه حوافز من وراء الوعي كما سيتضح ذلك للقراء بعد قليل.

يبدأ الأستاذ العواد مقاله بهذه الكلمات (لست أدري كيف ومن أين تسرب إلى رغبة الصحفي الشاب (طلال قستي) محرر الثلاثاءات من صفحة (كل شيء) التي لا يوصد أمامها باب الطلبات أو الأوامر أو الاقتراحات تمارسها مع أصدقائها وأصدقاء الجريدة الأم من الكتّاب والشعراء والفنانين والباحثين.. ولكنني أدري أنه اصطادني مرارًا عديدة لضيافة (كل شيء) وما كان لي ولا لغيري من إخواني الكتّاب أن يرفضوا مثل هذه الضيافة فإنه لا يأبى الكرامة كريم).

وأترك هذه المقدمة بدون تعليق لأنتقل إلى بداية المقال وقد بدأه الأستاذ العواد بقوله: (قال لي طلال إنه يريد مني أن أكتب عن ذكرياتي كمعلم سابق كما كتب في ذلك أصدقاء لنا من الكتّاب، فقلت له: يا بني! إن مهنة التعليم بالنسبة لي كانت نشازًا في حياتي) وهذا كلام لا تعليق لي عليه كذلك فإن من حق أي إنسان أن يجيب عما يوجه إليه من أسئلة صحفية، ومن حقه أن يمتنع عن الإجابة، وكذلك فإن بعض المهن (نشاز) في حياة بعض الناس ما في ذلك شك وعلى رأس هذه المهن مهنة التعليم فإنها تتطلب (شروطا) و(مواصفات) لا تتوافر في كل خلق الله، ويأخذ الأستاذ العواد في تعليل (هذا النشاز) في حياته فيذكر السبب الأول فهذه المهنة كما يقول (كانت على غير رغبة مني في الاشتغال بهذا العمل) وهذا كلام سليم لا غبار عليه فكل إنسان يميل إلى مهنة دون أخرى، وكثير من الناس لا يرغبون في مهنة التعليم لما فيها من مصاعب ومتاعب ولما تتطلبه من إيمان وتضحية وإيثار وصبر. ويأتي الأستاذ العواد بالسبب الثاني وهو قصر المدة التي عمل فيها مدرسًا ويعبِّر عن ذلك بقوله: (كانت مدتها المؤقتة قصيرة الأجل) وهذا سبب جوهري لعزوفه عن هذه المهنة العظيمة فهي مهنة تقتضي كثيرًا من الصبر والمران.

ويورد العلة الثالثة فيقول: (وكانت في مدرستين مختلفتين إحداهما شعبية (أهلية) والأخرى حكومية) وهذه العلة تحتاج إلى توضيح من الكاتب فالتدريس في مدرستين مختلفتين يتيح للمدرس مجالًا أوسع للعمل ويتيح له خبرات كثيرة تفيده في مجال

عمله هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فهل نفهم من هذا الكلام أنه لو درّس العواد في مدرسة واحدة لكان الوضع قد تغير؟ على كل حال فهذا أمر غير مهم، فلننتقل إلى العلة الرابعة حيث يقول العواد: (ولأنني فارقتها في كلتيهما ـ عائفًا ـ لاصطدام أفكاري بأفكار وخطط لا أستسيغها ولا أقبل التعامل معها بفطرتي).

وهذه علة معقولة فمن الجائز أن يحدث هذا التصادم أو الاصطدام لفساد أفكار أحد الجانبين وليس من الضروري أن يكون هو الجانب المدرسي أو جانب المشرفين على المدرسة ومثل ذلك يقال عن الخطط فربما كانت خططًا سليمة ولكن بعض الفطر لا تستسيغها، فليست كل الفطر مستقيمة سوية وربما كان العكس.

ونأتي إلى السبب الخامس ويعبّر عنه العواد بقوله: (ولأنني كنت حدثًا يافعًا لم أنضج بعد، وكان الكثير ممن وُضِعوا أمامي ليكونوا تلاميذ لي يكبرونني بالسن وإن كان كثير منهم أيضًا يصغرونني ولكن الجو الذي يحيط بالجميع كان غير قابل للتفاعل الآلي).

والحداثة واليفاعة لا تمنعان من نجاح المدرس متى كان قوي الشخصية متحمسًا لعمله مخلصًا لواجبه حتى ولو كان تلاميذه يكبرونه في السن (فما الحداثة عن حليم بمانعة) كما قال أحمد بن الحسين، وقد مر كثيرون بتجربة مماثلة وحققوا فيها نجاحًا غير قليل، أما حكاية (الجو الذي يحيط بالمجتمع) والذي (كان غير قابل للتفاعل الآلي) فيحتاج إلى مزيد من الشرح والتفصيل.

ونصل إلى السبب الأخير (ولأن نفوري من هذه المهنة ومن هذا الجو الآلي جعلني لا أهتم بواجبات التدريس أو التعليم كما يراد وبالطريقة التي تراد) فهل معنى هذا أنه كانت هناك محاولات إيجابية جادة عن طريق التدرج أم كان هناك مواقف سلبية كما يبدو من ظاهر العبارة بل لعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنه كان هناك هرب وتهرب من الاضطلاع بهذه المسؤولية العظيمة تجاه الأجيال القادمة وإيثارًا للعافية والسلامة كما يبدو من سيرة كاتب المقال الذي نتحدث عنه.

ولا يقف الأستاذ العواد عند هذا الحد في مهاجمة العاملين في التعليم والمشرفين عليه في ذلك الوقت المبكر، أولئك الذين تحملوا قسوة الزمن وصعوبة الطريق وشدة الظروف وبدلا من أن يلعنوا الظلام ـ كما فعل العواد ـ أضاءوا شمعة. لا يقف العواد عند هذا الحد بل يخص بالذكر (السيئ) رجلين عظيمين هما الحاج محمد علي زينل علي رضا رئيس مدارس الفلاح والأستاذ عبدالرؤوف جمجوم وكيل الرئيس.. وتشعر من عبارات الكاتب بدلائل التشفي منهما والانتقام منهما فيقول: (واسأل الله الرحمة والغفران لأول رجلين زجَّا بي في هذا المجال وهما الفقيدان المغفور لهما ـ إن شاء الله ـ السيدان عبدالرؤوف جمجوم وكيل رئيس مدارس الفلاح والحاج محمد علي زينل علي رضا رئيس هذه المدارس، فلقد كانت النية عندهما أن يحسنا إليَّ بهذه الوظيفة لأعول والدتي الأرملة وشقيقتي اليتيمة وأن تستفيد المدرسة من ذكاء خُيِّل إليهما أني أختص به بين طلبة القسم العلمي في المدرسة).. وعلى القارئ ألا ينخدع بعبارة الكاتب حول سؤال الرحمة والغفران للرجلين الفاضلين، ولكن عليه أن يحقق النظر في العبارات الأخرى كقوله: (زجَّا بي) وكقوله: (وقد كانت النية عندهما أن يحسنا إليَّ بهذه الوظيفة) فكلمة (زجَّا بي) تدل على حنق واستياء وعبارة (وقد كانت النية عندهما أن يحسنا إلي بهذه الوظيفة) معناها الواضح انهما أساءا إليه واقعًا وعملًا وتبحث عن هذه الإساءة باي مقياس أخلاقي فلا تجد لها أثرًا، وإلا إذا نظرت أليها في ضوء تلك الحكمة التي تقول اتق شر من أحسنت إليه، وإلا فرجلان كريمان رعيا طفلًا وعلّماه في مدرستهما حتى تخرَّج منها، وتقديرًا لظروفه وهو يعول والدته الأرملة وشقيقته اليتيمة عيَّناه مدرسًا في مدرستهما ليتيحا له عيشة كريمة وبدلا من أن يحمد لهما موقفهما النبيل ويقدر فيهما دوافعهما السامية يفعل كل ذلك فيقابل إحسانهما بالإساءة ويثور عليهما ويبقى حاقدًا عليهما قرابة نصف قرن. موقف كهذا ليس غريبًا على فئات من الناس ولكن الغريب فيه هو أن يجهر صاحبه به بعد كل هذه السنوات الطوال دون

أي تحرج أو استحياء ويمكن تفسير هذا التصرف بانه يعود إلى عقدة نفسية في نفس الكاتب ناشئة عن التعليم أو عن أمر له علاقة بالتعليم وأغلب الظن أن سببها الرئيسي هو الغرور وهذا ليس مجرد استنتاج فالكاتب الفاضل يتحدث عن ذلك صراحة في مقاله -محور الحديث- فيقول في معرض حديثه عن الأستاذين الجليلين اللذين زجّا به في هذا المجال (فلقد كانت النية عندهما أن يُحسنا إليّ بهذه الوظيفة لأعول والدتي الأرملة وشقيقتي اليتيمة وأن تستفيد المدرسة من ذكاء خُيِّل إليهما أني أختص به بين طلبة القسم العلمي في المدرسة) وكان الشاهد كما يقول هو: (أن تستفيد المدرسة من ذكاء.. اختص به بين طلبة.. المدرسة) فالكاتب يتحدث عن ذكائه هذا الذكاء الذي جلب له أو عليه غرورًا تسبب له في سيئات لم يكن عقوق المربيين الفاضلين وجحود فضل مدرسة الفلاح إلا واحدة فيها.

وللعواد مع المعلّمين قضية..!

ولا يكتفي الكاتب بذلك بل يتحدث مرة أخرى وفي نفس المقال فيقول (ورغم كل المنفرات فقد اكتشفت نفسي في تلك الأيام فوجدت أنني قادر على الكتابة الحرة وعلى وضع القوانين وبالفعل وضعت قانونًا إداريًّا للمدرسة يشتمل على أبواب تحتوي عشرات المواد استمديت روحه من فوضى التعليم آنذاك وعرضته على المدير فلم يستفد منه بل لم يعرضه على كبار المسؤولين في المدرسة ليأخذ رأيهم فيه وطوى صفحته، وكان هذا حافزًا لي أن أعاف بشدة هذا الجو الخانق) وموضع الشاهد هنا كذلك قول الكاتب (فوجدت أنني قادر.. على وضع القوانين وبالفعل وضعت قانونا إداريًّا للمدرسة يشتمل على أبواب تحتوي عشرات المواد).

ولنتصور الآن طالبًا يتخرج من مدرسة أو حتى من جامعة ويُعيَّن معيداً في كلية من كلياتها وبدلا من أن ينصرف إلى الدراسة والبحث وأداء واجبه المفروض ليثبت وجوده فيها ويأخذ مكانه بين مدرسيها ويرتقي سلّم درجاتها واحدة بعد أخرى، بدلا من أن يفعل ذلك ينصرف إلى وضع القوانين الإدارية للجامعة والكلية ويشغل

نفسه بعمل لا علاقة له به، ثم يقدّم قوانينه إلى رئيس الجامعة أو عميد الكلية فإذا رفضها الرئيس أو العميد ثار عليه هذا الطالب النجيب ورماه بكل جهده واتهم جو الكلية او الجامعة بانه جو خانق وأن التعليم فيها فوضى لا تطاق.

لنتصور طالبًا كائنًا من كان ولو كان حاصلًا على الدكتوراه ويعين في كلية وقبل أن يمضي عاما فيها يضع قانونًا إداريًا ثم يحاول فرضه على الكلية أو الجامعة متجاهلا رئيس الجامعة وعمداءها وأساتذتها ورؤساء الأقسام بها لو فعل معيد جامعى ذلك ماذا سيقول الناس عنه.. وما هي الأوصاف التي يخلعونها عليه؟.. فما بالك بطالب يتخرج من مدرسة الفلاح ثم يُعيَّن في القسم الابتدائي بها وبدلا من أن يلتفت إلى عمله وواجباته ينصرف إلى إعداد (قانون إداري يشتمل على أبواب تحتوي عشرات المواد) وهو بذلك يتجاهل قدرات مؤسسي المدرسة وكفاءات المشرفين عليها، ويضرب بخبراتهم الطويلة عرض الحائط، وينسى أو يتناسى جهود أولئك الأبطال الذين دميت أرجلهم وأيديهم من الأشواك والأحجار وعثرات الطريق حتى استطاعوا أن يفتحوا مدرسة في أواخر العصر التركي.

وما أسهل وضع القوانين التي لا تقبل التطبيق إما لمثاليتها وإما لتفاهتها وإما لأنها لم تأخذ بعين الاعتبار الظروف المادية أو الاجتماعية أو السياسية أو غير ذلك من الظروف، فليست البراعة في إنشاء القانون أي قانون ولكن البراعة في المواءمة بين حاجة المجتمع وظروفه وتطلعاته وبين ما يصدر من قوانين.

وانشغال (الفتى) العواد بوضع قانون تافه أو مثالي أمر ليس غريبًا فالفتيان المراهقون وخاصة أولئك الذين يتمتعون بقدر كبير من الذكاء ويغرقون في فترة من الوقت في خيالات وأحلام وأوهام، يتصورون تحت وطأة المراهقة وعواملها أن بيدهم صلاح مجتمعهم - وأحيانا مجتمعات غيرهم - وأنهم قادرون على تحقيق ما عجزت عنه الأجيال قبلهم.

ولذا فليس غريبًا على (الفتى) العواد أن يشغل نفسه بوضع (قانون إداري يشتمل على أبواب تحتوي عشرات المواد) وليس غريبًا عليه أن يثور على مدير المدرسة الذي (لم يستفد من قانونه) بل لم يعرض على كبار المسؤولين في المدرسة ليأخذ رأيهم فيه وطوى صفحته. ليس غريبًا على (الفتى) العواد أن يفعل ذلك وأن يتصرف كما تصرف. ولكن الغريب والغريب حقًا ان يتحمس (الشيخ) العواد لتلك الأفكار الصبيانية ويعتبرها شيئًا مذكورًا فينظر إليها بعد أكثر من خمسين سنة - من عمره المديد إن شاء الله[1] - نفس النظرة التي كان ينظر لها بها وهو في عنفوان المراهقة، ولست أجد تفسيرًا لهذه النظرة إلا في ضوء امر واحد من اثنين إما لأن الأستاذ العواد مغرم بتقليد عباس محمود العقاد حتى في الهجوم على شوقي والانتقاص من قدرته، ومن نقائص العقاد - وهو كواحد من البشر له نقائصه وأخطاؤه - تظاهره بالإصرار على آرائه وعدم العدول عنها مهما تبيَّن له ما فيها من خطأ أو خلل، ويبدو أن الأستاذ العواد أحب أن يسير على هذه السُنَّة بكل ما تحمله من مخالفة للفطرة وإصرار على الباطل.

والاحتمال الثاني ما تقوله إحدى نظريات علم النفس من أن بعض الشيوخ في مرحلة معينة ولظروف خاصة يمرون بفترة مراهقة فكرية أو جسدية أو كلتيهما معًا.. فهل كان الأستاذ العواد عندما كتب ما كتب يمر بتلك الفترة الحرجة في حياة الفتيان والشيوخ؟ وهل كان في بدايتها أم في نهايتها؟ تلك بعض أسئلة لا نستطيع أن نجيب عليها الآن. وربما استطعنا الإجابة عليها في المستقبل القريب أو البعيد إذا أتيح لنا ان نتتبع ما يكتبه الأستاذ العواد.

ويتحدث الأستاذ العواد عن قانونه (التاريخي العجيب) فيقول: (واستمديت روحه من فوضى التعليم آنذاك) فيضيف بذلك دليلا آخر على ما يعتلج في فؤاده من حقد

(١) حيث كان يرحمه الله على قيد الحياة وقتئذ.

على تلك المدرسة العظيمة وعلى رجالها الكرام، وإلا فاي فوضى تلك التي يتحدث عنها؟ وما هي المقاييس التي طبَّقها حتى وصل إلى هذه النتيجة؟ وهل هي مقاييس ذلك الزمان البعيد بكل ظروفه وصعوباته وما يحفل به من معوقات تنهار أمامها عزائم الرجال؟ أم هي مقاييس اليوم حيث وفرت الدولة التعليم لكل المواطنين بلا استثناء، وحيث أصبح العلم كالماء والهواء؟.

أنا لا أعلم شيئًا عن المناهج التي كانت تدرس في مدرسة الفلاح ولم أطلع على الطرائق التي كانت تسير عليها، ولا أدري شيئًا عن الأساليب المتبعة فيها، ولكنني أعرف جيداً عدداً كبيرًا من أبنائها وخريجيها وأعرف جيداً دورهم الكبير في خدمة بلادنا وأمتنا، وهذا الذي أعرفه يقف حائلا بيني وبين التسليم بدعاوى الأستاذ العواد وعمومياته ولذا فإنني أدعوه ليحدثنا عما سماه (فوضى التعليم آنذاك) وهو بهذا الحديث سيسدي خدمة كبيرة لتاريخ التعليم لأنه سيكشف جوانب من التعليم لعلها لا تزال غامضة أو مجهولة، وهو بعمله هذا سيتيح فرصة لأقرانه وزملائه من أبناء هذه المدرسة لكي يقولوا كلمتهم فإذا كانوا على رأيه فقد وضح الحق وبان وإذا كانوا على خلافه فلا بأس من ذلك فالحكمة ضالة المؤمن.

كما أنني أدعوه إلى نشر قانونه الذي لا يزال معجبًا به مفتونًا (بأبوابه ومواده) فهو قانون رائد كان له أثره الكبير في تغيير مجرى حياة العواد، إذ إن رفضه من قبل مدير المدرسة كان ـ كما قال العواد ـ (كان حافزاً لي أن أعاف بشدة هذا الجو الخانق)

إن نشر هذا القانون في الوقت نفسه الذي يتحدث فيه واضعه عن التعليم وفوضاه في تلك الفترة السحيقة سيفتح باب المدارسة والموازنة والبحث، وستتجلى عندئذٍ الأهداف الحقيقية وراء كل ما قاله العواد في هذا المجال.

ويقول الأستاذ العواد (ومن هذه الحقائق النفسية انطلق قلمي يكتب الشعر والنقد والمقالات والقصص وكانت الثمرة الأولى لكل هذا الانفعال الفكري هي كتابي (خواطر مصرحة) ويقول: (اكتشفت أنني خلقت شاعرًا وناقداً وكاتبًا، وأنني ميال جداً إلى

الفكر الاجتماعي والفكر الفلسفي وإلى التجديد بما يتحتم به التجديد.. وأنني لم أخلق معلمًا أي مدرسًا آليًا).

وأنا لا أريد الآن أن أناقش هذه الدعاوى العريضة ـ وإن كان في نيتي ان أفعل ذلك في المستقبل القريب ـ ولكنني كنت أحب لو أن العواد وقف قليلا وقفة متأنية تأملية استعرض فيها إنتاجه الشعري والنقدي والقصصي وفكره الاجتماعي والفلسفي وما حققه من ألوان التجديد إن كان قد فعل، كنت أحب له أن يفعل ذلك، فلعل النتائج التي وصل إليها تطأ من كبريائه، وتقلل من غروره وتدفعه إلى كثير من التواضع وإلى الرضا بما هو مقسوم.

على كل حال فهذه قضية لا أريد أن أخوض فيها الآن وأن كنت واثقًا من أن الأستاذ العواد لن يقف هذه الوقفة لأنها تتطلب شجاعة لا تتوفر فيه وحسبي منه أن يجيب على هذا السؤال: ما المصير الذي كان ينتظر محمد حسن العواد لو لم يدخل مدرسة الفلاح؟

لعل القارئ قد وقف عند آخر عبارة في السطور التي نقلناها عن العواد ونعني بها قوله: (إنني لم أخلق معلمًا أي مدرسًا آليًا) وقد كرر (الآلية) هذه عدة مرات في كلمته القصيرة فقال: (ولكن الجو الذي يحيط بالجميع كان غير قابل للتفاعل الآلي) وقال: (ولأن نفوري من هذه المهنة ومن هذا الجو الآلي) وقال: (ولا سيما المعلمين الآليين) وقال: (أما المعلم الذي يمارس التدريس آليا) وكلها تعابير تحمل معنى الزراية بالمعلمين والسخرية بهم والتهوين من شأنهم والتنقص من جهودهم والتحقير لأعمالهم، وأحب أن يكون واضحًا أن كلام العواد هذا ليس قاصرًا على معلمي المدارس ولكنه يشمل جميع المدرسين في الجامعات فكلهم في نظره آليُّون ويتحدث عن ذلك بصراحة ـ يحسد عليها ـ فيقول: (ولست أنكر أن بين المعلمين قسما يحمل في رأسه فكرة نشر روح الفضيلة وحب العدالة العامة والوعي والحرية في التفكير والمعرفة المنتجة ويحمل في قلبه رسالة خدمة الأمة كلها عن طريق هذه

الأمانة التي وضعها الله في أعماقه وزادت بمقومات خلقية وفكرية تساعد على أدائها) ولو وقف العـــواد عند هذا الحد لترك مجالا لإحسان الظن بقوله ودوافعه، ولكنه ـ كعادته ـ كان أحـــرص من أن يفعل ذلك فأردف ما سبق بقوله: (ولن يكون أفراد هذا القسم إلا فلاسفة ومفكرين أو فنانين عباقرة لهم القدرة ولهم الاستعداد لهذا العطاء).

وليته اكتفى بهذا بل أضاف إليه قوله: (أما المعلم الذي يمارس التدريس آليًا كمهنة يتقاضى عليها أجرًا فبعيد جداً عن مستوى هذه الطبقة).

ولو أردنا ان نضيف جميع المعلمين في المملكة ابتداء بالعاملين في رياض الأطفال إلى العاملين في الجامعات والدراسات العليا فكم عدد الذين ينضوون تحت كل كلمة من هذه الكلمات (فلاســفة، مفكـــرون) (فنانون عباقـــرة) حتى لو وجد نفر من هؤلاء فلن يكون بوسعهم الانضواء تحتها لأن العواد قد عز عليه أن يخرج هذا النفر من (جحيمه) الذي أصـــر على أن يصلاه جميع المعلمين، فوضع لهذا النفر قيداً آخر لا سبيل إلى تحطيمه وهو ألا يتقاضى المعلمون الفلاسفة المفكرون أو الفنانون العباقرة أجرًا على مهنتم أما إن فعلـــوا فهم بعيدون (جداً عن مستوى هذه الطبقة).

ومن الغريب أن العواد في غمرة نشـــوته وتلـــذذه بالسياط التي كان يلسع بها المعلمين على اختلاف طبقاتهم خلط بين المعلم والمدرس وفي أن الأوصاف التي أوردها تنطبق على المعلم ومن أجل ذلك أطلق المثقفون والفلاسفة على أن أرسطو لقب المعلم الأول وعلى ابن رشد وسقراط لقب المعلم الثاني، وهذه على أية حال مسالة جانبية.

أما المسألة الجوهرية فهي تهجمه الظالم على المعلمين ووصفه لهم بالآليين، ومن المؤكد انه أرسل القول على عواهنه دون أي تفسير او تامل، وإلا فهل فكر العواد في الدور الذي يقوم به هؤلاء المعلمون (الآليون) وهل خطر للعواد أن يسأل نفسه

سؤالا كهذا: ما مدى استغناء البشرية عن هؤلاء المعلمين (الآليين)؟ وهل هناك بديل عنهم وكيف السبيل إلى ذلك؟

ولو لم يكن هؤلاء المعلمون الآليون، فما هو الوجه الذي ستكون عليه الإنسانية، وهؤلاء الفلاسفة المفكرون والفنانون العباقرة أليسوا من نتاج هؤلاء المعلمين الآليين؟ وعلى الأقل أليس لهم دور كبير أو صغير في تكوين هذا الطراز الممتاز من البشر؟

وإذا سايرنا الأستاذ العواد في أوهامه وشطحاته واعتبرناه ـ على سبيل الفرض الذي لا يقع ـ معلمًا فيلسوفًا مفكرًا، أو معلمًا فنانًا عبقريًّا مبدعًا وأردنا ان نتعرف على المؤثرات في حياته وآثاره فهل كان من الممكن أن نغفل دور مدرسة الفلاح ودور معلميها الآليين؟

ولو فعلنا ألا نكون قد ضللنا الطريق وانحرفنا عن الجادة وركبنا متن الشطط؟.

لو فكر العواد قليلا في صغار هؤلاء المعلمين (الآليين) ـ وأعني بهم معلمي الكتاتيب ـ لعرف أن فضلهم لا يقدر بثمن وحسبه أن يعلم ـ إن كان يجهل ـ أنهم كانوا الشموع التي ظلت تضئ قرونا عدة في العالم الإسلامي عندما كانت ظلمات الاستعمار والتخلف يطبق بعضها على بعض، فلولا هؤلاء المعلمون (الآليون) لانقرضت لغة العرب ولذابت شعوب الأمة العربية في الكيانات الأجنبية المختلفة.

لقد كان هؤلاء المعلمون الآليون الجنود المجهولين الذين تحملوا عبء المسؤولية، واستطاعوا بصبرهم وإيمانهم وعملهم الدائب أن يحافظوا على مجد القرآن وأصالة العربية، لقد كانوا يعملون في الخفاء واستطاعوا ببساطتهم أن يضللوا عتاة البغي وطغاة الاستعمار وأن يدخلوا في روعهم ألَّا خوف منهم، وألَّا ضرر من أعمالهم، ولم يكن سعيهم وراء الرزق ولا من أجل الشهرة ولا في سبيل مغنم دنيوي خسيس،

كان شعورهم بأنهم رجال القرآن أي أهل الله وخاصته من خلقه يدفعهم دفعًا إلى أن يهبوا هذا القرآن شبابهم وحياتهم وهم في أوج السعادة.

كان الواحد من هؤلاء المعلمين (الآليين) أجدى على الإسلام وأمة الإسلام من عشرات آخرين يعيشون في أبراج عاجية.

لولا أولئك المعلمون (الآليون) الذين غرسوا البذور وتعهدوها بالري والعناية وتحملوا في سبيلها شظف العيش وقسوة الظروف لما كانت هذه النهضة الثقافية في عالمنا العربي ولما وجد العواد وأشباهه مجالا يسرحون فيه ويمرحون ويسخرون أقلامهم للإساءة إلى أولئك الجنود العظام وإن كانوا معلمين صغارًا.

وصدق المثل العربي القديم (رب ساعٍ لقاعد).

وللعواد مع المعلمين قضية.. (٣)

ويقول الأستاذ العواد: (وانصرفت من ثمَّ إلى تعليم نفسي تعليمًا حرًّا. وأحسست أنني أحمل في أعماقي رسالة أدبية للجميع لا لتلاميذ محصورين في مدرسة ذات إطار محدود).

وانصراف المرء إلى تعليم نفسه تعليما حُرًا أمر محمود ودليل على وعي يستحق الإشادة وهو الذي يميز شخصًا عن آخر، لأن المدرسة ـ أي مدرسة ـ والجامعة ـ أي جامعة ـ لا تستطيع أن تعلّم التلميذ أو الطالب كل شيء ولكنها تعلمه قدرًا من المعلومات فإذا اكتفى بهذه المعلومات أسن وجمد أما إذا حرص على مسايرة الحياة وساير تطورها أصبح إنسانًا حيًّا واعيًا متجددًا.

وطائفة المعلمين لا تخرج عن هذا الإطار فهناك معلمون مجددون لأنهم متجددون موصولون بالحياة عن طريق الكتاب الجاد والمجلة الجيدة والصحيفة المثقفة وهذا الصنف من المعلمين صنف ناجح لا يعاني من الركود ولا الرتابة ولا الملل وهو قادر على تجاوز الإطار المحدود الذي زعم العواد أنه ينفر منه، وهناك صنف آخر يؤثر

الراحة والكسل والنوم وحسبه أن يكرر معلومات يجترها فلا يضيف إليها جديداً ولا يبعث فيها حرارة ولا يصلها بالحياة، وهذا صنف خامل لا خير فيه كما قال الشاعر العظيم أحمد شوقي.

ويبدو أن العواد لم يستطع أن يكون من رجال الصنف الأول ولذلك آثر الهروب لأنه لو استطاع أن يكون منهم لما منعه ذلك من أن يكون له نشاطه الأدبي وأن يحقق في دنيا الأدب ما لم يحققه حتى الآن، وبذلك يجمع بين الحسنيين وربما ساعده وجوده في المناخ التعليمي على الإنتاج الأدبي لأن العلاقة قائمة بين التعليم والأدب هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فقد كان بإمكانه - إذا كان مؤمنا حقًا بأن في أعماله رسالة أدبية - أن يرعى ذوي المواهب الأدبية من الطلاب وأن يوجههم التوجيه السليم وبذلك يثري حياتنا الأدبية إثراء طيبًا بالإنتاج والمنتجين.

ولا يجهل الأستاذ العواد أسماء كثير من أولئك الأدباء المعلمين الذين أسهموا بمؤلفاتهم الأدبية وتلامذتهم وأبنائهم في إثراء الحياة الأدبية.

كما لا يجهل الأستاذ العواد أسماء كثير من عظام الرجال لم يتركوا كتبًا ولا مؤلفات ولكنهم تركوا تلاميذ نابهين كان لهم دورهم الكبير في خدمة الأدب والفكر والثقافة بمؤلفاتهم وآثارهم وربما كان ذلك أجدى على الأدب والفكر.

وتحضرني بهذه المناسبة ملاحظة عابرة على إنتاج العواد عموما وهي خلوه تماما من أي أثر لأعماله التي مارسها بحيث أن الدارس لأدب العواد لا يستطيع أن يتبين منه وحده حقيقة الوظائف والأعمال التي مارسها في حياته العملية والوظيفية وسيدهش إذا عرف هذه الأعمال بعد ذلك وسيحكم على أدب العواد بأحد حكمين: إما أنه ليس أدبًا أصيلًا وهذا هو الأرجح، وإما أن العواد كان يحرص الحرص كله على أن يقصى عن أدبه كل ما له علاقة بعمله من تجارب وملاحظات وأفكار لأسباب تتطلب الدراسة والبحث وليس من الصعب الوصول إليها.

وهذه الملاحظة لا تجدها في أدب كثير من الأدباء المبدعين كالمازني وتوفيق الحكيم ومحمد حسين هيكل وأحمد أمين وعلى طنطاوي وعشرات آخرين.

قلت في بداية هذه المقالات أن هجوم العواد على المعلمين ليس أمرًا طبيعيًّا وربما كانت الدوافع إليه حوافز من وراء الوعي، وأحب ان أضيف هنا إلى ذلك أن من تلك الحوافز (شوقيا) ـ رحمه الله.

وشوقي ـ كما يعلم القراء ـ أصبح في حياة العواد عقدة من عقده الكبيرة فما أن يسمع باسمه أو بشعره أو بما يذكره به حتى ينتفض ويضطرب وتختلج أعضاؤه كأنما لسعته حية رقطاء ومن المؤكد ان ذلك ما حدث له عندما واجهه محرر صفحة «كل شيء» طالبًا إليه أن يكتب عن ذكرياته كمعلم سابق.

فلقد كان أول خاطر خطر له هو شوقي وبيته المشهور «قم للمعلم وفه التبجيلا» ولحظتها تلبسته حالة عصبية فاصبح كل همه أن يحطم المعلمين لأنه لم يكن معلما للأسباب التي تحدثنا عنها وزاد من ثورته ونقمته وهيجانه ثناء شوقي على المعلمين وتمجيدهم بثناء ذهب مذهب الأمثال.

وليس هذا مجرد استنتاج مني أو تخمين فهو يقول في مقالته التي نتحدث عنها (ومر بي قول الشاعر شوقي يرحمه الله:

قم للمعلم وفِّه التبجيلا ... كاد المعلم أن يكون رسولا

فسخرت من قول كان عند غيري ـ ولا سيما المعلمين الآليين ـ موضع فخر واعتزاز وتشريف لمهنتهم كما يفهمونها وكما يمارسونها، سخرت من هذا التعميم ومن هذه المبالغة اللتين كانتا كارثتين للشعراء الاتباعيين وربما تحول خطرها إلى الشعر نفسه إذ أخذه الجيل بهذا المفهوم الهيلامي).

وأنا أستبعد تماما ادعاء العواد أنه مر به قول شوقي في ذلك الزمن البعيد وسخر منه لما فيه من التعميم والمبالغة فلم تبد عداوته لشوقي إلا بعد صدور ديوانه (الأوزان الباكية) وتورط العواد بسببه إلى دعاوى خاطئة لا أساس لها، ومن حق العواد أن

يسخر من المعلمين وبمن يمجدهم ويناصرهم لأن ذلك امر طبيعي في ضوء مفاهيمه المختلة والمضطربة، وإلا ففي ضوء المفاهيم الإسلامية السليمة فإن عمله هذا نشاز يدعو إلى الدهشة والتساؤل فلقد مجّد الإسلام العلم والعلماء تمجيداً لم يسبق إليه ولا نكران في أن هذا التمجيد من مزايا ديننا الإسلامي العظيم. ولقد كان لذلك أثره الكبير في نهضة العلم وكثرة العلماء في الحضارة الإسلامية في شتى فنون المعرفة، ومن روح هذا الدين العظيم ظهرت الحكمة المأثورة (من علمني حرفًا صرت له عبداً) ولو طبقنا منطق العواد على هذه الحكمة لسخرنا منها لما فيها من تعميم ومبالغة، ولكنها بمنطق الإسلام ورجاله تدل على اعتزاز بالعلم وحب له وحرص عليه كما تدل على احترام للعالم وتقدير للمعلم وإشادة برجل التعليم مهما كانت منزلته، والمبالغة فيها نابعة عن فهم لدعوة الإسلام وإكبار لدور المعلم، كما فعل ذلك الزعيم العربي حين قال:

وإني لعبد الضيف ما دام نازلًا وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

فهو قد نزل عن مكانته العظيمة إلى أن يصبح عبداً في سبيل إكرام ضيفه وهذا غاية الإكرام ولم يقل أحد هذه مبالغة غير مقبولة بل لقد اعتبر العرب قوله هذا أو مبالغته ـ إذا شئت ـ قمة في إكرام الضيف والحفاوة به.

وشوقي كان صادقًا عندما دعا إلى القيام للمعلم وإعطائه حقه من التبجيل سواء كان معلمًا صغيرًا أو أستاذا كبيرًا لأن المعلم الصغير يقوم بدور له أهمية ولا سبيل إلى الاستغناء عنه أنه دور التأسيس الذي يقوم عليه البناء.. ويا له من دور.

ولم يكن شوقي مبالغًاحين قال: (كاد المعلم أن يكون رسولا) لأنه كان ينظر في ذلك إلى قول معلمنا العظيم محمد بن عبدالله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (العلماء ورثة الأنبياء) و (علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل) ومن الواضح أن علماء الأمة ليسوا جميعا على مستوى واحد من العلم كما كان ينظر إلى أقوال آخر الرسل ـ صلى الله عليه وسلم ـ كقوله: (اهل القرآن هم أهل الله وخاصته من خلقه) وأهل القرآن

يدخل تحته العلماء المتفقهون في القرآن كما يندرج تحته الحفظة ومعلمو القرآن لصغار التلاميذ.

وروح الإسلام في إعزاز العلم وتمجيد العلماء وهي التي عبّر عنها شوقي أجمل تعبير في قصيدته التي عنون لها في ديوانه (العلم والتعليم وواجب المعلم) كانت مسيطرة على أزهى العصور الإسلامية بل إن الفضل يرجع إليها في إذكاء القرائح وتنشيط الحركة العلمية وإيجاد جو من التنافس الخصب المثمر البنَّاء.

وحسبي أن أذكر أمثلة قصيرة تعبر أصدق تعبير عن نظرة الناس وكبار المسؤولين إلى العلم والعلماء في تلك العصور الزاهرة.. وهي أمثلة أنقلها من ذاكرتي وفي المراجع والمصادر مئات من هذه الأمثلة:

١ ـ قدم المهدي الخليفة العباسي الثالث إلى المدينة ورغب في أن يأخذ شيئًا من العلم عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس فأرسل إليه من يخبره بهذه الرغبة ويطلب إليه أن يحضر إلى القصر الذي ينزل فيه الخليفة. فرد مالك معتذرًا عن تنفيذ هذه الرغبة بحجة أن العلم يؤتى إليه ولا يأتي، وذهب الخليفة إلى بيت الإمام يتلقى العلم منه ولم يَر في ذلك أي غضاضة.

٢ ـ تناول أبو معاوية الضرير طعام الغداء على مائدة الخليفة العظيم هارون الرشيد وعندما كان يغسل يديه بعد انتهائه من الطعام سأله الخليفة: أتدري من يصب الماء على يدك؟ وكان أبو معاوية ضريرًا ولكنه فهم من لهجة السؤال أن الخليفة هو الذي يصب الماء على يديه فقال له: أنت يا أمير المؤمنين؟ فقال الخليفة نعم فقال أبو معاوية وتفعل ذلك إجلالا للعلم قال الخليفة: نعم.

٣ ـ كان الكسائي عالم الكوفة المعروف يعلّم ابني الخليفة هارون الرشيد: الأمين والمأمون.. فكان إذا انتهى من درسه وأراد الخروج بادر الطالبان وهما آنذاك أولياء عهد المسلمين، كل يحاول أن يسبق أخاه إلى تقديم الحذاء إلى الأستاذ، ونشأ عن ذلك بعض الخصومة وشئ من النزاع. واتفق الاخوان أخيرًا ـ وربما كان ذلك

بإشارة من الكسائي ـ على أن يقدم كل واحد منهما أحد النعلين وبذلك لا يحرم أحدهما (شرف) تقديم النعل إلى الأستاذ ويخلصان من شر النزاع.

ولست أدري ما رأي الأستاذ العواد في مالك والكسائي وأبي معاوية الضرير وهل يراهم جديرين بأن يكونوا من المعلمين الكبار أم أنه يحكم عليهم بأن يبقوا في دائرة المعلمين الآليين؟.

ولست أدري ما رأيه في الخلفاء الأربعة المهدي والرشيد والأمين والمامون وهل يرضيه تصرفهم أم يتهمهم بالرجعية والتخلف وعدم الفهم وضيق الأفق؟.

هذه ناحية وهناك ناحية أخرى غفل عنها العواد أو تغافل عنها ليلجأ إلى الأسلوب الغوغائي في مهاجمة شوقي لعله بذلك يجد أنصارًا من أنصاف المتعلمين يستهويهم ويستغفلهم ونعني بهذه الناحية أن شوقيًا لم ينظم هذا البيت وحده ولكنه جعله مطلعًا لقصيدة طويلة كان على العواد أن يرجع إليها قبل أن يندفع في أحكام خاطئة وقبل أن يدخل في قضية الشعراء الاتباعيين والابتداعيين، وبالمناسبة فإن العواد يعتبر نفسه من الشعراء الإبداعيين ولا نريد أن نقول له ما يقال عادة في هذه المناسبات أجل لا نريد أن نقول له ذلك. ولكننا نريد أن نقول له إن شوقيًا الشاعر الاتباعي له من الأبيات عشرات يتمثل بها الناس في شتى الأزمنة والأمكنة ومنها هذا البيت عن المعلم.. فكم بيتًا للعواد يتمثل بها الناس وله خمسون عاما ينظم الشعر؟.

ومن الطريف كذلك أن العواد يعد نفسه من دعاة (الوحدة الموضوعية) في القصيدة تقليداً للمرحوم العقاد ـ أما أن يتقيد بذلك في شعره أو لا يتقيد فتلك قضية أخرى ـ ومع ذلك فلم ير بأسًا في أن يبتر مطلع القصيدة عن بقيتها ليتسنى له أن يقول ما قال، وهذا خير دليل على ما يتمتع به العواد من أمانة علمية ومن إيمان برسالته ـ التي يحملها في أعماقه ـ في الأدب والنقد!.

وللعواد مع المعلمين قضية! (٤)

وقصيدة شوقي (العلم والتعليم وواجب المعلم) من القصائد الطوال في شعر شوقي بلغت أبياتها ستة وستين بيتًا، وبدراسة هذه القصيدة يظهر الفارق الكبير بين العملاق والقزم، فشوقي في قصيدته يتحدث عن العلم وعن التخلف في مجال التعليم ويحيّي المعلمين ويرفع من مكانتهم ويذكرهم بواجبهم الكبير تجاه أبناء الوطن ويوازن بين ماضي مصر وحاضرها ويوضح عواقب الجهل ويشرح ما يخلفه من أدواء وامراض تفتك بالأمة ولا يفوته الحديث عن المعوقات والمعضلات وعن كفاح المخلصين من أبناء الوطن وعن جهود المستعمرين المضادة، ولا يغفل عن تأثير المعلم المخلص وما يتركه في أبنائه من آثار حميدة وما يجنيه المعلم الآخر من جناية على الوطن وأبنائه حين يفقد الإخلاص والأخلاق.

يبدأ الشاعر العملاق قصيدته بهذا البيت الذي ذهب مذهب الأمثال:

قم للمعلم وفّه التبجيلا ... كاد المعلم أن يكون رسولا

ومع أن الشاعر قد بدأ شطره الثاني بكلمة (كاد) فقد هجس في نفسه هاجس بأنه ربما كان هناك من يستعظم ما قاله إما عن جهل وإما عن خطأ في الفهم وإما عن انحراف في التصور وإما عن مكابرة ومغالطة ولذلك أردفه بالبيت الثاني:

أعلمت أشرف أو أجل من الذي ... يبني وينشئ أنفسًا وعقولًا

ولم يكتف بذلك بل لجأ إلى طريقة أخرى في إظهار فضل المعلم فأراد أن يذكر الناس بمعلم المعلمين سبحانه الذي علّم آدم الأسماء كلها والذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم فقال يخاطبه ـ جل وعلا:

سبحانك اللهم خير معلم ... علّمت بالقلم القرون الأولى

أخرجت هذا العقل من ظلماته ... وهديته النور المبين سبيلا

ثم أراد أن يربط العقل بالمعلم فقال:

وطبعته بيد المعلم تارة ... صدئ الحديد وتارة مصقولا

ثم أخذ في ذكر نفر من المعلمين العظام كان لهم دورهم الكبير في خدمة البشرية وتعليمها وإخراجها من الظلمات إلى النور فقال:

أرسلت بالتوراة موسى مرشدا وابن البتول فعلم الإنجيلا
وفجرت ينبوع البيان محمدا فسقى الحديث وناول التنزيلا

وبعد أن انتهى من حديثه عن هذا النفر من المعلمين الأنبياء أراد أن يتحدث عن معلمين كباراً لأنهم دون مستوى الأنبياء ولكنه لا يتحدث عنهم بأسمائهم فذلك أمر يطول وإنما يتحدث عن البلدين اللذين كانا مسرحًا لهؤلاء المعلمين فقال يخاطب المولى - جل شأنه:

علمت يونانًا ومصر فزالتا عن كل شمس ما تريد أفولًا

ويرى الفارق البعيد بين الماضي المجيد وبين الحاضر الحزن فيقول:

واليوم أصبحتا بحال طفولة في العلم تلتمسانه تطفيلا

ويذكر ذلك الماضي البعيد بحال الشرق حين كان مطلعًا للشموس وكيف مال إلى الانحدار فيقول:

من مشرق الأرض الشموس تظاهرت ما بال مغربها عليه أديلا؟!

ويجيب على تساؤله بذكر العلة والسبب ويخاطب الأرض قائلا:

يا أرض مُذ فقد المعلم نفسه بين الشموس وبين شرقك حِيلا
ذهب الذين حموا حقيقة علمهم واستعذبوا فيها العذاب وبيلا

وهو هنا يتحدث عن المعلمين القدامى أولئك الذين حموا حقيقة علمهم واستعذبوا فيها العذاب ويذكر واحداً من هؤلاء يدل به على الآخرين وهو سقراط في هذه الأبيات الجميلة:

سقراط أعطى الكأس وهي منية شفتي محب تشتهي التقبيلا
عرضوا الحياة عليه وهي غباوة فأبى وآثر أن يموت نبيلا
إن الشجاعة في القلوب كثيرة ووجدت شجعان العقول قليلا

وهكذا يلخص الشاعر العظيم في هذه الأبيات الثلاثة قصة ذلك الصراع الكبير في أثينا بين سقراط وخصومه، ذلك الصراع الذي انتهى بالحكم على سقراط بالموت فقدم له في كأس مسمومة أعطاه (شفتي محب يشتهي التقبيلا).

ويعلق الشاعر على قصة الصراع والنتيجة التي انتهى إليها بهذه الأبيات فيقول:

إن الذي خلق الحقيقة علقما ... لم يخل من أهل الحقيقة جيلا
ولربما قتل الغرام رجالها ... قتل الغرام كم استباح قتيلا
أو كل من حامى عن الحق اقتني ... عند السواد ضغائنا وذحولا؟

وينتقل الشاعر بعد أن تحدث عن المعلم من حيث هو، وعن الأنبياء المعلمين الكرام وعن المعلمين القدامى أمثال سقراط، وعن الحقيقة التي يتصدى لحمايتها والدفاع عنها أولئك المعلمون وأضرابهم في القديم والحديث وعن المتاعب التي يتعرضون لها.

ينتقل إلى الحديث عن معلمي اليوم فيتوجه إليهم بهذا الخطاب الجميل:

أمعلمي الوادي وساسة نشئه ... والطابعين شبابه المأمولا
والحاملين - إذا دعوا ليعلموا - ... عبء الأمانة فادحًا مسؤولا

يخاطبهم بهذا الخطاب الذي يدل على الاعتزاز بالمخاطبين والإعزاز لرسالتهم وأعمالهم ويذكرهم بعد ذلك بحالة التعليم في ظل الاستعمار وسياسته التي يرسمها وينفذها المستشار الإنجليزي المعروف (دانلوب) فيقول:

كانت لنا قدم إليه خفيفة

ولكن هذه القدم بسبب اللؤم الإنجليزي تصاب بمرض الفيل فتنتفخ وتصبح ثقيلة لا تكاد تقوى على السير ويتحول الوضع من حال إلى حال فماذا بتلك القدم الحقيقة:

ورمت بدنلوب فكان الفيلا

ولا يترك الشاعر للخيال أن يتصور الفارق بين الحالتين لأنه لن يستطيع أبدًا أن يتصور ما أصاب تلك القدم بعد إصابتها بمرض دنلوب فيصور لك الشاعر الواقع المرير بدقة حين يقول:

حتى رأينا مصر تخطو اصبعا ... في العلم إن مشت الممالك ميلا
تلك الكفور وحشوها أمية ... من عهد (خوفو) لم تر القنديلا
تجد الذين بني المسلة جدهم ... لا يحسنون لإبرة تشكيلا
ويدللون إذا أريد قيادهم ... كالبهم تأنس إذ ترى التدليلا
يتلو الرجال عليهمُ شهواتهم ... فالناجحون الدُّهم ترتيلًا

ويختم هذه الأبيات بهذا البيت الرائع:

الجهل لا تحيا عليه جماعة ... كيف الحياة على يدي عزريلا

ويتحدث الشاعر عن الجهود الكريمة المخلصة في التعليم قبل دنلوب وسياسته الاستعمارية التعليمية الخبيثة.. فإلى تلك الجهود يعود الفضل في عدم انهيار البلاد فيقول:

والله لولا السن وقرائح ... دارت على فطن الشباب شمولًا
وتعهدت من أربعين نفوسهم ... تغزو القنوط وتغرس التأميلا
عرفت مواضع جدبهم فتتابعت ... كالعين فيضًا والغمام مسيلًا
تسدي الجميل إلى البلاد وتستحي ... من أن تكافأ بالثناء جميلًا
ما كان دنلوب ولا تعليمه ... عند الشدائد يغنيان فتيلًا

وبعد أن يصور الشاعر العظيم حالة التعليم في عهد دنلوب وقبله وبعد أن يتحدث حديث المصلح الخبير عن الجهل وآثاره الضارة التي تسلب الشعوب الفهم والوعي وحسن الادراك وتجعلهم كالبهم لا يدركون معالي الأمور وإنما هو خاضع لشهواته، بعد أن يتحدث عن ذلك ينتقل إلى مخاطبة المعلمين ويضع لهم الأسس التي تبنى عليها التربية والطرق الموصلة إلى إعداد الشباب إعدادًا سليمًا موفقًا فيقول:

ربوا على الإنصاف فتيان الحمى ... تجدوهم كهف الحقوق كهولا
فهو الذي يبني الطباع قويمة ... وهو الذي يبني النفوس عدولا
ويقيم منطق كل أعوج منطق ... ويريه رأيًا في الأمور اصيلًا

ويتجه إلى المعلمين فيذكرهم بالصفات التي ينبغي أن يتحلوا بها ليكونوا قادرين على تحمل مسؤوليتهم جديرين بحمل الأمانة:

وإذا المعلم لم يكن عدلا، مشى ... روح العدالة في الشباب ضئيلا
وإذا المعلم ساء لحظ بصيرة ... جاءت على يده البصائر حولا
وإذا أتى الإرشاد من سبب الهوى ... ومن الغرور فسمّه التضليلا
وإذا أصيب القوم في أخلاقهم ... فأقم عليهم مأتما وعويلا

ولا يغيب عن بال الشاعر أن المعلم وحده ليس قادرًا على أداء الواجب بدون مساعدة المنزل والأسرة، ويعرف جيداً أن المنزل عاجز عن تقديم أي مساعدة للمدرسة وفي ضوء ذلك تتجسد له الصعوبات التي يواجهها المعلم فبادر إلى تقرير ذلك شأن العدل المنصف:

إني لأعذركم وأحسب عبئكم ... من بين أعباء الرجال ثقيلا
وجد المساعد غيركم وحرمتمُ ... في مصر عون الأمهات جليلا

وهنا يلتفت ليذكر الناس بما لتعليم المرأة من أثر في مساعدة المدرسة فيكون الجيل الصالح.

وإذا النساء نشأن في أمية ... رضع الرجال جهالة وخمولا

ويذكّر الأب والأم بواجبهما الكبير تجاه الأبناء بهذا الأسلوب الفريد:

ليس اليتيم من انتهى أبواه من ... همّ الحياة وخلّفاه ذليلًا
فأصاب بالدنيا الحكيمة منهما ... وبحسن تربية الزمان بديلًا!
إن اليتيم هو الذي تَلْقَى له ... أمًّا تخلّت، أو أبًا مشغولًا

ومن الغريب أن الشاعر نظم قصيدته في عام ١٩٢٤م ولم يكن سفور المرأة قد أخذ يشق طريقه في الحياة العامة وبالتالي فلم تكن المرأة قد أخذت تزاحم الرجل في الوظائف والأعمال العامة وتهمل نتيجة لذلك واجبها الأساسي في رعاية البيت والأسرة كما حدث بعد ذلك بسنوات طوال.

ومع ذلك فكأن الشاعر كان ينظر بعين الغيب إلى ما سيحدث، ولذلك بادر إلى تحذير قومه وإنذارهم وأوضح لهم بأن اليتيم ربما كان أصلح حالا من الطفل الذي تتخلى عنه أمه لأي سبب من الأسباب أو ينشغل عنه أبوه لأي ظرف من الظروف كما يحدث في هذه الأيام حيث يُترك الطفل في رعاية الخادمة أو المربية نظرًا لارتباط الأبوين بأعمال تستأثر بوقتهما وتحرمهما رعاية أولئك الأطفال المساكين.

هذا استعراض سريع لهذه القصيدة الرائعة التي تحتاج إلى وقت أطول وإلى وقفة متأنية، ولعلنا بهذا الاستعراض قد لفتنا النظر إلى هذه القصيدة وصححنا بعض المفاهيم الخاطئة التي نشرها بعض الكتّاب كالعواد ويحاولون تعميقها بأساليب ملتوية في محاولة للإساءة إلى هذا الشاعر العظيم.

ولعل القرّاء الذين تابعوا هذا النقاش قد لاحظوا أن القضية التي أثارها العواد عمن أسماهم من المعلمين وقال عنهم: (ولن يكون أفراد هذا القسم إلا فلاسفة ومفكرين أو فنانين عباقرة لهم القدرة ولهم الاستعداد لهذا العطاء) ليس فيها جديد ولا نستبعد أنه أخذها من قصيدة شوقي وقد تحدث عنها الشاعر العظيم في عشرة أبيات تعد من روائع الكلم.

ولعل القراء كذلك قد لاحظوا في مسايرتهم لاستعراض القصيدة طرفًا من عظمة شوقي في عمقه وشموله ونفاذ بصيرته وسعة أفقه وفي قدرته ربط القديم والجديد وفي غيرته على أمته. وفي حبه للعلم وإيمانه بالعلم وفي براعته في إيقاظ الهمم وشحذ العزائم، فإذا قال شوقي بعد ذلك أنه يحمل في أعماقه رسالة أدبية لم يجد أحدًا يكذبه او ينكر عليه ذلك، أما أن يأتي كاتب يتنكر لمدرسته ويجحد فضل أساتذته ولا يتورع عن اتهامهم بالجهل وعدم الفهم ويجازيهم جزاء سنمار، ثم يذهب إلى مهاجمة المعلمين جميعًا والإساءة إليهم والتجني عليهم لا يستثني من ذلك أحدًا ويصفهم بأنهم آليون ماديون يمارسون التدريس كمهنة يتقاضون عليها أجرًا، وهكذا يصبح هذا الكاتب أداة هدم لأمته وإساءة لرجال العلم فيها، أما أن يفعل هذا

الكاتب كل ذلك ثم يدعي بعد ذلك انه يحمل في أعماقه رسالة ادبية فإن أحداً لن يقبل منه ذلك بل إن الجميع سيقفون في وجهه ليردوا كلمته إلى حلقه ودعواه في وجهه.

وهذا هو الفارق بين العملاق والقزم.. بين الكبير والصغير.. بين الأصيل والدعي.

وليس لي من ملاحظة على هذه القصيدة إلى قول شوقي:

تلك الكفور وحشوها أمية من عهد (خوفو) لم تر القنديلا

فأنا لا أتصور الشاعر يقصد بهذا المعنى الذي يتبادر إلى الذهن عندما يسمع البيت لأول وهلة لأن معناه الذي يرد علىالبال عند سماعه أو قراءته أن القرى المصرية محشوة بالأمية أي الأميين من عهد الفراعنة لم ترَ النور.

وهذا فهم يخالف الواقع فقد رأت هذه القرى والكفور والنجوع النور عندماحمله إليها رجال - محمد صلى الله عليه وسلم - وصحابته وإخوانه، وشوقي يعرف ذلك جيداً وحبُّه للإسلام وغيرته عليه وتمسكه به ودفاعه عنه أمور ترتفع عن أي جدل، ومن المعروف أن من ألقابه الكبيرة لقب (شاعر الإسلام).

ولذا فليس من المقبول أن يكون مراد الشاعر هذا المعنى الذي يتبادر إلى الذهن ولكن مراده هنا طول المدة التي مرت على سكان هذه الكفور وهم يعيشون في جهل وأمية نتيجة لعوامل مختلفة بالإضافة إلى الاستعمار الفرنسي والاستعمار الإنجليزي.

ويبدو أن ثورته على الإنجليز وحنقه على المستشار الإنجليزي (دنلوب) دفعاه إلى أن يقول ما قال.

أما بعد: فأحب في نهاية هذه المقالات أن أذكر بعض الملاحظات:

وأولها: أنه كما ذكرت في البداية لم يكن بودي أن أتصدي لما تصديت له وكنت أحب أن يقوم بهذا الواجب غيري من الكتّاب والمعلمين، ولدى الكثير منهم القدرة على إحقاق الحق وإبطال الباطل، وقد انتظرت أكثر من خمسة شهور ولكن أحداً لم يتقدم للقيام بهذا الواجب.

ولست أعرف السبب، وقد سألت صديقًا أديبًا عما إذا كان سكوت الجميع ناشئًا عن استهانة بالكاتب وتهاون بالمكتوب؟ أم أنه ناشئ عن خوف من الكاتب لطول لسانه وعدم اتزانه؟ فقال: إن السبب في رأيي يعود إلى اقتناع الناس بأن هذه مهمتك ولعلهم في دهشة من تقاعسك عنها طوال هذه المدة.

قلت لصديقي: كم كنت أود لو قام غيري بهذه المهمة حتى لا يتصور أحد أنني إنما أفعل ذلك لمجرد الرغبة في الرد أو الهجوم خاصة وان للأستاذ العواد نزوات وبدرات يحاول أن يلمزني فيها بين حين وآخر وقد يضطره إلى ذلك بعض الكتّاب والصحفيين وهو رغم كبر سنه لا يستطيع ضبط نفسه او كبح جماحه، أو تحديد الخط الذي ينبغي أن يقف عنده.

أما والأمر كما ذكرت - يا صديقي - فلا مناص من القيام بهذا الفرض، فرض الكفاية فإن السكوت عن أدائه تقصير وسبة.

وثانيها: أنني حرصت على أن أكون موضوعيًّا لأنه ليس لي من هدف إلا الدفاع عن كرامة المعلمين والأساتذة والرفع من مكانتهم والإشادة بجهود الدولة في هذا المجال.

وثالثها: إن المقال الذي أدرت حوله المناقشة نشره العواد في صحيفة البلاد الغراء في عددها ٤٤٨١ الصادر في ١٨/١٠/١٣٩٣هـ في صفحة (كل شيء) وقد فاتني أن أشير إلى ذلك فيما سبق.

رأي... في المعارك الأدبية*

الحلقة الأولى

كتب الأستاذ ضياء الدين رجب في يومياته بجريدة عكاظ الغراء الصادرة في ١/٢/١٣٩٠هـ فيما قرأت: أن كاتبا مصريًا قيل له في سؤال موجه إليه:

المعارك الأدبية اختفت تقريبًا من الحقل الفني، فهل يرجع ذلك إلى عدم وجود النقاد أم عدم وجود القضايا الأدبية المثيرة أم عدم جدوى تلك المعارك؟ فأجاب بقوله: المعارك إذا قرنتها بالأدب فهي تسمية رجعية متقهقرة، فإنها مهنة حمل القلم لا حمل البندقية، ولعلك تقصد معارك العقاد، وزكي مبارك، وطه حسين، وتوفيق دياب، والمازني وخلافه، إنها مجرد فهلوة لفظية بطريقة رقصة التحطيب المصرية على جسور القرية ولا نتيجة.

وقد انتهت وانقرضت تلك الاستعراضات لهذه الألفاظ والتعابير، فإنها لا توصل إلى نتيجة. إن الخلاف في الرأي الآن يجب أن تكون له نتيجة.

ثم قال: (إن المنابر للخناقات أو الخلافات الأدبية مرفوضة الآن بل إنها ستصبح شديدة التطفل ونحن في ظروف النكسة.. أليست خناقاتنا مع إسرائيل أجدى وأحسن) انتهى كلامه.

لقد عَنّ لي أن أحتفظ برأيي في هذا الكلام بينما أسمع رأي شيوخ أدبنا وشبابه، وأتمنى أن أسمع من الشيوخ رأي الصديق الأستاذ عزيز ضياء، ومن الشباب رأي الأستاذ عبدالعزيز الربيع.

(☆) نشرت بجريدة المدينة المنورة يوم الجمعة ٧ من شهر ربيع الآخر عام ١٣٩٠هـ العدد (١٨٨٧).

وأحب أولا أن أقدم لأستاذنا الجليل عاطر الشكر على (ترشيحي) للإجابة على هذه القضية الخطرة. فهذا الترشيح يحمل في طياته ثقة الأستاذ الكبير بقلمي وتقديره لموازيني وذلك أمر أعتز به كل الاعتزاز.

ولست أدري لماذا أغفل أستاذنا الجليل السائل والمسؤول في هذه المسألة مع ما لذلك من أهمية في تحديد المواقف المتصلة بها، وإذا أمكن التغاضي عن معرفة السائل لتفاهة دوره في الموضوع، فإن معرفة المجيب ذات أهمية كبيرة في تحديد اتجاهه لا بالنسبة لهذه القضية الفكرية فقط بل بالنسبة لقضايا أخرى ذات صلة مباشرة أو غير مباشرة.

وما دام الأستاذ الكبير قد آثر تجاهله فليكن حديثنا في حدود النقاط التي أوردها، وإن كنت ألمح من مجموع إجابات الكاتب المسؤول أنه كاتب يساري النزعة، اشتراكي الاتجاه، كما سيتضح ذلك بعد قليل.

والسؤال مهم ولا شك بل إنه في منتهى الأهمية بالنسبة لهذه الأيام والإجابة عليه ذات أهمية بالغة كذلك لو صدرت من جهتين متقابلتين لأنها تتيح مجالاً كبيراً للمقارنة واستجلاء الحقيقة، ولكن الإجابة لم تصدر إلا من جهة واحدة - مع شديد الأسف - فأضاعت علينا فرصة المقارنة والتمحيص، ومع ذلك ففي استطاعتنا أن نعرف وجهة النظر المقابلة إذا تمكنّا من تحديد وجهة النظر الواردة في الإجابة سالفة الذكر.

يقول الكاتب الفاضل: (المعارك إذا قرنتها بالأدب فهي تسمية رجعية متقهقرة فإنها مهنة حمل القلم لا حمل البندقية).

وهذا كلام فيه مغالطات وفيه (فهلوة لفظية) تستهوي الشباب الحائر الذي فَقَدَ مُثُله ومبادئه وقيمة وتعلّق بأوهام هي أوهى من خيوط العنكبوت (إذا ساغ التعبير) وإلا فما الذي يمنع من إضافة الأدب إلى المعارك أو من اقترانها به ومن يستطيع أن يدعي أن الصراع بين البشر مقصور على السلاح والوسائل المادية..؟

من يستطيع أن ينكر أن الصراع جزء من طبيعة البشر فُطِروا عليه؟.. وإذا كان كاتب (القرن العشرين) قد غفل عن هذه الحقيقة فقد تنبه لها غيره في عصور الرجعية والقرون الوسطى (المظلمة) وممن تنبه لها أحمد بن الحسين المتنبي حين قال:

إنما أنفس الأناس سباع   يتفارسن جهرة واغتيالا

ولهذا الصراع الفطري آثار عميقة بعيدة المدى في تاريخ الإنسان والحضارة فلولا هذا الصراع لما حفل تاريخ الإنسانية بهذه السلسلة من المآسي الدامية التي بدأت مع بداية الإنسان وستنتهي بنهاية يوم يأذن الله بانقراض الأرض، ذلك هو الجانب المظلم من هذا الصراع الأبدي، ولكن الله أرأف بعباده من أن يتركهم هملًا يعيشون عيشة الحيوان ويسلكون سلوكه فأخذ يكفكف من شرتهم ويخفف من غلوائهم عن طريق أنبيائه ورسله ومن يجتبيهم لهداية خلقه، ومن يصطفيهم لرعاية عياله، وبدأ تحول جديد في تاريخ البشرية، فبعد أن كان الصراع الجسدي يقوم لمجرد إشباع الرغبة في الصراع أصبح صراعا من أجل فكرة أو مبدأ أو عقيدة وحقق بذلك هدفين.. التنفيس عن هذه الرغبة الكامنة في النفس الإنسانية، واستغلال هذا الصراع من أجل الارتفاع بالإنسان. ونشأ من جراء ذلك نوع جديد من الصراع الراقي وهو الصراع الفكري وهو الذي دفع بالإنسانية حتى أوصلها إلى ما وصلت إليه من تقدم ورقي، وهذا هو الجانب المضيء من هذا الصراع الفكري.

والصراع الفكري هو أرقى أنواع الصراع وقد يكون صراعًا مباشرًا عنيفًا أو غير عنيف تلتقي فيه الأقلام وتتصادم فيه الأفكار؛ كما هو شأن المعارك الأدبية التي تقوم بين أديبين أو ناقدين أو مجموعتين من الأدباء والنقاد تلتزم كل مجموعة بفكرة وتدافع عن رأي أو اتجاه، مثل المعارك التي دارت على صفحات السياسة الأسبوعية أو مجلة الرسالة وشارك فيها كبار الأدباء المعاصرين، ومثل المناظرات التي كانت تقام بين أديبين أو مفكرين حول نظرية من النظريات أو فكرة من الأفكار.

وقد يكون صراعا غير مباشر كأن يلتزم فرد أو أكثر باعتناق فكرة والدفاع عنها دون التعرض لأسماء من يعارضها أو أشخاص من يرفضها.

والفارق كبير بين هذين النوعين من الصراع في استقطاب الناس واجتذاب اهتمامهم فبينما يحظى النوع الأول باهتمام القارئين والمستمعين يسيطر عليهم سيطرة تبلغ الذروة في بعض الأحيان، لا يكاد يحظى النوع الثاني إلا باهتمام قلة ضئيلة لا وزن لها في مجال التعداد، وإن كان لها وزن عظيم لا يستهان به في مجال السمو الفكري والثقافة الرفيعة.. وسبب هذا الفارق الكبير بين هذين النوعين من الصراع الفكري أن النوع الأول أقرب إلى الفطرة البشرية المخلوقة من الطين والموصولة بالأرض، ففيه مشابهة من الصراع اليدوي والجسدي وفيه إشباع للنفوس المتعطشة التي لا تروى إلا برؤية الدماء والأشلاء وهي هنا دماء وأشلاء معنوية.

أما النوع الثاني فيتطلب قدرًا كبيرًا من الثقافة الواسعة إلى جانب الشعور المرهف، والعقلية المتفتحة.

وقد وقفت على إحصائية طريفة في هذا المجال تحدد عدد الذين يقرؤون للإمتاع والتثقيف (والإمتاع غير التسلية؛ المتعة تدوم والتسلية تزول لأن الأولى تتعلق بالنفس والروح والثانية بالحواس والشعور). كما يقول الأستاذ أحمد علي إبراهيم.. تقدر هذه الإحصائية عدد الذين يقرؤون للإمتاع والتثقيف بنحو المليونين في العالم ويقال: (إن عدد قراء هذه الفئة في العالم عدد ثابت لا يتغير) وستفاجئك هذه الإحصائية لأول وهلة فتقف منها موقف المكذب أو المتردد في أضعف الأحوال لأنك إذا قسمت هذا الرقم الضئيل إلى مجموع سكان العالم لهالتك هذا النسبة التي لا تناسب فيها إطلاقا بين الرقمين وسكان العالم كما ورد في آخر إحصائية ٢٣٦٣٢ مليون نسمة.

ولكنك إذا أمعنت النظر مليا مرة ومرة فستجد أنها نسبة معقولة ومعقولة إلى حد كبير، على أن الواجب يقتضي أن أوضح أن الإحصائية المذكورة قد استبعدت فئتين من الناس:

(١) من يقرؤون للتحصيل كالأستاذ والطلبة في جميع المراحل التعليمية فقراءتهم قراءة منفعة تنفعهم في أمور عيشهم.

(٢) من يقرؤون للتسلية وهؤلاء لا هدف لهم في القراءة إلا التسلية عندما يفقدون وسائل التسلية الأخرى ولا يستبعد أحد هذه الحقيقة فالوقائع تثبتها كل يوم مع الأسف الشديد، وقد نشرت الصحف منذ أسابيع قليلة[1] خبرا عن مجموعة كبيرة تبلغ المئات من شباب إيطاليا تقدمت لبعض الوظائف وكان من ضمن الأسئلة سؤال عن زعيم روما العظيم يوليوس قيصر ولم يستطع سبعون في المائة معرفة هذا القائد الروماني العظيم أحد مفاخر روما وكانت إجابة بعضهم في غاية الطرافة إذ كتبوا أنه نوع من (الجبنة).

ولنقرب المسألة إلى ذهن القراء ننقل لهم ما كتبه أديب كبير شغلت الصحافة أكبر حياته وهو المرحوم الأستاذ (أحمد حسن الزيات) لقد كتب مقالا تحت عنوان (لو كنا نقرأ) يقول في أوله: في مصر تسعمائة وتسعون في كل ألف لا يقرؤون وتسعة من العشرة الباقية ينتقون الأخبار من الصحف اليومية ويقطفون النكت من المجلات الخفيفة، وواحد هو الذي يقرأ الكتاب المثقف ويطالع المجلة المهذبة، وهذا الواحد يدركه في العام فتور الطبع أو البنية أو فوضى النظام فيعاف الكتاب ويحتوي الصحيفة ثم يقعد في مشارب القهوة يتسمع أو يسير في مجالي الطبيعة يتأمل أو يضطجع في مرقد السكينة يستجم.

---

(١) انظر تاريخ نشر المقال.

ذلك تقدير مقارب نتهجم به على (مصلحة الإحصاء) وفي يدينا استقراء تتبع لا يتهيأ لغير من قضى أكثر العمر في التعليم والتأليف والصحافة، وتقدير المؤلفين والكتاب في هذا الباب هو الكاشف الحق عن مكان الأمة من التربية القويمة والثقافة الأصيلة والرقي الصحيح).

وما ذكره الأستاذ الزيات صحيح لا شك فيه ولولا خوف الإطالة والخروج عن صميم الموضوع لذكرت طائفة من الشواهد لمستها بنفسي ورأيتها بعيني.

أريد أن أخلص من هذا إلى أن الصراع فطرة البشر وأن الإنسانية رغم تقدمها الكبير لا تزال تلجأ إلى الصراع المادي الملموس ولتخفف من وطئة الصراع الدموي العنيف بين البشر لجأت إلى أساليب أخرى فأوجدت أساليب مصارعة الثيران ثم أوجدت ألوانا من الألعاب المختلفة وفي طليعتها لعبة كرة القدم والمصارعة والملاكمة.

أما الصراع الفكري فيتطلب قدرا من الثقافة والمعرفة والوعي ولذلك فهو لا يستأثر إلا باهتمام طائفة محدودة من الناس شريطة أن يكون صراع مواجهة تشتجر فيه الأقلام والعقول والأسماء، وإن كان من الغريب ما لاحظته أن بعضًا من خيرة هذه الطائفة المحدودة يؤثر أن يشهد مباراة في المصارعة الحرة على أن يشهد لقاءً فكريا على مستوى رفيع. وأريد أن أصل بعد هذا إلى أن الصراع الفكري معركة تستهوي القلوب والعقول وأنه لا ضير إطلاقا من إضافة الأدب إلى المعارك وأنه ليس في ذلك رجعية متقهقرة أو متقدمة.

رأي.. في المعارك الأدبية*

الحلقة الثانية

ننتقل إلى نقطة أخرى في إجابة الكاتب المفضال، فهو يقول عن الكتابة الأدبية: (فإنها مهنة حمل القلم لا حمل البندقية).. وهذه مغالطة قد ينخدع بها من ينظر إلى ظواهر الأمور غافلا عن حقيقتها، صحيح أنها مهنة حمل القلم لا حمل البندقية من الوجهة الشكلية ولا يستطيع أحد أن يزعم أن القلم بندقية.. ولكن لو وقفنا قليلا لنتأمل في هذه القضية ولنتحقق في رسالة القلم فهل سنرى فرقًا؟

الواقع أنه لا فرق، فحمل البندقية قد يكون من أجل تحقيق العدل ورفع الظلم ونشر الخير وبث الفضيلة وتدعيم القيم السامية والمبادئ الرفيعة، وقد يكون حملها لقطع الطريق ونشر الفزع وتدعيم الباطل والسطو على الحرمات.

وذلك ما يقوم به القلم ولذلك لم يكن من العبث أن يقرن الحديث النبوي الشريف بين مداد العلماء ودماء الشهداء حيث يقول: (مداد العلماء خير من دماء الشهداء).

ومن المعلوم أن الشهداء هم الذين قُتلوا في سبيل الله وإعلاء كلمته ورفع دينه.. والعلماء هم ورثة الأنبياء الذين تلقوا مبادئهم عن إيمان واقتناع وقاموا بنشرها بين الناس دون تردد أو خوف. وقد رافقت معارك القلم معارك السيف في الإسلام منذ أول يوم فكانت أشعار حسان وعبدالله بن رواحة وغيرهم من شعراء المسلمين تقوم بدور لا يستهان به في المعارك بين الحق والباطل والنور والظلام والتوحيد والوثنية بل لقد أضفى الإسلام كثيرًا من الشرف على معركة القلم حين أيدها بجبريل أمين

(☆) نشر في جريدة المدينة المنورة يوم الجمعة الموافق ١٣٩٠/٣/٣٠هـ العدد (١٨٨١).

الوحي.. يقول الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - لحسان شاعر الإسلام: «اهجهم وروح القدس معك».

فالمعارك التي يخوضها القلم لا تقل أهمية عن المعارك التي تخوضها البندقية بل إن معارك القلم أكثر أهمية لأن فترات السلم أطول من فترات الحرب بينما لا تعمل البندقية إلا في الحرب، ومن المصادفات اللطيفة أنه قد وصل إلى يدي عندما بلغت هذه النقطة كتاب (درب الشوك) للأديب الكبير الدكتور سامي الدهان عضو المجمع العلمي العربي بدمشق فأخذت اتصفحه فإذا بي أجده يتحدث في الصفحة (١٧٢) في كتابه الشهير (أحب صديقي أن يزور الكاتب الشهير (إيليا اهر بنورغ) فيقول: (أحب صديقي أن يزور الكاتب الكبير) (إيليا اهر بنورغ) فقد عمل الرجل بقلمه ماتعمله الجيوش كاملة ضد الدكتاتورية (النازية) وقامت كتبه وقصصه ورواياته مقام الدبابات والطائرات والقنابل في تهديم معنويات الأعداء الذين غزوا أرضا واسعة من بلاده.. وعمل سلاح الرجل في ردهم على أعقابهم منهزمين).

فماذا يقول الكاتب المفضال بعد هذا أو بعد كل هذا.. وهل لا يزال يردد (إنها مهنة حمل القلم لاحمل البندقية).

نصل إلى النقطة الثالث في إجابة الكاتب المسؤول فهو يسخر من المعارك الأدبية التي دارت بين أدباء الرعيل الأول ومن العجب أنه احتفظ لها باسمها المتقهقر فسماها (معارك).

وكان ينبغي عليه أن يختار اسما تقدميا، وقد وصف هذه المعارك بأنها (مجرد فهلوة لفظية بطريقة رقصة التحطيب المصرية على جسور القرية ولا نتيجة، وقد انتهت وانقرضت تلك الاستعراضات لهذه الألفاظ والتعابير فإنها لا توصل إلى نتيجة) وهذا كلام رجل لا يقدر مسؤولية ما يقول ولا يقيم وزنًا لما يصدر عنه من آراء وإنما هو يلقي القول على عواهنه لثقته بانه لن يجرؤ أحد على تسفيه آرائه وكشف زيفه للأسباب التي سنوضحها فيما بعد.

ولست أدري ما الذي يعنيه الكاتب المسؤول بالاستعراضات اللفظية أو (الاستعراضات لهذه الألفاظ والتعابير) وهل يريد أن يغفل أهمية الألفاظ في اللغة لأنه - بحكم اتجاهه اليساري - لا يؤمن باللغة الفصحى بل يحرص على النزول بها إلى مستوى (الجماهير الكادحة) بدلا من أن يرتفع بهذه الجماهير.

وإذا كان الأستاذ الكاتب يفهم من الغاية بالألفاظ أو التعابير هذا الفهم الضيق المحدود أو هذا الفهم (الجماهيري) النازل، فإننا نفهم من ذلك فهمًا آخر، فعناية الأمة بلغتها دليل على الحيوية والأصالة، ودليل على شوقها العارم المتطلع إلى مستقبل أفضل، واهتمام الأدباء بهذه اللغة على دراسة فقهها ومعرفة أصولها دليل على الإخلاص البالغ واليقظة الكاملة والإيمان العميق، واشتغال الأدباء بالبحث عن كلمة ومعرفة اشتقاقها وتصحيح مدلولاتها وقيام جدل شديد أو خفيف حول نقطة أو عبارة يجب أن يفسر بأنه من دلائل عظمة الأمة وحيويتها وإيمانها بماضيها ومستقبلها ولو لم يكن الأمر كذلك لكان إنشاء المجامع اللغوية والعلمية التي تضم صفوة الأدباء والعلماء نوعًا من العبث لا طائل تحته.

على أنني لا أستغرب هذا الفهم الملتوي على الكاتب اليساري المتطرف فاليساريون العرب يكفرون بلغتهم ويبذلون ما في وسعهم من أجل التهوين من شأنها تمهيدا للقضاء عليها. بحجة أنها لا (تعانق أشواق الجماهير)، ولست أدري لماذا لا يفعل اليساريون اليهود في لغتهم العبرانية الميتة ما يفعله العرب إذا كانت هذه الحجة صحيحة؟.. ولكن اليساريين العرب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي الآخرين، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

ونعود الآن إلى استعراض عدد من المعارك الأدبية أو أهم هذه المعارك لنرى ما إذا كانت (مجرد فهلوة لفظية ولا نتيجة) أم أنها كانت معارك ذات أهداف وغايات وأنها حققت نتائج لا يستهين بها إلا مخدوع أو مضلِّل - بكسر اللام - وقبل أن نبدأ هذا الاستعراض نحب أن نذكر نتيجة لا جدال فيها وهي أن هذه المعارك - مهما كان

لونها ووجهتها وغايتها - قد حركت الأذهان وأذكت القرائح ونشطت الأدب واستثارت شهية القراء إلى القراءة وذلك شيء طبيعي لا غرابة فيه، بعد أن أشرنا فيما سبق إلى العلاقة القوية بين الطبيعة البشرية والصراع بكافة ظروفه، ولا يستطيع أي مغالط أو مكابر أن ينكر أهمية هذا الصراع الفكري في ازدهار الأدب وارتقاء الفكر وتنوع الثقافة، كما لا يستطيع أحد أن يتجاهل الآثار العميقة التي خلفتها هذه المعارك لا في الأدب العربي في مصر فحسب بل في الأدب العربي في كل قطر عربي، وسيظل عصر هؤلاء العمالقة متميزا بهذه المعارك التي هزت النفوس وأثارت الوجدان وأيقظت العقول وأنعشت الثقافة، وفعلت بالحقل الأدبي ما تعجز المحاريث عن فعله في دنيا النبات.

هذه الحقيقة ترتفع عن الجدال والمهاترات وهي وحدها كنتيجة لتلك المعارك الفكرية تكفي لنقض دعوى الكاتب غير الفاضل من أن تلك المعارك (مجرد استعراضات.. لا توصل إلى نتيجة) فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذه الدعوى تعتبر اتهاما لطائفة من الأدباء والمفكرين هم صفوة من أنجبتهم مصر في تاريخها الأدبي أدركنا مدى خطورة هذه الدعوى التي صدرت عن رجل منحرف الاتجاه او مشبوه القصد أو مخبول الفكر أو مسيَّر الإرادة، أو هو على أقل تقدير ضعيف الرأي مضطرب الرؤية مختل الموازين، وإلا فاي عقل يسوغ أن يحذف من التاريخ الأدبي أزهي عصوره وأن يحكم على جهود خيرة رجاله في مدة تزيد عن نصف قرن بانها جهود ضائعة عابثة وأن دراسات أدبية ضخمة قامت في داخل الجامعات وفي خارجها على أساس الأعمال الأدبية التي صدرت عن أولئك العمالقة بانها باطل وقبض ريح؟ وأن تتهم تلك الصفوة من عمالقة الفكر وجهابذة الفن وأعلام الأدب بانها لا تحسن إلا الرقص بطريقة رقص التحطيب المصرية ومن هم أولئك الراقصون؟!.. إنهم: أحمد زكي باشا (شيخ العروبة) ومحمد رشيد رضا صاحب المنار، ومحمد فريد وجدي، ومصطفى صادق الرافعي، وعباس محمود العقاد، وطه حسين، ومنصور فهمي،

وفليكس فارس، وإبراهيم عبدالقادر المازني، وعبدالرحمن شكري، ومحب الدين الخطيب، ومحمد لطفي جمعة، ومحمد أحمد الغمراوي ومحمد حسين هيكل، وزكي مبارك، وإسماعيل أحمد أدهم، وتوفيق دياب، وأحمد حسن الزيات، وتوفيق الحكيم، ودريني خشبة، وعبدالله عفيفي، وعلي الهندي، وعبدالرحمن البرقوقي، ومحمد عوض محمد، وأمين الخولي، وإبراهيم المصري، وعبدالرحمن الرفاعي، ومحمد أحمد الغمراوي، ومهدي علام، وعبدالوهاب عزام، وأحمد زكي أبو شادي، ومحمد مندور. وقد شاركهم في (الرقص) طائفة من أعلام العراق، وسوريا، ولبنان، وغيرها: محمد كرد علي، وشكيب أرسلان، وساطع الحصري، وخليل سكاكيني ، وعلى الطنطاوي، ورفيق النظيم، وعز الدين التنوخي، ومحمد بهجة الأثري، وإسعاف النشاشيبي.. وأنا لم أذكر هنا إلّا المشهورين الذين خاضوا معارك النقد وإلا فهناك كثيرون آخرون أسهموا إسهاما كبيرا في (رقصة التحطيب) هذه ولكنني لم أعدهم، إذ ليس هو الغرض فذلك أمر يطول ولكن الغرض هو تبيان الأهمية العملية والفكرية والأدبية للأعلام الذين شاركوا في المعارك الأدبية.. فهدموا وبنوا وأزاحوا ظلمات وبددوا شكوكا وفتحوا طرقا وأقاموا صروحا ومعالم ودافعوا عن مبادئ وقيم. ثم انتهى بهم الأمر إلى أن يصبحوا سخرية لكاتب يعيش في هذه الأيام لا يدري ما يقول!

رأي.. في المعارك الأدبية*

الحلقة الثالثة

سنعرض في حلقة اليوم أمثلة قليلة يظهر في ضوئها فساد الدعوى التي ذهب إليها الكاتب المسؤول أن تلك المعارك الأدبية التي ثارت في هذا القرن (مجرد فهلوة لفظية.. ولا نتيجة) سنعرض أمثلة قليلة لأننا لو أردنا أن نستعرض كل المعارك أو نصفها أو ثلثها لاضطررنا إلى تأليف كتاب ضخم.

كان من أولى المعارك الأدبية معركة أثارها الدكتور طه حسين حول عروبة مصر وكان قصده التشكيك في هذه العروبة والدعوة الصريحة إلى فصل مصر عن العروبة والشرق العربي والإسلام وإعادتها إلى الفرعونية.. وقد نشأ عن هذه الدعوة دعوات أخرى منها تنشيط المسيحية لأنها ألصق بالفرعونية والتخلص من اللغة العربية لأنها لغة العرب ولغة القرآن، وقد بدأت دعوات مماثلة في الجزائر ولبنان والعراق تدعو إلى إنعاش القومية البربرية والفينيقية والآشورية وقد تصدى لهذه الدعوة طائفة من كرام الأدباء والمفكرين هم عبدالقادر حمزة وعبدالرحمن عزام ومحب الدين الخطيب وعبدالله عفيفي وفتحي رضوان وزكي إبراهيم وعلى الجندي.

ووقف مع طه حسين ثلاثة: حسن صبحي ومحمد كمال حسين وسلامة موسى واستمرت المعارك أكثر من ثلاثة شهور وانتهت بهزيمة طه حسين وفريقه بل لقد تحول طه إلى الجانب الآخر.. ولا يخطر بالبال أن قلة فريق طه حسين كانت سبب هزيمته.. فالواقع أن هذا الاتجاه الخطير كان مدعمًا بقوى لا يستهان بها من حماة الصليبية ودعاة التبشير المسيحي من مستشرقين ومستغربين ولم يكن مدعما

(*) نشر في جريدة المدينة في عام ١٣٩٠هـ

باليقين والحجج القوية التي لا تُفل، ولقد كانت دوائر الاستعمار تعقد آمالا كبيرة على نجاح طه وزملائه لأن في نجاحهم تشجيعًا لدعوات خبيثة مماثلة في أقطار عربية أخرى كانت قد بدأت تبث سمومها وتعلن دعواتها ولكنها فشلت في مصر نتيجة كفاح مجيد لم يتوقف مدة تزيد عن ثلاثة أشهر.

فهل كانت هذه المعركة مجرد (فهلوة لفظية... ولا نتيجة).. وهل ينتظر أحد نتيجة أروع من هذه النتيجة؟.. لقد كانت حكومات الاستعمار مستعدة لدفع مئات الملايين من الجنيهات من أجل نجاح طه وفريقه لأن في نجاحه نجاحا لخطط استعمارية ماكرة استنفدت الكثير من الوقت والجهد والمال.

ومثال آخر هو (كتاب في الشعر الجاهلي) وهو عبارة عن محاضرات ألقاها الدكتور طه حسين على طلابه في كلية الآداب تهجم فيها على القرآن الكريم وشكك في الأدب الجاهلي وطلب التجرد من الدين والقومية لأن ذلك شرط أساسي من شروط البحث العلمي.

وقد وقف في وجهه أساتذة أجلّاء ناقشوه الحساب وكشفوا المصادر التي اعتمد عليها وفندوا دعاواه في مجموعة من الكتب القيّمة التي نذكر منها كتاب (المعركة بين القديم والجديد تحت راية القرآن للرافعي) وكتاب الشهاب للأستاذ محمد لطفي جمعة وكتاب النقد التحليلي للأستاذ محمد أحمد الغمراوي وكتاب نقض مطاعن في القرآن الكريم للشيخ محمد أحمد عرفة وكان لهذه المعركة آثارها البعيدة في تصحيح كثير من المفاهيم الخاطئة التي تسربت إلينا من الأوروبيين بقصد تحطيم قيمنا والتنكر لديننا والعبث بتاريخنا واستطاعت أن توقف حملات مشابهة كانت تستعد للإغارة علينا لإضعافنا والتهوين من شأننا وإعدادنا لقمة سائغة لأعدائنا.

وهكذا فلم تكن هذه مجرد (فهلوة لفظية) ولا مجرد رقصة تحطيب وإنما كانت معركة ذات نتائج وأهداف شملت الدين واللغة ومناهج وطرائق التفكير وقدمت إلى مكتبتنا رصيدا من كنوز الثقافة والمعرفة.

ومثال ثالث هو: معركة دارت بين زكي مبارك وأحمد أمين حول (مقومات الأدب العربي) وقد أثارها الأخير حين هاجم الأدب العربي هجوما عنيفا وجرده من كثير من المزايا في مقالاته التي عنون لها بعنوان (جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي) واتهمه بأنه أدب معدة لا أدب روح وقد تصدى له بعض الأدباء كما تصدى له زكي مبارك فناقشه مناقشة امتدت ستة شهور دافع فيها عن تراث العرب دفاعا مجيدا وكشف كثيرًا من محاسن الأدب العربي واستخرج مئات من النصوص قدمها إلى القراء العرب وهي نصوص من الروائع في أدب العرب ورد بعض ما ورد في مقالات أحمد أمين من دعاوى إلى مصادرها من آراء المستشرقين وكان من الضروري أن يضطلع رجل كالدكتور زكي مبارك بمهمة الدفاع عن الأدب العربي في وجه الحملات الظالمة التي قام بها رجل موصوف بالرزانة والاعتدال كالأستاذ أحمد أمين لأن السكوت عليها يعطيها معنى لا تكسبه لو صدرت من رجل معروف بالجموح وكثرة الشطحات كطه حسين أو سلامة موسى أو محمود عزمي، ولا شك أن النتائج التي حققتها هذه المعركة كانت ذات أثر قوي في إبراز محاسن الأدب العربي وفي إيقاف حملات الظلم والانتقاص، فالأمر جد خطير يتطلب المبادرة إلى التقويم والتصحيح وليس مجرد (فهلوة لفظية.. بطريقة رقصة التحطيب ولا نتيجة).

هذه أمثلة ثلاثة أوردناها لنثبت خطل الرأي الذي ذهب إليه الكاتب غير الفاضل؛ وإن كنت أحب مع ذلك أن أصحح مفهوما خاطئا قد يعلق بالأذهان نتيجة لهذه المناقشة، فليس من الضروري أن يكون لكل معركة أدبية نتيجة مباشرة ملموسة شأن المعارك الحربية، فقد يتوصل المتناقشون إلى نتيجة يرتضونها ويقفون عندها، وقد تكون المعركة تصحيحا لمفاهيم غامضة أو خاطئة وقد تكون المعركة مقدمة لاتجاهات جديدة، وقد تأتي نتائج المعركة مقدمة لاتجاهات تظهر بعد فترة قد تطول أو تقصر، فليس صحيحا إذًا (أن الخلاف في الرأي يجب أن يكون له نتيجة) بهذا المعنى الضيق المحدود.

بلغنا الآن في مسيرتنا مع الكاتب الفاضل النقطة الأخيرة ويبدو أننا سنقف عندها طويلا.

يقول الكاتب: (إن المنابر للخناقات أو الخلافات الأدبية مرفوضة الآن بل إنها ستصبح شديدة التطفل ونحن في ظروف النكسة، أليست خناقاتنا مع إسرائيل أجدى وأحسن) وهذا كلام غريب من رجل يعيش في هذه الأيام، هو غريب من كاتب معاصر يعتقد أن: (خناقاتنا مع إسرائيل أجدى وأحسن) وهو بذلك يجهل حقيقة كبرى - ولعله لا يجهلها ولكنه يتجاهلها - وتلك هي أن إسرائيل لا تحاربنا بقوة السلاح فقط لكنها تحاربنا بأسلحة أشد فتكًا إنها تحاربنا في ديننا وعقيدتنا ومثلنا وقيمنا وتقاليدنا إنها تسلط علينا غلاة المبشرين وأذنابهم يخربون بيوتنا ويفرقون صفوفنا ويعبثون بثقافتنا وينقلون إلينا أشد الأفكار خبثًا وخسة وانحطاطًا.. ولن أطيل الحديث في هذا الموضوع حتى لا ينقلب البحث إلى مقال خطابي ولكني اكتفى بضرب مثل أو مثالين فيهما الغناء كل الغناء.

من المعروف أن إسرائيل دولة تقوم على أساس ديني وهي تجاهر بهذا ولا تنكره ولا تخفيه، ولا يرى الناس في هذا مدعاة للاستغراب أو الانتقاد ما دام متصلًا بإسرائيل فإذا اتصل الأمر بالعرب وجدت هناك من يتهم العرب بالرجعية لتمسكهم بدينهم ووجدت من ينسب انهزام العرب أمام اليهود إلى جمود الأولين لارتباطهم بالإسلام ووجدت من يدعوهم إلى التخلي عن الإسلام والانضمام إلى هذا المبدأ أو ذاك إذا أرادوا أن يعيشوا كما يعيش العالم المتحضر، والغريب أنك تجد العرب المسلمين في حالة ذهول غريب قد سلبوا العقل والإرادة فهم يتبعون كل ناعق قد تفرقوا طرائق قددا لا يستطيعون الوقوف قليلا، والتأمل في وضعهم ووضع اليهود، فهؤلاء مجتمعون على مبدأ، متفقون على غاية يضمهم دين ويلمهم هدف، وأولئك تائهون في صحراء لا أول لها ولا آخر، هذا مثال يتصل بالدين.. وهناك مثال آخر يتصل باللغة فاللغة العربية لغة حية ما في ذلك شك وهي خالدة ما بقي القرآن، أما اللغة

العبرية فهي لغة ميتة تضافرت كل العوامل على اماتتها، وقد وقف أبناء اللغتين من لغتهما موقفا يناقض الموقف الآخر.. أما أبناء العربية لغة القرآن فقد انتشرت بينهم دعوات هدامة غريبة تدعو بعضها إلى إلغاء اللغة العربية والاستغناء عنها باللهجات المحلية وتدعو بعضها إلى التخلي عن الحروف العربية والاستعاضة عن ذلك بالحروف اللاتينية وتدعو بعضها إلى إهمال الإعراب والقواعد، ومع هذه الدعوات وأمثالها دعوات شريرة هدامة خبيثة فإنك واجد كثيراً من أبناء العروبة يحتضنونها ويتحمسون لها ويدعون لها في إصرار عجيب.

أما اليهود فقد وقفوا من لغتهم الميتة موقفا كريما يستحق الإعجاب فقد أصروا على أن تكون لغتهم لغة الدولة الرسمية وفرضوها علىالحياة فرضًا فلا تجد في إسرائيل إنسانًا أوجمادًا أو حيوانًا إلا سُمّي اسمًا عبريًا فاليهود الذين كانوا يعيشون خارج إسرائيل وسموا بأسماء غير عبرية عندما جاءوا إلى إسرائيل بادروا بتغيير أسمائهم لتصبح عبرية تماما.. وأذكر على سبيل المثال وزير خارجية إسرائيل الأسبق (موسى شركوك) فقد غير أسمه إلى (موشيه شاريت)، أما القطع الحربية فقد سميت جميعا بأسماء عبرية ومن العجب أن بعض هذه الأسماء العبرية قد انتقلت إلى لغتنا العربية على أيدي بعض شباب العرب وأصبحوا يتظرفون بحشرها في كتابتهم.

فدعوة الكاتب إلى رفض المعارك الأدبية والفكرية بحجة ظروف النكسة دعوة انهزامية لأنها ستفتح المجال أمام الدعوات المضادة وتهيئ لها سبل النجاح في الوقت الذي كان علينا فيه أن نجند كل القوى الفكرية لمحاربة هذه الآراء الدخيلة بين أبناء العروبة وشباب الإسلام محاربة لا هوادة فيها ولا توقف، فهذه الدعوة غريبة من رجل يعيش في هذه الأيام وإن كانت ليست غريبة حين تصدر عن كاتب يساري يعيش في مناخ فكري ملوّث.

فانا ألمح كما قلت في بداية هذه المقالات من مجموع إجابات الكاتب الفاضل أنه يساري الاتجاه فتعبيراته ونظراته واتجاهاته تدل جميعها على أنه يسير في اتجاه معيّن

ويخدم أغراضًا خاصة. إنه يريد إن يغلق النوافذ أمام أية تيارات قد تضر بهذا المبدأ اليساري المتطرف، ومن حقه أن يفعل ذلك لأن المبدأ غريب ووافد من بيئة بعيدة وكي يعيش لا بد من أن تهيأ له كل الظروف التي تساعده على الحياة والنماء.. إن الجو الحر الذي كانت تُضرم فيه المعارك الأدبية والفكرية قد فقد المزية التي كان يتمتع بها ومن أجل ذلك أصبح يضيق بهذه الحرية ضيقا شديدا وأصبح يفرض على الكتّاب والأدباء اتجاها معينا لا يجوز تجاوزه أو الخروج عنه والويل لمن حاول الخروج أو التجاوز.

إلى العلامة الجليل*

الأستاذ علي الطنطاوي

سعدت أمس برسالتك الرقيقة كما شرفت اليوم بمقالك القيم في جريدة المدينة، وأحب أولا أن أشكر أستاذنا الجليل على كريم عنايته وجميل ظنه كما أحب أن أبادر فأؤكد لأستاذنا العلامة أن حبي لشخصه وتقديري لأدبه واعتزازي بآثاره أمور ترتفع عن الشك ولا تقبل الجدال.

وإذا كانت عملية النقد تفرض على الناقد أن يميز بين الآثار الأدبية وأن يفرق بين أنواع الإنتاج الفكري وأن يوازن بين الأشياء وأن يقارن بين النظائر وأن يحلل الآراء المختلفة وأن يقوِّم - بكسر الواو المشددة - ما يقرأ وأن يكون في دنيا الأدب كالحجَّاج بن يوسف في جيش عبدالملك يستحث المتباطئين ويدفع المتخلفين ويشجع المتنافسين، وإن كانت عملية النقد كذلك فإنها مع ذلك عملية بغيضة إلى نفوس الناس ثقيلة على أفئدة الأدباء ممقوتة من الكتَّاب والشعراء.

وأرجو أن يعذرني الأستاذ الجليل إذا كنت قد لجأت إلى ذكر الحجاج بن يوسف بدلا من ذكر كلمة أخرى لها علاقة بعالم الحيوان، وإن كانت هذه العلاقة ثابتة قوية لا سبيل إلى إنكارها وأنا مشغول منذ مدة بإعداد دراسة تأثير الحيوان في الإنسان أرجو أن أفرغ منها في وقت قريب.. ورغم ذلك فأنا مضطر إلى أن أستغنى عن هذه

(☆) نشر في جريدة المدينة المنورة بتاريخ ١٣٨٦/١٢/٢٩هـ العدد (٩٢٤).

الكلمة رعاية لسادتنا الأدباء الذين يستغلون كلام النقاد ولا يستخفون ظلهم ويتهمونهم بأشنع التهم.

ثم أنني حريص على أن أذكر (الحجاج بن يوسف) لأنه يذكرني بمقالتك الرائعة أو درَّتك الباهرة التي نشرتها في عدد ممتاز من مجلة الرسالة تحت عنوان (هجرة معلم) ومع أنني لم أقرأها منذ زمن طويل فإن المتعة التي شعرت بها وأنا أقرأها لأول مرة وكنت يومها تلميذاً في المدرسة الابتدائية لا تزال حلاوتها على لساني وكأنها قطعة من حلوى الشام أو كنافة نابلس أستغفر الله فكل أنواع الحلوى التي تذوقتها في وقتها في حياتي لم تترك من الأثر في نفسي أو على لساني ما تركته هذه المقالة الخالدة التي طالت حتى تجاوزت العشر صفحات من صفحات مجلة الرسالة، وحتى يخيل لمن لا يعرف علي الطنطاوي أو كان ممن يستعرض عدد الصفحات قبل القراءة أنها مقالة ثقيلة مملة ولكن طولها زاد جمالها شأن الكاعب الحسناء ذات القامة الرشيقة الممدودة.

لا أدري ما إذا كان هذا استطرادا أو أنه كلام في صميم الموضوع، ولكن الذي أدريه أنني عندما عرضت لمقالة الأستاذ الجليل عن (فلسفة العيد) كنت - ولا أزال - أحمل في نفسي من الإعزاز والإكبار والتقدير ما لا أحمل مثله لقلة في درة من الأدباء.

ولكم حدَّثتني نفسي أن أسعى إلى لقاء الأستاذ في دمشق في الفترات القصيرة التي قضيتها في زيارة زرت فيها البلد الذي يطل على بردى، ولم يمنعني إلا قصر إقامتي في دمشق وإصابتي بمرض الحساسية النفسية، وهو مرض مزعج يفرض على صاحبه نوعا من الانطواء، ويحول بينه وبين الانطلاق، ويمنعه من أن يستمتع بطيبات الحياة، وهل هناك ما هو أطيب من محادثة (الرجال) وهل هناك ما هو أمتع من الجلوس إلى واحد من هذه الصفوة المختارة التي تنشر النور وتنثر العبير وتدفع بالإنسان من وهدة المادة إلى عالم الروح ومن وحل الأرض إلى نور السماء؟

لقد حرصت على أن التقي الأستاذ الجليل ولكن حرصي على أن تظل صورته مشرقة في نفسي جميلة في ذهني منعني من تنفيذ هذه الرغبة الحبيبة إلى مفكر خشيت أن يلقاني بغير ما أتوقع أو أن أزوره في ظرف غير مناسب فلا أجد لديه من البشاشة المنتظرة أو الهشاشة المتوقعة، فتتغير صورته في نفسي ويحدك لونه الجميل، وذلك ما لا أحب أن يحدث وأنا على استعداد لأن أضحي بكل شيء في سبيل أن تبقى صورته التي انطبعت في ذهني نتيجة لطول قراءتي لآثاره وإدماني لدراسة أدبه.. والزيارة في ظرف غير مناسب تذكّرني بحادثة وقعت لي مع صديق أحبه أصدق الحب واعتز بإخوته وأخلاقه، وكان كريما كعادته، فقد قدم لزيارتي وتحيتي ولكن لسوء الحظ - حظي أنا طبعا - زارني في فترة كنت أعاني فيها أزمة نفسية عنيفة نشأت عن ظروف داخلية وخارجية، فكنت في أشد حالة الانفعال والهياج النفسي، وكانت زيارته لي في ذلك الوقت مفاجئة لي ولكنها سرّتني في الواقع إلى أبعد حدود السرور. وحاولت أنا أن أتغلب على هذه الأزمة وأن أتناسى مسبباتها - وحرصت على أن أرحب بصديقي ترحيبا حارًا. ولكن يبدو أن الأزمة كانت أقوى من قوتي واحتمالي فبدت آثارها في رنة صوتي وفي عصبية حركاتي. ويبدو أن صديقي لم يدرك حقيقة الموضوع خاصة وأنه يعرفني واسع الصدر قوي الأعصاب هادئ النفس قليل الغضب، فخرج بعد فترة قصيرة.

وسعيت إلى بيت صديقي لزيارته في اليوم الثاني، وقد خَفَّت حدة الأزمة، ولكني مع الأسف الشديد وجدته قد سافر إلى بلد بعيد، ولم ألقِ أهمية إلى هذا الموضوع ولكنني علمت بعدئذٍ - أن صديقي غاضب أشد الغضب، حانق أبلغ الحنق، وقد أبلغني أحد الأصدقاء أنه حاول أن يفسر الأمر على غير واقعه وأن ينسبه الى أمور لا تمت إلى حقيقته بصلة، وهو يذكر وفاءه وعقوق الآخرين ولم تتح لي الظروف أن ألقاه لأقول له أننا جمعيًا ضحية زيارة في وقت غير مناسب فلو زرتني في غير هذا الوقت لرأيتني كما تحب ولو بقيت يوما لأتحت لي فرصة بيان الحقيقة.

سيدي الأستاذ:

لقد حدثتنا عن الربيع حديثا شائقا ممتعا وكنت موفقا كعادتك عندما تتحدث عن الشام وعن كل ما يتصل بالشام من قريب أو من بعيد وذكرني حديثك عن الربيع في دمشق بمقالك التصويري البديع الذي نشرته قبل سنوات بعنوان (الجادة الخامسة)، والشام - ياسيدي - بلد العروبة الأصيلة وموطن الإسلام العظيم ومهد الحضارة الإسلامية في عهد من أمجد عهودها، كل ذلك يذكره الناس كلما ذكروا بلاد الشام جنة الدنيا أو كلما خطرت ببالهم دمشق أقدم مدينة في الدنيا.

ولكنني أذكر على الطنطاوي كلما خطرت ببالي دمشق أو كلما مرت بذاكرتي كلمة الشام أو كلمات جرى الحديث فيها عن الربيع، فلقد تحدثت عن الشام حديث الولهان الذي كاد أن يلفه الحب ويقضي عليه جنون العشق.

وكانت كلماتك مكتوبة بدمع قلمك فيها الحرارة والصدق وفيها الانفعال والوله وفيها نوع من السحر لا يوصف.

ولقد زرت بلاد الشام ونفسي عامرة بما تحدثت وما وصفت ووجدتها جميلة كما ذكرت ولكن أين هذا الجمال الذي رأيته من ذلك الجمال الذي وصفته أنت؟ إن الفارق كبير، ولكني كذبت حواسي وصدقتك أنت وقلت - كما قلت أنت - إنني لم أر الشام في فصل الربيع ولكنني رأيتها في فصل الصيف.

فأنت والشام في ذهني صنوان، وعلى الطنطاوي، وجمال الربيع في مخيلتي لا يفترقان ولست يا سيدي - بحاجة إلى حديث عن الربيع والخريف من أجل ما ألحت إليه ولأنك ربيع دائم. فأنت وأمثالك من ذلك الرعيل الذي قاد نهضتنا الثقافية الحاضرة ممن صاحبوا القلم من بداية حياتهم لا نستطيع أن نتصورهم بعيدين عن بهجة الربيع ونضرته، ومن الغريب أنه كلما تقدمت بكم السن ازددتم بهاء ونضارة وزدتم روعة وإشراقا، ولا يذبل هذا النوع من الربيع إلا عندما تلقون القلم وهيهات أن تلقونه ما دام فيكم عرق ينبض.

لقد ظل الكاتب الإيرلندي جورج برنارد شو يكتب حتى سن التسعين واستمر عباس محمود العقاد يؤلف إلى ما بعد السبعين، ولا يزال طه حسين يناجي القلم حتى هذه اللحظة مع أنه في عشرة الثمانين.

سيدي الأستاذ:

لقد وجهت لحياتنا الفكرية اتهاما نقبله لأننا لا نملك رده، فالركود يسيطر على حياتنا الفكرية، ما في ذلك شك وأدباؤنا - عفا الله عنهم - لا يحبون النقد لأنهم يؤثرون العافية وهم يميلون إلى الهدوء لأنهم لا يرغبون في مواجهة العواصف وهم يفضلون الكتابة السهلة التي لا تتطلب جهدا ولا درسا ويمارسون الأدب ممارس الهاوي المترف الذي لا يهمه الإنتاج الصحيح بقدر ما يهمه شغل أوقات الفراغ.. لقد كنت أراجع مجلدات الرسالة فرأيت ما أذهلني. كان النقد يسير مع الإنتاج الأدبي ولا يتخلف عنه وكان الكتاب على أتم الاستعداد لمناقشة كل رأي وتصويب كل خطأ وتصحيح كل كلمة.. نعم كل كلمة.. وكم أثيرت مناقشات حول صياغة لفظة أو تحديد معنى. وأذكر أن الأستاذ العقاد كتب مرة مقالا يستنكر فيه موقف أحد الرسميين لأنه استكثر أن ينفق مبلغ عشرين ألف جنيه من أجل كلمة. وأكد أن من الواجب أن يدفع هذا المبلغ وأكثر منه في سبيل كلمة من كلمات لغتنا الحبيبة.

ولهذا كان الكتاب يجودون وكانوا لا يقدمون للنشر إلا مقالا مدروسا ومن أجل هذا كانت الرسالة مجلة الأدب الراقي والثقافة الرفيعة بل كانت مدرسة أو جامعة أنشأت جيلا من الأدباء.

وقد ضربت أنت المثل فمنذ أن قرأت الحلقة الأولى من مقالي عن (فلسفة العيد) بادرت إلى كتابة مقالك القيم، وكان في إمكانك أن تنتظر حتى تقرأ الحلقة الأخيرة وكان في إمكانك أن تتجاهل ما كُتِب، فلك من شهرتك الأدبية وأمجادك القديمة ما يغنيك عن الرد أو التعليق، ولكنك - وأنت أديب أصيل - لم تستطع أن تتخلى عنا

أعتقدت أنه واجب شأن الجواد الأصيل الذي لا يطيق أن يرى الميدان ثم يقف دون أن يثبت وجوده لمحبيه والمعجبين به.

أما صورتي التي تحدثت عنها فذلك مقلب من رئيس التحرير ولي معه قصة أرجو أن أكتبها في يوم قريب، على أن كل قوة إلى ضعف، وكل شباب إلى شيخوخة، وكل نضارة إلى ذبول، وكل نعيم إلى زوال، وكل خصب إلى جدب، وكل ري إلى جفاف، وكل ربيع إلى خريف، وكل بداية إلى نهاية، ويبقى وحده ربك ذو الجلال والإكرام.

أشواق.. وأشواك مع المتنبي

في ندوة صديقنا الأديب الشاعر الأستاذ عبدالمجيد مشخص بالقاهرة التقيت هناك بالأستاذ الكبير السيد على حافظ وقد أثار في تلك الأمسية قضية تمس أبا الطيب المتنبي وهي خلو ديوانه من مدح الرسول الأعظم - صلى الله عليه وسلم - وسأل المنتدين عن تفسيرهم لذلك ودار نقاش غير جوهري حول هذه القضية، وقال الأستاذ الجليل إنه معتن ببحث هذه القضية وإنه سيكتب فيها أو عنها كما وعد بعض الأدباء من الحاضرين بإعداد دراسة عن الموضوع ومنهم - كما أذكر - الأستاذ الفاضل عامر العقاد.

ومر على ذلك فترة دون أن أعرف شيئا عما تم في هذا الشأن، وفي حديث عابر مع أحد الزملاء أشار إلى أن الأستاذ السيد علي حافظ كتب مقالا بعنوان (أكره أبا الطيب المتنبي) في جريدة المدينة منذ مدة وقد أثار ذلك اهتمامي..وأخذت أبحث عن عدد الجريدة الذي نشر فيه المقال حتى عثرت عليه.

ووجدت أن الكاتب المفضال قد أثار عدداً من القضايا والموضوعات، فتحدث عن كتاب صدر في سلسلة المكتبة الصغيرة بعنوان (المتنبي والقرامطة) للأديب العلامة الدكتور محمد محمد حسين وقال عنه: (وهو قوي الأسلوب مشرق التعبير واسع الاطلاع قادر على إقامة الحجة والإقناع) وهذا بعض ما يستحقه العلامة الجليل وهو بالإضافة إلى ذلك ـ وبعبارة أدق ـ وهو قبل ذلك وبعد ذلك أديب إسلامي ملتزم واضح الخطة سليم المنهج مستقيم الاتجاه لا يعرف الانحراف وجميع ما صدر له من كتب تؤيد بحق ما قررناه وذهبنا إليه باستثناء كتابه (الأول) (الهجاء والهجّاءون) الذي تبرأ منه واستغفر الله على ما فيه مما لا يتفق مع خطّه الإسلامي الواضح وقيمه السامية.

وكتب الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين كتبًا جديرة بأن تنشر في عالمنا الإسلامي على أوسع نطاق وأن توضع أمام كل الشباب المسلم وأن تصبح في متناولهم فهي كتب يضيق بها المستشرقون والمستغربون وتحرص الدوائر النصرانية واليهودية على أن تقيم ألوانًا من الحواجز والأستار بينها وبين الطلاب والشباب في العالم الإسلامي.

والحديث عن هذه الكتب يتطلب مقالة خاصة أو عددا من المقالات وحسبي هنا هذه الإشارة العابرة تحية وتقديرا للأستاذ الكبير الذي لم أتشرف بمقابلته حتى الآن كما أنني لم أقرأ كتابه (المتنبي والقرامطة) لأنني لم أعثر عليه بعد وهو الكتاب الوحيد من كتبه الذي لم يدخل مكتبتي وبالتالي فإنني لم أقرأه.

من أجل هذا فسأترك الحديث عنه وعن الموضوعات التي طرقها المؤلف المفضال والتي وردت في مقال الأستاذ السيد علي حافظ حتى أطلع على الكتاب.

ويبدو أن صاحب كتاب (المتنبي والقرامطة) يقف إلى جانب المتنبي ولكن الأستاذ الكاتب السيد علي حافظ يقف منه موقفا مناوئا فهو ينكر على المتنبي أن يكون علويًا كما يروي أستاذنا العلامة محمود محمد شاكر وذلك ما سنناقشه في هذا المقال.

يقول الأستاذ الفاضل: (وجاء في هذا الكتاب أن محمود شاكر علّل ثورة المتنبي في شعره لأسباب منها أنه علوي النسب وأن العلويين أكرهوا جدته التي نشأ في حجرها - لسبب غير معروف على إخفاء هذا النسب).

ويقول الكاتب الفاضل تعليقا على ذلك: (ولا أعتقد أن المتنبي علوي النسب، ولا يستحق أن يتشرف بهذا الانتساب).

ويعلل ذلك تعليلا غريبا فيقول: (فهو لم يمدح من العلويين إلا اثنين أحدهما العلوي الذي كان يقيم في الرملة والآخر هو محمد بن عبدالله العلوي الذي كان يسكن في الكوفة).

ويعلل مديحه لهما فيقول: (وربما أن مدحه لهما كان لأسباب مادية لأنه مادي الاتجاه).

ونستأذن الكاتب الفاضل في أن نقف قليلا عند هذه النقطة فقد قرر أن المتنبي ليس علوي النسب بل ولا يستحق شرف هذا الانتساب وحجته في ذلك أن المتنبي لم يمدح إلا اثنين من العلويين.. فهل يرى الأستاذ الجليل أن مقياسه هذا مقياس صحيح وهل من واجب الشاعر العلوي أن يمدح كل علوي على وجه الأرض.. أو يمدح على الأقل كل علوي بارز وإذا لم يفعل ذلك شككنا في علويته ونسبه وأخرجناه منهما؟

لا أظن الأستاذ الجليل يوافق على سلامة هذا المقياس لأنه لا يتفق مع المنطق ولا مع الواقع لأننا لو طبقناه لكلفنا الشعراء العلويين شططًا ولحملناهم ما لا يطيقون.

ومسكين هذا المتنبي فهو إن لم يمدح العلويين حكمنا عليه بأنه غير علوي (ولا يستحق أن يتشرف بهذا الانتساب) أما إن مدحهم أو مدح بعضهم فربما كان موجهًا (لأسباب مادية لأنه مادي الاتجاه).

ومدح الشعراء ممدوحيهم لأسباب مادية أمر معروف منذ عصر الجاهلية إلى اليوم ولم يطعن ذلك في كرامتهم وهم أعداد لا تحصى.

على أن شعر المديح عند المتنبي يختلف عن شعر جميع الشعراء فهو مديح له مذاقه الخاص الذي يتميز به فأغلب قصائده في المديح مقسومة بين ممدوحه وبينه.. أعني أنها ليست خالصة للممدوح ولكنها شركة بينه وبين ذلك المدوح.

يقول في قصيدة يمدح بها سيف الدولة:

خَلِيلَيَّ إنِّي لا أرَى غيرَ شاعرٍ ... فَلِمْ مِنهُمُ الدعوى ومني القصائدُ

فلا تعجبا إنَّ السيوفَ كثيرة ... ولكن سيف الدولةِ اليومَ واحدُ

فهو يتخذ من سيف الدولة دليلا على تفرده في دنيا الشعر تخبره ويقول في قصيدة يمدح بها كافور الأخشيدي:

فـــازم بِي مـــا أردتِ مـــنـــي فـــإنّي ... أسَـــدُ الـــقـــلْـــبِ آدمِـــيُّ الـــرواء
وفـــؤادي مـــن المـــلـــوك وإن كـــا ... ن لـــســـاني يُـــرَى مـــن الـــشـــعـــراء

وحتى في قصيدته التي يعاتب بها سيف الدولة في مجلس ضم خصومه الألداء يقول:

يـا مـن يـعـز عـلـينـا أن نـفـارقـهـم ... وجـدانـنـا كـل شيء بـعـدكـم عـدمُ
كم تـطـلـبون لـنـا عـيـبـا فـيعـجـزُكـم ... ويـكـره الله مـا تـأتـون والـكـرم
مـا ابـعـد الـعـيـب والـنـقـصـان عـن شرفي ... أنـا الـثـريـا وذان الـشـيـبُ والهرمُ
أنـا الـذي نـظـر الأعـمـى إلى أدبي ... وأسـمـعـت كـلـمـاتي مـن بـه صـمـم
فـالـخيـل والليـل والـبـيـداء تـعـرفـني ... والـسـيف والـرمح والـقـرطـاس والـقـلـم
إذا تـرحـلـتُ عـن قـوم وقـد قـدروا ... ألا تـفـارقـهـم فـالـراحـلـون هـمُ

فلو كان مادي الاتجاه لاستجدى في شعره وتملق ونافق، إنه لم يكن مادي الاتجاه ولكنه كان صاحب مبدأ يدعو إليه ويسعى إلى تحقيقه ولم تكن المادة إلا إحدى الوسائل الأساسية المعينة على تحقيق هذا المبدأ.

على أن الكاتب المفضال لم يكتف بما ذكرنا من حجة وهي عدم مدح المتنبي للعلويين بل أضاف حجة أخرى وهي أن المتنبي هجا العلويين في قصيدة مدح بها الحسين بن عبدالله بن طفح وجاء فيها هذا البيت:

وفـارقـت شر الأرض أهـلا وتـربـة ... بها عـلـوي جـده غـير هـاشـم

وهجا علويين آخرين وتهكم بهم فقال:

أمـاتـكم مـن قـبل مـوتـكمُ الجهلُ ... وجـرُكُـمُ مـن خـفَّـةٍ بِـكُـمُ الـنـمـل
ولـو كـنـتـمُ ممن يـدبـرُ أمـرَه ... لما كـنـتـمُ نـسـل الـذي مـا لـه نـسـل

وما قلناه عن الشاعر العلوي الذي لم يمدح العلويين نقوله عن الشاعر العلوي الذي يهجو العلويين أو بعضهم.

فهل المتنبي هو الشاعر الوحيد الذي هجا بعض العلويين؟ وهل تحمس العلويين لسبقهم من الهجاء أو النقد أو المساءلة أو المنافسة إذا حدث منهم ما يستوجب ذلك.

إذا كان المتنبي قد هجا بعض العلويين - وهو لم يفعل كما سترى بعد قليل - فإن كتاب (مقاتل الطالبين) يحدثنا عن العلويين الذي تعرضوا لما هو أفظع من الهجاء بكثير.

أشواق.. وأشواك مع المتنبي

الحلقة الثانية

نعود إلى البيت الأول من الأبيات الأربعة التي قال الكاتب المفضال أن المتنبي قد هجا بها بعض العلويين ونعني بذلك قوله:

أماتكم من قبل موتكم الجهل وجركم من خفة بكم النمل

وقد رجعت إلى ديوان المتنبي وفي مكتبتي من شروحه شرح عبدالرحمن البرقوقي وشرح أبي البقاء العكبري، ولم أجد في أي من الشرحين ما يشير إلى ما ذهب إليه الأستاذ الجليل.

أما أبو البقاء العكبري فيقول في شرحه المسمى «بالتبيان في شرح الديوان» عن البيت الذي أورده الأستاذ الجليل:

وفارقتُ شرَّ الأرضِ أهلًا وتربةً بها عَلَوِيّ جدهُ غيرُ هاشِمِ

وعلى طريقته في الشرح:

الإعراب:

قال الخطيب الضمير في «بها» للتربة، والجملة في موضع نصب نعت لها.

الغريب: شر الأرض قيل: طبرية لأن فيها أعداء الممدوح وقال أبو الفتح: طبرية، وفيها أعداء أبي الطيب الذين قال فيهم (أتاني وعيد الأدعياء) البيت. وهاشم: هو ابن عبد مناف جد رسول الله - صلى الله عليه وسلم.

المعنى يقول: لما اتصلت به فارقت شر الأرض وهي طبرية وبها قوم يدعون الشرف فأقر لهم بالعلوية ثم نفى عنهم الشرف وقال هم قوم يدعون نسبهم إلى علي وليس هم من ولده) وكلام أبي البقاء في قوله: (فأقر لهم بالعلوية ثم نفى عنهم الشرف) غير

مستقيم فأبو الطيب لم يقر لهم بالعلوية ولكنه يذكر ما أشاعوه وأذاعوه من أنهم علويون ثم ينفي عنهم ذلك بأسلوبه الساخر فيقول: إن جدهم الحقيقي ليس هاشما ولكنه رجل آخر لا علاقة له بهذا النسب الشريف فجملة (فاقر لهم بالعلوية ثم نفى عنهم الشرف) لا ضرورة لها في هذا السياق وكان يكفي أن يقول: (لما اتصلت به فارقت شر الأرض وهي طبرية وبها قوم يدعون الشرف وقال هم قوم يدعون نسبهم إلى علي وليس هم من ولده) ومما يؤيد ذلك ويقويه - وإن كان الأمر لا يحتاج إلى تاييد وتقوية - ما ورد في شرح البرقوقي فهو يقول:

(شر الأرض: قال ابن جنى: هي طبرية وفيها أعداء أبي الطيب الذي قال فيهم (أتاني وعيد الأدعياء) البيت.

تربة: عطف على شر الأرض وجملة (بها علوي) نعت لتربة. ويقول: لما اتصلت به فارقت أرضا أهلها شر الأهل وتربة رجل يدعي نسبه إلى علي وليس من ولده فليس بشريف).

ومن هذا يتضح أن أبا الطيب لم يهجُ في بيته المذكور آنفا علويًا صريح النسب ولكنه هجا دعيًّا ينسب إلى غير أهله وقومه.

وننتقل إلى البيتين الذين أوردهما الكاتب المفضال مستدلا بهما على أن المتنبي هجا بهما علويين آخرين حيث يقول المتنبي:

أماتكم من قبل موتكم الجهل وجركُمُ من خفةٍ بكُمُ النملُ

ولو كنتمُ ممن يدبر أمره لما كنتم نسل الذي ما له نسل

ولا مناص من العودة إلى شرح العكبري وشرح البرقوقي أما العكبري فيقول في مقدمة القصيدة: (وقال يهجو قوما توعدوه) فالمتنبي في هذه المقطوعة يهاجم قوما بدأوه بالإساءة ولم يزد على أنه يرد (التحية) بأحسن منها ونستأذن الأستاذ الجليل في أن ننقل إلى القراء المقطوعة كاملة وعدد أبياتها أربعة أبيات:

أماتكم من قبل موتكم الجهل وجركم من خفة بكم النمل

وُلَيدَ أبي الطيب الكلْبِ ما لكمْ فطنتم إلى الدعوى وما لكم عقلُ
ولو ضربتكم منجنيقي وأصلكم قوي لهدتكم فكيف ولا أصل؟!
ولو كنتم ممن يدبر أمره لما كنتم نسل الذي ما له نسل

ويشرح العكبري هذه الأبيات الأربعة فيقول عن البيت الأول: (يريد أنكم موتى بجهلكم قبل مفارقتكم الدنيا وإن كنتم أحياء. ولا قدر لكم ولا زنة فلخفة أحلامكم وقلة قدركم وعددكم يجركم النمل.. والسفيه الخفيف العقل يوصف بخفة الوزن. كما أن الحليم الرزين يوصف بثقل الوزن بالجبال وشبهها).

ويقول عن البيت الثاني: (يقول: يا وليد أبي الطيب الكلب وهو صفة له. كيف فطنتم إلى الدعوى وهو الادعاء في النسب إلى نسب لستم من ذلك النسب وأنتم لا عقل لكم تفطنون به فكيف فطنتم إلى الادعاء).

ويقول عن البيت الثالث: (يقول: لو ضربتكم منجنيقي - يريد هجاءه - أي لو ضربتكم بهجائي وأصلكم قوى لكسرتكم وأهلكتكم فكيف تكونون ولا أصل لكم معروف).

ويقول عن البيت الرابع: (يقول: لو أنكم تعقلون وتفهمون لما كنتم تنتسبون إلى من يعرف أنه لا نسل له ولا عقب فقد ظهرت دعواكم بهذا الانتساب وأنكم كذبتم فيما ادعيتم، وهو يهجو قوما يزعمون أنهم شرفاء).

ولا يخرج البرقوقي في شرحه عن شرح العكبري بالنسبة للبيت الأول والثالث والرابع أما بالنسبة للبيت الثالث فيصف هذه الجملة (والدعوة: الادعاء في النسب وهو أن ينتسب الرجل إلى غير أبيه، ويقول: يا أولاد هذا الرجل الخسيس أنتم لا عقل لكم تعقلون به شيئا فكيف فطنتم للانتساب إلى من لستم منه في شيء؟ أي إلى غير أبيكم).

ويتضح لنا مما سبق أن المتنبي في مقطوعته الصغيرة يهجو قوما توعدوه ويتهمهم بأنهم يدعون شرفا مزورا لأنهم ينتسبون إلى غير أبيهم ومعنى هذا ان المتنبي لم يهجُ علويين ولكنه هجا قوما يّدعون العلوية وهي منهم براء.

نصل بعد هذا إلى الاتهام (الخطير) الذي وجهه الأستاذ الجليل إلى المتنبي فيتهمه بأنه عنى بقوله:

ولو كنتم ممن يدبر أمره　　　لما كنتم نسل الذي ما له نسل

عنى به رسولنا الأعظم - صلى الله عليه وسلم.

واستأذن الأستاذ الجليل في الوقوف قليلا عند هذا البيت لأسال الأستاذ الجليل عن المصادر التي اعتمد عليها في هذا الفهم فكما رأينا في شرح البرقوقي والعكبري ليس فيهما ما يدل من قريب أو بعيد على هذا الفهم، هذه واحدة.. أما الثانية فمن الذي يستطيع أن يزعم مثل هذا الزعم الذي لا يقوم على أساس، وهل المتنبي من الغفلة والغباء حتى يصدر منه مثل هذا القول؟.. ذلك ما لا نستطيع تقبله، فإذا أضفنا إلى ذلك كثرة خصوم المتنبي ومناوئيه شأن كل عبقري ناجح، وأن هؤلاء الخصوم لم يتركوا من شعره شاردة ولا واردة بغير أن يوسعوها دراسة وبحثا وكانوا حريصين كل الحرص على اصطياد أخطائه وهفواته وكشفها وإبرازها للناس والمثقفين، فكيف غفلوا عن هذه الغلطة (الشنيعة)؟! ذلك ما يحتاج إلى تفسير.

إننا نستبعد تماما ما ذهب إليه الأستاذ الجليل ونفسر الأمر تفسيرا أقرب إلى المعقول وهو أن هؤلاء (العلويين المزعومين) انتسبوا إلى علوي صحيح النسب ولكنهم لم ينتبهوا إلى أنه لا عقب له وهناك علويون لم يتركوا ذرية من بعدهم كما هو معروف في كتب النسب.

ونصل إلى القضية الأخيرة من القضايا التي أثارها الأستاذ الجليل والتي عبر عنها بقوله: (وليس غريبا على مجرم كالمتنبي أن يقول هذا وهو لم يمدح محمد بن عبدالله - صلى الله عليه وسلم - بشعره على كثرته بينما يمدح سيف الدولة الحمداني وكافور الإخشيدي... إلخ).

ويقرر الأستاذ الجليل أنه كره المتنبي من أجل ذلك وكره شعره وندم على ما حفظه منه.

ولن أطيل الوقوف عند هذه النقطة ولكنني أسأل الكاتب الفاضل هل يعتبر كلامه هذا مبدأ يطبق على كل الشعراء وكل الدواوين؟ ولو أراد أن يطبقه فعلا فكم سيخلص له من دواوين الشعر.

ثم ما رأيه في ديوان شاعر كالأخطل التغلبي وله مواقف مشهورة من الإسلام والأنصار وقد صدرت له منذ شهور طبعة جديدة محققة، وما رأيه في ديوان شاعر كالحطيئة وما رأيه بعد ذلك في دواوين كثير من الشعراء المعاصرين كأدونيس ويوسف الخال وسعيد عقل ونزار قباني وعشرات آخرين من أضرابهم.

وأخيرا وبعد هذا التطواف الطويل أرجو من أستاذنا الجليل ألا يكره المتنبي حتى لا يكرِّه - بكسر الراء وتشديدها - فيه شبابنا، وألا يساهم - من غير قصد - في حملة التضليل والتشكيك في عظمائنا وقممنا، وهي حملة مركزة تقف وراءها عقول ماكرة ونفوس حاقدة، ونحن لا نبرئ المتنبي من كل خطأ فالعصمة لله ولكل جواد كبوة - كما يقول الأقدمون - وحسبنا هذا الغثاء الذي تحفل به الدواوين والصحف والمجلات مما يسمونه شعرًا وهو ليس من الشعر في قبيل أو دبير.

إننا بحاجة إلى أن نربط شبابنا وأجيالنا الصاعدة بأمتهم وتراثها وأن نقف بحزم في وجه الحملات الشرسة.. حملات التشكيك والتغريب.

وقبل أن أترك القلم أحب أن أقدم أجزل الشكر وأعمقه إلى الأستاذ السيد علي حافظ.. فبفضل مقاله عدت إلى ديوان المتنبي أقرؤه وأتملاه بعد فترة انقطاع دامت عدة سنوات.. هذا الشاعر العظيم الذي يقول فيه الشاعر العراقي المعاصر أدهم الزهاوي:

عاش فوق الثرى وتحت الثرى ... خالدا في قلوبنا المتنبي

ظل ألفا من السنين يسمى ... شاعر اللفظ والعلا والحرب

مع الشنفرى في لامية العرب*
في ضيافة كريمة مع أنيس منصور:

في أواخر الأسبوع الماضي كنت في ضيافة كريمة لدى أحد الأصدقاء مع مجموعة من كرام الرفاق، وفي فترة من الفترات أخذ أحد الزملاء يدير مؤشر الراديو من غير هدف معلوم وفي إحدى المحطات سمعنا حديثا أدبيا بين مذيعة وأحد الأدباء ثم عرفنا بعد مرور قليل من الوقت أن المتحدث كان أنيس منصور وعرفنا من الحديث أن الأديب المفضال كاتب وجودي، بل إنه زعم أنه أول من تحدث عن الوجودية في مصر مع أن أول من تحدث عن ذلك هو (الدكتور عبدالرحمن بدوي) برسالته التي حصل بها على شهادة الدكتوراه وكان اسمها (الزمان الوجودي).

وقد تحدث أنيس منصور طويلا عن الوجودية وعن زعيمها (سارتر) وعن مقابلته له ووصفه بالفصاحة والأصالة والعظمة رغم رباط عنقه المتسخ وقميصه الملوث ببقع الدم من جرّاء الحلاقة، كما تحدث عن «سيمون دي بوفوار» فوصفها بأنها أعظم أديبة في العالم، ولعل مما زاد في عظمتها في نظره أنها قبلت أن تعاشر زعيم الوجودية كزوجة من غير أي ارتباط شرعي أو قانوني.

أنيس منصور ولامية العرب:

وتحدث بعد ذلك عن عشرات الموضوعات، وكان مما قاله إنه حفظ في صغره لامية العرب للطغرائي، وكان أحد رفاقنا منهمكا في حديث ولكن (لامية العرب) استلفتت انتباهه فقال: عجيب أنيس منصور يحفظ لامية العرب، فبادرت قائلا: لا تدهش

(☆) نشرت في جريدة المدينة المنورة يوم الثلاثاء الموافق ٤ من شهر رجب ١٣٨٦هـ العدد (٧٨٧).

فأنيس منصور لم يحفظ لامية العرب، فقال ألم تسمع ما قال؟.. قلت: بلى قد سمعت ولكن يبدو أنك أنت لم تسمع باقي الجملة، فقد قال إنه حفظ لامية العرب للطغرائي، قال صديقي إذن لا عجب فهو قد حفظ لامية العجم للطغرائي ولم يحفظ لامية العرب للشنفرى.

الشنفرى في أسرة الوادي المبارك:

وانصرفنا إلى ألوان أخرى من الحديث وانفض المجلس وانقضت أيام وحل موعد تلاقينا في أسرة الوادي المبارك[١] وإذا بنا نفاجأ بأحد الزملاء يعرض علينا أن نقرأ لامية العرب ولامية العجم وقال أحد الزملاء في دهشته، لامية العرب؟ وقال آخر ماذا تقول؟ لاميةالعرب؟ وقال ثالث لقد أخذت في قراءتها قبل ربع قرن ولكنني لم اقرأ منها غير بيتين أو ثلاثة ثم طويتها إلى الآن، وقال زميل ظل صامتا: ولكن ماذا سيقول الكتاب عنا إذا سمعوا أننا نقرأ لامية العرب وخاصة إبان هذه الدعوة الحارة إلى الشعر الحر؟ وقال آخر لا أتصور أن الدعوة إلى الشعر الحر تنافي قراءة أثر فكري قديم كلامية العرب ورد عليه قائلا: لا تياس إذا كانت قراءة اللامية تهمة ففي إمكانكم جميعا التنصل من هذه التهمة وإلصاقها بي فأنا متهم بالجمود والرجعية لأنني أتحيز للعربية وأدافع عن الإسلام وتهمة قراءة لامية العرب على ضوء هذا النقاش الذي سمعته واطلته في نطاق الجمود والرجعية وصمت لحظة قبل أن يقول: لقد عشنا حتى رأينا قراءة أثر فكري قديم من الآثار الخالدة يعتبر جريمة ينبغي إخفاؤها والتستر عليها.

وتحمس زميل آخر فأضاف: وهل يعتبر النقاد الإنجليز اليوم قراءة شعر شكسبير مثلا أو شعر غيره من الإنجليز القدامى جريمة تستحق اللوم والتثريب، بالتأكيد لا،

(١) هي أسرة أدبية، تهتم بالأدب والتراث، وكان لها اجتماعاتها المنظمة، واستمرت قرابة ربع قرن، وانتهت مهمتها بقيام النادي الأدبي بالمدينة عام ١٣٩٥هـ.

فهم يقرأون تلك الآثار باهتمام وعناية ويصدرون عنها الكثير من الكتب التي تعرض لها بحثا ودراسة وتحليلا ومنذ أيام صدر كتاب عن شكسبير، وردّ زميل آخر: وبماذا نفسر هذه الظاهرة العجيبة؟.

ورق صقيل وغلاف جميل:

وقبل أن يتلقى الجواب من أحد، بادر زميلنا الذي عرض علينا قراءة لامية العرب فقال: ما رأيكم في هذا الكتاب، ونظرنا فإذا هو كتاب جميل الغلاف لدرجة تستلفت النظر وكأنه ديوان شعر من هذه الدواوين العصرية المترفة، كما أن ورقه صقيل من نوع ممتاز، وقرأ أحدنا اسم الكتاب: لامية العرب: نشيد الصحراء لشاعر الأزد: الشنفرى.

وفي غمرة إعجابنا بالغلاف والورق والطباعة قال أحد الزملاء: هل كان يخطر ببال الشنفرى أن قصيدته ستخرج في هذا الثوب الرائع من جمال الورق ورونق الطباعة وروعة الغلاف؟.. قال آخر: هل كان يخطر لأحد قبل خمسين سنة أن تخرج هذه القصيدة في هذه الحُلّة النادرة.. فردّ زميل ثالث: هل كان يخطر لكم أنتم أن ترد هذا القصيدة في هذا المظهر الخلاب، فأجاب الجميع: لا

قال صاحب فكرة قراءة اللامية: إن ما ستسمعون به أعجب، قال عدد من الرفقاء في لهفة ماذا هناك أخبرنا؟.. قال لهم لا تعجلوا فسنقرأ مقدمة اللامية كتبها شارح اللامية ومحققها (الدكتور بديع شريف).

الشنفرى في أوروبا:

قالوا جميعا: هيا فلنقرأ، وأخذ أحد الزملاء في قراءة مقدمة اللامية وهي مقدمة قصيرة تقع في ست صفحات ولكنها مقدمة بليغة، فوجئنا ونحن نستمع إليها بما ذكره المحقق العلامة من أن معاهد الاستشراق في الغرب قد توافرت على دراسة هذه الملحمة كما يسميها الدكتور محمد بديع شريف أو (نشيد الصحراء) كما يسميها

المستشرق (جورج يعقوب) وأورد المحقق العلامة في ثنايا مقدمته أسماء طائفة من كبار المستشرقين الذين عنوا بهذه (الأغنية) الرائعة:

١ - روكرت.

٢ - رويس.

٣ - ريد هوس.

٤ - تيودور نولدكه.

٥ - بروكلمان.

٦ - رودلف جودي.

وقد توافر هؤلاء الأساتذة الأعلام على هذه القصيدة فأوسعوها بحثا ودراسة وشرحا وتعليقا ونقلوها إلى لغاتهم واعتبروها من النصوص العربية الأولى لتعليم اللغة العربية وتذوق جمال الأدب العربي، ومن الطريف أن أحد هؤلاء المستشرقين وهو العلامة المحقق (جورج يعقوب) (عكف على دراستها وألف فيها الكتب وقسم موضوعاتها ودرس جملة الشعر الجاهلي وقرنها بكثير من أبيات المعلقات وغيرها ونادرا ما ترك كلمة فيها تحتاج إلى البحث إلا بحث فيها وذكر استعمالها ومكانتها من الشعر العربي).

كما أن المحقق العلامة ذكر في مقدمته أن هذه اللامية ترجمت إلى:

١ - الألمانية.

٢ - الفرنسية.

٣ - الإنجليزية.

٤ - البولونية.

٥ - الإيطالية.

٦ - لغات أخرى حية وقديمة.

ركود حياتنا الفكرية:

كان كل ذلك مثار دهشة الحاضرين وموضع استغرابهم وتعليقاتهم وكانت أكثرها تنصب على ما يسيطر على حياتنا الأدبية من ركود وعلى انشغال الأدباء والعلماء بألوان خفيفة من الأدب ربما جاز أن نطلق عليها (الأدب الصحفي) وعلى اهتمام المدرسين بتدريس المنهج بصورة حرفية بقصد إنهاء المنهج دون الالتفات إلى القضايا العامة في الأدب، وإلى تذوق النصوص الأدبية، وإلى تعميق وعي الطلاب تجاه الآثار الفكرية الخالدة في أدبنا العريق.

لامية العرب ملحمة شعرية:

كان الزملاء منصرفين إلى هذه التعليقات وأمثالها أما أنا فقد كنت منصرفا إلى التفكير في قضية أدبية أثارها المحقق الفاضل وفي رأيه أن هذه القصيدة ليست إلا جزءا من ملحمة شعرية، وقد عبر عن ذلك بقوله: (وبعد.. فلا يمكن أن تكون هذه الأغنية ملحمة شعرية فيها مجموعة من صور مجتمع البادية التي تعتصم بالصبر عند نزول الشدائد والتي تتصف بالشجاعة وقوة الإرادة والاعتزاز بالنفس والثقة التي ترافق الرجولة وحب الحرية لأن كل ما في الصحراء خشن قاس شديد لا يتغلب عليه إلا الصابر المثابر ذو العزم والإرادة القوية فهي في بردها لا ترحم وفي حرها لا تشفق وفي قحطها وجفافها تأكل اللحم وتنتق العظم وفي هذه الطبيعة القاسية لا يعيش إلا الصلب ولا يسلم إلا الحذر اليقظ، وإنك إذا تتبعت الصور المرسومة في هذه القطعة الرائعة من شعر الصحراء وجدت أن نقص هذه الصورة يرجع إلى فقدان أبيات كان يجب أن تكمل جمال الملحمة ولا تثلم معانيها وتحس وأنت تنتقل من صورة إلى صورة أن هناك شيئا قد نسيته الحافظة أضاعته آفة الرواية فتركت فيها ثغرات كما تترك الرياح الهوج والأعاصير الشديدة بعض الخدوش في التمثال الذي يقع بين يدي الطبيعة فتنال منه وإذا جمعت هذه الصور بعضها إلى بعض

لا تخـــرج إلا برأي واحد ذلك أن هذه الأبـيات في عـــددها الذي لا يتجاوز ثمانية وستين بيتا لم تكن إلا أجزاء من ملحمـــتة شعرية لمئات الأبيات لو تهيات لها الظروف التي كانت تتهيأ لشعراء الأمـــم من النقش على الحجر والكتابة على الرقوم - لكانت ثروة ثمينة ولكانت أغنية الأجيال ولكان لها ما للملحمة جلجامش وإلياذة هوميروس).

مع الشنفرى في لامية العرب*

الحلقة الثانية

الملحمة... والشعر العربي:

والواقع أنني مشغول الذهن بهذه القضية منذ سنوات فقد قرأت كثيرا من النقد الذي وُجِّه إلى العرب وقد انصب أكثره على خلو الأدب العربي من شعر الملاحم ومن المسرحية الشعرية ومن أدب القصة. ولن أتعرض اليوم للنوعين الأخيرين. ولكنني سأقصر حديثي على الملحمة الشعرية، وقد اتخذ النقاد من خلو الأدب العربي من شعر الملاحم وسيلة للانتقاص من هذا الأدب والنيل منه والتهوين من شأنه، وقد تصدى بعض الأدباء إلى الرد على أولئك النقاد محاولين تبرير هذا النقص وكأنهم يدافعون عن تهمة معيبة متى لصقت بأدبهم فقد هوى إلى الحضيض، وكنت اقرأ دفاعهم بكثير من الإشفاق لا على أدبنا العربي ولكن عليهم هم، فالمسألة في نظري أبسط مما تصوروا بكثير فلن يضير أدبنا العربي أن يخلو من شعر الملاحم، وليس أدبنا هو الوحيد الذي خلا من بين آداب العالم من شعر الملاحم فالغالبية العظمى من آداب شعوب العالم المختلفة قد خلت من هذا اللون من الأدب ومع ذلك فلمَ لم تُتَّهم هذه الآداب بالتفاهة او الضعف؟.. ولو أحصيت الملاحم الشعرية في آداب العالم لوجدتها من القلة بحيث تستثير الدهشة، ولو قارنت أدب بعض الأمم ممن حفل بملحمة أو أكثر لو قارنته ببعض الآداب العالمية الأخرى التي خلت من هذا النوع لوجدته - رغم شعر الملاحم - أقل بكثير في المستوى والجودة والقوة والأصالة والعمق والشمول، فليس من الضروري أن يوجد هذا النوع من الأدب في أدبنا

☆ نشر في جريدة المدينة المنورة في يوم الاحد الموافق ١٣٨٦/٧/٩هـ العدد (٧٩١).

العربي، وليس من الضروري أن يشغل بعض الأدباء أنفسهم في تلمس المبررات لهذا الخلو، وليس من الضروري أن ينصّبوا من أنفسهم حماة للوقوف من أجل سد هذه الثغرة.

الإلياذة نتاج صبياني:

ونأتي بعد هذا لنستعرض بعض شعر الملاحم ولنتخذ مثلا لذلك ملحمة هوميروس (الإلياذة) وهي أول ملحمة في التاريخ إذ قد نظمت في القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد ونظمت لتروي وقائع السنة الأخيرة من السنوات العشر التي اشتعلت فيها الحرب بين الطرواديين واليونانيين ونقول إن هذه الملحمة (تروي) وقائع الحرب تجاوزا وإلا فالواقع أنها تروي خليطا عجيبا من حروب البشر وحروب الآلهة وفيها من الأحداث والوقائع ما لا يقبله منطق ولا يصدقه عقل، وهي حافلة بالخدع والحيل فهي أشبه بقصة خيالية تحتوي على مجموعة من صور رائعة تسحر السامعين وتثير وجدان الشباب والمراهقين ومن أجل ذلك وصفها المصريون القدماء بأنها نتاج صبياني.

ويرجع أكثر المؤرخين أن هوميروس هو الذي جمع أساطير اليونان ونظمها في شعر ينشده في المحافل والمجتمعات بقصد الاستفادة والتكسب، وكان إذا أعوزه الأمر اختلق ما شاء وأضافه، وقد أفاده تنقله بين البلاد المختلفة على إتقان لهجات هذه البلاد فكان ينشد كل جهة بلهجتها، ولم يكن يكتفي بذلك بل كان ينشد كل جهة أناشيد ترضيهم بأن يمدح أبطالها ويعليهم على أبطال الجهة الأخرى المضادة.

فروق بين المجتمع اليوناني والمجتمع العربي:

هذا هو السبب في جمع الإلياذة وهو سبب دافعه الفاقة والتكسب، وليس من الممكن أن يحدث ذلك في المجتمع العربي القديم فلم نسمع قط عن متسولين في أي جزء من أجزاء المجتمع العربي القديم فقد كان يتسم بالعزة والأنفة والقوة، ولم يكن

مجتمعا مستقرا كالمجتمع اليوناني، وكان بالإضافة إلى ذلك مجتمعا أميا يعتمد على الذاكرة والحفظ، ولو أتيح للأمة العربية أن تسجل كل نتاجها الأدبي لرأينا عجبا من العجب، ولكن الواقع أن أكثر نتاجها قد ضاع ولم يصل إلينا إلا النزر اليسير، وإلا فكيف نستطيع أن نفسر أن شاعرا عاش سبعين أو ثمانين عاما ومع ذلك فلم يصلنا من شعره إلا قصيدة واحدة أو أبيات معدودة.

ولو وصلنا كل (شعر الصحراء) كما يعتبره العلامة جورج يعقوب لكون ملحمة ضخمة تقف في الطليعة.

التصريع وقصيدة الشنفرى:

وأنا أتفق بعد ذلك مع الدكتور محمد بديع شريف على أن قصيدة الشنفرى قد وصلتنا بعد أن فقد كثير من أبياتها، وأحب أن أضيف إلى أدلته دليلا لم يشر إليه، ذلك هو أن أول بيت في القصيدة يجب أن يكون (مصرعا) والتصريع كما عبر الأقدمون هو أن يكون عجز النصف من البيت الأول من القصيدة مؤذن بقافيتها وهذه قاعدة سار عليها الشعراء في العصر الجاهلي واتبعهم عليها الآخرون حتى اليوم، ومن النادر أن تجد قصيدة في الشعر الجاهلي تخالف ذلك، ولذا فإنني استبعد أن يكون الشاعر قد بدأ قصيدته بقوله: (أقيموا بني أمي صدور مطيكم) ولا بد أن هذا البيت قد سبق بأبيات أخرى قليلة أو كثيرة.

الوقائع في قصيدة الشنفرى - والملاحم:

ولكني اختلف معه في رأيه عن الحوادث التي أوردها الشنفرى في قصيدته أو رواها الرواة عنه معتمدين على قصائده أو أبياته فهو يرى أن هذه القصص شبيهة بما جاء في ملحمة هوميروس عن أخيل أو هكتور بطل طرواده أو لانكيدو بطل ملحمة جلجامش أو مغامرات (روبين هود) وكلها روايات وأشعار تهدف إلى (تربية أجيال تلك الأمم على القوة والعزم والصبر والمروءة وما إلى ذلك من معاني الرجولة).

فالدكتور الفاضل ينكر أن للوقائع التي يذكرها الشنفرى عن نفسه أو يرويها المؤرخون عنه وعن أنداده من العدائين كتابط شرًا والسليك بن السلكة ينكر أن يكون لها نصيب من الواقع.

ولن أعرض لكل هذه الوقائع بالدرس والتحليل فلذلك مناسبة غير هذه المناسبة ولكنني تأملت كل ما أورده الشنفرى في قصيدته أو (ملحمته) من قصص وأحداث فلم أجد فيها من الاستحالة والأمور الخارقة ما وجدته في الإلياذة أو ملحمة جلجامش فأنت تستطيع أن تجزم بأن الأحداث التي وقعت في الإلياذة أو الأوديسة أو ملحمة جلجامش كلها أو جلها من اختراع الخيال، ولكنك لا تستطيع ان تنكر أن الأحداث التي وردت في قصيدة الشنفرى معقولة لا يستحيل وقوعها وإن كان فيها شيء من مبالغة الشعراء، فالشنفرى في قصيدته مثل حيٌ قائم على كريم الخلال وليس أسطورة أو مجموعة من الأساطير تهدف إلى مجرد تربية أجيال أمته على خلال الخير والمجد، والمثل الحي أوقع في نفوس الناشئة وأدعى إلى إيمانهم واحتذائهم من الأمثلة الخيالية.

ويقول الدكتور المفضال بعد أن استعرض حوادث الشنفرى في قصيدته (هذا هو الشنفرى في ملحمته مقدام صبور حازم عداء ذكي كريم حر متفضل رجل ذو مروءة لا يقبل الضيم إلا ريثما سيتحول عنه ينذر قومه ويحذرهم ويطلب منهم أن يفتحوا عيونهم قبل أن يحاط بهم ويؤخذوا على حين غرة).

وهي كما يرى صفات كريمة ليس فيها غلو غير معقول ولا صفات فوق مستوى البشر بل هي صفات ثابتة في أبناء الصحراء ترتفع فوق الجدل والامتراء.

مع الشنفرى في لامية العرب*

الحلقة الثالثة

متى سميت لامية العرب ولماذا؟

عرض المحقق المفضال لتسمية القصيدة (لامية العرب) وقرر أنه (لا يعرف من أطلق عليها هذا الاسم ولماذا اختصت هذه اللامية وحدها به مع وجود عدد كبير من القصائد لشعراء الجاهلية والإسلام المعروفين من ذوات قافية اللام).

وبعد أن استعرض طائفة من هذه القصائد المشهورة قال: (ولكن كل هذه اللاميات لم تبلغ في شهرتها مبلغ ما وصلت إليه لامية الشنفرى التي فرضت على الأدباء والشعراء هذا الاسم بكل فخر فصارت لامية العرب).

ومع أنني أتفق مع المحقق العلامة في أن من الصعوبة بمكان تحديد أول من أطلق هذا الاسم على لامية الشنفرى فإنني أعتقد أنه في الإمكان تحديد الفترة التي أطلق فيها هذا الاسم على لامية الشنفرى بمراجعة كتب الأدب وتاريخه وهو تحديد قد يقودنا لا إلى معرفة سبب هذه التسمية فحسب بل وإلى حقائق أخرى.

هل هي تسمية شعوبية:

ويذهب صديقنا الشاعر المبدع محمد هاشم رشيد إلى أن هذه التسمية شعوبية أراد بها الشعوبيون الإساءة إلى العرب فالقصيدة في رأيه تصور جفاف العيش وقسوة الحياة وهي تهمة يرمي بها الشعوبيون العرب سكان البادية وقطان الصحراء، وأنا

(☆) نشر في جريدة المدينة المنورة يوم الأحد الموافق ١٦ من شهر رجب ١٣٨٦هـ العدد (٧٩٧).

أخالف صديقي في هذا التعليل فإنه ليس من العار أن يكون الإنسان فقيرا ولكن من العار أن ينزل الإنسان عن كرامته في سبيل أي هدف ولو كان لقمة العيش.

والقصيدة ـ كما رأينا ـ تصور الشنفرى بطلا يمتاز بانبل الخلال، بطلا يعمل لقومه ويسمو على كل ظروفه مهما بلغت من السوء.

لامية العجم... والشعوبية:

ولعل الشعوبية تظهر في تسمية لامية الطغرائي بلامية العجم ففي إبان الصراع المحتدم بين العرب والموالي كان الموالي يحرصون على ان يثبتوا أنهم في مستوى العرب وأنهم لا يقلون عنهم في أية ناحية فكرية أو غير فكرية وما دام للعرب لامية هي لامية الشنفرى فيجب أن يكون للموالي لامية هي لامية الطغرائي.

مقارنة بين اللاميتين:

وقد كفانا المحقق العلامة مؤنة المقارنة بين اللاميتين فقد قرر أنه (توجد لامية أخرى هي لامية العجم نظمت في غضون تاريخ ١١٢٠م وعليه فإن المدة بين نظم الاثنتين تقرب من (٥٠٠) عام ولكن هناك فرق بعيد بينهما في سمو المعاني والمقاصد فإن لامية العرب صادقة خارجة عن طبيعة صاحبها غنية بالمعاني السامية والصور الطبيعية التي تمثل الفضائل.. ولامية العجم استجداء ومتناقضة فيها ادعاء لا نلمس فيها طبعا صافيا ولا نجد صورة مكتملة بل كل بيت مشتق عن البيت الآخر في معاني مطروحة في الطريق منظومة في كلمات متفقة الوزن).

لامية العرب... ووحدة القصيدة:

ولست أدري لماذا لم يشر العلامة المحقق إلى قضية هامة في قصيدة الشنفرى أو ملحمته كما يسميها.. تلك هي هذا التناسب العضوي في القصيدة أو وحدة القصيدة كما يسميها النقاد المحدثون، الذين يذهبون إلى اتهام الشعر العربي بوحدة البيت فكل بيت قائم بذاته لا تربطه بما قبله او بعده رابطة ويرون أن وحدة

القصيدة موجودة في الشعر الغربي وخاصة الشعر الإنجليزي، ويدعون شعراء العرب المحدثين في حرارة إلى اتباع هذه الطريقة.

الانتحال... وأبو علي القالي:

وقد قرأنا قصيدة الشنفرى فرأينا فيها بناء متماسكا وتلاحما عجيبا فالقصيدة كل لا يتجزأ وهي عبارة عن كائن حي يموج بالنور والحركة والحيوية مما ينفي عنها تهمة الانتحال. هذا مع ما أشرنا إليه من فقدان كثير من أبياتها فإذا كانت مع ذلك في هذه الروعة ففي أي صورة تكون لو كانت متكاملة الأبيات، ولم يوجه لهذه القصيدة تهمة الانتحال إلا أبو علي القالي فقد نفى المحقق العلامة هذه التهمة بأدلة علمية قاطعة يمكن الرجوع إليها في كتابه الذي نتحدث عنه.

رأي في تسمية اللامية:

فهل نستطيع بعد هذا أن نصل إلى الأسباب التي دفعت إلى تسمية قصيدة الشنفرى (لامية العرب)

إن شعر الصحراء الذي وصلنا قليل جدا كما ألمحنا إلى ذلك فيما سبق وتعتبر قصيدة الشنفرى بطولها من جهة وبما حوته من روائع الصور من جهة ثانية وبما تضمنته من ألوان البطولة السامية والفضائل العربيةمن جهة ثالثة في قمة هذا الشعر فهي جديرة حقا بهذه التسمية، ولو تقدم باحث لدراسة شعر الصحراء فأغلب الظن أنه سيختار هذه القصيدة لا من بين اللاميات فحسب بل من بين سائر القوافي.

كيف تقرأ لامية العرب:

وبعد: فلئن أفلحت في إثارة شوق بعض القراء إلى قراءة لامية العرب فإني أنصح إليهم بأن يقرأوها في الطبعة التي قدمها الدكتور المحقق محمد بديع شريف نشرتها دار مكتبة الحياة في بيروت وليس هذا إعلانا عن هذه الطبعة ولكن هذه الطبعة تمتاز بورقها الأبيض الصقيل ولعلها أول طبعة على ورق صقيل أبيض، وهي تمتاز كذلك

بثلاث مقدمات.. المقدمة التي عرضنا لبعض ما ورد فيها من آراء ومقدمة أخرى تحدث فيها الأستاذ المحقق عن الشنفرى وسيرته ومقارنة لاميته، ومقدمة ثالثة وهي أهم المقدمات بالنسبة للقارئ تحدث فيها الدكتور المحقق عن كل ما ورد في اللامية بأسلوب جميل.

فقارئ هذه المقدمة بعناية سيوفر على نفسه مجهودا كبيرا في التعرف على ما بالقصيدة من صور وأحداث نظرا لصعوبة الأسلوب الذي نظمت به.

ميزتان أخريان:

وهناك بعد ذلك ميزتان أخريان إحداها أن الأستاذ المحقق شرح الأبيات شرحا سهلا يسيرا من ناحية المفردات ومن ناحية المعاني.

أما الميزة الثانية فهي أن المحقق الجليل أعاد ترتيب الأبيات ترتيبا يربط بعضها ببعض ففي رأيي أن (الحافظة والرواية فرقت بين البيت وأخيه وفرقت بين الأبيات والصور المكتملة التي كان الشاعر يريد رسمها فجاء هذا الترتيب ملائما بعض الملاءمة.

ولم يكتفِ الأستاذ المحقق لذلك بل ألحق بترتيبه ترتيب الأستاذ(ريد هاوس) وفي ذلك مجال طيب لمن يريد إلى جانب القراءة المقارنة والنقد.

وهناك نصيحة أخرى هي أن يحرص القارئ على أن يقرأها مع جماعة - كما فعلنا - فقد استثقل بعض الزملاء قراءة هذه القصيدة الجاهلية بأسلوبها الوعر ولكن التشجيع الذي وجده من الزملاء الآخرين جعله يشارك في الاستماع أولًا ثم في القراءة ثانيا ثم في الاستماع والتعليق ثالثا ومع أن أكثر الزملاء تفاؤلا كان يقدر لقراءة هذه القصيدة أمسية واحدة فإن الواقع أننا قضينا ثلاث أمسيات امتدت كل منها ساعات طوالا نقرأ ونناقش ونعلق، بل إن أحد الزملاء قرر أن يحفظ هذه القصيدة فورا، وقرر آخر أن يدرسها دراسة مقارنة وقرر ثالث أن يشرك فيها قراء جريدة المدينة.

مع علي أحمد باكثير... في صحراء الأحقاف*

كنت أطوف - كعادتي - في إحدى مكتبات جدة أبحث عن الجديد من الكتب وأنقب عن الثمين من الأسفار فإذا بعيني تلمح على أحد الرفوف رواية (همام أو في عاصمة الأحقاف) للأستاذ علي أحمد باكثير، وقد حرصت على شراء هذ الرواية لأكثر من سبب.

وأولها: أنني كنت سمعت عن هذه الرواية ولكن لم يتح لي قراءتها.

وثانيها: رواية شعرية نظمت في وقت مبكر.

وثالثها: أن لناظمها صلة ببلادنا فقد قضى في المدينة ومكة فترة من الوقت[1].

ورابعها: أن هذه الرواية هي أول أثر أدبي يصدر للأستاذ باكثير المؤلف الذي أربت مؤلفاته على الثلاثين مؤلفا.. ويشوقني - كناقد - أن أتابع تطورات الكاتب وأن أرقب مراحل نموه وأن أدرس العلاقة بين البذور الأولى في حياة المؤلف وبين آثاره على امتداد مراحل حياته.

مقدمة للدراسة:

وأحب أن أبادر فأطمئن القراء إلى أن هذه الكلمة ليست دراسة لأدب الأستاذ باكثير كما قد توحي المقدمة لأن الدراسة تتطلب استيعاب كل آثاره، وقد حاولت فعلا عندما هممت بكتابة هذه الكلمة أن أجمع كل آثاره وأن أفرغ لدراستها ولكنني وجدت مكتبتي لا تحتوي إلى على قدر يسير من كتب الكاتب، وأن جمعها من المكتبات يتطلب وقتا طويلا وأسفت لأنني لم يخطر ببالي أن أشترى كتبه عندما

☆ نشر بجريدة المدينة المنورة يوم الجمعة الموافق ٢٨ من شهر شوال ١٣٨٥هـ العدد (٥٩٣).

(١) في حدود عام ١٩٣٢م انظر علي أحمد باكثير. ت: د/أحمد عبدالله السومحي ط ١٤٠٣ من إصدارات نادي جدة الأدبي.

كنت بمصر، ولو كنت عثرت على روايته الشعرية (همام أو في عاصمة الأحقاف) قبل سفري أو كنت رأيتها في مصر لما ترددت في شراء كل كتبه فأدبه جدير بالدراسة والبحث، فليست هذه الكلمة إذا دراسة شاملة عن باكثير ولكنها ربما صلحت لأن تكون مقدمة للدراسة المنتظرة.

ملاحظة على اسم الرواية:

وأول ما لفت انتباهي هو اسم الرواية ولو اقتصر المؤلف على اسم (همام) وهو بضم الهاء وفتح الميم مخففة لما كان في الأمر ما يثير الاهتمام ولكن الذي يثير الاهتمام هو بقية الاسم أو الاسم الثاني للرواية على الأصح، فلست أدري لماذا يهتم الكاتب بإحياء هذا الاسم القديم الذي لا يكاد يذكره أحد ولو سألت كثيرا من ناشئة المتأدبين عن موقع الأحقاف من الناحية الجغرافية ومعنى هذه الكلمة من الناحية اللغوية لما ظفرت لديهم بشيء ولم يقتصر الكاتب أو الشاعر - إن شئت الحقيقة - على تسمية روايته (في عاصمة الأحقاف) بل لقد ردد هذا الاسم مرة أخرى في قصيدته التي حيا بها كتاب وحي الصحراء والمنشورة في أول الكتاب، فهو قوله:

وبنو العروبة سوف يبنون الحضارة من جديد

في مصر وفي أم القرى في الشام في نفتس الرشيد

في تونس الخضراء في الأحقاف في اليمن السعيد

حلم مطل بين كوى الأيام يبسم من بعيد

ولعل الباحث الذي يتتبع مؤلفات الكاتب يظفر بنصوص أخرى تؤيد صدق الملاحظة التي أشرت إليها، ولا أعتقد أن الكاتب سمى روايته هكذا من غير هدف يرمي إليه، فلا شك في أنه فكر فأطال التفكير سواء أكان تفكيره عندما همَّ بنظم الرواية أو قبل ذلك بكثير.

وقد لقيت الكاتب لقاء عابرا منذ سنوات في مصر ولو كنت اطلعت على روايته وقتها لسألته عن هدفه من هذه التسمية، وربما كان أصدقاؤه من الأدباء في الحجاز يعرفون سر هذه التسمية، وإلى أن التقي بالكاتب أو إلى أن يتفضل أحد أصدقاء الأديب الشاعر الفنان بذكر السبب فإنني أري أن سر التسمية يعود لأحد سببين أو كليهما معا.

وأحد هذين السببين هو رغبة الشاعر في إحياء مجد هذا القطر العريق واستعادة حضارته وإحياء الاسم العظيم الذي عرف في التاريخ القديم هو أول وسيلة من وسائل هذا الإحياء.

أما السبب الثاني فهو عدم ارتياح الشاعر إلى الاسم الحالي الذي يطلق على هذا الجزء العظيم وهو (حضرموت) وهذا الاسم كما يقول النحاة واللغويون مُرَكَّب من كلمتين حضر وموت ويقولون عنه أنه مركَّب تركيبا مزجيا، والشق الثاني من الكلمة هو الذي يضايق الشاعر، فهو يريد أن ينهض بهذا البلد العزيز يريد له الحياة والنمو والارتقاء وأن يبعده عن كل ما يذكره بالخمول والجمود والتقوقع، والاسم الحالي يحتوي على كلمة (موت) ولذلك فهو يكرهه إذ يريد لقومه أن يحضروا الحياة لا أن يحضروا (الموت).

وإن كان من الملاحظ أن هذا الاسم لم يؤثر تأثيرا ضارا في أبناء القطر العربي الحضرمي بل ربما أثر فيهم تأثيرا حسنا فهم في خارج حضرموت أمثلة رائعة للنشاط والذكاء والحيوية والأمانة، وقد وصلوا بميزاتهم النادرة إلى مراكز عالية في دنيا المال تعز على من رامها وتطول.

باكثير مثال شاذ !

والأستاذ على أحمد باكثير نفسه مثال من هذه الأمثلة ولكنه مثال شاذ إن صح هذا التعبير، فقد استطاع بصبره وجهده وذكائه أن يفرض نفسه واسمه وشهرته على بلد

لا يعترف بعبقري في دنيا الثقافة إلا إذا كان من أبنائه أو كان من الأوروبيين أو الأمريكيين، صحيح أن الأستاذ باكثير لم ينل حقه كاملا وصحيح أن هناك كثيرا من المحاولات بذلت للتهوين من قدره والإضعاف من شأنه والغض من شهرته ولكنه استطاع أن يثبت وجوده وأن يخلق لنفسه مكانا رغم كثرة المنافسين ووفرة الكفاءات وضيق المجال.

لقد قلت إنه مثال شاذ ووجه الشذوذ فيه أنه نبغ في دنيا الثقافة والمعرفة وبذلك فاق أبناء وطنه الذين تفوقوا في دنيا المادة وعالم المال. لأن التفوق الثقافي يعتمد على الموهبة الخاصة والكفاءة الشخصية والجهد المتصل والسير الطويل فلا مجال فيه لمساعدة أجنبية أو لعون يأتي من الغير.. أما التفوق المادي فمجال المساعدة فيه رحب واسع وتقارض المنفعة سهل وميسور.

ومن الطريف أن نذكر أنه رغم حرص الأستاذ باكثير على التخلص من حضرموت هذه فقد لصقت به لصوقا عجيبا فكاتب مقدمة روايته (همام أو في عاصمة الأحقاف) وهو الأستاذ حسن كامل الصيرفي يقول في أول سطر في المقدمة (ناظم هذه الدراسة الشعرية أديب حضرمي...) ولعل الشاعر كان يؤثر أن يقول عنه إنه أديب أحقافي كما كان الأستاذ أحمد حسن الزيات يلقبه دائما (بالشاعر الحضرمي) عندما كان ينشر له قصائده في مجلة الرسالة القديمة[1] وأعتقد أن ذلك اللقب بقي ملازما لاسم الشاعر حتى توقف نهائيا عن النشر في الرسالة.

وقد فاتني أن أسأل الأستاذ الزيات عندما قابلته عن سر إصراره على تلقيب الأستاذ باكثير بالشاعر الحضرمي.

---

(١) هي المجلة التي كان يصدرها الاديب الكبير أحمد حسن الزيات، وقد توقفت عن الصدور في عام ١٩٥٢م - ثم صدرت بعد ذلك مجلة تحمل اسم (الرسالة الجديدة) إلا انها لم تستمر في الظهور واحتجبت.

عاد والأحقاف:

أما الأحقاف فهي جمع مفرده حقف وهو الرمل المعرج ويبدو من بعض أقوال العلماء أن الأحقاف واد كبير يمتد بين عُمَان وعدن ولوفرة رماله المعوجة المستطيلة سُمي بالأحقاف أو الحقاف.

وفي هذا الوادي كانت تسكن قبيلة عاد وهي قبيلة عربية من العرب البائدة وكان أبناء القبيلة يمتازون بطول أجسامهم ووثاقة بنيانهم وقوة تركيبهم، وقد ساعدهم اعتدال المناخ وكثرة الأنهار على أن يعيشوا - كما يشتهون - وأن يتصفوا بالقوة والغلظة والجبروت وقد بلغ من قوتهم أن كانوا يبنون أبراجا ضخمة بناء محكما هائلا ولم يكونوا يبتونها بقصد الاستفادة منها ولكنهم كانوا يبنونها لمجرد اللهو والتفاخر وإظهار القوة.

ومما يذكر في هذا المجال ما روي عن أبي الدرداء الصحابي المشهور أنه لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة بالشام من البينان ونصب الشجر قام في مسجدهم فنادى يا أهل دمشق فاجتمعوا إليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا تستحيون.. ألا تستحيون؟ تجمعون ما لا تأكلون وتبنون ما لا تسكنون وتأملون ما لا تدركون إنه قد كان قبلكم قرون يجمعون فيروعون ويبنون فيوثقون ويأملون فيطيلون فأصبح أملهم غرورًا وأصبح جمعهم بورا وأصبحت مساكنهم قبورا إلا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلا وركابا فمن يشتري مني ميراث «عاد» بدرهمين؟

هذه هي قبيلة «عاد» التي سكنت في الأحقاف وأقامت حضارة رائعة في ذلك الجزء القصي من جزيرة العرب وشيدت قصورا وبنت المدينة الخالدة ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ويرى بعض المفسرين أن جملة (التي لم يخلق مثلها في البلاد) لا تعود على إرم ولكنها تعود على القبيلة وسواء اكان هذا المقصود أو ذاك فإنه يدل على عظمة هذه القبيلة وما تتمتع به من مميزات نادرة.

وهذا ما دعا شاعرنا إلى أن يسمى روايته (في عاصمة الأحقاف) وإن كنت لاحظت أن بعض النصوص التي تتحدث عن حدود منطقة الأحقاف تخرج حضرموت من هذه المنطقة وتجعلها متاخمة لها، ولعل مما يؤيد ما تذهب إليه النصوص أن حضرموت اسم قديم للمنطقة المتاخمة لمنطقة الرمال فقد وردت في كثير من النصوص القديمة كما وردت في التوراة، فإذا صح ذلك فإن على شاعرنا الأديب أن يعيد النظر في هذا الاسم إلا إذا ثبت أن مدينة سيوون حيث جرت أحداث الرواية هي مدينة من مدن الأحقاف وليست من مدن حضرموت أو ثبت أن حضرموت جزء من الأحقاف.

مع علي أحمد باكثير... في صحراء الأحقاف*

الحلقة الثانية

هود وعلي بن أبي طالب:

وتحدثنا كتب التاريخ عن هذه المنطقة حديثا عجيبا ولن نستطيع في هذا المجال أن نذكر كل ما ورد في التاريخ ولذلك فسنكتفي بذكر طرفتين من ذلك:

والأولى عن نبي الله (هود) فقد روى صاحب معجم البلدان (عن الأصبغ بن بنانة قال: إنا لجلوس عند علي بن أبي طالب ذات يوم في خلافة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - إذ أقبل رجل من حضرموت لم أر قط رجلا أنكر منه فاستشرفه الناس وراعهم منظره وأقبل مسرعا حتى وقف علينا وسلم وجثا وكنت أدنى القوم منه مجلسا وقال: من عميدكم فأشاروا إلى علي - رضي الله عنه - وقالوا: هذا ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعالم الناس والمأخوذ عنه فقام وقال: (مقطوعة شعرية في عشرة أبيات أوردها صاحب معجم البلدان) قال: فأعجب عليًا - رضي الله عنه - والجلساء شعره وقال له علي: لله درُّك من رجل ما أحسن شعرك فمن انت؟ قال: من حضرموت.. فسر به «علي» وشرح له الإسلام فأسلم على يديه ثم أتى به إلى أبي بكر - رضي الله عنه - فأسمعه الشعر فأعجبه ثم إن عليا - رضي الله عنه - سأله ذات يوم ونحن مجتمعون للحديث: أعالم أنت بحضرموت؟ قال: إذا جهلتها لم أعرف غيرها. قال له علي - رضي الله عنه: أتعرف الأحقاف؟ قال الرجل: كأنك تسأل عن قبر هود - عليه السلام - قال علي - رضي الله عنه: لله درك ما أخطأت قال: نعم خرجت وأنا في عنفوان شبيبتي في أغيلمة من الحي

(☆) نشر في جريدة المدينة في يوم الجمعة الموافق ١٢/١١/١٣٨٥هـ العدد (٥٩٩).

ونحن نريد أن نأتي قبره لبعد صيته فينا وكثرة من يذكره منا فسرنا في بلاد الأحقاف أياما ومعنا رجل قد عرف الموضع فانتهينا إلى كثيب أحمر فيه كهوف كثيرة فمضى بنا الرجل إلى كهف منها قد دخلناه فامعنا فيه طويلا فانتهينا إلى حجرين قد أطبق أحدهما دون الآخر وفيه خلل يدخل منه الرجل النحيف متجانفا فدخلته فرأيت رجلا على سرير شديد الأدمة طويل الوجه كث اللحية وقد يبس على سريره فإذا مسست شيئا من بدنه أصبته صلبا لم يتغير ورأيت عند رأسه كتابا بالعربية: أنا هود الذي أسفت على عاد بكفرها وما كان لأمر الله من مرد فقال لنا علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - كذا سمعته من أبي القاسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم).

ولا نريد أن نعلق على هذا الحديث بأكثر من أن نذكر أن عصر نبي الله هود ممعن في القدم بل يستفاد من بعض النصوص القرآنية أنه قريب العهد من عصر نوح فبين عصر هود وعصر صدر النبوة آلاف من السنين لا يحصيها إلا الله فبقاء جسمه سليما طوال هذه القرون من معجزات الله الخالدة.. ومما يؤيد هذا ما ورد في الحديث النبوي الشريف من أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

بلهوت في برهوت:

أما الطرفة الثانية:

فإن هذه المنطقة تحتوي على واد أو بئر أو بلد على اختلاف الأقوال يسمى (برهوت) ويروي الرواة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال عن وادي برهوت (أن فيه أرواح الكفار والمنافقين) وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: أبغض بقعة في الأرض إلى الله عز وجل وادي برهوت فيه أرواح الكفار وفيه بئر ماؤها أسود منتن تأوي إليه أرواح الكفار.. وعنه أنه قال: (شر بئر في الأرض بئر في برهوت يجتمع فيه أرواح الكفار) وحكى عن الأصمعي عن رجل من سكان تلك الناحية قال: (إنا نجد من ناحية برهوت الرائحة النتنة البغيضة جدا فيأتينا بعد ذلك أن عظيما من

عظماء الكفار مات فنرى أن تلك الرائحة منه).. وعن ابن عباس - رضي الله عنه - أن أرواح المؤمنين بالجابية وأرواح الكفار ببرهوت، وقال ابن عيينة: أخبرني رجل أنه أمسى ببرهوت قال: فسمعت منه أصوات الحاج وضجيجهم وذكر أبان بن تغلب أن رجلا آواه المبيت إلى وادي برهوت قال: فكنت أسمع طول الليل يا دومة فذكرت ذلك لرجل من أهل الكتاب فقال إنه الملك الذي على أرواح الكفار يقال له دومة.

وهكذا نرى أن هذا الجزء الغالي من وطننا العربي الكبير حافل بالأسرار والعجائب ولعل هذه النهضة الجديدة الذي ترعاها المملكة العربية السعودية في حضرموت تنتج شبانا واعين مثقفين يفرغون لدراسة تاريخ بلادهم وينقبون عن آثارها ويحققون النصوص التي تدور حولها ويقدمون للناس نتائج أبحاثهم ودراساتهم فيكشفون للناس ما غمض من أخبار بلادهم ويرفعون الستار عما حفلت به من أعاجيب وأسرار.

ملخص الرواية:

وتتلخص أحداث الرواية في أن همام شاب حضرمي أو (أحقافي) مستنير الفكر واسع الأفق شديد التحرك صادق الحب لوطنه يعتنق طائفة من الأفكار المتحررة يمكن تلخيصها في هذه السطور التي ننقلها من مقدمة الناظم حيث يقول: (كلنا يعلم أن في حضرموت بدعا في الدين يجب أن تنكر وتزال ما في ذلك شك، وأن فيها جهلا يجب أن ينار بمصباح العلم ما في ذلك مرية وأن فيها جمودًا يجب أن يدك صرحه. وأن فيها امتيازات أدبية وحقوقية (لطوائف خاصة) أيضا يجب أن تبطل وأن فيها عادات سيئة يجب أن تصلح، وأن فيها فوضى.. يجب أن يفكر في إصلاحها والضرب على أيدي المفسدين) فهمام من أجل ذلك يدعو إلى فتح المدارس والرجوع بالدين إلى مصادره الأساسية على طريقة الصحابة والسلف كما يدعو إلى تعليم البنات وإلى محاربة البدع والخرافات والشعوذة.

ويتحمس في دعوته ويؤمن بدعوته قلة من الشباب على رأسهم صديقه محمد الذي يندفع في نشر هذه الأفكار حتى كاد أن يذهب دمه هدرا لولا لطف الله عليه.

ويقف في وجهه كثير من المحافظين ومن أبرزهم مشعوذ دجال يسيطر بشعوذته على اتباعه وتقع بين الاثنين مصادمات عنيفة، ولكن هذا الدجال يستطيع أن يعرف بوسائله الخاصة أن خصمه همام متعلق تعلقا شديدا بفتاة اسمها حُسْن (بضم الحاء وسكون السين) فهو مغرم بها يكاد يموت فيها صبابة ووجدًا.. كما أن هذه الفتاة معجبة به ولكنها لا تملك من أمرها شيئا فامرها كله بيد أبويها ويستغل (الدجال) فرصة هذا الحب وينتقم من خصمه فيتفق مع أحد أتباعه على خطبة هذه الفتاة من أبيها ويتعهد لتابعه بأن يمهد له الطريق مقابل نصف الف من الريالات، ويستطيع (المولى) بحكم نفوذه الروحي أن يقنع والد الفتاة بقبول تابعه زوجًا لها، وتتم الصفقة، ويسمع همام بالأمر فيجن جنونه ويفقد أعصابه ويصبح في حالة سيئة ويجد محمد ان من واجبه أن ينجد صديقه همام من هذه المحنة فيتفق مع أحد أصدقاء (المولى) على أن يفسخ الخطبة من تابع الوالي ويعقدها لهمام مقابل ألف من الريالات ويقوم (المولى) بمهمته خير قيام ويخبر والد الفتاة أن هاتفا جاءه في المنام يخبره بأن «حُسْنًا» لهمام وأن الخطيب الأول فسدت نيته في توليها بحب واحترام ويسمع التابع فيغضب ويذهب إلى والد الفتاة ليناقشه وأخيرا يقبل الوضع ولكنه يطلب ما دفعه من مال فيخبره بانه لم يأخذ شيئا ويتضح أن (المولى) هو الذي أخذ المبلغ، ويضطر إلى الشكوى ويفتضح الأمر، ويطلب همام من أهل فتاته إتمام الزواج فيعتذر الأب بأن الأم تمانع في إتمامه فورا بسبب هذه الضجة التي أثيرت حول ابنتها، ويقترح عليه أن يغادر البلاد ويعود بعد عام أو عامين ويخضع همام للأمر الواقع فيشد رحله إلى «جاوا» حيث يقضي فيها عامين ثم يعود بعد ذلك حيث يتم عقد القران وتتحقق الآمال.

ولكن الأمور لا تسير دائما وفق ما نشتهي ونريد فإن صديقه محمد تعلق هو الآخر بامرأة ذات شرف وجمال ولكنها فقيرة ولفقرها انصرف الناس عنها فوجد فيها محمد ضالته ولكن التقاليد العتيقة تقف عائقا دون إتمام الزواج فأقارب الفتاة الذين

تخلوا عنها لفقرها رفضوا تزويجها لهذا الخطيب لانه ليس من الأشراف ويجد همّام نفسه في موقف لا يحسد عليه فهو حريص على أن يسعد بقرب فتاته وزوجه بعد الانتظار الطويل خاصة وأنه لم يمض على زواجه غير فترة قصيرة، ولكنه في نفس الوقت يجد أنه ليس من المروءة أن يتخلى عن صديقه المخلص في محنته ويعرف أن لصديقه أقارب في مكة لديهم ما يثبت أنه من الأشراف ويشد رحاله إلى مكة المكرمة تاركا زوجه العزيزة على أمل قريب في اللقاء ولكنها تحدثه بهاجس عجيب يحدثها بانها ستموت وشيكًا فيحاول همام أن ينتزع من نفسها هذه الهواجس السوداء، وتطمئن قليلا ثم تبارك سفره وينطلق إلى مكة للحج ولأداء واجبه الأخوي فيصل إليها وقبل أن يستقر به المقام يفاجا ببرقية تنقل إليه وفاة أعز عزيزين عليه «حُسْن ومحمد»، فينفذ صبره ويهي جلده ويفقد كل أمل في الحياة.

وأخيرا يجد العزاء في الالتجاء إلى الله فينطلق إلى المسجد الحرام ويقصد ماء زمزم فيتضلع منه ثم يذهب إلى المطاف ثم يقف تجاه الملتزم ويتعلق بستر البيت وينشد نشيدا مؤثرا يناجي به الواحد القهار ويدعو لأمة الإسلام بالرفعة والنصر وللعرب بالتوحيد وللأحقاف بالرعاية.

١٣٦٠ بيتًا من الشعر:

هذا موجز مخل لقصة الرواية إذ ليس من اليسير أن أنقل في سطور قلائل ما نظمه المؤلف في ستين وثلاثمائة وألف بيت من الشعر ملأت ستين ومائة صفحة، ومن المؤكد أنه لو كتبها نثرا لتضاعف حجمها.

مع علي أحمد باكثير.. في صحراء الأحقاف*

الحلقة الثالثة

صراع بين العقل والقلب:

لعل القارئ قد لاحظ كما لاحظ كاتب المقدمة أن (البطل موزع القلب والفكر بين حبين قاسيين حب لوطنه ورغبته في تحريره من الأوهام وترقيته إلى مصاف الأمم الراقية وحب لفتاة تملك عليه شغاف قلبه) ونستطيع الآن بعد مرور أكثر من ثلاثين عامًا على إصدار الرواية أن نتساءل: لمن كانت الغلبة في هذا الصراع؟ ولن يعجزنا الجواب فهو موجود في الرواية وموجود في حياة المؤلف، أما في الرواية فقد آثر البطل أن يهجر بلده عامين كاملين من أجل حبيبته وكان في أوج معركته مع الجهل والباطل، وكانت المصلحة الوطنية تقتضي بأن يبقى حتى يحقق انتصارات أكثر، ولكن قلبه تمرد عليه وكانت له الغلبة.

ولعل قائلا يقول إن سفره كان بقصد مواصلة المعركة الإصلاحية في (جاوا) بين الجاليات الحضرمية الكثيرة هناك، وربما كان ذلك.. ولكننا لم نجد لذلك أثرا في صلب الرواية وإن كنا قد وجدنا إشارة عابرة في المقدمة ولعل قائلا يقول: مدة سنتين كانت مدة فترة استجمام يعود بعدها إلى المعركة بحماسة أكثر ولكننا نبحث عن أثر ذلك فلا نجده فقد عاد البطل ليعيش إلى جوار حبيبته ولم نسمع له أي صوت بعد عودته.

(*) نشر في جريدة المدينة المنورة يوم الجمعة الموافق ١٩/١١/١٣٨٥هـ العدد (٦٠٥).

العلاقة بين باكثير وهمام:

ونجد أنفسنا بعد ذلك نتساءل عن العلاقة بين بطل الرواية همام وبين مؤلفها أو ناظمها؟

همام هو باكثير

وفي رأينا أن همام هو نفسه مؤلف الرواية فحديثه عن الحب يمتاز بقوة التعبير وحرارة الانفعال وثورة العاطفة ولا تكاد تتخلف هذه الملاحظة في موقف من مواقف الرواية.

ولم يقتصر هذا الأمر على هذه الرواية موضوع حديثنا بل إنه يمتد إلى المؤلفات الأخرى حتى التي كتبها الناظم بعد عشرين سنة، وقد كنت اقرأ روايته الإسلامية (وا إسلاماه) قبل أن أفكر في كتابة هذه الدراسة عن روايته التمثيلية الأولى فراعني أنه في حديثه عن الحب يسمو أسلوبه وتتوهج عبارته وتتورد انفعالاته.

ويبدو أنه كتب روايته «وا إسلاماه» لطلاب المدارس كما يظهر من العبارة التي كتبت على غلافها وهي: (القصة الفائزة بجائزة وزارة التربية والتعليم) ولذلك فأسلوبها سهل مبسط وعباراتها خفيفة سلسة وقد حرص المؤلف على التزام ذلك ما دام يتحدث عن شؤون عامة فإذا أخذ في الحديث عن الحب اختلت في يده الموازين وأخذ يتحدث بحرارة وانفعال، وأنقل هنا مثالا لذلك: هذه السطور من قصة «وا إسلاماه»[1].

(وانتصف الليل، وانفضت جموع المدعوين والمدعوات، وسكتت أصوات الغناء، وألحان المزاهر والعيدان، وخفتت الطبول، وسكنت حركات الرقص، وتناعست عيون المصابيح، وأخذ الخدم يرفعون الموائد ويطوون الأخونة، وآوت الجواري إلى مخادعهن

(١) وا إسلاماه طبعة دار الندوة الجديدة - بيروت ص ١٥٩/١٦٠.

بين الفرح والحسرة ، وأرخيت الستائر على الجناح الميمون، وخلا الحبيبان السعيدان. فطاب اللقاء وساد الصفاء، وسالت دموع الفرح، وتحدث القلب إلى القلب، ولذت الشكوى، ورقت النجوى، وتنوكرت ذنوب الزمان ثم غفرت له دفعة واحدة. ومرت اللحظات كأنها حبات عقد من اللؤلؤ النضيد وهي سلكه فانتثر، وقرت بنعيم الوصل عيون طالما أسهدها البَيْن الطويل، فما كانت تنطبق إلا على لوم نافذ، ومضجع قلق، فمشى إليها النعاس مترفقا يستعتبها - فاعتبته وضمته في شوق بين أهدابها الساجية فرقد اثنان الحب ثالثهما، تحوطهما بسمات الله ورضوانه وتحقق حلم في الأرض وأجيبت دعوة في السماء...).

هذا مثال واحد وربما عثر الناقد على مثال أو مثالين آخرين في القصة وسيرى أنهما في هذا المستوى الرفيع الذي يرتفع كثيرا عن المستوى في بقية القصة وليس لذلك من تعليل في رأينا إلا تلك الملاحظة التي أشرنا إليها.

فإذا أضفنا إلى تلك الملاحظة ملاحظة أخرى وهي أن الناظم أهدى روايته (إلى مصدر الوحي الأول إلى ملاكي الجميل الذي ستبقى إلى عالم الخلود وكلما ذكرته أوحى إلى) (وإلى الشعب الحضرمي الذي أحبه وأعيش من أجله أهدي هذه الأقصوصة كذكرى خالدة للأول وذكرى نافعة للثاني).

إذا أضفنا إلى تلك الملاحظة هذه الملاحظة استطعنا أن نؤكد أن همام هو باكثير فقد فَقَدَ الثاني حبيبه ومصدر إلهامه كما فقد الأول حبيبته الغالية (حُسْن) وقد سار إلى الحجاز ثم إلى مصر ولم يعد بل لقد آثر أن يجنس الجنسية المصرية ولم يغادر القطر المصري منذ دخله قبل أكثر من ثلاثين سنة[١] حتى الآن[٢].

(١)، (٢) قدم إلى مصر في حدود عام ١٩٣٤م كما ذكر هو في حديث إذاعي من القاهرة عام ١٩٦٩م إلا أن صديقه الدكتور عبده بدوي ذكر أنه قدم إلى مصر في عام ١٩٣٣م في مقالة له في مجلة الهلال عدد ديسمبر ١٩٧٤م، وقد أسلم الروح لبارئها في غرة رمضان عام ١٣٨٩هـ الموافق ١٠/١١/١٩٦٩م، ودفن بمدافن الإمام بمصر، انظر كتاب على أحمد باكثير - حياته وشعره الوطني والإسلامي ت د/ أحمد عبدالله السّومحي إصدار نادي جدة الأدبي والثقافي ط (١) ١٤٠٣/ ١٩٨٢م ص (٥٨).

الحب يربط بين حبيبته وشعبه:

وقد تخلى بطل الرواية همام عن أفكاره الإصلاحية وكفاحه من أجل نشرها منذ أن حققت له الأيام أمنيته التي طالما تمناها وهي زواجه بحبيبته الغالية وكذلك حال الأستاذ باكثير فقد كان موت حبيبته فاصلا بين عهدين في حياته عهد حبه للشعب الحضرمي وتفانيه من أجله ثم عهد تخليه عن هذا الشعب تخليا كاملا وصل إلى حد الانفصال والقطيعة. ولعل حبه لم ينقطع من قلبه ولكن من المؤكد أنه لم يعد يعيش من أجله كما ذكر ذلك في الإهداء الذي نقلنا نصه قبل قليل فهل يعود ذلك إلى يأسه من الإصلاح يأسا قضى على كل أمله فآثر الهرب والتخلي عن ميدان المعركة ضد الجهل والجمود والتخلص، أم يعود إلى الحب الذي سيطر على كيانه وملأ شغاف نفسه وقد كان حبه لشعبه منبثقا عن حبه لفتاته وكان تفانيه من أجله رمزا لتفانيه في محبوبته، وكان اندفاعه في أفكاره الإصلاحية وتبنيه لفكرة تحرير المرأة إنما يهدف في الدرجة الأولى إلى خدمة حبيبته ومنذ أن فقد هذه الحبيبة فقد كل شيء وتخلى عن كل شيء حتى عن حب شعبه.. فهل يصنع الحب كل ذلك؟ هل يصنع كل هذه الأعاجيب؟ وهل صدق الشاعر حين قال (آمنت بالحب فهو الهادم الباني)؟.

تعليق على ملاحظة لكاتب المقدمة:

ومن الغريب أن كاتب المقدمة الأستاذ الشاعر حسن كامل الصيرفي لم يوجه للشاعر من الملاحظات إلا ملاحظة واحدة ختم بها مقدمته القصيرة حيث يقول: (وأرى أنه لو ختم روايته بغير ما ختمت به لكان ذلك أشد وقعًا وأجل أثرًا فقد كان يجدر به أن يختمها بالحياة ولا بالموت).

وفات الشاعر المفضال ان الحياة حافلة بالأسى والآلام حفولها بالأفراح والمسرات وإن كانت هذه الرواية الشعرية تعبر عن تجربة عاناها وعاشها وأنه وجد في كتابتها بهذه الصورة خير تنفيس عما يجيش به صدره من مشاعر مكتومة وانفعالات حبيسة،

ولقد كان اختياره للقالب الشعري ضرورة حتمية فالشاعر بما فيه من خصائص فنية أقدر على نقل الانفعالات النفسية وعلى تصوير ألوان الصراع الشخصي والنفسي التي حفلت به الرواية.

الأداء الشعري

أما الأداء الشعري فإنه يتراوح بين الجودة والضعف وإن كان جانب الجودة فيه أكثر مما يدل على أن الشاعر له ماضٍ في الشعر وأنه لم يقدم على نظم هذه الرواية إلا بعد معاناة طويلة للشعر :

أما جانب الضعف فيلمحه الناقد في اضطراب البيت فلا نستطيع أن نقرأ بعض الأبيات كما أن الشاعر ينتقل من قافية لأخرى في موضوع قصير وعلى لسان بطل واحد، وكان المفروض رعاية لخصائص الشعر العربي وما تتطلبه موسيقاه وتوقيعاته أن يلتزم الشاعر قافية واحدة، ولا سيما أن المتحدث واحد وموضوع حديثه لم يتغير.

ويقابل هذا المأخذ مأخذ آخر فالشاعر ينطق أحد أبطاله بحديث طويل يستغرق أربعين بيتا دفعة واحدة بل لقد أسرف الشاعر في إحدى المرات ويبدو أنه نسي نفسه إذ ظل أحد أبطاله يتحدث بدون انقطاع حديثا استغرق سبعين بيتا. والاستماع إلى سبعين بيتا في حفل عام عملية مرهقة للشاعر وللمستمع فما بالك بها في موقف آخر.

وهناك عيب من الصعب أن نسكت عنه ونحن نتحدث عن أهم المآخذ وأعنى به اختلاف صدور الأبيات عن بقيتها فالنصف الأول قصير بينما النصف الثاني طويل ويشعر القارئ بعسر قراءة هذه الأبيات وبثقلها على لسانه وقلمه وبعدم انسجامها وتسلسلها وليت تمثيلية الشاعر سلمت من هذا النوع من الشعر.

وننتقل إلى مآخذ أخرى في المعنى فنجد الشاعر يقول على لسان فتاته مخاطبة حبيبها (أما لك في قبلة) (أما لك في ضمة) (تعال إلى جانبي) والمآخذ هنا واضح فإنه من غير المقبول أن تقول فتاة تعيش في البيئة التي يتحدث عنها الشاعر وهي بيئة شرقيـــة عربية يسيطر عليهـــا الحياء والخجل كلاما كهذا الكلام، ولو قيل هذا الكلام على لسان فتاة أوروبية أو أمريكيـــة لقوبل بشيء من الاستغراب والدهشة فكيف الحال عندما يصدر عن فتاة في بيئة محافظـــة تسيطـــر عليها تقاليد عتيقـــة لا ترحم؟.

ومن هذه المآخذ كذلك أن تقول حُسْن لزوجها همام (ألم يسعيا قبل في دخولك في عصمتي) والذي نعرفه في البيئات الشرقية بل والغربية أن الزوجة هي التي تدخل في عصمة زوجها أما أن يدخل الزوج في عصمة زوجته فذلك أمر غريب مثير للدهشة والاستنكار، إلا إذا كان ذلك من المبادئ التي كان يدعو إليها الشاعر فهو لا يريد ان يكتفي بتحرير المرأة بل إنه يطمع في أن تكون العصمة بيدها كذلك وهو امر بالغ الشذوذ.

وهناك مآخذ قليلة يستغرب أن يقع فيها شاعر كالأستاذ باكثير مثل قوله: (ولساني تعثرت بالكلام) فيؤنث اللسان وهو مذكر منذ خلقه الله ولا نتصور أن يقع شاعر كالأستاذ باكثير في أمثال هذه الضرورات الشعرية النكرة.

شذوذ آخر:

ولا يفوتنا أن نشير إلى أمر بالغ الأهمية وهو إقدام الأستاذ باكثير في مقتبل عمره على نظم تمثيلية شعرية متكاملة مهما قيل فيها فهي جهد واضح يدل على نبوغ مبكر وشاعرية متفتحة ولعل الأستاذ باكثير - فيما نعلم - هو أول شاعر عربي يقدم رواية شعرية وهو في أول الشباب فتمثيليات شوقي نظمها في أواخر حياته وأول تمثيلية أخرجها لنا عزيز أباظة أخرجها بعد أن تجاوز العقد الرابع من عمره وكذلك يقال

عن تمثيلية محمود غنيم الشعرية (النصر لنا) فهو لم يخرجها إلا بعد أن دخل في طور الكهولة.

مصادفة غريبة:

ولا بد أن نشير ونحن نتحدث عن شعراء التمثيلية الشعرية عن مصادفة غريبة بين الأستاذ باكثير وعزيز أباظة فقد أهدى كل منهما روايته الشعرية الأولى إلى زوجه وقد نقلنا فيما سبق صيغة الإهداء التي كتبها باكثير، أما الأستاذ عزيز أباظة فقد أهدى روايته (قيس ولبنى) إلى زوجته المتوفاة بهذه العبارة (إليها في أكرم الجوار) ومن المعلوم أن زوج الأستاذ عزيز قد انتقلت إلى - رحمة الله - فهزت كيان الشاعر هزا عنيفا ووجد في الشعر متنفسه فأخرج للناس ديوان شعر كله في رثاء امرأته سماه (أنات حائرة) ولا نستبعد أن يكون لهذا الحادث المؤلم أثره في أن يتجه الشاعر إلى قصة (قيس ولبنى) ينفّس بها عن نفسه.

ويلاحظ أن الشاعر عزيز أباظة أخرج روايته (قيس ولبنى) بعد أن أخرج الشاعر باكثير روايته (همام) بعشر سنوات، ولكن الأستاذ عزيز واصل السير في طريقه فأخرج مجموعة من التمثيليات الشعرية الناجحة اما الأستاذ باكثير فقد تحوَّل عن الشعر إلى كتابة مسرحيات نثرية.

خسارة فادحة:

وبصرف النظر عن الدوافع التي دفعت باكثير إلى التخلي عن الشعر فإنني أشعر بمدى الخسارة الفادحة التي تعرض لها الشعر فلدى الأستاذ باكثير طاقة شعرية ضخمة لو استغلها الشاعر لزود عالم الشعر بعرائس ونفائس وأنا أحتفظ له ضمن مختاراته بقصيدة طويلة من عيون الشعر.

صحيح أن الأستاذ لم ينقطع تماما عن قول الشعر فقد نشر طائفة من القصائد في مجلة (أبولو) كما نشر طائفة أخرى في مجلة الرسالة القديمة وأخذ في ترجمة رواية

شكسبير (الليلة الثانية عشرة) شعرا. وقرأت له منذ شهور قليلة قصيدة من شعر الطبيعة في وصف جبل منشورة في مجلة قافلة الزيت، ولكن هذا لا يمنع من القول بان الشاعر حوّل طاقته الشعرية العاتية إلى مجالات ثقافية أخرى.

باكثير في مكة والمدينة[1]:

أشرت في بداية هذا الحديث إلى أن للأستاذ على أحمد باكثير صلة ببلادنا وقد احببت أن أعرف الفترة التي زار فيها بلادنا وكنت على وشك أن اتصل ببعض من عرفوه لأسالهم عن ذلك ولأسجل بعض ذكرياتهم عنه، ولكنني عثرت مصادفة وأنا أقلب بعض المجلات في مكتبتي على عدد من مجلة المنهل هو العدد الصادر في ذي القعدة عام ألف وثلاثمائة وتسعة وسبعين ووجدت فيه مقالة تحت عنوان (أنابيش أدبية) وفيه يذكر الأستاذ الجليل صاحب المنهل أن الأستاذ باكثير نزل ضيفا عليه سنة ١٣٥٢هـ ويبدو أنه لم يطل المقام ولم تزد إقامته على شهور قليلة سافر بعدها إلى مصر ويحدد الأستاذ الأنصاري يوم سفره بانه (بعد عصر يوم ٢٣ شوال سنة ١٣٥٢هـ) وكنت يومها تلميذا في السنة الثانية الابتدائية حيث حصلت بعد هذا التاريخ باربع سنوات على الشهادة الابتدائية وقد نشر الأستاذ الجليل صاحب المنهل قصيدة للأستاذ باكثير نظمها على أثر مناقشة حادة بينه وبين الأستاذ الأنصاري في مسألة لغوية، والقصيدة من الإخوانيات وتدل على ما يتمتع به الأستاذ باكثير من الخلق الرضي والشعور الرقيق والإحساس النبيل، وليت الأستاذ الأنصاري وزملاءه ممن أتيح لهم لقاء الأستاذ باكثير يكتبون لنا ذكرياتهم عنه وما اختزنوه من أشعاره وأحاديثه ومناقشاته بل لعلهم يسجلون لنا كل ذكرياتهم عن الفترات الأولى من حياتهم الأدبية فمما لا شك فيه أن ذلك سينفع الباحثين الذين يتصدون لدراسة

(١) في حوالي عام ١٩٣٢م د/ أحمد عبدالله السومُحي. مصدر سابق.

نشأة الأدب الحديث في بلادنا وسيتيح لهم تصحيح الأخطاء السيئة حول هذا الموضوع نتيجة لعوامل يضيق الوقت عن شرحها.

ويلاحظ أن الأستاذ باكثير طبع روايته في العام التالي مباشرة للعام الذي كان يزور فيه المدينة ومعنى هذا أن هذه الرواية كانت مع الأستاذ حين زيارته ومن المرجح انه قد قرأها على بعض من اتصل بهم من الأدباء في مكة والمدينة المنورة قبل طبعها، فهل يتفضلون بكتابة ذكرياتهم عنها خدمة للحقيقة والأدب؟.

تعليق

الأستاذ الأنصاري الذي رجاه الربيع أن يكتب ذكرياته عن الأستاذ علي أحمد باكثير، هو الأستاذ/ عبدالقدوس القاسم الأنصاري، كاتب وأديب وشاعر، من مواليد ١٣٢٤هـ، وهو صاحب ومؤسس مجلة المنهل التي تصدر شهرية من جدة، وكان صك تأسيس هذه المجلة بأمر مباشر من مؤسس هذا الكيان الكبير «المملكة العربية السعودية» الملك عبدالعزيز وكان ذلك في عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٧م.

وكانت وفاة الأستاذ الأنصاري في عام ١٤٠٣هـ.

مجلة المنهل الإصدار الوثائقي الخاص بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العدد (٥٥٥) مج (٦٤) شوال ١٤١٩هـ/ يناير وفبراير ١٩٩٩م.

العراق في الشعر العربي والمهجري*

عندي من هذا الكتاب نسختان اشتريت الأولى في أول يوم هبطت فيه أرض العراق، وأهداني مؤلفه الثانية عندما شرفت بلقائه والتعرف إليه في بغداد وكان هذا المؤلف الجليل أول أديب لقيته في مدينة السلام وكان كتابه أول كتاب اقتنيته من وادي الرافدين.

ومؤلف الكتاب أديب ألمعي كريم الخلق سمح النفس رقيق الحاشية نير الفكر متفتح العقل، تجلس إليه لأول مرة من غير معرفة سابقة فلا تغادر مجلسه إلّا وقد ربطك إليه برباط من الود لا ينفصم فكأنك تعرفه منذ سنوات وكأن الوشائج والصلات ليست وليدة لقاء عابر أو جلسة قصيرة، فهو خير مثال يعبر عن تلك الفرحة الغامرة (فرحة الأديب بالأديب).

لقيت الأديب الكبير بفندق العراق في بغداد وجلست إليه في صالة الفندق استمع إليه وهو يتحدث بأسلوبه الرفيع وبيانه المتألق وصوته الخفيض ودهشت أيما دهشة حينما أخذ يحدثني عن الأدب في بلادي وكادت دهشتي تتضاعف حين تطرق إلى الحديث عن بعض ما كتبت، وقد يكون من المقبول أن يحدثك أديب في بلدنا عن أدباء بلادك ممن لهم كتب مطبوعة منشورة أما أن يحدثك عن إنتاج لم يتعد نشره الصحف المحلية فذلك أمر يدعو إلى كثير من الدهشة ويدعو في نفس الوقت إلى كثير من الإعجاب.

ليس هذا حديثا عن المؤلف الجليل الأستاذ الدكتور محسن جمال الدين الأستاذ بكلية الآداب في جامعة بغداد والأستاذ بكلية الشريعة في مكة المكرمة

(☆) نشر في جريدة المدينة المنورة في يوم الجمعة الموافق ٢١ من شهر ربيع الأول (١٣٨٩) العدد (١٥٧٨).

ولكنه مقدمة نقدمها بين يدي الحديــــث عن كتابــــه العظيم تحية وذكرى واعترافا بالجميل.

١ - موضوع الكتاب - كما رأينا - (العراق في الشعر العربي والمهجري) وهو موضوع جديد لم يسبق إليه مؤلفه فيما وصل إليه علمي فلم أعرف أن مؤلفا عَنِي باستقصاء كل ما قيل من الشعر في مدينة من المدن أو عاصمة من العواصم في كل تاريخها أو في فترة محددة من هذا التاريخ ومع ذلك فقد أبى على المؤلف الجليل تواضعه فلم يتحدث عن جدة هذا الموضوع في مقدمة كتابه ولم يشر إليها من قريب أو من بعيد.

٢ - ولكن هل يعبر هذا العنوان تعبيرا دقيقا عن محتوى الكتاب؟ الواقع أنه لا يعبّر عن ذلك تعبيرا دقيقا فكلمة (الشعر العربي) ترسم في ذهن القارئ المثقف معنى واسعا يشمل الشعر العربي الذي قاله الشعراء منذ تأسيس بغداد في عهد المنصور العباسي إلى تاريخ تأليف الكتاب، وقد طبع الكتاب في عام ١٩٦٦م مع أن المؤلف الجليل لم يتحدث إلا عن الشعر العربي الحديث وكل من يتحدث عنهم من الشعراء هم من الشعراء المعاصرين وأكثرهم لا يزالون أحياء يرزقون وينتجون، ولو أضاف المؤلف إلى كلمة الشعر العربي كلمة الحديث أو المعاصر لكان عنوان الكتاب منطبقا تمامًا على موضوعه ولعل المؤلف الجليل تصور أن كلمة (المهجري) بعد كلمة العربي تحدد المقصود من كلمة العربي وتجعل المراد منه هو الشعر العربي الذي قيل في البلاد العربية الشرقية في نفس الفترة التي قيل فيها الشعر العربي المهجري، وهو تصور بعيد لايستطيع كل أحد أن يتصوره دون الرجوع إلى الكتاب أو الفهرست العام. وليت أستاذنا الجليل آثر الدقة في عنوان هذا الكتاب كما هو شأنه دائما في أعماله الأدبية.

٣ - يقع الكتاب في حوالي الخمسمائة من الصفحات حوى دراسة اثنين وأربعين شاعرا، وأشهد أن المؤلف قد بذل في كتابه هذا جهودا مضنية قاسية حتى استقامت

له هذه الدراسة التي تشبه ان تكون موسوعة لا يستغني عنها الباحث أو الناقد. وطريقة المؤلف في ترجمة شعراء كتابه تبدأ بكتابة أبيات قليلة من شعره لا تزيد عن أربعة أبيات يتحدث فيها الشاعر عن (بغداد) أو (العراق) يخصص لها المؤلف صفحة ثم يترجم بعد ذلك للشاعر ترجمة موجزة لا تتجاوز في الغالب الصفحة الواحدة يضع في أعلاها اسم الشاعر بخط كبير جميل (أكليشة) ويحد الاسم من جهة الشمال صورة الشاعر بريشة أحد الفنانين العراقيين.

ويقدم المؤلف بعد ذلك دراسة مركّزة عن شعر الشاعر يتحدث فيها عن صياغته واتجاهاته وظروفه الاجتماعية والتيارات التي مرت في حياته ومكانته الشعرية.. والشعراء الذين تاثر بهم أو أثّر فيهم، ويستانس أحيانا برأي النقاد فيهم وكثيرا ما يعقد مقارنات بين شاعر وشاعر ويخرج من مقارنته بأحكام تعتبر غاية في الدقة وذلك يعود في الدرجة الأولى إلى اتساع ثقافته وحدة ذكائه ونفاذ بصيرته وقدرته العجيبة على التمييز بين صورة وصورة وجمال وجمال وفن وفن.. فلا تختلط عليه المرئيات مهما تقاربت ولا الصور مهما تشابهت فلديه حس وجمال وعقلية ألمعية وشاعرية رقيقة ثم يتحدث عن قصيدة الشاعر التي قالها في بغداد أو في العراق فيذكر مناسبتها ويسجل بعض أبياتها ثم يختم حديثه بتعليق فيه سمو وشفافية وخفة روح.

ومع أن الدراسة التي يكتبها عن الشاعر دراسة موجزة فإن باستطاعته أن يعطيك عنه صورة واضحة الملامح بينة التقاسيم في إطار عصره وبيئته، وفي إمكانك إذا انتهيت من قراءة كتابه كله أن تخرج بفكرة متكاملة عن تاريخ الأدب في العصر الحديث.

وهناك ميزة أخرى لا يصح إغفالها أو السكوت عنها هي أسلوبه، فللمؤلف الجليل أسلوب شعري يخلب الألباب؛ جمله متماسكة وكلماته منتقاة وصياغته تدل على تمكُّنه اللغوي وقدرته البيانية وفنه الرفيع.

وخلاصة القول: أن كتابه هذا ثروة أدبية من حقه أن يعتز بها كل الاعتزاز ومن حقنا أن نشيد بها وأن نحيي مؤلفها وأن ننكر بالتقدير جامعة بغداد لمساعدتها في نشرها.

وإن كان هذا لا يمنعنا من إبداء بعض الملاحظات التي لا تنقص إطلاقًا من قيمة هذا الكتاب القيم.

٤ - وأول ملاحظة في هذا المجال تتصل بالنماذج الشعرية التي قدمها المؤلف فقد سار على طريقته في اختيار أبيات من كل قصيدة تحدثت عن بغداد أو العراق حتى ولو كانت كلها تتحدث عن العراق أو عاصمته، ومع تقديري الكبير لذوق المؤلف واعترافي الكامل بقدرته الفائقة على الانتقاء والاختيار، فأنني اقرر أن عدم نشر القصيدة كاملة يحدث (فجوات) في نفس القارئ المتعمق وخاصة إذا كان قد قرأ هذه القصيدة قبل أن يطلع على المختار منها في الكتاب، أما بالنسبة للقارئ العادي فإنه لا يشعر بهذه الفجوات إلا إذا حاول الدراسة والتعمق في البحث.

وأول ما يخطر بالبال للرد على هذه الملاحظة أن نشر القصائد كاملة قد يضاعف من حجم الكتاب، وهذا صحيح (ولكن إلى حد ما) خصوصا إذا وضعنا في اعتبارنا أن المؤلف يخصص صفحة كاملة لبضعة أبيات قبل البدء في الترجمة وتستطيع هذه الصفحة أن تستوعب قدرا طيبا من كل قصيدة وبذلك لا يتضاعف حجم الكتاب ولكنه يزيد قليلا.

على أنه كان من الممكن أن يصدر المؤلف الجليل الكتاب في جزءين ولا سيما أنه قد ذكر في مقدمة كتابه أنه (سيتبعه بكتاب آخر يعرض فيه ويدرس ما نظمه وقاله إخوانه العرب من ثغور المحيط إلى شواطئ الخليج يوم أن اجتمعوا في مهرجان الشعر (بمؤتمر الأدباء الخامس) حين ضمهم العراق إلى حناياه واحتضنتهم بغداد بين جوانحها) وبشيء من التنسيق والتنظيم يستطيع المؤلف أن يجعل من كتابه موسوعة أدبية وديوانا للعرب. وأنا أرى هذا الرأي لأنني لاحظت أن من الصعوبة بمكان الرجوع إلى القصائد في مظانها وعلى سبيل المثال أذكر أنني استعرضت أسماء

الشعراء الذين تحدث عنهم المؤلف ويبلغ عددهم اثنين وأربعين شاعرا ثم رجعت إلى مكتبتي - وبها ثروة لا بأس بها من الكتب - فلم أجد فيها من المصادر الشعرية التي وردت في كتاب المؤلف إلّا خمسة، فإذا كان هذا حال أديب معني بالأدب والنقد فما بالك بغيره من القراء؟.

٥ - ملاحظة ثانية: لقد أغفل المؤلف في كتابه شعراء العراق فلم يترجم لهم ولم يتحدث عنهم ولم يُشر إلى سبب هذا الإغفال في مقدمته مع أن عنوان الكتاب يفرض وجودهم فشعرهم جزؤ من الشعر العربي ما في ذلك شك فلماذا إذن أغفل المؤلف ذكرهم؟ لعل أول ما يخطر بالبال أن شعراء العراق بحكم ارتباطهم بتراب هذا الوطن سيكثرون الحديث عنه في أشعارهم مما يجعل من الصعب التعرض لكل ما نظموا في هذا المجال، وهذا رأي له وجاهته ووزنه ولكن كان في الإمكان الاكتفاء بشعر البارزين منهم كما أشار المؤلف إلى ذلك في مقدمته حين تحدث عن خطته بالنسبة للشعراء الذين اختارهم من شعراء العرب.

ومع ذلك فقد استعرضت ديوان الرصافي وديوان المهاجر الجواهري وجزءًا من ديوان الزهاوي - هو الموجود في مكتبتي - وثلاثتهم من أبرز شعراء العراق فلم أجد في شعرهم هذه الكثرة المتوقعة من الحديث عن العراق.

ومع أن المؤلف أورد في مقدمته قوله:(وقد حاولت جاهدا في هذه الدراسة أن أبين شعور إخواننا العرب نحونا مقتصرا بذلك على العصر الحديث ومختارا النماذج من شعر البارزين منهم والذين اهتموا كثيرا بهذه الناحية) مع ذلك فإنني كنت أود أن يكون لشعراء العراق أو البارزين منهم نصيب من هذه الدراسة، حيث يتاح المجال للمقارنة بين الشعراء العراقيين وغيرهم من شعراء العرب في هذا الموضوع الطريف.

العراق في الشعر العربي والمهجري*

الحلقة الثانية

٦ - ملاحظة ثالثة:

وهي ذات علاقة بما أورده المؤلف الجليل عن ترجمته للشاعرة جليلة رضا حيث يقول: (ولقد كنا نحسب أن بلادنا العربية وتربتها الطيبة، ضنينة بإنجاب شاعرات مجيدات لولا الكواكب المطلات في فلكنا السامي هنا وهناك، قرأنا من الشعر لسهير القلماوي وجميلة العلايلي ورباب الكاظمي في وادي النيل وعلمنا بصوت المرأة يرتفع شاعرة وأديبة وناقدة في العراق كنازك الملائكة، وعاتكة الخزرجي، وصدوف، وغيرهن).

ونحب أن نقف وقفة لن تطول كثيرا عند قوله هذا.. وسنبدأ الوقوف عند رباب الكاظمي، ورباب هذه كما أعلم هي ابنة الشاعر العراقي الفحل عبدالمحسن الكاظمي فهل هي التي يعنيها المؤلف الكبير أم أنه يعني (رباب) أخرى؟ وسر هذا التساؤل أن المؤلف جعل رباب الكاظمي ضمن شواعر وادي النيل. وإذا كان يعني أنها عاشت فترة من حياتها بمصر فالواقع الذي لا مراء فيه أنها عراقية عاشت أكثر حياتها في العراق ولا تزال تعيش في بغداد ولا أتصور أنّ باستطاعة المؤلف ان يتنازل عن شاعرة عراقية لمصر حتى ولو عاشت جزءًا من حياتها بل وكل حياتها في مصر فما بالك إذا كانت عاشت فترات الطفولة الأولى فقط بمصر بصحبة والدها. هذا - كما قلت - إذا كان المقصود ابنة الشاعر الكاظمي؛ أما إذا كان يعني شاعرة

(☆) نشر بجريدة المدينة المنورة يوم الجمعة الموافق ١٣٨٩/٣/٢٨هـ العدد (١٥٨٤).

أخرى بهذا الاسم فارجو أن يتفضل مشكورا بإيضاح ذلك فأنا لا أعرف شاعرة مصرية بهذا الاسم.

ونعود إلى رباب الكاظمي العراقية وأحب أن أسأل أديبنا الكبير هل يؤمن بشاعرية رباب العراقية وهل يستطيع أن يثبت لها شعرا؟ وأنا أريد بهذا السؤال أن أعبر لأناقش شاعرية رباب العراق، وقد قرأت لها قصيدة في مجلة (أبولو) التي كتن يصدرها (أبو شادي) وهي قصيدة متماسكة من أرقى الشعر وأجوده ومطلعها:

أدبي لدى الأيام جرى وجريرتي في الدهر علمي

وقد قرأتها أيام كنت طالبا في الجامعة، وقد ظلت عالقة بذهني ما يقرب من عشرين عاما حتى كان الصيف الماضي وأتيح لي زيارة بغداد فكان من اهتماماتي أن أعرف شيئا عن رباب وأن أتلمس الطريق لديوانها وأشعارها، وسألت عددا من الأدباء والمثقفين عنها ففوجئت بأنهم لا يعرفون عنها شيئا وبعد بحث طويل علمت أنها تعمل طبيبة أسنان في مستشفى الطفل ببغداد وأنه لا علاقة لها بالشعر أو الأدب ولم أر داعيًا بعد ذلك للبحث عنها، وإن كانت هذه النتائج قد أثارت في نفسي تساؤلا ظل يلح علي وهو: كيف نعلل انصراف شاعرة لها ذلك الشعر العالي الرصين عن الشعر؟ وأخذت أعيد النظر في قصيدتها (اليتيمة) فلاحظت أن المعاني الواردة في القصيدة لا تمثل أفكار فتاة ناشئة في مقتبل العمر، وأصبحت هذه الملاحظة شكًا يلاحقني كلما ذكرت الكاظمة وابنة الكاظمي، وكانت ليلة الثلاثاء من الأسبوع الماضي هي التي وضعت حدا لهذه الشكوك فقد استضافت أسرة الوادي المبارك علّامة العراق الكبير الأستاذ محمد بهجت الأثري وكانت أمسية شعرية استمعت فيها الأسرة إلى روائع من الشعر الرائع انشدها العلامة الأثري وكلها من شعره، وقد انتهزت الفرصة عندما جاء دور الأسئلة فسألته عن ابنة الكاظمي فقال: إنها تعمل

طبيبة أسنان في بغداد، فسألته عن شاعريتها فضحك طويلا ثم قال: لقد سألني أحدهم هذا السؤال فأجبته بأنه قد مضى على وفاة الكاظمي أربع وثلاثون سنة، ولو نظمت في كل سنة بيتا لأصبح لها الآن قصيدة من أربعة وثلاثين بيتا ولكنها مع الأسف لا تستطيع أن تنظم بيتا واحدا) وقال الأستاذ الأثري: إن الشاعر لا يستطيع أن ينقطع تماما عن الشعر، صحيح أنه قد يتوقف فترة تطول أو تقصر ولكنه سيجد نفسه ينظم احيانا بصورة لا شعورية، وضرب المثل بنفسه فقال إنه مشغول بأبحاث لغوية ودراسات تتطلب تفكيرا وجهدا ومع ذلك فإنه يجد نفسه قد تركت ما هي فيه لتكتب شعرا وكل الظواهر تشير إلى أنه لا باعث له فقد يكون شعرا غزليا أو شعرا وصفيًا.

وقلت للأستاذ الأثري ولكنني قرأت قصيدة في مجلة (أبولو) وأنشدته بعض أبياتها، وهي منسوبة إلى رباب الكاظمي فضحك وقال: لقد كنت في سنة ١٩٣١هـ بالقاهرة وسعيت إلى لقاء الشاعر الكاظمي في بيته فوجدته يقرأ قصيدة منشورة في جريدة يومية وعلامات الغضب والاستياء بادية على وجهه وعلمت أن السبب هو كثرة الأخطاء المطبعية. يقول العلامة الأثري (وكانت القصيدة دالية طويلة تبلغ المائة والسبعين من الأبيات كما كانت من أقوى ما قرأت وقد دهشت لأن الكاظمي كان ينسب القصيدة إلى ابنته وباعترافه هو كانت في الثانية عشرة من عمرها عند نشر القصيدة كما ان شواهد الحال كانت تؤكد ان القصيدة له).

فكلام العلامة الأثري - حفظه الله - قاطع الدلالة على أن رباب أو الدكتورة رباب الكاظمي لا تتصل بالشعر من قريب أو بعيد وأن العلاقة الوحيدة التي تربطها بالشعر هي أبوها الشاعر العظيم، الذي أراد أن يجعل ابنته شاعرة بالقوة لا بالفعل.

والحديث عن رباب يستلفت انتباهي إلى الحديث عن (شاعرة) أخرى هي سهير القلماوي وأنا مضطر إلى وضع كلمة (شاعرة) بين قوسين لأنها جوهر القضية..

فليس في معلوماتي - وهي قاصرة قطعا - ما يدل دلالة قوية أو ضعيفة واضحة أو مبهمة على أن سهير القلماوي شاعرة أو أن لها ماضيا في الشعر أو حاضرا، ولم اكتفِ بهذه المعلومات فقد سألت جملة من أصدقائي الأدباء عن هذه القضية فكانت إجابتهم جميعا تؤيد وجهة النظر التي ذهبت إليها ، وهي وجهة نظر تخالف وجهة نظر المؤلف العلّامة الذي سلك سهير القلماوي في سلك الشعراء، فهل يتفضل أستاذنا الجليل بتبيان الحقيقة في هذه القضية؟ وإذا فعل - وهو فاعل إن شاء الله - فهل يتفضل بإلقاء بعض الضوء على شاعرة أخرى مجهولة الاسم والمكان وردت في سياق كلامه عن شواعر العصر الحديث وهي (صدوف).

٧ - ملاحظة رابعة.. ذكر الأستاذ الجليل عند ترجمة الشاعر علي الجارم قوله : (إذا اعتلى المنابر هز السامعين بحسن إنشاده وبنغم ألفاظه، مات وهو يلقي بعض قصائده فأجدر بنا أن نسميه (شهيد المنابر).

وأنا أوافق الأستاذ الجليل على الشق الأول من كلامه فقد كان الجارم ـ كما وصفه الأستاذ الدكتور ـ يهز السامعين بحسن إنشاده وجزالة أسلوبه ورصانة ألفاظه حتى لقد سماه بعض النقاد بصناجة العرب اللقب الذي أطلق من قبل على الشاعر الأعشى، أما الشيء الذي أخالف فيه أستاذنا الجليل فهو قوله: إنه مات وهو يلقي قصائده فالواقع ان الأستاذ الجارم - رحمه الله - قد ترك إلقاء قصائده في السنوات الأخيرة من حياته وكان ينوب عنه ابنه الأستاذ بدر الدين الجارم، ومن غريب المصادفات ان حفلا أقيم في مسرح حديقة الأزبكية بالقاهرة لتأبين محمود فهمي النقراشي باشا وقد أعد له الجارم قصيدة يلقيها ابنه بدر الدين الجارم، وعندما جاء دوره وقف الأستاذ بدر الدين لينوب عن أبيه في إلقاء قصيدته الفائية وكان أبوه صاحب القصيدة يجلس في أحد الصفوف الأولى، وبينما كان بدر الدين منهمكا في إلقاء القصيدة إذا بوالده يسلم الروح إلى بارئها.. هذه هي حقيقة القصة أسجلها لوجه الحقيقة والتاريخ وإن كنت واثقا من أن هذا التصحيح لا يحول دون تسمية

الجارم بشهيد المنابر كما اقترح المؤلف - رحم الله - شهيد المنابر وأطال في عمر مؤلفنا الكبير.

٨ - يبدو أن فصول هذا الكتاب عبارة عن مقالات نشرها المؤلف المفضال في أوقات متفرقة ثم جمعها في كتاب، ونظرا لأن موضوعاتها لا تخرج عن نطاق معين فقد كان التجانس تاما والترابط قويا إلى درجة تجعل قراء الكتاب - أيا كانت ثقافتهم - لا يدركون هذه الحقيقة، وقد كان المؤلف بارعا حقا فلم يشر إلى شيء من ذلك في مقدمة الكتاب، وبذلك اكتملت الصورة فأصبح الكتاب دراسة قوية متكاملة، ولكن المؤلف الكبير فاته وهو يراجع فصول الكتاب قبل دفعها للمطبعة فاته أن يتنبه إلى عبارة وردت في الفصل الثاني كتبها عن الشاعر محمد علي الحوماني حيث ورد في ص ٧٨ من الكتاب قول المؤلف عن الحوماني: وقد أعطيناه حقه من دراستنا التي نشرتها العرفان في صيف هذا العام وجملة (في صيف هذا العام) لا يكتبها مؤلف يؤلف كتابا واضح النهج بين الحدود ولكنها ترد في مقال ينشر في صحيفة أو مجلة.

وأحب أن يكون واضحا أنني لا أرى بأسا من جمع مقالات سبق نشرها في مجلة أو أكثر في أوقات متفرقة أو متباعدة، إذا كانت هذه المقالات تبحث شؤونا أدبية او فنية أو تدرس قضايا تتعلق بالإنسان وبتعبير آخر أن يكون لهذه المقالات أهدافًا أبعد من معالجة الأمور الدقيقة أو المشكلات العابرة أنا لا أرى بأسا من جمع هذه المقالات بل إنني أؤمن بضرورة جمع هذا النوع من المقالات لأن في تركها إهدارًا لجهود كريمة وتضييعا لثروات فكرية.

ومع أنني لا أرى - كما قلت - بأسا في أن تقوم الكتب على أسس من المقالات فقد وجدت نفسي مضطرا إلى إبداء هذه الملاحظة لأن فريقا من الكتاب ينظر للقضية من وجهة مغايرة فما أن يشعر بأن فصول الكتاب سبق نشرها أو أنها كتبت مقالات حتى يفقد الكتاب في نظره نصف قيمته أو أكثر.

ومما يذكر في هذا المجال أنني لقيت منذ قريب أديبًا من أصدقائي أحبه وأقدره وأعتز بأخوته وجلسنا نتحدث طويلا في شؤون أدبية وفنية وفكرية فجاء عرضا ذِكْر الأستاذ الشاعر محمد حسن فقي فأبدى صديقي فيه آراء قال إنها مبنية على ما سبق له قراءته من شعر الشاعر في الصحف، ولما سألته عن عدم قراءة الديوان قال إنه لم ير داعيا لذلك مادام قد سبق أن قرأ هذا الشعر منشورا في الصحف وقد أدهشني ذلك فهناك فارق كبير بين أن نقرأ شعرًا لشاعر نشره في أزمنة مختلفة وبين أن نقراه في ديوان مصدرا بمقدمة أو دراسة عن الشعر والشاعر، وإذا جاز أن يقول ذلك قارئ عادي فإن من غيرمقبول أن يقوله أديب شاعر له وزنه وقدره، ومن الطريف أن صديقي الشاعر الأديب سألني عن اسم الديوان (قدر ورجل) وهل تنطق الكلمة الأولى (قدر) بفتح الدال أو سكونها فكدت أن أقول له، لو قرأت الديوان لعرفت ولكنني وجدت ذلك أمرا غير لائق فقلت له إنها (قدر) بفتح الدال وهي عنوان لقصيدة في الديوان ومطلعها.

لستُ أشكو، إنّه قَدَري ما يفرّ المرء من قدرهُ

فلو قرأ الشاعر الصديق ديوان الأستاذ الفقي لما احتاج إلى هذا السؤال ومن يدري فربما غيَّر كثيرا من آرائه.. وبالمناسبة فإنني تلقيت كثيرا من الاستفسارات عن سبب اختيار هذا الاسم للديوان على اعتبار أنني أنا الذي اخترته، وإحقاقا للحق أقرر أنني لم أختر هذا الاسم فعلى السادة الذين تفضلوا بالكتابة إليّ أن يتوجهوا بالسؤال إلى الشاعر الكبير مع كل ملاحظاتهم حول هذا الاسم.

٩ - تكثر الأخطاء المطبعية في الكتاب بصورة تدعو إلى الانزعاج ولو أردت أن أحصي ما في الكتاب من هذه الأخطاء لأطلت إطالة مملة وليت المؤلف أو الناشر استدرك ذلك في آخر الكتاب فإن الأخطاء المطبعية في النثر متعبة مزعجة أما في الشعر فهي من الكبر.

١٠ - بقيت ملاحظة أخيرة تتصل بالغلاف فمع أن المؤلف الكبير قد استعان مشكورا بفنان عراقي قدير يرسم له الغلاف وقد وُفّق في الفكرة توفيقا كبيرا ولكن اختيار

الحبر لم يتلاءم مع نوع الورق فانطمست معالم الصورة وخفي عنوان الكتاب واسم المؤلف وفقد الغلاف رونقه وجماله ولعل المؤلف يستدرك ذلك في طبعته الجديدة لهذا الكتاب القيم.

ومرة أخرى أبعث لصديقي العلامة الأديب الشاعر الناقد الدكتور محسن جمال الدين بأصدق التهاني على توفيقه في إخراج هذا الكتاب العظيم وهذه الدراسة القوية الجادة التي عشت معها فترات من أسعد فترات حياتي، كما أبعث إليه بأجزل الشكر على هديته القيمة وعواطفه النبيلة مشفوعة بأصدق تحياتي واعتزازي وإلى الملتقى مع الأستاذ الجليل في كتبه القيمة الأخرى التي تفضل بإهدائها إلي.

كتاب التاريخ القويم* لمكة وبيت الله الكريم

الخط العربي.. جمال وفن

أول ما يروعك من هذا الكتاب حجمه الكبير وورقه الصقيل وغلافه الجميل أما جمال الغلاف فهذا أمر طبيعي بالنسبة لمؤلف يعتبر علما من أعلام الخط العربي في العصر الحديث، والخط العربي مفخرة من مفاخر المسلمين برعوا فيه براعة فائقة وسجلوا منه آيات بهرت العقول وسحرت الأعين وتفتقت عبقرية الخطاطين عن فنون زخرفية للزينة سيطرت عشرات القرون على الحياة الاجتماعية، وتحتفظ كبريات المكتبات والمتاحف في العالم بنماذج تسر الناظرين.

وكثيرا ما يحلو لي أن أقف طويلا في المسجد النبوي الشريف أتأمل جمال الخط الذي كتبت به الآيات القرآنية على قباب المسجد، وأفكر في الصبر الطويل والجلد العظيم والدقة المتناهية التي صاحبت الخطاط الذي كتب هذه الآيات، ثم أعود بفكري إلى عصرنا الحاضر لأذكر المحنة التي يعانيها هذا الفن العجيب وهي واحدة من سلسلة المحن التي يتعرض لها المسلمون في العصر الحديث.

ونعود إلى المؤلف المفضال لنسجل له في مقدمة مزايا هذا التفوق البارع في هذا الفن الجميل، ويستطيع القارئ أن يلحظ بوضوح مدى اعتزاز مؤلفنا بهذه المزية حتى إنه ليذكر صفته بخطاط ضمن ألقابه التي يعتز بها بل إن في مكة كلمة الخطاط أصبحت جزءًا من اسمه، ويسجل المؤلف اسمه على الورق الداخلي هكذا:

☆ نشر بجريدة المدينة المنورة في يوم الجمعة ١٣٨٩/٢/٨هـ العدد (١٥٤٧).

(محمد طاهر بن عبدالقادر بن محمود الكردي المكي الشافعي الخطاط) ومن مآثره التي له في هذا المجال أنه كاتب مصحف مكة، وهي مأثرة كبيرة تذكر فتشكر وفي اعتقادنا أن الأستاذ الجليل لو توفر على هذه الموهبة الفذة من مواهبه الكثيرة ومنحها وقته وجهده لأنتج آثارا خالدة، ولجعل من مكة مدينة تزخر بهذا الفن الجميل ويستعيد ماضيه العظيم في تركيا وأسبانيا وشمال أفريقيا.

أشرنا إلى جمال غلاف الكتاب الذي نتحدث عنه والواقع أن المؤلف قد افتن كما كان المتوقع في غلاف الكتاب الداخلي والخارجي وميز بينهما تميزا واضحا فالغلاف الخارجي مكتوب بنوعين من الخط النسخ والثلث ومحاط بسياج من الزهور الملونة تذكّرك بالزخارف الإسلامية التي اشتهر بها الفن الإسلامي في العصور الإسلامية الزاهرة وفي وسط هذا الإطار الجميل صورة ملونة بيضوية الشكل لمكة تتوسطها الكعبة المشرفة.

أما الغلاف الداخلي فخالٍ من التلوين ولكن ريشة المؤلف قد جعلت من العنوان واسم المؤلف وبقية المعلومات المسجعة صورة فنية رائعة يقف أمامها المتأمل طويلا وتحتوي الصفحة على نماذج من الكوفي، ولا أحب أن أتجاوز هذه النقطة قبل أن أشير إلى فكرة بدأت تتسرب إلى أذهان الناس وهي أننا نعيش في عصر السرعة وأن طبيعة هذا العصر تفرض علينا أن نعيش عيشة مادية صرفة فلا نهتم بالأسلوب البليغ لأنه لا وقت لدينا لتذوق هذا الأسلوب وحسبنا الكلمة السهلة والعبارة السوقية، والمقالة الصحفية والأسلوب البرقي - كما يعبر سلامة موسى - كما أن طبيعة هذا العصر تفرض علينا أن نشغل بحاجاتنا العاجلة عن العناية بالفن وما يتطلبه من وقت وجهد ودراسة وهذه أفكار ماركسية مادية وجدت طريقها إلينا في ثنايا الحملة المضللة التي تقوم بها أجهزة الدعاية المشبوهة.

ولسنا في حاجة إلى جهد كبير لبيان ما في هذه الأفكار من خطر وضلال فحسبنا أن نتذكر أن الفن في أوروبا مثلا يلقى الكثير من اهتمام المثقفين ومتاحف الفن على

اختلاف ألوانها تموج بالرواد والقصاد يقضون الساعات الطوال في تأمل لوحاتها دون سأم وملل.

وحتى لو افترضنا جدلا - وهو افتراض غير قائم فعلا - أن العالم العربي يعاني من هذه المادية التي تريد أن تقضي على الروح والذوق والوجدان فإننا - في حقيقة الأمر - نعيش في جو آخر فنحن لا نشكو أزمة الوقت فشبابنا - أعني المثقفين منهم - يشكون السأم والملل وهم يبددون الوقت في العبث ولعب الورق والتافه من الشؤون.

هذا تعليق وجدت نفسي مضطرا إليه لأنني أعرف سلفا أن هناك رؤوسًا ستتحرك ذات اليمين وذات الشمال استنكارا وشفاهًا ستمتد في اتجاهات أفقية ورأسية اشمئزازا.. وتعليقات ستنطلق من أناس يعيشون بيننا وبعقول مستعارة وأدمغة مستوردة وقلوب لا تخفق إلا بحب الوافد والدخيل والقادم من وراء البحار حتى ولو كان الهواء الأصفر أو السم الزعاف.

سيقول هؤلاء وأولئك ما لهذا الكاتب يريد أن يطوي الزمان القهقرى - كما يقول شوقي - ليشغلنا بالخط العربي والتواءاته وخير الخط ما قرئ، وينسى أو يتناسى تلك الدعوات الحارة وتلك الأصوات التي بحت في سبيل الدعوة إلى استبدال هذه الحروف القديمة التي لا تتناسب مع عصر الذرة بحروف لاتينية، سيقولون ما لهذا الكاتب يريد أن يضيع أوقاتنا (الذهبية) في الحديث عن غلاف مزوق وطبيعة العصر تتطلب أن يكون الغلاف كبنات اليوم في تقليدهن الرجال خاليات الأذرع والأذان والـ....

من أجل هؤلاء كتبت هذا التعليق معتقدا أنني سأضطر إلى العودة إليه بمزيد من الشرح والتبيين.

تحية لناشر الكتاب

وننتقل إلى نقطة أخرى نرى أن من واجبنا ألا نمر بها دون أن نقف عندها طويلا تلك هي الإشادة في الغلاف الداخلي إلى أن طبع الكتاب على نفقة السيد أحمد هاشم

مجاهد ولم تتح لي الظروف لقاء هذا السيد المفضال إلا منذ عامين[١] فقد زرته في منزله العامر بصحبة صديق كريم مفضال ولم يدر بيني وبين السيد أحمد إلا ألفاظ التحية المعروفة وكلمات المجاملة المعتادة ثم انصرف إلى حديث طويل مع صديق الطرفين.. والحق إنه كان حديثًا ممتعًا راقني واستأثر باهتمامي لأنه كان حديثًا يدور حول الكتب، وقد أكبرت في الرجل علمه وفضله الذي بدا لي من خلال حديثه عن الكتب، وقد أعجبت أشد الإعجاب بعنايته بالكتب وحرصه عليها واستجلابها وتجليدها وتصنيفها وعلمت أنه ينفق الكثير في هذا المجال. لقد خرجت من منزله بعد زيارة قصيرة تركت في نفسي أجمل الأثر عنه، وقد زاد إكباري لعقلية الرجل المتفتحة وتقديري لثقافته الواسعة وخلقه الأصيل عندما رأيت على غلاف هذا الكتاب أنه قام مشكورا بدفع نفقات طبع الكتاب.

فهذه يد بيضاء لهذا الرجل الشهم.. ومن يدري فلعل المؤلف الفاضل كان سيعجز عن إخراج هذا الكتاب للناس بصورته التي خرج بها لولا هذه العناية المقدرة المأجورة.

وما من شك في أن السيد أحمد قد قدم الكثير من المال في هذا السبيل فله الثواب من الله والشكر من الناس، ومن المعروف أن كثيرا من المؤلفين تعوزهم القدرة المالية ولا يستطيعون إخراج مؤلفاتهم فتبقى عرضة للتلف والإهمال والضياع، وكم ضاعت ثروات علمية وكنوز فكرية ثمينة نتيجة لذلك.

وقد ضرب السيد أحمد أروع الأمثال باحتضانه لهذا الكتاب والإنفاق عليه بسخاء ونأمل أن يكون قدوة لغيره من القادرين يدفعهم إلى النزول في هذه الميادين الشريفة فينعشون ثقافتنا ويشجعون مؤلفينا ويدفعون نهضتنا الفكرية إلى الأمام، وتحية خالصة من الأعماق.

(١) انظر تاريخ نشر المقال.

كتاب التاريخ القويم* لمكة وبيت الله الكريم

الحلقة الثانية

المكي.. الشافعي

من النقاط التي ذكرها المؤلف في الغلاف أو على الغلاف؛ وإحدى هاتين النقطتين؛ كلمتان أو لقبان إن شئت الحقيقة وردا في قائمة ألقاب المؤلف الجليل هما: المكي والشافعي وهذان اللقبان يذكراننا بتقليد حميد من تقاليد أسلافنا الكرام فبعض المؤلفين في العصور السالفة كانوا يحلون أسماءهم بهذه الألقاب الكريمة التي تشير إلى مذهبهم الفقهي الذي يتبعونه كما تشير إلى البلد الذي ينتمون إليه وقد يتوسعون في ذلك فيذكرون مكان الميلاد ومكان النشأة ومكان الإقامة ومكان الهجرة.

ويسير المؤلف الفاضل على هذه السُنَّة لا عن مجرد محاكاة أو تقليد وإنما عن عقيدة راسخة وتدين عميق تلمحه في مواضع كثيرة من كتابه كما تلمحه في مؤلفاته الأخرى. وأول ما يصادف القارئ من ذلك السطر الذي كتبه المؤلف بعد اسمه وألقابه فهو يقول: (ختم الله تعالى حياته بالأعمال الصالحة وغفر له ولوالديه ولكافة المسلمين آمين).

كما يصادف القارئ في الورقة الثانية بعد ورقة الغلاف الداخلي حيث يقدم المؤلف منظر الكعبة ويذكر أن راسمها وكاتبها مؤلف هذا الكتاب (أسعد الله تعالى ذريته).

(☆) نشر في جريدة المدينة المنورة يوم الجمعة للوافق ١٥/٢/١٣٨٩هـ العدد (١٥٤٨).

كما يصادف في الورقة الرابعة حيث يرى القارئ صورة المؤلف وقد كتب تحتها هذين البيتين:

أقسم بالله على كل من ... أبصر رسمي حيثما أبصره
أن يدعو الرحمن لي مخلصا ... بالعفو والرحمة والمغفرة

ويصادفه في الورقة الخامسة حين يكتب مقدمة الكتاب فيقول في بدايتها (أما بعد فيقول مؤلف هذا الكتاب.. عفا الله تعالى عنه وغفر له ولوالديه وللمسلمين آمين).

ويصادف في الورقة السابعة حين يتحدث المؤلف عن السيد أحمد مجاهد الذي أنفق على طبع الكتاب.. يختتم المؤلف كلامه بهذا الدعاء المؤثر (أدام الله تعالى علينا وعليه نعمة الحسبة والمعونة وسترنا وإياه في الدارين آمين).

وهكذا سيعجزنا الإحصاء لو حاولنا أن نتتبع آثار التدين العميق في كتابه الضخم.

أكبر موسوعة مزودة بالخرائط المهمة:

أما النقطة الثانية فكلمة وردت في الغلاف الداخلي تصف الكتاب بأنه أكبر موسوعة في تاريخ مكة المشرفة وتذكّر القراء بأن هذه الموسوعة مزودة بالصور والخرائط المهمة المفيدة، أما الشق الأول من هذه الكلمة فندعه إلى حين لأن لنا وقفة طويلة عنده خاصة وأن المؤلف قد عرض للموضوع مرة أخرى في إحدى الصفحات الأولى من الكتاب، أما الشق الثاني فلا أدري الهدف منه.. أهو نوع من التشويق أم تعميق الثقة بالكتاب.. أم غير ذلك؟.. ففي اعتقادي أن مؤلِّفًا - بكسر اللام - جادًا مثل مؤلفنا الفاضل لا يمكن أن يضع صورا وخرائط لمجرد اللهو والعبث فلا بد أن تكون صورا مهمة وخرائط مفيدة.

التاريخ (القويم):

خطر ببالي وأنا استمتع بتأمل الحروف المزخرفة الجميلة التي كتب بها عنوان الكتاب لأن أتأمل العنوان نفسه ولا يخطر ببال أحد أنني سأناقش ما في عنوان الكتاب من

سجع فلست أعاني ـ والحمد لله ـ من تلك الحساسية التي أصيب بها بعض كتّابنا نتيجة حملات مسعورة ضد الأساليب العربية لغايات في نفوس القائمين بها..

وأستطيع أن أقرر هنا أن اسم الكتاب بهذه السجعة الخفيفة يضفي عليه جمالا ورنة موسيقية فانا لن أناقش الاسم من هذه الناحية ولكنني سأناقشه من ناحية معنى كلمة واحدة (القويم) والقويم في اللغة المعتدل الحسن القامة فما الذي أراده المؤلف من هذه الكلمة حين وصف التاريخ بانه (القويم) فهل يريد أن يقول إنه تاريخ قويم أي معتدل.. وما معنى الاعتدال هنا؟ هل يعني المؤلف أن أحكامه معتدلة ليس فيها تطرف أو إجحاف؟ أم يعني أشياء أخرى؟ تلك تساؤلات ربما نجد الجواب عليها عند عرضنا للكتاب.

تقويم الكتاب وخطبة الكتاب

وصلنا الآن إلى مقدمة الكتاب وقد قسّمها المؤلف إلى قسمين وضع القسم الأول في صفحة واحدة تحت عنوان (تقويم الكتاب) وقد كتب المؤلف هذا القسم على شكل هندسي جميل يشبه هرما ناقصا مقلوبا يقوم على قاعدة من أربعة أبيات من نظم المؤلف.

أما القسم الثاني فقد وضعه المؤلف تحت عنوان (خطبة الكتاب) وصدرها برسم هندسي جميل تقوم هندسته على الشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم) وسنحاول أن نتعرف على منهج المؤلف في تأليف الكتاب عن طريق دراسة المقدمة.

أعظم تاريخ ظهر في الوجود

يقول المؤلف في (تقديم الكتاب): هذا الكتاب أعظم تاريخ ظهر إلى اليوم في الوجود لبلد الله الأمين مكة المكرمة وبيته المطهر الشريف؛ وكل ما فيه تعلق بالمشاعر العظام وغيرها منذ عهد إبراهيم عليه السلام إلى اليوم وهو كتاب مزين بالخرائط

المهمة والصور الفوتوغرافية والرسوم اللطيفة للأماكن المقدسة والمواضع الأثرية والرجال البارزين والعلماء المؤرخين وتراجم كل منهم وفيه من المباحث والمسائل ما لم يذكر في أي تاريخ وفيه من مسائل الحج والمواضيع المتنوعة الشيقة ما يجذب القارئ إلى كثرة مطالعته وفيه من التحقيقات والتدقيقات ما يشفي الفؤاد - والحاصل - أن هذا الكتاب لم يؤلف مثله إلى اليوم مطلقا ولله الحمد ولم نترك شيئا من المسائل إلا ما يتعلق بالحروب والفتن التي وقعت فيما مضى من الأزمان وسيصبح هذا الكتاب - إن شاء الله تعالى - قاموس التواريخ يرجع إليه العلماء والفضلاء في كل ما يتعلق ببلد الله الأمين وبيته المقدس إنه ثروة ثمينة نادرة وجوهرة عزيزة فاخرة فالحمد لله على إتمامه والشكر له على إنعامه....).

يبدو أننا لن نحتاج إلى وقفة طويلة عند (خطبة الكتاب) لأن وقفتنا عند (تقديم الكتاب) التي ستطول قليلا ستغنينا عن ذلك.

يذكر المؤلف الجليل أن كتابه هذا (أعظم تاريخ ظهر إلى اليوم في الوجود لبلد الله الأمين...) وهذه دعوى ينفرد بها المؤلف فلم يسبق لي أن قرأت أن مؤلفا مهما يكن شانه قد قال عن مؤلفه انه أعظم كتاب ظهر في الوجود ولا أستثنى الموسوعات الضخمة في القديم والحديث في الشرق أو في الغرب.

وقد كرَّر المؤلف دعواه فسجلها في الغلاف الداخلي وقال: (هذا الكتاب هو أكبر موسوعة في تاريخ مكة)؛ أعاد ذلك في مطلع (تقديم الكتاب) وكرره مرة أخرى في نفس التقديم فقال: (إن هذا الكتاب لم يؤلف مثله إلى اليوم مطلقا) وقال: (سيصبح هذا الكتاب قاموس التواريخ يرجع إليه العلماء والفضلاء) فهو ليس مرجعا عاما ولكنه مرجع للعلماء والفضلاء وقال عنه (إنه لدرة ثمينة نادرة وجوهرة عزيزة فاخرة).

فهذه دعوى أو دعاوى تفرد بها مؤلفنا الفاضل وهي دعوى لا تتفق وما عهد في العلماء من تواضع واستشعار النقص والتقصير وهي أيضا لا تتفق مع ما رأينا من

تدين المؤلف وتمسكه بالأخلاق الإسلامية ولجوئه دائما إلى الله - شأن المؤمنين المخبتين - يسأله الخير والسداد والتوفيق وأن يجعل عمله خالصا لوجهه الكريم.

فكيف إذن نستطيع أن نفسر هذه الدعاوى التي أطلقها المؤلف من غير حذر ولا احتراس؟!.

إخلاص المؤلف لبلده

الواقع انني استبعد تماما أن يكون الدافع على هذه الدعاوي نوعًا من العُجْب (بضم العين وسكون الجيم) أو الغرور فذلك - كما رأينا - شيء لا يتفق وسلوك المؤلف، وإنما الذي أتصوره أن الدافع له على هذه الدعاوى العريضة هو ثقته في نفسه وإخلاصه لبلده أو إن شئت الحقيقة كاملة فهي أن إخلاص المؤلف لبلده إخلاصا عظيما يتجلى في كل جزء من كتابه هذا وفي غيره من كتبه فهو يؤلف كتابا في التفسير يسميه (التفسير المكي) وهو يؤلف كتابه الضخم هذا عن تاريخ مكة وهو يضع كتابًا عن مقام إبراهيم ويكتب (مصحف مكة).

إن إخلاص المؤلف لبلده إخلاصا نادرا هو الذي أوجد ثقته بنفسه هذه الثقة التي سيطرت على كل مشاعره فتصور أن في إمكانه أن يصدر أعظم كتاب في الوجود عن مكة والكعبة.

وسنرى بعد قليل مدى ما حققه المؤلف من (أمله العريض) كما قلنا سابقا لن نقف طويلا عند خطبة الكتاب ولكننا سنقف وقفة قصيرة عند بعض ما ورد في هذه الخطبة كقول المؤلف:

(وتحدثا بنعمة الله أقول: إنني صنت كتابي هذا من كل مسألة ليست لها صحة ومن كل حادثة فيها شك أو ريب وإنني ابتعدت عن ذكر الأمور الخرافية والدجل كل البعد كما أنني التزمت ذكر الحوادث بدون مبالغة ولا تزييف).

هل لهذه العبارات علاقة باسم الكتاب؟ ربما.

كتاب التاريخ القويم* لمكة وبيت الله الكريم

الحلقة الثالثة

خرائط وصور ورسوم

ويقول المؤلف (وقد جعلت في هذا الكتاب من الخرائط والرسوم والصور ما يوضح مبهمات المسائل والأمور ويضفي عليه حسن المنظر والجمال وإنها لجديرة بالعناية وحسن الالتفات حيث لا يوجد في تاريخ من الصور والرسوم ما في هذا التاريخ العظيم منها).

وقد استعرضت الصور والرسوم والخرائط التي أشار إليها المؤلف فلم أجد غير رسوم قليلة جدا تفرد بها هذا الكتاب وليس لأكثرها أهمية خاصة.

منهج المؤلف... ومصادره

ويقول المؤلف (فكتابي هذا قد استوعب ما وقفت عليه من تاريخ مكة فقد جمعت فيه كل المسائل والأبحاث القيمة المتعلقة بها ما عدا ذكر الحروب التي وقعت بمكة.. والسبب الذي من أجله تركت ذكر حوادث الحروب بمكة هو أن ذلك يعرضني إلى ذكر مساوئ من سبقني بالإيمان من أموات المسلمين وهم قد قدموا إلى ما عملوا..)

نحب أن نقف قليلا عند هذا الجزء من كلام المؤلف فهو يذكر أن كتابه هذا قد استوعب ما وقف عليه من تاريخ مكة وجمع فيه كل المسائل والأبحاث القيمة

(☆) نشر في جريدة المدينة المنورة بتاريخ ١٣٨٩/٢/٢٥هـ العدد (١٥٥٦).

المتعلقة بها ما عدا الحروب فهل نستطيع أن نستنتج من هذه العبارات منهج المؤلف في كتابه؟.

الظاهر من هذا الكلام أن المؤلف يريد أن يستوعب في كتابه ما وقف عليه من تاريخ مكة ولذا فقد جمع كل المسائل والأبحاث القيمة المتعلقة بها. فلنقف قليلا لنحلل معنى هذه العبارات على ضـوء الكتاب الذي أمامنـا يقول المؤلف إنه قد استوعب ما وقف عليه من تاريخ مكة، فمـتا مقدار ما وقف عليه المؤلف من هذا التاريخ؟.. من دراسة الكتاب ومن الاطـلاع على ثبت المصادر التي أوردها المؤلف في صفحة ١٧ من مؤلفه يظهر أن المؤلف لم يُغـنَ إلا بالكتب التـي ألفـت عـن تاريخ مكة أو الحرمين بصـورة مباشـرة وأهمل الكتب الأخرى مع أن لها أهميتها التي لا يمكن إغفالها.

أكثر فصول الكتاب بعيدة عن صميم الموضوع

هذا من ناحية المصادر أما من ناحية كتاب المؤلف فقد أشرنا إلى ضخامة الكتاب ونذكر هنا أن صفحات الجزء الأول من الحجم الكبير تبلغ الثلاثمائة والعشرين من الصفحات.. فهل يدرك القارئ أن أكثر من ثلثي الكتاب خصصها المؤلف للحديث عن أمور أخرى تتعلق بالسنة النبوية أو تاريخ الإسلام العام؟.. وهذه أمور لا تدخل تحت عنوان الكتاب وخاصة تلك التفصيلات التي أوردها المؤلف عن السيرة النبوية؛ حتى لقد أصبح الكتاب كتابًا في السيرة لا في تاريخ مكة وإذا استثنيت بعض المباحث القليلة التي لا تتجاوز عشرة مباحث فإن الكتاب سيصبح كتابًا في السيرة النبوية أو في تاريخ الإسلام العام ولن يصبح بحال من الأحوال تاريخاً لمكة أو البيت العظيم.

وإذا تجاهلنا عنوان الكتاب، وسايرنا المؤلف الفاضل، واعتبرنا كتابه كتابا في السيرة النبوية، أو تاريخ الإسلام العام، فإننا مع ذلك لا نملك إلا أن نقرر في صراحة، أن جهد المؤلف في هذا الشأن جهد ضائع ، فلن يكون كتابه هذا بالصورة التي رأينا -

مرجعا في السيرة، ولا في التاريخ العام، ولن يلجأ الباحثون إليه، ولديهم المصادر الأولى المعروفة، كما لن يعتمد عليه الدارسون وعندهم الكتب العلمية الكثيرة التي ألفت على المنهج العلمي الدقيق.

فكرة إهمال ذكر الحروب.. ما مدى وجاهتها؟

وقضية ترك ذكر حوادث الحروب لأن ذلك (يعرض المؤلف إلى ذكر حادث من سبقه بالإيمان من أموات المسلمين) قضية لا يحسن أن نمر بها دون أن نلتفت إليها، ونقف عندها وقفة قصيرة، فهل تعتبر هذه النظرة إلى تاريخ الحروب نظرة صحيحة؟ وهل تبقى للتاريخ أهمية لو أغفلنا هذا الجانب؟ وهل غفل مؤرخو الإسلام عن هذه القضية، وفيهم عشرات من العلماء والأعلام فلم يفطنوا لها حتى كتب صاحب كتاب «التاريخ القويم..» كتابه فنبه إليها الأذهان؟ يبدو أن هذه نظرية تفرد بها المؤلف لا يوافقه عليها أحد من العلماء حاضرهم وغابرهم، ولو طبقناها لأغفلنا القسم الأعظم من تاريخ البشرية، ولطمسنا حسنات وأمجاد وبطولات لا يستهان، ولتجاهلنا نزعات بشرية لها أهميتها العظمى في عمران العالم، ونقله من طور إلى أطوار.

ومن المصادفات اللطيفة أنني تلقيت وأنا أكتب هذا المقال الكتاب الذي أصدرته وزارة المعارف للشيخ «إبراهيم بن صالح بن عيسى النجدي الحنبلي» وهو من أفاضل العلماء، واسمه «عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأول القرن الرابع عشر» وقد تحدث مؤلفه الجليل عن كثير من حوادث الحروب، ولم يذهب إلى ما ذهب إليه مؤلف كتاب «التاريخ القويم» الكتاب... عبارة عن صفحات منقولة.

والمؤلف - حفظه الله - يلجأ إلى النقل بصورة تجعل الكتاب عبارة صفحات منقولة من هنا أو هناك، وكل جهد المؤلف يكاد ينحصر في هذا النقل، ولست أدري! ما الذي يدفع المؤلف إلى هذه الطريقة التي لا تتفق والمنهج العلمي بحال من الأحوال.

ويبدو أن المؤلف لم يضع خطة واضحة لكتابه، ولا منهجا مرسوما، وكذلك فقد كان ينقل كل ما خطر له أن له علاقة بموضوعه دون دراسة أو تمحيص، ومما يؤكد هذه الملاحظة هذا الاضطراب الذي يلمسه القارئ في كتابه.. فهناك على سبيل المثال عناوين ثلاثة هي: (تقديم الكتاب) و (خطبة الكتاب) و (مقدمة الكتاب) وتحاول أن تربط بينها أو تتعرف على العلاقة التي تجمعها فلا تجد السبيل إلى ذلك.

المؤلف لا يحسن استخدام المصادر

والعجيب أن المؤلف المفضال لا يحسن استخدام المصادر حتى في النقل وعلى سبيل المثال: أذكر أن المؤلف عندما أراد أن يكتب فصلا عن جغرافية بلاد العرب لم يجد مصدرا يرجع إليه إلا كتابا طبع في مطبعة بولاق الأميرية بالقاهرة عام ١٣١٠هـ من تأليف (أدورد فانديك وقسطنطين فيلييبيدس).

وقد يخطر ببالك لأول وهلة أن لهذا الكتاب أهمية نادرة لكنك ستصاب بخيبة أمل شديدة حين تجد المؤلف يتحدث عن هذا الكتاب فيقول: (إن هذا الكتاب وقع في يدنا بالمصادفة) أجل فالفضل للمصادفة وحدها فهي التي أوقعت الكتاب في يد مؤلفنا الفاضل فهو ليس كتابا مشهورا ولا مرجعا معتمدا ولكنها المصادر التي لا يد لأحد فيها، وهذا كلام عجيب يقوله مؤلف في العصر الحديث يريد أن يصدر (أعظم تاريخ صدر إلى اليوم في الوجود)!!.

ولو كان هناك ندرة في المصادر الجغرافية أو جدة في المعلومات التي أوردها الكتاب لالتمسنا للمؤلف عذرًا ولكن المصادر متوفرة ولا سيما في الثلاثين سنة الأخيرة توفرًا كبيرًا كما أنه لا جديد في المعلومات التي أوردها الكتاب المذكور بل لعلنا إذا قلنا أن معلوماته تتسم بالقدم فقد صدر هذا الكتاب كما رأينا عام ١٣١٠هـ أي قبل سبع وسبعين سنة على أقل تقدير. ومن المؤكد أن معلومات كثيرة قد استحدثت في

فترة السبعين سنة هذه وهي فترة تفوق في نظر العلماء جميع ما سبقها من عصور التاريخ منذ فجر الخليقة.

ولو بحث المؤلف مصادر جديدة لوقع على عشرات المصادر ولوفر على نفسه الجهد الذي بذله في تبريره للنقل من هذا الكتاب المدرسي دون سواه يقول المؤلف في تبريره:

(وربما يعجب البعض لاختيارنا النقل من هذا الكتاب بالذات وهو تأليف بعض أساتذة الإفرنج فنقول إن هذا الكتاب وقع في يدنا بالمصادفة فتصفحناه جيدا فلم نجد فيه ما يمس الدين الإسلامي قط كما لم نجد فيه أي شيء محرمًا بل وجدناه كتابا متين الأسلوب قوي الأدلة كل ما فيه صواب وكل مسائله محققة لذلك قررت (نظارة) المعارف العمومية المصرية تدريسه بالمدارس الأميرية بعد أن التزمت طبعه على نفقتها) ويقول المؤلف:

نعم وجدنا فيه غلطة غير مقصودة من المؤلفين المذكورين وهي قولهما بأول صفحة (٤٩) (والحجر الأسود كان يُعْبَد في الجاهلية) هذه الجملة غلط واضح والصحيح الذي لا شك فيه أن الحجر الأسود لم يُعْبد قط. لا في الجاهلية ولا في الإسلام كما أن الكعبة كذلك لم تُعْبد قط. والقارئ في هذا الكتاب يخرج منه بفوائد كثيرة صحيحة وليس من المعقول والعدل أن نرمي بكتاب لمجرد أن مؤلفه غير مسلم ففي الأثر: (الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها لهذا نحن ننقل من هذا الكتاب لتحققنا من صحة ما جاء فيه) ثم ينقل المؤلف الفاضل من كتب (تاريخ العرب وآدابهم) ما يملأ ست صفحات من كتابه وهو قدر ليس باليسير.

وليس من غرضي أن أناقش المعلومات المنقولة من الكتاب المشار إليه ولذا فأمرُ بها مرا سريعا رغم ما اشتملت عليه من أمور تحتاج إلى تعديل وتصويب، وحَسْب هذه الإشارة تهوين أهمية هذا الكتاب.

ولذا فلن أقف كذلك عند الثناء الذي أضفاه المؤلف على الكتاب المذكور آنفا ولا عند قضية الاستعانة بمراجع غير إسلامية فتلك كلها أمور تصبح عديمة الأهمية بعد أن أشرنا إلى تفاهة الكتاب بسبب قدمه من جهة وبسبب أنه كتاب مدرسي ولو رجع المؤلف إلى (نظارة المعارف) يستفتيها فيه ويسألها الرأي عنه لفوجئ بأنها لم تعد نظارة وبأن اسمها قد تغير مرتين.

كتاب التاريخ القويم* لمكة وبيت الله الكريم

الحلقة الرابعة

طريقة المؤلف في التأليف

يقول المؤلف في (خطبة الكتاب) مبينًا طريقته في تأليف كتابه (فكتبت أول ما كتبت مبحثًا عن كسوة الكعبة الداخلية والخارجية بإسهاب وترتيب مبتكر فكنت موفقا ولله الحمد إلى أقصى حد وقد أتممت هذا المبحث بعد ثلاثة أشهر وهي شعبان ورمضان وشوال. ولقد سررت جدا بإتمامه كما ينبغي وإن تعبت في ذلك تعبا عظيما لا يعرفه إلا من مارس التأليف، فالتأليف أولًا لا يُستهان به.. ورُبَّ قائلٍ يقول: ما سبب بدئك بالكتابة عن مبحث الكسوة فأقول ليس له سبب علمي ولا سبب فني وإنما هكذا جاء مبحث الكسوة من ابتداء الأمر فمشيت فيه حتى أتممته ولقد جرت عادتي في تأليف الكتب أن أكتب مباحث الكتاب وفصوله وأبوابه حتى إذا ما انتهيت منها أرتبها ترتيبا حسنا) وهذا خير دليل على أن المؤلف لا يسير على منهج علمي مرسوم ولا على طريقة واضحة المعالم وقد تكون طريقة المؤلف مقبولة عندما تكون القضية عبارة عن مقالات أو بحوث تكتب في فترات متباعدة ثم تجمع بعد ذلك في كتاب ولكنها طريقة غير مقبولة عندما يريد مؤلف ان يكتب كتابا في موضوع خاص له حدوده واتجاهاته.

(☆) نشر في جريدة المدينة المنورة في يوم الأربعاء ١٣٨٩/٣/٥م العدد (١٥٦٤).

لم يوفق المؤلف.. حتى في الترتيب

وإذا تسامحنا مع المؤلف الجليل وقبلنا طريقته التي أشار إليها على علّاتها فإننا سنصطدم بشيء آخر يخالف ما أشار إليه المؤلف الفاضل فقد ذكر المؤلف في الفقرة السابقة التي نقلناها من خطبة الكتاب أنه إذا ما انتهى من مباحث كتاب يعود إليها فيرتبها ترتيبا حسنا، ولكن الذي لاحظناه في كتابه هذا أنه لم يرتب مباحث الكتاب ترتيبًا حسنًا بل كان ترتيبه يتسم بالتسرع والارتجال ولن نكرر ما قلناه عن (تقديم الكتاب) و (خطبة الكتاب) و (مقدمة الكتاب) وحسبنا أن نلقي نظرة على فهرس الجزء الأول لنرى الشذوذ والتنافر في موضوعات الكتاب حيث يقدم المؤلف ما حقه التأخير ويؤخر ما حقه التقديم.

غرام المؤلف بالشعر

وليت المؤلف وقف عند هذا الحد ولكنه عرض لموضوعات بعضها لا يدخل في موضوع الكتاب وبعضها بالإضافة إلى أنها لا تتناسب وموضوعات الكتاب تتحدث عن موضوعات شائكة محلها كتب الدين المحض أو كتب الجدل او كتب الأصول، ونذكر على سبيل المثال (المنظومة الفريدة في علم الجغرافيا) وهي منظومة تتحدث عن مبادئ الجغرافيا العامة وتملأ صفحتين ونصف صفحة من الكتاب، ونقف عندها لنحاول أن نعرف علاقتها بموضوع الكتاب فلا نجد أي نوع من العلاقة سوى علاقة باهتة واهية يتحدث عنها المؤلف فيقول: (وبمناسبة ذكرنا جغرافية بلاد العرب أحببنا هنا إثبات منظومة فريدة لطيفة في علم الجغرافيا وهي من نظم بعض العلماء الفضلاء بمصر لكن زدنا عليها بعض الأبيات من نظمنا على وفق بحرها زيادة في الإيضاح وتكملة الفائدة العامة وذلك منذ سنوات مضت لكن نسينا أن نميز الأبيات الأصلية من الأبيات التي زدناها عليها).

ويبدو أن المؤلف الفاضل قد شعر بانقطاع الصلة بين الكتاب وهذه المنظومة الفريدة فوجد نفسه مضطرًا إلى التماس مبررات أخرى تبرر نشر هذه المنظومة في هذا

الموضع فهداه تفكيره الطويل إلى هذه الحجة العجيبة التي تقول: (والمقصود من إثبات هذه المنظومة في تاريخنا هو المحافظة على آثار المسلمين في شتى العلوم والفنون. وهذه المنظومة فريدة طريفة قل أن يوجد مثلها) وهذه حجة من أعجب ما رأينا وسمعنا وكأن المؤلف لم يؤلف كتابًا في تاريخ مكة والكعبة ولكنه ألف (متحفا) يجمع التحف أيا كان نوعها، ولذلك كان الأحرى بالمؤلف أن يسمي كتابه «جامع التحف» أو «متحف الكنوز» أو «كشكول المطالعين أو مخلاة..!!»..!

وما رأي المؤلف الفاضل بعد ذلك في أن هذه المقطوعة ليست فريدة ولا طريفة فهي لون من النظم التعليمي الخالي من أي جمال لفظي أو وثبات ذهنية.

ونذكر مثالًا آخر هو مسرحية شعرية نشرت في إحدى المجلات العربية عن أصحاب الفيل نقلها المؤلف ويشغل بها صفحتين، وتسأل نفسك وما علاقة مسرحية شعرية نظمها شاعر معاصر بكتاب علمي يبحث في تاريخ مكة؟.. وهذه لا يرى المؤلف ضرورة إلى الحديث عن مناسبة نشرها في كتابه لأنه ليس لها مناسبة إطلاقا ويتحدث المؤلف عن معجزة انشقاق القمر وفجأة يجد نفسه يتحدث عن رسالة الإمام جلال الدين السيوطي عن الهلال تسمى (رصف التلال في وصف الهلال) وهي مطبوعة بالقسطنطينية بمطبعة الجوائب ضمن كتاب (التحفة البهية والطرفة الشهية) ولصلاح الدين الصفدي رسالة تسمى (رشف الزلال في وصف الهلال).

ثم يأخذ في ذكر أبيات مما ورد في الهلال تستغرق أكثر من نصف صفحة.

والواقع أن مؤلفنا الفاضل محب للشعر مغرم به إغراما شديدا يحفظه وينظمه ويستشهد به وهذه مزية يغبط عليها وبصرف النظر عن القيمة الفنية لما ينظمه المؤلف فإن عنايته بالشعر مزية تذكر له في صفحة حسناته ولكن آفة هذه المزية طغيانها على مؤلفنا طغيانا يجني على عمله العلمي فيقلل من هذا العمل أحيانا ويضعفه أو يفسده أحيانا أخرى، ويظهر أن المؤلف لا يستطيع الوقوف أمام سلطان

الشعر فهو ضعيف أمامه لا يقوى على رده أومقاومته ولكن آثار ضعفه هذا تنعكس على أعماله العلمية فتقلل من جودتها وتضعف من ترابطها.

كتاب ليس له منهج ولا طريقة

لقد أضاع المؤلف كثيرا من وقته وجهده عبثا كما أضاع كثيرا من أموال الناشر هدرًا وذلك لأنه لم يضع خطة يسير عليها ولا منهجا محددا يطبقه، لقد كانت تسيطر عليه فكرة واحدة هي أن يخرج أكبر موسوعة في الدنيا وأعظم تاريخ في الوجود، لم تكن تهمه الجودة ولا الإبداع ولكن هَمّه كان منحصرا في (الأكبر) و (الأعظم) في الكم لا في الكيف، ولعله قد اقتنع بعد كل ما قدمناه من ملاحظات بأن البقاء للأصلح وهو الأجود ولو كان قليلا أما الكثرة أو الضخامة فلا قيمة لها في دنيا الثقافة والمعرفة إذا تخلت عنها الجودة، ولست بحاجة إلى أن أذكِّر المؤلف المفضال إلى أنه يعيش في القرن الرابع عشر الهجري وأن طريقة الجمع من غير تمحيص إذا جازت في العصور الأولى عند بداية تدوين التاريخ فهي غير مقبولة في هذا العصر.

كتاب التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم*

الحلقة الخامسة

الفصول الأساسية في الكتاب

وعلى ضوء ما ذكرنا فإنني سأستعرض فيما يلي الفصول التي تصلح أن تكون أساسا لكتاب عن مكة والبيت الحرام مع بعض التعليقات وسيكون حديثي مقصورا على ما ورد في الجزء الأول من هذا الكتاب لأن الجزء الثاني لم يصدر بعد ولأن المؤلف لم يحدد منهجه في الجزء الأول ولم يذكر موضوعات كتابه.

أورد المؤلف ثبتا (ببعض أسماء الكتب في تاريخ مكة المشرفة ووقعنا عليها) وقد أحسن المؤلف بذكر هذه القائمة من الكتب التي ألفت عن مكة، ولو بذل المؤلف جهدا أكبر أو سجل أكبر قدر من المؤلفات المطبوعة والمخطوطة في مكتبات العالم لكان أحسن إحسانا مضاعفا، ولو أضاف إلى ذلك دراسة عن هذه المؤلفات بيَّن فيها أهميتها وقيمتها العلمية وما امتاز به كل مؤلف وترجم لهؤلاء المؤلفين ترجمة وافية لو فعل ذلك لكان وحده مجهودا علميا باهرا يدفع بمؤلفه إلى الصدارة.

مؤرخو مكة في العصر الحديث

عقد المؤلف بعد قائمة المصادر فصلًا عن تراجم مؤرخي مكة في عصرنا الحاضر (كلهم من أهل مكة المكرمة) هكذا يقول المؤلف وهو تعصب مقبول احيانا، وقد تحدث فيه عن الإمام الأزرقي مؤلف تاريخ مكة حديثا مفصّلًا نوعًا ما، وقد ختم حديثه بقوله:

(☆) نشرت بجريدة المدينة في يوم الجمعة ٧ من شهر ربيع الاول ١٣٨٩هـ العدد (١٥٦٦).

(وختام القول أن تاريخ الإمام الأزرقي (أخبار مكة) كتاب كالقاموس المحيط فيه من الفوائد المهمة ما لا يعد ولا يحصى وعليه يعتمد العلماء المحققون والمؤرخون الباحثون؛ فحبذا لو ان بعض الجهات العلمية وضعت جوائز سخية لمن يتقدم بتلخيصه وتهذيبه وحذف أسانيده ورواياته المتكررة في معنى واحد ثم بتبويبه وترتيب فصوله وأبحاثه على أحدث الطرق في عصرنا الحاضر وبذلك تكون الفائدة أعم وأنفع وأشمل وتجتمع المسائل المتفرقة في مبحث واحد وتنضم الأمور المتشتتة في باب واحد).

واقتراح المؤلف المفضال اقتراح وجيه موفق ولكنني أحب أن أتساءل: لو أن المؤلف مؤلفنا المفضال تولى هذه المهمة وأضاف إليه ما ينقصه من المعلومات الجديدة والتعليقات الضرورية ثم أخرجه للناس.. ألم يكن ذلك أجدى وأنفع من كتابه هذا؟ ذلك لا شك فيه.

ثم تحدث المؤلف عن الشيخ حسين بن عبدالله باسلامة وكان حديثه عنه مختصرا لم يتعدَّ الأربعة سطور ولم يتحدث بشيء عن كتابيه: تاريخ الكعبة المعظمة وعمارة المسجد الحرام، وهذا أمر يستلفت النظر.

تاريخ نادر مهمل

وترجم بعد ذلك للشيخ عبدالله الغازي وذكر من مؤلفاته كتاب (إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام) وكتاب تراجم العلماء من المكيين وغيرهم من الذين ماتوا بمكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر ومنها رسالة ذيل الدرر وهي تتمة تراجم العلماء في قرنه ليكون ذيلا للكتاب المتقدم.

وقد وصف المؤلف تاريخ الشيخ الغازي بأنه (قيّم نادر) وبأنه (مهم جدا لا يوجد مثله) ودعا الله أن يوفق بعض الفضلاء لطبعه وختم حديثه بقوله (كما سمعنا من الثقات أن بعض من لا ضمير عندهم استنسخوا تاريخ الغازي ثم حذفوا بعض

مباحثه وعلقوا عليها ما يشتهون) ووصف المؤلف هذا العمل بأنه (يسمى خيانة لا تغتفر).

ومرة أخرى أحب ان أتساءل لو أن مؤلفنا الفاضل وضع جهوده والأموال التي صرفت على كتابه، لو أنه وضع كل ذلك في خدمة تاريخ الغازي (القيم النادر المهم الذي لا يوجد مثله) وأخرجه للناس في ثوب علمي دقيق أما كان ذلك أولى وأجدى من إخراج كتابه هذا وخاصة وأن كتاب الغازي تعرَّض لما وصفه المؤلف بأنه (خيانة علمية) وإذا كان ذلك قد حدث ومؤلفه لم يغادر عالمنا إلا منذ فترة وجيزة فكيف يكون الحال بعد انقضاء زمن طويل، ألم يكن من الأمانة للعلم أن يحرص المؤلف على أن يعمل لإخراج هذا الكتاب النفيس بدلا من كتابه وبذلك يقدم لمكة وللعلم خدمات لا تنسى؟.

وإذا كنا قد قبلنا سكوت المؤلف عن كتابي الشيخ عبدالله باسلامة باعتبارهما مطبوعين معروفين فهل نقبل سكوت المؤلف عن وصف كتاب الشيخ الغازي وهو مخطوط معرَّض للعبث والضياع كما ذكر المؤلف.

وترجم بعد ذلك للأستاذ السباعي ترجمة ذاتية مطولة ولكنه لم يتحدث بكلمة عن كتاب تاريخ مكة، والكتاب على أية حال مطبوع متداول.

ثم ترجم المؤلف لنفسه ترجمة موجزة وقد سبق أن ترجمها ترجمة مطولة في خطبة الكتاب.

وفي رأيي أن هذا الفصل (فصل التراجم) يصلح أن يكون من الأسس الهامة في الكتاب شريطة أن يعيد المؤلف كتابته في حدود الإطار الذي تحدثنا عنه.

ومن الفصول الرئيسية (جغرافية بلاد العرب) ويدخل في هذا الفصل (بلاد الحجاز وطبيعة الحجاز، وجو الحجاز، وأهم مدن الحجاز).

ولا بـد من إعـادة كتابة هذا الفصـل وإيجاد تناسق بين موضوعاته فلقد تحدث المؤلف عن الحجاز وطبيعته وجـوه وأهم مدنه وفضله قبل أن يتحدث عن جغرافية بلاد العرب وهذا وضـع غير طبيعي فلابد من إعادة كتابة هذا الفصل على أن يؤخذ بعين الاعتبـار الملاحظات التي سبقـت الإشارة إليها خاصة ما يتصل بالمصادر.

وهناك فصل رئيسي آخر عن (العرب) يحتاج أيضا إلى إعادة صياغته.. وأحب أن أنص على ضرورة استبعاد (مناظرة النعمان لكسرى في شأن العرب) فهي فضلا عما يثار حولها من شكوك ليست ذات علاقة جوهرية بموضوع كتاب يتحدث عن مكة والبيت الحرام وفي ذكرها استطراد لا موجب له.

أسماء مكة

ومن فصول الكتاب المهمة فصل عن أسماء مكة ومع أنه يعتبر فصلا جوهريا إلا أن المؤلف أوجز الحديث عن هذه الأسماء وكانت حجته (خوف التطويل) وهي حجة من أعجب الحجج فالمؤلف يحشر في كتابه.موضوعات لا علاقة لها بموضوع الكتاب وهي موضوعات استغرق الحديث عنها أكثر من نصف الكتاب ويوجز الحديث عن أسماء مكة (خوف التطويل) وكم كان بودي ان أقرأ فصلا ضافيا عن أسماء هذا البلد الطيب يستعرض فيه المؤلف هذه الأسماء ويشبعها بحثا وشرحا، ولكن المؤلف - عفا الله عنه - أبى علينا واكتفى بأن ذكر لنا هذه الأسماء (مجموعة في سبعة أبيات نظمها القاضي أبو البقاء ابن الضياء الحنفي) ومع أن عندي من الطاقة والاستعداد ما يمكنني من قراءة هذا النوع من النظم التعليمي فقد ضقت ذرعا بهذه الأبيات لصعوبتها من جهة ولأن طائفة هذه الأسماء تحتاج إلى كثير من الشرح والتوضيح.

ويبدو أن المؤلـف لم تَفُتْه هذه الملاحظـات فتخلـص من الموضوع بإحالة القارئ إلى كتاب (الجامـع اللطيـف في فضـل مكـة وأهلها وبناء البيت الشريف)

وغاب عن المؤلف الفاضل أنه ليس من الميسور العثور على هذا الكتاب وأنه ليس لدى الغالبية من القراء القدرة على البحث عن الكتاب ولا الصبر على الدراسة والاطلاع، ومع أن المؤلف شغل نفسه بالحديث عن تفاصيل السيرة النبوية وهي تفاصيل ألفت فيها عشرات الكتب الخاصة وأصبحت مصادرها في متناول الجميع.

هذا المؤلف نفسه يتجاهل الحديث عن أسماء مكة ويمر بها مرورا عابرا، ألا ليته صنع العكس.

ومن الموضوعات الرئيسية في الكتاب:

١ - موضوع ولادة النبي - صلى الله عليه وسلم - بمكة.

٢ - موضع ولادة فاطمة - رضي الله عنها.

٣ - هجرة النبي - صلى الله عليه وسلم.

٤ - فتح مكة.

٥ - منزل النبي - صلى الله عليه وسلم - بمكة عام الفتح.

٦ - موضع نزوله - صلى الله عليه وسلم - بمكة ومنى ومزدلفة وعرفات.

٧ - فضل مكة وامتيازها والآيات والأخبار الواردة في ذلك.

ومن هذا الاستعراض يتضح أن الفصول الرئيسية في الكتاب لا تصل إلى ثلث الكتاب وأن المؤلف قد ملأ ثلثي الكتاب بموضوعات أقل ما توصف أنها واهية الصلة بجوهر الكتاب؛ وإن كنا قد رأينا فيما سبق أن بعض الموضوعات لا تربطها بالكتاب رابطة من قريب أو بعيد، فليت المؤلف الكريم وفّر على نفسه هذا الجهد العظيم واكتفى بإصدار كتابه في جزء واحد يمتاز بالدقة والتركيز العلمي.

اقتراح بإعادة النظر

وأنا أقترح على فضيلة المؤلف - وخاصة أنه لم يصدر الجزء الثاني بعد أن يعيد النظر في موضوعات كتابته وان يضع منهجا علميا دقيقا يسير عليه وأن يستبعد فكرة (الاكبر) و (الأعظم) ويعتمد على (الأجود) و (الأدق) وحتى إذا رغب في الأكبر والأعظم ففي إمكانه أنه يضع ذلك على ألا يخرج عن الحدود المفروضة في كتاب يتحدث عن مكة، حبذا لو أقدم على تنسيق موضوعاته وأوسعها بحثا ودرسا وأخرجها للناس في كتاب واحد، فذلك خير وأبقى.

الموسوعة الأدبية*

الحلقة الأولى

لصديقنا الأستاذ عبدالسلام الساسي أيادٍ بيضاء على أدبنا الحديث فهو متحمس له حفي به حريص عليه مؤمن بحاضره متفائل بمستقبله، لا يضن عليه بوقت ولا بجهد ولا بمال.

ومنذ أكثر من ثلاثين عاما والأستاذ الساسي يجاهد في سبيل إبراز هذا الأدب يجمعه وينشره ويذيعه ويدافع عنه ويتحمل في سبيل ذلك ألوانا من المشقة والعنت والوهن ثم لا يزيده ذلك إلا حبا فيه وتعلقا به وحماسا له.

والحق الذي لا مراء فيه أن أدبنا بحاجة إلى الأستاذ الساسي وأضرابه - إن وجدوا - لأنه أدب يقوم على الهواية لا الاحتراف ثم أنه لا يجد متسعا له إلا على صفحات الصحف وبطون المجلات بسبب صعوبة الطبع وتكاليف النشر وفقدان الوعي بين القراء.

وقد أشفقت على الأستاذ الساسي حينما أعلن للناس اعتزامه إخراج موسوعة أدبية، أشفقت عليه مرتين حين ذكرت التكاليف المادية وهي تكاليف ينوء بها الفرد العادي وهممت أن أكتب دعوة إلى الأدباء عن طريق الصحف أحثهم فيها على الإسهام في هذا المشروع النبيل ولن يكلفهم ذلك كثيرا فالمبلغ المطلوب دفعه من كل أديب يتراوح بين المائة والمائة والخمسين ريالا وهو مبلغ ضئيل لو أراد كل أديب ممن تحويه موسوعته أن يقيم حفل غداء أو عشاء للأستاذ الساسي تكريما له لدفع أكثر منه.

لقد هممت أن أفعل ثم ذكرت أن هذه ليست أول محاولة يقدم عليها الأستاذ الساسي فله محاولات سابقة أكسبته الكثير من التجارب في هذا المجال.

(*) نشرت في جريدة المدينة المنورة يوم الثلاثاء الموافق ٢١ من شهر ذي الحجة ١٣٨٨هـ.

وبمناسبة الحديث عن الإسهام المادي والحفلات أذكر أن البيئات الأدبية في مصر تعودت إقامة حفل تكريم للأديب عندما يصدر كتابا يحيُّونه فيه بالشعر والنثر فلعل أدباءنا يتداعون إلى إقامة حفل تكريم للأستاذ الساسي بمناسبة إصدار موسوعته الأدبية.

وأشفقت على الأستاذ الساسي من عدم استجابة الأدباء وبغير هذه الاستجابة فإن الأستاذ الساسي سيواجه صعوبات كبيرة تطيل طريقه وتعوق مسيرته وتحول بينه وبين ما يريده.

أما التكاليف المادية فيبدو - من حسن الحظ - أن الأستاذ قد استطاع التغلب عليها وتمكن من طبع الجزء الأول من موسوعته وأخرجه للناس أما استجابة الأدباء فقد عانى منها ولا يزال يعاني؛ فأدباؤنا - عفا الله عنهم - لا يشعرون بالقلق الروحي الذي يشعر به الأستاذ الساسي؛ ولا يؤمنون كثيرا بالمسؤولية الأدبية التي يضطلع بها، فهم يضنون عليه بالرد القصير والجواب اليسير ويبخلون عليه حتى بإرسال ترجمة حياتهم أو اختيار نماذج من أدبهم.

ولقد لقيت الأستاذ الساسي في الأسبوع الماضي في مجلس ضم نخبة كريمة من العلماء والأدباء والباحثين وشكرته على تفضله بإهدائي الجزء الأول من موسوعته[1]، ورجوت له مزيدا من التوفيق، ووجدها الأستاذ الساسي فرصة فسألني عما إذا كنت أعرف ترجمة أديب مدني توفي في أوائل هذا القرن - ذكر لي اسمه - فاعتذرت له بأنني لا أعرف فأخبرني بأنه كتب أكثر من مرة لبعض من توجد عنده مصادر هذه الترجمة ولكنه لم يتلقّ جوابا، ووعدته بأن أقوم بجهد في هذا السبيل، وكان هذا الكلام فاتحة حديث طويل عن الصعوبات التي واجهها الأستاذ المفضال وكان مما قاله: (تصور أنني أرسل مائة رسالة فلا يصلني إلا جواب رسالتين فقط).

(١) صدر هذا الجزء من الموسوعة بتاريخ ١٣٨٨هـ/١٩٥٧هـ.

والواقع إن إشفاقي بعد سماعي ما سمعت تحول إلى نوع من الإعجاب بثبات الأستاذ الساسي وصبره، إذ لو كنت مكانه لنفضت يدي من هذا الموضوع وآثرت السلامة على هذا الهم المقيم، ولكن إيمان الأستاذ الساسي بعظم المسؤولية التي يضطلع بها وبأهمية الدور الذي يقوم به في تدعيم أدبنا الحديث جعله يستسهل الصعب ويستهين بالعقبات ويمضي في سباقه متحديا كل معوقات الدرب وعثرات الطرق.. فحيهلا بجهود المؤلف الموفقة وشكرًا من الأعماق للرجل الذي وضع في طريق نهضتنا الأدبية صورة تهدي وإشارات تدل ومنارات تشير.

ملاحظات.. واحتراس

وأرجو بعد هذا أن يسمح لي صاحب الموسوعة الأدبية أن أدرس موسوعته دراسة سريعة، وأن أقف قليلا عند بعض الموضوعات، وأحب قبل أن أبدأ ذلك أن أؤكد لصديقي المؤلف أنني معجب بعمله مكبر لجهوده معتز بروحه العالية، ولذلك فإن ملاحظاتي - وهي قليلة على أية حال - لا ترمي إلى التهوين من جهد المؤلف ولا إلى التقليل من أثر موسوعته ولا إلى الانتقاص من فضله وأدبه، وأنا مضطر إلى هذا الاحتياط أو الاحتراس فقد وقر في الأذهان أن النقد إما عملية تقريظ أو عملية هدم ولا شيء وراء ذلك.

وملاحظاتي تهدف إلى تبيان ما في هذا العمل الأدبي الجليل من أمور تستدعي البحث وإعادة النظر أو هي - إن شئت الحقيقة - وجهات نظر تعرض للمناقشة والبحث.

عنوان الموسوعة

وأول ما أحب الوقوف عنده هو العنوان أو جزء منه على الأصح فقد سمى المؤلف كتابه (الموسوعة الأدبية - دائرة معارف لأبرز أدباء المملكة العربية السعودية) والذي أريد الوقوف عنده وقفة قصيرة هو جملة (لأبرز أدباء المملكة) ولا أريد أن أناقش ما أثاره بعض من كتب عن الموسوعة من أن دوائر المعارف لا يقتصر حديثها عادة

على البارزين وإنما تشمل البارزين وغير البارزين، وإنما أريد أن أسأل عن الحدود التي تنتهي عندها أفعل التفضيل: «أبرز» فلم يحدد المؤلف هذا البروز من أين يبدأ أو أين ينتهي، وهل يعني المؤلف بالبروز الشهرة وهو أول ما يتبادر إلى الذهن أم يعني الأصالة أم يعني أمرا آخر. فإن كان يعني الشهرة فهناك طائفة من الأدباء ممن ضمهم الجزء الأول من الموسوعة لا يتمتعون بشهرة تذكر، وإن كان يعني الأصالة فهذا مقياس يصعب بطبيعته لأنه يحتاج إلى دراسة شاملة متعمقة لا نعتقد أن لدى المؤلف من الوقت والجهد - وفي ضوء الظروف التي أشرنا إلى بعضها فيما سبق - ما يسمح له بالقيام بهذه الدراسة بالإضافة إلى أن هذه الدراسة قد تعتبر خروجا عن الخطة الواجب انتهاجها بالنسبة لمثل هذه الموسوعة، ولا شك في أن المؤلف يحسن صنعا لو استبعد كلمة (أبرز) أو (لأبرز) من عنوان الموسوعة.

الساسي.. أديب مظلوم

وأنتقل من العنوان إلى مقدمة الكتاب وهي للأستاذ محمد حسن عواد ولكن قبل أن أناقش بعض ما ورد في هذه المقدمة أحب أن أذكر لصديقي المؤلف أنني كنت أفضِّل استبعاد هذه المقدمة لا لأنني أخالف كاتبها في قليل أو كثير مما ورد فيها. ولا لأن بيني وبين الأستاذ كاتبها خصومة أدبية ولكن لأمر آخر يتعلق بالأستاذ المؤلف.

ففي رأيي - ويؤيدني في هذا الرأي طائفة من كرام الأدباء والنقاد - أن الأستاذ الساسي أديب مظلوم لم يظلمه معاصروه من الأدباء والنقاد ولم تظلمه ظروفه الخاصة أو العامة. ولكنه - مع كل أسفي - ظلم نفسه فقد ربط اسمه باسم العواد ربطا وثيقا. ونظرا لأن الأستاذ العواد أكبر سنا وأوسع شهرة ثم هو يمتاز بحرصه الشديد ورغبته العارمة في مد نفوذه وبسط سلطانه وفرض أستاذيته مما يجعل من العسير على من ارتبط به برباط الصداقة أو التلمذة التخلص من ذلك النفوذ أو الانفكاك من ذلك الرباط أو الانفلات من هذه الأستاذية إلّا بكثير من الجهد والمشقة والرهق.

لذلك فقد أصبح من المألوف أن يلقى الأخير ظلالا على كل جهود الأستاذ الساسي الأدبية والفنية ومن شأن هذه الظلال أن تغير الصورة أو تشوه بعض تقاطيعها أو تخفي بعض معالمها أو تظهرها للناس باهتة أو شاحبة، وليس وراء ذلك ظلم للنفس يفوق هذا الظلم مع أن الأستاذ الساسي - والحق يقال - يمتاز باصالته وموهبته وكفاءته ومحفوظه وتجاربه، ويمتاز كذلك بحبه للفن واعتزازه بالأدب وإخلاصه للثقافة.

ولو استطاع الأستاذ الساسي أن يستقل بشخصيته في وقت مبكر ـ كما فعل آخرون من زملائه يعرفهم أكثر مني ـ لكان له في عالم الأدب مكان غير هذا المكان وفي دنيا الفكر شأن غير هذا الشأن، على أن الفرصة لم تضع بعد وفي إمكان الأستاذ الساسي أن يحرر اسمه وأدبه من ذلك النفوذ وتلك الظلال وعندما يفعل - وإنه لفاعل إن شاء الله - فسيشعر بفداحة الظلم الذي فرضه على نفسه بدافع من الولاء أو الوفاء أو التقدير.

لي رجاء واحد عند صديقي الأستاذ عبدالسلام هو ألا يتسرع في الرفض أو الرد وألا يترك مجالا للتشكيك في نيات كاتب هذه الكلمة. ويحسن به أن يتمهل ويتريث ويدرس الموضوع دراسة هادفة متعمقة ويستشير بعض الأدباء أو المثقفين ممن اشتهروا بالحكمة والروية وحسن إدراك الأمور.

الموسوعة الأدبية*

الحلقة الثانية

الإسلامية.. والعلمانية

ونعود إلى مقدمة الأستاذ العواد ولن نقف عندها طويلا، ولن نناقش مستواها ولا أهميتها بالنسبة للموسوعة، ولكننا نتوقف قليلا عند بعض ما ورد في المقدمة.

وقد قام الكاتب بعقد مقارنة بين (أتاتورك) و (عبدالعزيز بن سعود) ونحن نربأ بالكاتب أن يعقد هذه المقارنة فالفارق كبير بين الرجلين فبقدر ما أحسن صقر الجزيرة عبدالعزيز بجمع الشمل وضم الشتات وتوحيد الكلمة وتدعيم العقيدة ورفع راية الإسلام، أساء الذئب الأغبر أتاتورك بتمزيق الأواصر وقطع الصلات ومعاداة الدين ومحاربة القرآن وإماتة العربية، إن أصدق ما يقال عن (أتاتورك) ما قاله أديب كبير من أن أتاتورك (أحيا دولة وأمات أمة، وبنى دستورًا، وهدم عقيدة، وبعث لغة ودفن ثقافة وهل هناك إساءة أكبر من إماتة أمة وهدم عقيدة ودفن ثقافة)، على أن اتاتورك لو بعث حيا في أيامنا هذه لما ملك عينيه من الدهشة فقد بعثت الأمة التي أماتها بقوة الإسلام وقامت العقيدة التي هدمها لأن أساسها القرآن. والإسلام لا يموت لأنه دين الله الذي رضيه لخير أمة أخرجت للناس والقرآن لا يفني لأن مصدره الحي الباقي تقدست أسماؤه.

وهذا كلام لن يرضي دعاة العلمانية ولن يعجب المخدوعين من شبابنا بتهاويل المبشرين ودعاوى الحاقدين وافتراء المبطلين ولكن لا يمنعنا من أن نقوله فقد أسفر

☆ نشرت في جريدة المدينة المنورة يوم الثلاثاء الموافق ٢١/١٢/١٣٨٨هـ العدد (١٥٢٧).

الصبح لذى عينين وصدق الله العظيم ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.

موقف من المواقف العجيبة في أدبنا الحديث

وجاء في المقدمة قول الأستاذ العواد (فمنذ خمس سنوات ظهر أول ديوان من الشعر الحر لفتاة من جدة أطلق عليها النقاد هنا لقب «خنساء الجزيرة العربية» وأطلق عليها النقاد في الخارج لقب «ساجان السعودية».

وهذا قول يستدعي الوقوف لتوضيح موقف من المواقف العجيبة في أدبنا الحديث فمنذ سنوات صدر ديوان صغير لفتاة ناشئة باسم «الأوزان الباكية» وهو ديوان أقصى ما يمكن أن يقال عنه أنه باكورة طيبة يدل على بوادر مستقبل طيب إذا استطاعت هذه الشابة الناشئة أن تنمّى.. موهبتها بالقراءة والدراسة والاطلاع ومواصلة النظم وكان أقصى ما تطمح إليه الشاعرة كلمة تشجيع صادقة وكلمة بناء بناءة، وفعلا تحدث عن الديوان أكثر من كاتب فأبرزوا ما في ديوانها من حسنات وأوضحوا ما فيه من عيوب ولم يبخلوا عليها بالثناء وعبارات التشجيع وفجأة خرج الأستاذ العواد على الناس بمقالات تتحدث عن الديوان لا باعتباره ديوانا لفتاة ناشئة ولا حتى باعتباره ديوانا (ممتازًا) ولكن باعتباره معجزة من معجزات الزمان وخارقة من خوارق الطبيعة، ولم يكتف بهذا بل أعطى لنفسه حقوقا لا يملكها (وامتيازات) لم يحصل عليها أحد قبله منذ دونت اللغة وبموجب هذه الامتيازات وتلك الحقوق منحت صاحبة ديوان «الأوزان الباكية» حق التصرف في قواعد اللغة العربية فعليها أن تقول، وعلى قواعد العربية أن تكيف نفسها وتعيد بناءها حسب رأي الشاعرة وهواها.

وهكذا حصلت الشاعرة على ما عجز عن الحصول عليه فحول الشعراء ابتداء من الفرزدق حتى أحمد شوقي ولم لا؟.. وشاعرتنا أفضل من فحول شعراء العربية، وهي بديوانها الصغير البكر قد استحقت لقب خنساء الجزيرة العربية كما لقبها

الأديب الناقد اللامع محمد حسن عواد وإذا ما عرفنا منزلة الخنساء في عالم الشعراء إذا عرفنا أنها كانت معروفة مقروءة في الجاهلية والإسلام فقد حضرت سوق عكاظ ففضلها النابغة على كل من حضر السوق إلا الأعشى.

وسئل جرير من أشعر الناس فقال أنا لولا الخنساء وكان بشار يقول: لم تقل امرأة الشعر إلّا ظهر الضعف فيه فقيل له وكذلك الخنساء؟!.. فقال: تلك غلبت الفحول.

وقد فضلها معاوية على الأخطل وهو حاضر عنده للإنشاد فاقر لها الأخطل بالفضل.

إذا عرفنا تلك المنزلة الرفيعة التي وصلت إليها الخنساء وعرفنا أن شاعرتنا الناشئة في رأي الأستاذ المفضال قد استحقت اللقب وهي في بداية الطريق كان معنى هذا أنها أفضل من الخنساء ولا شك.

أين ثريا من ساجان:

أما قول الأستاذ العواد (وأطلق عليها النقاد في الخارج لقب ساجان السعودية) وأنا أعترف بأنني لم اقرأ ما كتب هؤلاء النقاد ولعل الأستاذ العواد يعني ما كتبه بمجلة «آخر ساعة» حول هذا الموضوع، وكيفما كان الأمر فإنني أشك أولًا في نية هؤلاء الكاتبين ثم إنه ليس مما يشرف أديبة من بلادي أن يقال عنها إنها ساجان السعودية فأنا لا أحترم أديبة تقبل أن تعاشر رجلا - مهما يكن أمره - معاشرة زوجين من غير عقد شرعي وسموا رأيي ما شئتم تخلفا أو جمودًا أو رجعية.

وحتى لو صرفتم النظر عن هذه القضية فلا أعتقد أنكم واجدون ممن يؤيد وجهة نظر (النقاد في الخارج) حول هذا الموضوع.

ولا أحب أن أترك الحديث في هذه النقطة قبل أن أقدم اعتذاري للسيدة ثريا قابل فأنا لم أرد انتقاصها وإنما أردت تقرير الواقع ولقد أثبتت نضوجا في التفكير حين سألها أحد الصحفيين عن رأيها فيما كتب النقاد عن ديوانها - ولا يدخل في هؤلاء النقاد الأستاذ العواد لأن اسمه لم يرد في السؤال - فقالت إنها استفادت من ملاحظات

هؤلاء النقاد فاثبتت أنها تتمتع بتفكير متزن وإن كل ما كتب الأستاذ العواد لم يستطع أن يجعل منها ضحية للغرور.

هذه هي قصة (خنساء الجزيرة العربية) وهي قصة تصلح أن تكون موضوعا لرواية أسطورية ممتعة ولو أردت أن تبحث عن النقاد الذين أطلقوا عليها هذا اللقب فستعيد البحث ولن تجد غير كاتب واحد هو الأستاذ العواد. وهكذا فلم يبخل هو أيضا على نفسه فمنحها لقب (النقاد).

وكان ينبغي أن تظل هذه القصة في مكانها من الصحف ولكن الأستاذ الساسي - سامحه الله - أبى إلا أن ينقلها إلى الموسوعة الأدبية فلعلها تصبح بمرور الزمان وبنسيان ملابساتها حقيقة واقعية. ولعل سائلا يسأل ولكن الذي كتبها هو العواد لا الساسي، وأجيبه بأن هذا صحيح ولكن المسؤول في حقيقة الأمر هو الساسي إذ لو استطاع أن يتخلص من الظلال المفروضة عليه من وقت مبكر لما كانت هذه المقدمة ولما كانت ذيولها.

النقد بين التقويم والافتراس

وسأمر بباقي مقدمة الأستاذ العواد مرورا سريعا ولا أقف إلا عند قوله (وإنما تظهر براعة النقد وعمق أهدافه حيث يقبض علىالفريسة بدون أن يمس الشجرة الظليلة التى تتوارى وراءها الفريسة).

وتبين هذه العبارة نظرة الأستاذ العواد إلى النقد فهو لا ينظره على أنه عملية تقويم لكنه ينظر له على اعتبار أن الناقد إنسان مفترس والمنقود هو الفريسة وكيف تنتظر نتيجة هادفة أو عملا بناء من عملية الافتراس هذه سامح الله الساسي مرة ثانية.

وانتقل من مقدمة الأستاذ العواد إلى كلمة وهي كلمة قصيرة ولكنها كما توقعت لم تَخْلُ من آثار (الظلال) التي تصر على ملاحقة الأستاذ الساسي فلا تتركه لحظة ينعم بالهدوء أو بالوحدة كأنها موكولة به.

يقول المؤلف (فقد كان بودي أن تكون هذه الموسوعة بالشكل الأكمل الذي يعتمد على الدقة والتنظيم للعمل الموسوعي الصحيح وهو الشكل الذي رآه وأقره الشاعر الناقد الكبير الأستاذ محمد حسن عواد) ولست أدري ولا أحد يدري ما أهمية (رؤية) الأستاذ العواد وإقراره لأن المسألة إما أن تعتمد على التنظيم الموسوعي المعروف في العالم إذا تيسرت الظروف والإمكانات المادية والأدبية، وإما أن تسير على الطريقة التي سار عليها مؤلفونا الأوائل وسار عليها من جاء بعدهم وهي طريقة التراجم والنصوص فليس هناك مجال لرؤية أحد وإقراره لأن الظروف والإمكانات هي التي تحدد الوسيلة وذلك أمر واضح ولكنه في موسوعة الأستاذ الساسي يحتاج إلى توضيح لأن (الظلال) تُبْهِمُ الرؤية أمام عيني من وقعت عليه هذه الظلال فيجد نفسه مضطرا إلى توضيح المرائي أمام عيون الآخرين من غير أن يشعر أن المرائي واضحة أمام الآخرين لأن أشعة الشمس في المناطق الأخرى لن تحجبها غيوم ولا ظلال.

وليس في كلمة المؤلف بعد ذلك ما كنا نتوقع من توضيح لطريقته في الترجمة أو اتجاهه في اختيار النصوص ولعله اكتفى بما ورد في مقدمة الأستاذ العواد، وسنعود إلى ذلك بعد قليل لنتعرف على اتجاهات المؤلف وعلى مطابقة منهجه لما نشر من ترجمات ونصوص.

الموسوعة الأدبية*

الحلقة الثالثة

المصادر ووحي الصحراء

أورد المؤلف بعد كلمته التي أشرنا إليها في الحلقة السابقة بيانا لمصادره التي اعتمد عليها وقد راعني أن يغفل المؤلف مصدرا من أهم المصادر التي اعتمد عليها هو كتاب وحي الصحراء وهذا الكتاب مفخرة أدبنا وصدوره في الفترة التي صدر فيها كان ضرورة لازمة وأرجو أن يسمح لي الأستاذ الساسي بأن أقول: إن صدوره في الوقت الذي صدر فيه أهم بكثير من صدور الموسوعة الأدبية في هذه الآونة مع احترامنا العميق للأستاذ الساسي، فقد صدر وحي الصحراء في وقت كانت فيه صحفنا أسبوعية لا تتجاوز الاثنتين وكان توزيعها ضعيفا وانتشارها محدودًا وكانت وسائل النشر والإعلام في أضيق نطاق.

فصدوره في تلك الآونة بورقه الصقيل وطباعته المترفة وغلافه الجميل مصدَّراً بمقدمتين ضافيتين للدكتور هيكل والأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود كان خطوة جبارة موفقة، جلا وجه أدبنا وأزال الشكوك عن كفاءتنا الفنية وقدم للناس في الخارج نماذج تموج بالحيوية والتوهج.

ومن المؤكد أن الأستاذ الساسي قد اعتمد على هذا الكتاب وأنا على استعداد لتقديم الدليل، ومع ذلك فقد أغفله ولم يره أهلًا لأن يكون ضمن مصادره.

☆ نشرت في جريدة المدينة المنورة في عدد لاحق للعدد الموضح بالحلقة الثانية.

ولعلكم تدهشون إذ عرفتم السبب وهذا السبب تعرفه قلة قليلة ومن حسن الحظ أو سوئه أنني واحد من هذه القلة، والسبب في الحقيقة لا يعود للأستاذ الساسي، ولو خيّر لما اختار، ولكن السبب يعود للأستاذ العواد فإن بينه وبين كتاب وحي الصحراء خصومة قديمة وكان من جراء هذه الخصومة أن صور الكتاب دون أن يحتوي على صورة العواد أو ترجمته أو نماذج من أدبه، وعلى طريقة العواد - وانا لا أتجنى عليه - فما يجوز والأمر كذلك - أن يشار إلى هذا الكتاب من قريب أو بعيد في كتاب يشرف عليه العواد أو يلقي (ظلاله) عليه وكم يسرني أن يكذبني الأستاذ الساسي فينشر اسم كتاب (وحي الصحراء) في الجزء الثاني من موسوعته ولو تحت عنوان (تنبيه) أو استدراك.

ونعود إلى مقدمة الأستاذ العواد لنتعرف على منهج المؤلف وطريقته إذ إن المؤلف كما يبدو ترك هذه المهمة للأستاذ العواد وكان هو أولى بها وأحق.

منهج.. وطريقة

وأهم نقطة تتصل بموضوعنا قول الأستاذ العواد (ترك - المؤلف - الاختيار والتمييز... لأنه أراد لكتابه أن يكون موسوعة حرة وهو لهذا ترك الترجمة للكاتب نفسه يصور حياته كما يشاء ويرد وقائع أعماله وتاريخه كما يشاء فيكتب ترجمة حياته بنفسه وهو مسؤول عنها).

وواضح من هذا أن المؤلف ترك للكاتب مطلق الحرية في ترجمة حياته وهذا ما يجب أن نناقشه، فهل من المعقول أن يترك للكاتب حريته في أن يكتب ترجمة حياته كما يشاء، وفي الكتّاب من يحرص على التهويل الكاذب والدعوى العريضة أم أن هناك حدودا لابد من الوقوف عندها؟ انا لا أتصور أن تعطى الحرية للكاتب بدون حدود أو قيود وإلا أصبحت الموسوعة معرضا للدعاوة والتفاخر والادعاء والشيء الطبيعي المنطقي والمعقول أن يترك الكاتب أن يتحدث عن حياته وأعماله بدون أن يصحبها ثناء أو طنطنة أو تمجيد ومن الأمثلة الطيبة على ذلك في الموسوعة الأدبية ترجمة

الأستاذ أحمد السباعي فهي رغم طولها الذي استغرق صفحتين ترجمة مناسبة لأنه تحدث فيها عن ولادته ودراسته ووظائفه وأعماله.

ولكن في الموسوعة ترجمات تجاوزت الحدود التي أشرنا إليها ونذكر منها على سبيل المثال آخر ترجمة في الموسوعة ترجمة السيدة (ثريا قابل) فقد ورد فيها (وتعتقد السيدة ثريا قابل أن ما تكتبه ليس من الأهمية بحيث يحفظ وينشر ويذاع لأنه مجرد خواطر تقصد بها المشاركة في بناء أمتها ووطنها الذي أحبته بينما يعتبره النقاد ذوو الثقافة الواسعة انبثاقة قوية ملأ بها الجنس العطوف الدنيا وشغل الناس هنا وأقام قيامة ذوي الآفاق الضيقة من العائشين على هوامش الأدب).

فهل كتبت السيدة المفضالة هذا الكلام عن نفسها؟ أنا استبعد أن تكون قد فعلت ذلك فهي (أعقل) من أن تتصور أن (خواطرها) (ملأت الدنيا وشغلت الناس) وأنا أرجح أن يكون (غيرها) قد فعل ذلك لأسباب ثلاثة:

أولها: أنها قد قررت أنها استفادت من الملاحظات التي وجهت إليها، وهذا يدل على الحكمة والاتزان.

ثانيها: إن في طريقة التعبير ما يدل على ان الكاتب غيرها.

ثالثها: وجود عبارات تفيض بالثناء والإعجاب في ترجمات بعض الأدباء ممن نعتز بعقلهم ونثق في أخلاقهم ونكاد نجزم بأن هذه العبارات دخيلة على ما كتبوا إذا كانوا قد كتبوا هم أنفسهم ترجماتهم فعلا.

ونستطيع أن نقرر في ضوء ماكتبنا أن إعطاء الحرية الكاملة أمر غير مقبول من جهة ومن جهة أخرى فإن هذه الحرية لم تكن كاملة في الموسوعة الأدبية بالنسبة لبعض الترجمات إذ تدخلت فيها (يد أخرى).

وكم كنا نود لو اتبع المؤلف طريقة وحي الصحراء وهي طريقة تتسم بالحياد الدقيق، ولكن المؤلف لم يكن يستطيع سلوك هذه الطريقة فليس له الخيرة من أمره ولن أذكّر بقصة الظلال.

وبناء على ذلك فإن قول الأستاذ العواد (وبلغ من دقة الساسي وحرصه على ترويج هذه الطريقة بين مؤلفي المجموعات الأدبية أنه لم يرتب الأدباء في الكتاب وإنما ترك الترتيب للأسماء فالاسم الشخصي للأديب هو الذي يرتبه ويحدد مكانه التقليدي في صفحات الكتاب حسب حروف الهجاء، وفي هذا منتهى العدالة ومقطع الظن عن المحاباة او المجاملة).

هذا القول لا يتفق مع الواقع حتى وإن انبطق شكلا فهو لا ينطبق موضوعا.

فأولا ليس صحيحا أن الأستاذ الساسي هو صاحب فكرة ترتيب الأسماء حسب الحروف فهي فكـترة تقليديـة وإذا أردنا أن نحصر بحثنا في نطاق العصر الحديث فإن مؤلفي كتاب وحي الصحــتراء كانا أسبق إلى تنفيذ هذه الفكرة، وإذًا فليس لقضية الترويج هذه مجال للحديــث عنها وهو شرف لا أعتقد أن الأستاذ الساسي يدعيه.

أما أن (هذا منتهى العدالة وتقطع الظن عن المحاباة أو المجاملة) فهذا - مع الأسف - صحيح شكلا لأن الأسماء قد رتبت فعلا حسب الحروف الهجائية ولكنه غير صحيح موضوعا لأن (قلم) الساسي أو (غيره) قد تدخل وحــاول تكوين بعض الترجمات وقد اتخذت (الحرية) حجــة أو تكــأة لتنفيذ بعض المآرب الخاصة.. فإذا عرض ناقد للموضـــوع قيل له أن الكتّاب هم الذين كتبوا ترجماتهم وهي حجة واهية وتكأة ضعيفة.

نصيحتي للأستاذ الساسي أن يستبد ولو مرة فيتخلص من الظلال وبعدها يستطيع أن يسلك في موسوعته الاتجاه السليم الذي سلكه من قبله كتاب وحي الصحراء.

ملاحظات قليلة

بقيت ملاحظات قليلة أرجو أن يتسع لها صدر صديقنا الأستاذ الساسي.

وأول هذه الملاحظات هي قضية النصوص أو النماذج الأدبية وأعتقد أن من الضروري تحديد ما ينشر لكل كاتب أو شاعر فنحن نجد في الموسوعة نماذج كثيرة لأديب واحد بينما نجد نموذجا واحدا لغيره وقد لا نجد لأديب أخر أي نص. ولو أمكن أن يوضع حد أعلى لما ينشر من النصوص لكان أولى، وعلى أي حال فهذه ملاحظة يسيرة لا تدخل في صميم الموضوع.

والملاحظة الثانية هي موضوع الاختيار فقد رأيت نصوصا منشورة لبعض الأدباء ليست من أجود ما كتبوا، وأشك كثيرا في أن يكون لهم رأي في نشرها، ويبدو من كلمة المؤلف ومن الشكوى المرة التي أشرت إليها في بداية هذه الحلقات أن طائفة من الأدباء لم تستجب لدعوة المؤلف وقد حرص - مشكورا - على أن يكون لهم نصيبهم في هذه الموسوعة فاختار لهم بعض النصوص من المصادر التي توفرت لديه، وحبذا لو تأنّى الأستاذ المؤلف واستعان ببعض الأدباء (المحايدين) لتحصّل على نصوص جميلة منتقاة، وهذه ملاحظة جانبية.

والملاحظة الثالثة هي أن طائفة من الأدباء الذين فسح لهم المؤلف مجالا في موسوعته قد قدمت لهم المطابع كتبًا كثيرة، وفي رأيي أن هذه الطائفة ليست بحاجة إلى نشر نصوص من آثارها العالية ويكتفى بتقديم ترجمة مفصلة لكل شخصية من شخصياتها لأن الكتب موفورة منشورة ولكن الترجمة هي التي لا تتوافر، وقد كان المؤلفون القدامى مضطرين إلى الإكثار من النماذج في كتب التراجم بسبب الاعتماد على المخطوطات وعدم توفر وسائل النشر والطباعة.

وبهذه الطريقة يستطيع الأستاذ الساسي أن ينشر نماذج أكثر للأدباء الآخرين الذين لم تسهم المطابع في نشر إنتاجهم، وهذا مجرد اقتراح.

والملاحظة الرابعة هي أن ضمن المصادر التي استعان بها المؤلف كتاب (شعراء هجر) وذكر أن مؤلفه هو عبدالفتاح محمد الحلو وقد سمعت قصة حول هذا الكتاب، وبلغني أن (الحلو) ليس مؤلفه وأن مؤلفه الحقيقي هو رجل فاضل من أهل الأحساء كان قد كلّف (الحلو) بطبع الكتاب فأخذه وطبعه بعد أن نسبه إلى نفسه.

وأنا اكتفي بهذه الإشارة فلعل المؤلف الحقيقي أو لعل (الحلو) إذا كان هو المؤلف أو لعل أحد الأدباء في المنطقة الشرقية يكشف لنا حقيقة الموضوع ويعود الحق إلى نصابه.

المدينة .. لا يثرب

أما الملاحظة الخامسة - ولعلها الأخيرة - فهي تتصل بلقب أضفاه المؤلف على الشاعر (إبراهيم الأسكوبي) إذ لقّبه بشاعر يثرب، واعتراضي ينصب على كلمة يثرب. ولست أدرى الحكمة في اختيار هذا الاسم الجاهلي ومن العجيب أن للمدينة ما يقارب المائة من الأسماء مذكورة في مظانها من الكتب وكلها أسماء إسلامية ورد بعضها في القرآن وورد بعضها الآخر في الحديث النبوي ومع ذلك فإن مؤلف الموسوعة - غفر الله له - لم يجد إلا اسم يثرب ينسب إليه الأسكوبي.

واسم يثرب اسم جاهلي كرهه الإسلام لأنه مأخوذ من الثرب بفتحتين وهو النار ومن التثريب وهو المؤاخذة بالذنب أو لأنه اسم كافر أو لهذه الأسماء مجتمعة.

وقد ورد في كتب الحديث نهيه - صلى الله عليه وسلم - عن تسمية المدينة بيثرب وجاء في بعض الأحاديث (من قال يثرب مرة فليقل المدينة عشر مرات) وروى أحمد وأبو يعلى (من سمّى المدينة بيثرب فليستغفر الله وهي طابة) وفي رواية (فليستغفر الله ثلاثا) ولهذا قال عيسى بن دينار (من سمى المدينة بيثرب كتبت عليه خطيئة).

إن من أسماء المدينة: طيبة، وطابة، والغراء، والعاصمة، والعذراء، والحبيبة، والإيمان، والمؤمنة، والمباركة، والمحبوبة، والمختارة، وقبة الإسلام، وأرض الهجرة، وآكلة البلدان، وبيت الرسول، ودار الأبرار، وسيدة البلدان، وفي كل منها غنى عن يثرب.

وفي نهاية تطوافنا الطويل أحب أن أوجّه الشكر خالصا إلى الأستاذ عبدالسلام الساسي على جهده الكبير في إبراز هذه الموسوعة وإخراجها للناس، وأن أؤكد له أن ما كتبته عن الموسوعة كنت مدفوعا إليه بحبي له واعتزازي بخبرته وإعجابي بصبره ورأيه وله الشكر الأوفى أولاً وأخيرا على تفضله بإهدائي الجزء الأول من موسوعته الأدبية التي أرجو أن يوفق إلى إخراج أجزائها الباقية في وقت قريب.

المرأة بين الشرق والغرب*

الشرقيون أو كثير منهم متهمون بالرجعية والجمود والتخلف لأنهم يقاومون فكرة تحرر المرأة ففي نظر المتحررين يجب أن تأخذ المرأة حريتها كاملة شأنها شأن الرجل، ومن شأن هذه الحرية الكاملة أن تتيح للمرأة أن تتعلم كما يتعلم الرجل وأن تقف معه موقف الند للند وأن تزاحمه في كل المجالات بما في ذلك مجال العمل ومجال الوظائف.

فإذا قال قائل ولكن التكوين البشري في المرأة غيره في الرجل وأن وظيفة المرأة التي أعدتها لها القدرة الإلهية تغاير تماما وظيفة الرجل في الحياة، ثارت في وجهه النساء ومن يناصرهن من الرجال واتهموه بالتحجّر والتخلف وضيق الأفق.

فإذا ضرب لهم الأمثال من هنا ومن هناك صاحوا في وجهه: أنت تعيش في زمن غير زماننا هل تريد أن توقف تيار التطور؟ إننا نعيش في عصر النور ولن يستطيع أحد كائنًا من كان أن يقودنا إلى عهود الظلام.. فإذا حاجهم بمنطق العقل حاجوه بمنطق العاطفة وضربوا له الأمثال بالمرأة الأوروبية التي طارت في الفضاء أو قامت بعمل من أعمال الرجال.

وأخذوا يعدون له الأمثلة، فإذا قال لهم أنتم تنظرون إلى الجانب المشرق فقط من جوانب تحرر المرأة وهو جانب واحد ولكنكم أغفلتم الجوانب الأخرى وهي جوانب مظلمة، ولو نظرتم إليها نظرة الباحث المدقق لخففتم من اندفاعكم ولتراجعتم في أحكامكم، فإذا قال لهم ذلك هاجوا وماجوا وعادوا مرة أخرى إلى تكرار أسطوانة الجمود وقصر النظر.

(*) نشر في جريدة المدينة المنورة في ١١/٩/١٣٨٥هـ العدد (٥٥٩).

قلت في بداية الحديث إن الشرقيين أو كثيراً منهم متهمون بالتحجر والتخلف وهذا شيء معروف لا يكاد يجهله أحد ولكنني اكتشفت مؤخرا أن الغربيين يشاركوننا في هذا التخلف وهذا هو الأمر الجديد الذي يستحق الحديث.

ولا أحب أن أحرم القراء متعة هذا الاكتشاف الظريف ولذلك فسانقل لهم أمثلة تؤيد هذا الاكتشاف.. وأما المثل الأول فهو منقول عن اليونان، والشعب اليوناني شعب عريق في الحضارة وله على الإنسانية أياد بيضاء وفي تاريخ المدنية صفحات مشرقات وحسبه أن يكون من أعلامه سقراط وأرسطو وأفلاطون وغيرهم من أعلام المفكرين والأدباء والفلاسفة، وقد كانت لهم نظرتهم إلى المرأة، وقد خلّدوا جمالها بتمثال - فينوس - وغيره من التماثيل التي ظلت تصارع الفناء حتى اليوم.

فمنذ شهور قليلة[1] وضعت ملكة اليونان بنتا، وحسب المراسيم كان لابد أن تطلق المدفعية عددًا من الطلقات إعلانا وابتهاجا بهذه المناسبة السعيدة لأن البنت بحكم القانون ستكون ولية العهد.

وذلك الأمر عادي فذلك ما تعمله أكثر الدول عند ولادة ولي العهد أو وليته، ولكن الجديد في الأمر هو عدد الطلقات، فقد قرر في الأسابيع القليلة التي سبقت تاريخ الولادة أن تطلق المدفعية مائة طلقة وطلقة لو كان المولود ولي العهد ذكرا أما إذا كان أنثى فستقتصر المدفعية على إطلاق واحدة وعشرين طلقة.

أفلا نستطيع أن نستنتج من هذا التصرف أن اليونان تشاركنا - معشر الرجعيين - في النظرة إلى المرأة نظرة دون النظرة إلى الرجل؟ هذا أمر واضح ولا غبار عليه، فالمرأة في عرف اليونان أقل بكثير من الرجل، والرجل أفضل من المرأة بكثير.

(١) ما بين عامي ١٣٨٤/١٣٣٨٥هـ انظر تاريخ نشر المقال.

وإذا أردنا أن ننظر إلى الموضوع في ضوء علم الأعداد فسنجد أن المرأة في نظرهم تساوي خُمس رجل - بضم الخاء - وأن الرجل يعادل خَمْس نساء هذا في اليونان البلد الأوروبي العريق في الحضارة.

أما المثال الثاني فهو من كوبا بلد السكر وكاسترو والشيوعية الملحدة. ومن المعروف أن كوبا واحدة من دول أمريكا اللاتينية أو أمريكا الجنوبية وقد شغلت الناس منذ عامين وكادت تقع بسببها حرب عالمية[1]، ومن يومها اكتسبت شهرة في دنيا السياسة وقد اختصها الكاتب الفرنسي المشهور زعيم الوجودية وفيلسوفها بكتاب خاص سماه (عاصفة على السكر) والسكر من أهم ما تنتجه كوبا.

وقد نشأ عن تسرب الشيوعية المقيتة إلى كوبا أن خرج منها عدد كبير من الناس هربا من جحيم الشيوعية، وبذلك انقسم الكوبيون إلى قسمين: قسم داخل كوبا وقسم خارجها، وقد وقع صراع عنيف بين القسمين، وقع بسببه عدد ممن يعيشون خارجها أسرى في أيدي كاسترو وأتباعه، وقد تم الاتفاق أخيرًا على تبادل هؤلاء الأسرى فقرر كاستروا أن يقدم أسيرًا ممن يحتفظ بهم مقابل أسير من الذين وقعوا في قبضة الكوبيين الخارجيين أما بالنسبة إلى النساء فقد قرر أن يقدم عشرين امرأة مقابل كل أسير من الرجال خارج كوبا.

أليس معنى هذا أن الشيوعية الكافرة تنظر للمرأة نظرة تختلف تماما عن نظرتها للرجل، وأنها تقر بتفوق الرجل على المرأة في كل نواحيه وهل نفهم من ذلك أن المرأة تساوي نصف عشر الرجل؟.. مع أن الشيوعية وهي مبدأ خطر على الدين والخلق والحضارة والوجود الإنساني تزعم أنها تعتنق مبدأ المساواة بين جميع المواطنين

(١) كادت هذه الحرب أن تنشب بين الاتحاد السوفياتي «وقتئذ» وبين الولايات المتحدة الامريكية بسبب تفكير الاولى بإقامة حائط من الصواريخ النووية على ساحل كوريا الامر الذي جعل الولايات المتحدة تعارض ذلك وتكهرب الجو لولا حكمة الدولتين في آخر لحظة وكان ذلك في ولاية «جون كندي» الذي اغتيل عام ١٩٦٣م.

رجالا ونساء.. فهل اقتنع كاسترو وهو أحد أقطاب الشيوعية المجرمة بعد بحث طويل أن هذه المساواة مخالفة للفطرة وطبيعة الأشياء؟.

أما المثل الثالث فيأتي من فرنسا وهي ـ كما يزعم الفرنسيون - الوطن الثاني لكل مثقف، كما أن باريس في عرف الناس مدينة النور وقد هام بحبها طائفة من الأدباء الشرقيين هياما عجيبا نذكر منهم الأستاذ أحمد الصاوي والدكتور زكي مبارك والدكتور طه حسين وقد أخرج الأول كتابا عنها سماه - باريس - وأصدر الثاني كتابا سماه - ذكريات باريس - وأصدر الثالث كتابا أطلق عليه - صفوة باريس - وتتمتع فرنسا بشهرة واسعة في عالم الأزياء وتحرر المرأة ونوادي الليل المختلفة.

وقد خطر للجنرال شارل ديجول أن يقفز بالمرأة الفرنسية خطوات جديدة وأن يمنحها مزيدا من الحقوق أثناء رياسته الماضية، ورغم كل الحقوق التي حصلت عليها المرأة الفرنسية من عهد نابليون حتى الآن فقد ظلت القوامة في يد الرجل فهو سيد البيت ورئيسه، ولكن الجنرال ديجول أراد أن يسلب الرجل هذا الحق فتقدم بمشروع حول هذا الموضوع.

ولست أدري أكان الدافع لديجول لاحتضان هذا المشروع إيمانه بالمساواة المطلقة بين الرجل والمرأة أم أنه أحب أن يضمن الفوز في الانتخابات الأخيرة ورأي أن يكسب أصوات النساء وعددها ليس بقليل، فتقدّم بمشروعه العجيب.

أنا شخصيا أرجح الاحتمال الثاني لأن نظرة ديجول إلى المرأة تتسم بغير قليل من التزمت وعدم التقدير.

فهذا الصحفي البريطاني (وليم ميلينشيب) يذكر في مقالته المنشورة في «الأوبزرفر» اللندنية والتي نقلتها جريدة المدينة في عددها الصادر بتاريخ ١٣٨٥/٨/٢٨هـ عندما زار الرئيس كنيدي باريس عرف عن نفسه علنًا بأنه (جاء إلى أوروبا برفقة جاكلين كنيدي) مثل هذه الملاحظة لا يمكن أن تصدر عن ديجول، ففي كل ما نشره من مذكرات لم يذكر زوجته إلا مرة واحدة بصورة عابرة.. وذات مرة صرفها عن حديث

سياسي جرى بعد العشاء بأن قال لها ببساطة: (بونسوار أيفون) هذا ما ذكره الصحفي البريطاني وعلى كل حال فقد ظهرت نتيجة الانتخاب ولم يفز فيها الجنرال إلا بعد أن دخل الجولتين الانتخابيتين الأولى والثانية ومع ذلك لم يفز إلا بأغلبية ضئيلة، فهل نستطيع أن نفسر هذا بأن الشعب الفرنسي لم يرحب بمشروع ديجول، أم أن الشعب الفرنسي قد ضاق ذرعا بالحالة الاجتماعية التي وصلت إليها المرأة في فرنسا وما جرته هذه الحالة من تفكك وتدهور وانحلال؟.

هذا أمثلة ثلاثة لتعطي أصدق الدليل على أن الغربيين أو بعضهم على الأقل يشاركوننا في الرجعية والجمود والتحجر بالنسبة للمرأة ويتفقون معنا في ضرورة الوقوف بالمرأة عند حد محدود لا يخرج بها عن طبيعتها الأنثوية.

ولا نحب أن ننهي هذا المقال قبل أن نشيد بعظمة الشريعة الإسلامية فقد وضعت المرأة في المكان الذي يجب أن توضع فيه وأعطتها حقوقها كاملة غير منقوصة من غير إفراط ولا تفريط.

داود باشا المفترى عليه*

أحب قبل بداية هذا الحديث أن أزيل لبسًا علق بالأذهان وأن أصحح مفهوما خاطئا لا بد من تصحيحه فقد أصبح في حكم البديهي - مع الأسف - إنني كلما تناولت عملا أدبيًا من أعمال الأستاذ العواد أن يُنظر إلى هذا التناول باعتباره حلقة من سلسلة طويلة من الخصومة بيني وبين الأستاذ العواد، ووجه الخطورة في هذا المفهوم أنه يضفي ستارًا من الشك على جدية البحث والمناقشة فيقرأ القارئون ما أكتب وخيالهم يصور لهم كتاباتي وكأنها امتداد مقصود لما سبق من خصومة أدبية، وكأن الواقع الدافع إلى الكتابة هو الرغبة في الانتصار أو في مزيد منه، وهذا المفهوم لا يتفق مع الواقع.

صحيح أنني أختلف مع الأستاذ العواد اختلافا كبيراً وأوشكت أن أقول وجوهريا أيضا وهذا الاختلاف الكبير هو الذي يكمن وراء كثرة ما أتناوله من أعماله الأدبية، ولكنني أستطيع أن أؤكد بوضوح وبمنتهى التجرد أن كل عمل أتناوله من أعمال الأستاذ العواد فإنني أتناوله بنزاهة ودون أن يكون لأي خصومة أثر في تلوين نظرتي إليه أو في الحيلولة دون وضعه في موضعه الصحيح.

وإذا بدا في كتاباتي عن عمل من أعمال الأستاذ العواد ما يشير إلى رأي سابق أو فكرة مضى الحديث عنها، فليس الغرض هو ربط خصومة جديدة بأخرى قديمة ولكن المراد هو تأييد رأي برأي وفكرة بفكرة، وشتان بين هذا وبين ذاك الوهم الذي علق بالأذهان، وهو وَهْم لا يعبِّر عن الواقع أصلا.

☆ نشر بجريدة المدينة المنورة يوم الثلاثاء ٢ من شهر المحرم ١٣٩٠ العدد (١٨٠٦).

وأرجو أن أكون بهذا قد أوضحت غموضا، وأزلت لبسًا، وصححت مفهوما يلفه الخطأ، ثم انتقل بعد ذلك إلى موضوع اليوم.

فقد كتب الأستاذ العواد مقالا في جريدة البلاد الغراء الصادرة في ١٢ شوال ١٣٨٩هـ وقد تعرض في مقاله لتصحيح بعض الأخطاء الواردة في معجم الأدب والعلوم. ويبدو أن الأستاذ العواد وجد في أخطاء هذا المعجم مجالا فسيحا يلجأ إليه كلما أعوزته موضوعات الكتابة، وإلا فقد عرض كاتب في مجلة العرب لمائة من هذه الأخطاء في العدد الصادر في شهر شوال من هذا العام.

وهذا أمر ثانوي على أية حال، أما الأمر المهم فهو أن الأستاذ العواد قد وجد خطأ بالمعجم المذكور في الصفحة ١٨٩ في ترجمة داود باشا الكرجي حيث قال عنه المؤلف فردينان توتل: إنه (آخر ولاة العثمانيين على بغداد من فرع المماليك سعى في إبادة الإنكشارية، أقيم واليا على قبر النبي توفى في المدينة ١٨٥١).

وبادر الأستاذ العواد مشكورا إلى تصحيح خطأ وقع من المؤلف في هذه الترجمة فقال: (وداود باشا هذا لم يُعيّن واليًا على قبر النبي - صلى الله عليه وسلم - وإنما على المدينة كلها وما حولها من القرى والمواقع حيث الولايات إنما تكون هكذا بمعنى أنها إدارات لشؤون البلدان الاجتماعية وليست إدارات للقبور وليس في تاريخ العثمانيين ولا في تاريخ الإسلام عامة أي ولاية يعين لها حاكم من أجل القبر الشريف).

وهذا خطأ كبير وقع فيه المؤلف لا يهون من شانه أن المؤلف نصراني لم تتح له ظروفه ولا ثقافته أن يعرف وضع مدينة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولا نظرة الإسلام إلى النبي الكريم في حياته وبعد مماته - صلى الله عليه وسلم - كما لا يقلل من فداحة الخطأ أن المؤلف ربما قصد من كلامه إطلاق الجزء وإرادة الكل في ضوء مفهومه النصراني عن تقديس الأنبياء أو في ضوء مفهوم كثير من المسلمين ممن عاصرهم المؤلف ممن يجهلون عقيدة التوحيد ويدعوهم غلوهم إلى نوع من

الشرك. أجل كل ذلك لا يقلل من شناعة الخطأ وقد أحسن الأستاذ العواد في تصحيح هذا الخطأ حتى لا ينخدع ضعاف الثقافة بهذا المفهوم الخاطئ وربما جرهم ذلك إلى محاذير في دينهم ودنياهم.

ومع ذلك فلو وقف الأستاذ العواد عند هذا الحد لاستحق الثناء والشكر ولكن اسم داود باشا ذكره بالقصة التي رواها المنفلوطي في (النظرات) حول قول النحاة ضرب زيد عَمْرًا فلخصها ولو وقف أيضا عند هذا الحد لكان الأمر طبيعيا ولكن الأستاذ العواد أعقبها بقوله: (ولست أدري أوقعت هذه الحادثة حقيقة أم هي نكتة من نكات المتندرين بأمثال داود باشا من ذوي الغفلة) ولم يكتف بذلك بل أراد أن يشعر الناس بأنه عالم من أكبر علماء الفراسة فهو يستطيع أن يتعرف على مدى ما يتمتع به شخص ما من ذكاء أو غباء عن طريق التفرس في صورته فيحكم عليه حكما قاطعا لا يقبل الجدل فهو يقول في خاتمة تعليقه: (وإذا كنا لا ندري الحقيقة فإن القارئ الذي يطلع على صورة داود باشا الكرجي هذا التي نشرها (توتل) إلى جانب التعريف به في كتابه في صفحة ١٨٩ تتبين له بوضوح إمارات الغباء والبله على وجه الرجل).

وقد أثارت هذه الاتهامات التي ألصقها بالرجل ظلمًا وعدوانا ودون الرجوع إلى المصادر التي لديها العلم اليقين أثارت العلّامة الكبير الشيخ محمد نصيف - أمد الله في حياته النافعة - فكتب كلمة يصحح فيها ما وقع فيه الأستاذ العواد من أخطاء ذكر فيها أن داود باشا كان من العلماء بأمور الدين والدنيا وتحدث عن بعض مآثره، وكان المفروض بعد هذا أن يرجع الأستاذ العواد إلى الحق وأن يعترف بخطئه ولكنه أصر - كعادته عفا الله عنه - على أن يمضي في طريق الخطأ دون أن يحفل بآداب العلماء والمتعلمين وأضاف إلى تهجماته تهجمات أخرى أدخل فيها الشيخ الأفندي - حفظه الله - فزعم أن التصحيح الذي كتبه الشيخ لم يكن يهدف به إلى تحرير مسألة أو تحقيق موضوع أو الدفاع عن حق مهدور ولكنه أراد (الاتصال به عن

طريق الصحف اتصالا غير مباشر لا أكثر ولا أقل) وهذا اتهام لا يقبله شيخنا الأفندي ولا يقبله أحد ممن يحترم العلم ويعرف قيمة العلماء.

ومرة أخرى لم يكتف الأستاذ العواد بهذه الإساءات المتتالية لشخص داود باشا ثم لشخص الشيخ محمد نصيف بل أراد أن يتوج إساءاته الكثيرة بإساءة بالغة للعلم نفسه فهو يقول: «أما الزيادة في ترجمة عابر الذكرى داود باشا الكرجي فهي غير ذات بال في موضوعنا.. وإلا فماذا يهمنا أو يهم التاريخ أن يكون (داود باشا الكرجي) شيخا للكناسين في المسجد النبوي أو قيما على الأغوات بعد أن كان حاكما للعراق.. ثم ماذا يفيد التاريخ بعد ذلك أن يكذب عليه قدامى المؤرخين فيزعمون له أنه كان من العلماء بعلوم الدنيا والآخرة ولم يبق عليهم - عفا الله عنهم - إلا أن يكملوا هذا الفرمان بإضافة (وعلم اللوح والقلم) ويتركون هذه الدعوة خالية من دليل واحد يثبتون به علمه الدنيوي أو الأخروى هذا برغم أنهم شهدوا عليه بالخيانة العظمى للدولة العثمانية، وهذا منتهى التناقض).. نعم سلسلة من الإساءات تجر كل واحدة منها الأخرى يرصها العواد في مقال ينشر في جريدة سيارة وأشهد أني شعرت بمنتهى الخجل وأنا أقرأ هذا الكلام فماذا يقول المثقفون - في غير بلادنا - وهم يقرأون هذا الكلام وبماذا يحكمون علينا حين يعرفون أن كاتب يدعي الزعامة الأدبية يسخر من العلم والعلماء ويهزأ بالبحث والباحثين يلغي التاريخ بجرة قلم، ويدعو إلى الغاء الجامعات والكليات ودور البحث ويصدر أحكاما لو صدرت من طالب في المدرسة الثانوية لأثارت السخط والاشمئزاز ولدعت الناس إلى اتهام أساتذته ومعلميه بالجهل والقصور وضيق الأفق؟!.

قلت أنني شعرت بمنتهى الخجل وأنا أقرأ إساءات الأستاذ العواد وتساءلت عما يقوله المثقفون في غير بلادنا لأن المثقفين في بلادنا قد تعودوا على أمثال هذه الشطحات من العواد فلم تعد تهزهم أو تثير مشاعرهم وهم يقابلونها بضحكة ساخرة أو تعليقات عابرة ثم يطوون الجريدة كما لو لم يكن شيء.

وليس معنى هذا أنني أقر شطحات العواد حتى ولو كان ما يكتبه لا يتجاوز دائرة معينة لأن السكوت على أمثال هذه الشطحات يسجل علينا جهلا نربأ بأمتنا أن ترضى به ثم أنه قد يضلل بعض المراهقين والمراهقات ممن تعجبهم هذه الشطحات نتيجة ضعف في فهمهم أو نقص في ثقافتهم أو اضطراب في موازينهم ومن أجل هذا سأقف طويلا عند دعاوى الأستاذ العواد حول داود باشا أفندها وأوضح ما فيها من زيف وتحامل نتيجة ضعف في الاطلاع وقصور في البحث والمراجعة.

داود باشا المفترى عليه*

الحلقة الثانية

ونعود لنبدأ القصة من أولها وتبدأ القصة من تلخيص الأستاذ العواد لقصة زيد وعمرو كما سماها المنفلوطي أو قصة (ضرب زيد عمرا) كما سماها العواد فما هي هذه القصة وكيف ارتبطت بداود باشا وكيف انحدرت إليه على امتداد القرون لتكوِّن - بكسر الواو وتشديدها - مع اسمه قصة طريفة يتظرف بها المثقفون من أصحاب الحس المرهف والشعور الرقيق ثم كيف تحولت هذه القصة في فهم العواد وقلمه إلى لعنة تنزل على رأس الرجل العظيم داود الكرجي؟.

نعم كيف حدث هذا؟ ذلك ما سنعرض له هنا بقليل من التفصيل، ولن نعود إلى القرون الأول من الهجرة لتتبع بداية هذا المثل النحوي ولنتعرف على قائله الأول ونتبين السر في اختيار زيد وعمرو دون غيرهما من أسماء لا يحصيها عدٌّ ثم نبين السر في اختيار الفعل (ضرب) دون غيره من الأفعال التي تكاد تضيق بها كتب اللغة ثم نواصل البحث والتحري لعلنا نعرف السبب في متابعة النحاة لمخترع هذا المثل وعدم استنكارهم له والتمرد عليه لن نفعل ذلك لأن ذلك سيطيل الرحلة ويبعدنا عن الهدف بالإضافة إلى أنه يستدعي بحثا مستقلا ليس هذا مجاله الآن.

وحسبنا أن نبدأ من المنفلوطي، وقد لخص العواد القصة فقال: (القصة تتلخص في أن داود الحاكم خطر بباله أن يعرف سبب الضرب الذي ينهال من زيد على رأس عمرو بصورة مستمرة منذ أن ظهر علم النحو في الوجود.

(☆) نشرت بجريدة المدينة المنورة الثلاثاء الموافق ٩ من شهر المحرم ١٣٩٠هـ العدد (١٨١٢).

ولعله ظن أن السبب هو ارتكاب عمرو لبعض الجرائم المغلظة في حق زيد فاستمر يضربه كما جاء على ألسنة الطلبة والمؤلفين مئات السنين وكأنما هي لعنة أبدية يصبها زيد على رأس عمرو وكلما استراح من العذاب جدد تعذيبه نفس ما يقع للمجرم (سوسيغوس) تحت الأرض من تكليفه بصعود قمم الجبال حتى إذا انتهى إليها كُلِّف بالعودة ثم استئناف الصعود تباعا بلا رحمة كما ترى خرافة (الميثولوجيا)، ولم يجد داود باشا جواب سؤاله عند علماء بغداد فيحقرهم ويطردهم ويتهمهم بالجهل حتى تفتقت الحيلة من رأس أحد الأذكياء وعرض نفسه على الوالي ليشرح له الأمر واستدعاه الوالي ليوقفه على السر في حفلة حافلة فقال الذكي أن عَمْرًا ارتكب جرم السرقة ولم يكفر عن خطيئته فسلط عليه زيد ليضربه حتى يعترف وأشرأبت عنق الوالي وأعناق الحاضرين لمعرفة حقيقة هذه السرقة الخالدة التي تجرأ عليها هذا الأثيم (عمرو) فقال الذكي: إن سرقة عمرو هي جرأته على اختطاف حرف الواو من اسم سيدنا الوالي وأضافها إلى اسمه حيث كان اسم داود هكذا (داوود) وكان اسم عمرو مجردا من الواو وكان يشبه اسم عمر - بضم العين وفتح الميم - في الكتابة، فأصبح اسم داود مجردا من واوه واسم عمرو مذيلا بهذه الواو التي سرقها هذا المجرم فعاقبه النحاة بإغراء زيد بضربه كل يوم على ألسنة التلاميذ والمعلمين وفي بطون الكتب، فسري عن داود باشا بهذا الجواب اللبق وتهللت أساريره وكافأ الرجل الفطن والتفت إلى علماء بغداد يؤنبهم على جهلهم وتقصيرهم في البحث عن السبب الحقيقي لكارثة عمرو وقال لهم إن هذا الرجل أعلم زمانه، ويعقب العواد على ذلك بقوله: (ولست أدري أوقعت هذه الحادثة حقيقة أم هي نكتة من نكات المتندرين بامثال داود باشا من ذوي الغفلة أم هي مثال ميثلوجي عربي ضوهيت به أحاديث المثيولوجيا اليونانية لتطعيم الفكر العربي بالخيال الخالد).

هذا هو تلخيص القصة كما كتبها العواد وكما عقب عليها نقلناه بكامله لأنه يهمنا في تعليقنا كما سيرى القراء وننتقل إلى المنفلوطي لنعرف منه حقيقة القصة ونتيح مجالًا للمقارنة بين ما كتب المنفلوطي وما كتب العواد ولهذه المقارنة أهميتها كما سيظهر بعد قليل فماذا قال المنفلوطي: يقول المنفلوطي في موضوعه (زيد وعمرو) كما نشر في «النظرات» (أراد داود باشا أحد وزراء تركيا في العهد القديم أن يتعلم اللغة العربية فاحضر أحد علمائها وأخذ يتلقى عنه علومها عهدا طويلا فكانت نتيجة عمله ما ستراه.

سأل شيخه يوما ما الذي جناه عمرو من الذنوب حتى استحق أن يضربه زيد كل يوم ويبرح به هذا التبريح المؤلم، وهل بلغ عمرو من الذل والعجز منزلة من يضعف عن الانتقام لنفسه وضرب ضاربه ضربة تقضي عليه القضاء الأخير.

سأل شيخه هذا السؤال وهو يتحرق غيظا وحنقا ويضرب الأرض بقدميه فأجابه الشيخ ليس هناك ضارب ولا مضروب يا مولاي وإنما هي أمثلة يأتي بها النحاة لتقريب القواعد من أذهان المتعلمين فلم يعجبه هذا الجواب وأكبر أن يعجز هذا الشيخ عن معرفة الحقيقة في هذه القضية فغضب عليه وأمر بسجنه ثم أرسل إلى نحوي آخر فسأله كما سأل الأول فأجاب بمثل جوابه فسجنه كذلك ثم ما زال يأتي بهم واحدًا بعد الواحد حتى امتلأت السجون وأقفرت المدارس وأصبحت هذه القضية المشؤومة الشغل الشاغل عن جميع قضايا الدولة ومصالحها ثم بدا له أن يستوفد علماء بغداد فأمر بإحضارهم فحضروا وقد علموا قبل الوصول إليه ماذا يراد بهم. وكان ينسب هؤلاء العلماء بمكانة من الفضل والحذق والتبصر بموارد الأمور ومصادرها، فلما اجتمعوا في حضرة الوزير أعاد عليهم ذلك السؤال بعينه فأجابه رئيس العلماء أن الجناية التي جناها عمرو يا مولاي يستحق أن ينال لأجلها من العقوبة أكثر مما نال فانبسطت نفسه قليلا وبرقت أسارير وجهه وأقبل على محدثه يسأله: ما هي جنايته؟ فقال له: إنه هجم على اسم مولانا الوزير واغتصب منه

«الواو» فسلط النحويون عليه زيدا يضربه كل يوم جزاء وقاحته وفضوله - يشير إلى زيادة واو عمرو وإسقاط الواو الثانية من داود - فاعجب الوزير من هذا الجواب كل الإعجاب وقال لرئيس العلماء: أنت أعلم من أقلته الغبراء أو أظلته الخضراء فاقترح ما تشاء فلم يقترح سوى إطلاق سبيل العلماء المسجونين فامر بإطلاقهم وأنعم عليهم وعلى علماء بغداد بالجوائز والصلات.. ويعقب المنفلوطي بقوله: «أحسن داود باشا في الأولى وأساء في الأخرى، ولو كنت مكانه لما أطلقت سبيل هؤلاء النحاة من سجنهم حتى آخذ عليهم عهداً وثيقًا أن يتركوا هذه الأمثلة البالية إلى أمثلة جديدة مستطرفة تؤنس نفوس المتعلمين وتذهب بوحشتهم وتحول بينهم وبين النفور من منظر هذه الحوارات الدموية بين زيد وعمرو وخالد وبكر).

ومن مقارنة كلام العواد بكلام المنفلوطي يتضح لنا الآتي:

١ - نسب المنفلوطي القصة إلى داود باشا أحد وزراء تركيا في العهد القديم بينما نسب العواد القصة إلى (داود الحاكم) وباعتبار أن العواد قد اعتمد على المنفلوطي في رواية القصة فنستطيع أن نستنتج من هذا أن داود باشا في قصة المنفلوطي ليس هو داود باشا الكرجي والي بغداد لأن هذا الأخير لم يكن وزيرا في العاصمة العثمانية بل كان واليًا على العراق ثم على المدينة كما أن داود باشا في قصة المنفلوطي كان في العهد القديم وداود الكرجي في العصر الحديث.

٢ - واضح من نص المنفلوطي أن القصة حدثت في تركيا وأن العلماء قد عجزوا عن تقديم تعليل يرضى عنه الباشا فاستوفد علماء بغداد وعلى يدهم حل العقدة أما العواد فقرر أن ذلك حدث في بغداد وأن علماءها هم العاجزون وأن الباشا حقرهم وطردهم واتهمهم بالجهل وأن حل العقدة كان على يد أحد الأذكياء وفي الوقت الذي يقرر فيه أن الباشا (التفت إلى علماء بغداد يؤنبهم على جهلهم وتقصيرهم وقال لهم: هذا الرجل أعلم زمانه) في هذا الوقت تجد أن المنفلوطي يقرر أن الوزير

(أعجب - بجواب رئيس علماء بغداد - كل الإعجاب وقال له: أنت أعلم من أقلته الغبراء وأظلته الخضراء فاقترح ما تشاء).

٣ - وبينما حاول المنفلوطي استغلال القصة في معالجة مشكلة تمس اللغة وطريقة تعلمها وهي مشكلة لها أهميتها نجد العواد حرص على أن يستغل القصة في السخرية من داود باشا وفي اتهام الأدب العربي بحاجته إلى تطعيمه بالخيال اليوناني (الخالد).

٤ - ومن هذه المقارنة يتضح أن العواد لم ينقل القصة نقلا أمينا ولم يلخصها تلخيصا صحيحا وإنما حاول أن يلوّن وقائعها تلوينًا خاصًا يمكّنه من مهاجمة داود باشا الكرجي واتهامه بالغفلة والسذاجة والغباء، وهذا أمر ليس جديدًا على الأستاذ العواد فهذه طريقته فقد سبق لنا أن تحدثنا عن هذه الطريقة وأسميناها طريقة (زناه فحده) كما يعبر الأصوليون وهي طريقة لا تتفق أبدا مع الأمانة العلمية فهو مستعد لأن يقوّل لك - بكسر الواو وتشديدها - ما لم تقل وأن ينسب إليك ما لم يخطر لك على بال وأن ينقل النصوص نقلا مشوها مبتورا ليصل بذلك إلى استنقاصك واستجهالك والحط من جهدك والتهوين من عملك.

٥ - وقبل أن أنتقل إلى نقطة أخرى أحب أن أوضح نقطة قد تثير تساؤلا عند بعض كبار المثقفين وأعني بذلك ما قد يرد على بعض الخواطر من أن القصة التي أوردها المنفلوطي ليست القصة الحقيقية وهذا لم يغب عن بالي وحتى لو افترضنا جدلا وقوعها فمن المحتمل جدًا أنها لم تقع بهذه الصورة التي رواها المنفلوطي من المحتمل جدا أن أحد البشوات الكبار ممن يهتمون بالثقافة آثار في مجلس من مجالسه قضية ضرب زيد لعمرو ليتخذ منها وسيلة لإثارة الجدل وقدح زناد الفكر، ومن المحتمل كذلك أن أحد الحاضرين لمعت في خاطره فكرة (سرقة الواو) فذكرها ومن المؤكد أنها لقيت استحسانا لا من الباشا وحده ولكن من جميع الحاضرين، وليس معنى هذا إيمان الجميع بحقيقة هذه السرقة فذلك أمر غير معقول ولكن

باعتبارها تعليلا طريفا وما دام النحاة قد شغلوا بكثير من التعليلات والتحليلات فلماذا لا يسالون - بضم الياء - عن تعليل ضرب زيد لعمرو ومن المحتمل - كما قلت - أن القصة لم تقع بمثل الصورة التي رواها المنفلوطي ولكن الرواة وهم آفة الأخبار أضافوا إليها من الحواشي ما يزيد عن غرابتها وإثارتها فاضافوا قضية السجن وقضية علماء بغداد.

لم يغب عن بالي ذلك ولم يغب عن بالي أن قصة المنفلوطي ليست نصا أدبيا من مصادر لها قيمتها وأهميتها كما لم يغب عن بالي أن في إمكان العواد وغير العواد أن يرويها بالصورة التي يريد ولكن الذي أحببت أن أنبه إليه هو أن العواد استغل القصة استغلالا غير كريم من أجل الطعن في شخصية لها مكانتها دون أي وجه حق - كما سنرى - فهي لا تقدم صورة حقيقية للوالي العظيم داود باشا الكرجي.

داود باشا المفترى عليه

الحلقة الثالثة

من الأمور التي تستلفت نظر الباحث ما يلاحظه من تعلق الأستاذ العواد بالأساطير اليونانية تعلقًا لا مزيد عليه ولا مثيل له فهو موله بهذه الأساطير مشغول بها ويبدو لي أنها تملأ عليه يقظته ومنامه، وقد يكون من المقبول أن تسيطر على اهتمامه فترة من فترات المراهقة والشباب أما أن تشغله العمر كله فذلك ما يدعو إلى الدهشة والتساؤل؟.

وهذا الوله الذي وصل إلى درجة الهوس بهذه الأساطير يعتبر ظاهرة فريدة يتميز بها العواد، فلا يُشرك فيها أديب أو شاعر من أدباء العربية وشعرائها، ولعل الشاعر الوحيد الذي يولي هذه الأساطير عنايته هو الشاعر المصري المغترب الدكتور أحمد زكي أبو شادي، ومع ذلك لم تسيطر عليه طول حياته بل سيطرت عليه فترة قصيرة من حياته ثم انصرف عنها، أما العواد فهو في أسر هذه الأساطير لا يستطيع منها خلاصا ولا فكاكا، وفي الوقت الذي يصحح فيه خطأ مؤلف معجم الأدب والعلوم حول تولية باشا على قبر الرسول لا يجد ما يحول بينه وبين الحديث عن الميثولوجيا اليونانية وهي حافلة بصراع طويل بين أرباب وثنيين يعيشون في حمأة من الرذيلة والانحراف والشذوذ، ولا يرى مانعا من تلقيب نفسه بلقب (أبوللو) وإصدار ديوان باسم (رؤى أبوللو) وذلك ما لم يفعله أبو شادي، وهذا التعلق الذي جاوز الحد هو الذي دفعه إلى أن يحاول الربط بين قصة (سرقة الواو) وبين قصة (سوسيفوس) - كما ذكره العواد - وهو في الحقيقة (سيوفوس) ولا أدري لماذا وصفه العواد بالمجرم مع أنه في القصة لم يكن مجرما وإنما الذي كان مجرما هو كبير الآلهة الوثنية (زوس).

واستسمح القراء في أن أحدثهم حديثا موجزا عن قصة (زوس وسيوفوس) وليس لهذه القصة أهمية تستدعي الكتابة والبحث ولكنها قصة وضعها العواد أمامنا فرأينا أن نشرحها للقراء ليعرفوا صدى ما قلناه عن أرباب اليونان الوثنيين من أنهم يعيشون في حماة من الرذيلة، وهذا مثال لم يقع عليه اختيارنا ولكنه وقع أمامنا مصادفة فماذا تقول هذه القصة الوثنية عن أسباب العقاب الذي أنزله (زوس بسيوفوس) تقول: «إن زوس كبير الآلهة خطف أجينا ابنة رب النهر (أسيوبوس). وعبر بها كورنته فاطلع سيوفوس ملك كورنته والدها (أسيوبوس) على موضوع الخطف فغضب عليه زوس وسلط عليه ثاناتوس الدث ليعاقبه ولكنه لم يستطع في البداية لأسباب يطول شرحها ثم تمكن منه وعاقبه زوس بعد موته بأن كلفه دفع صخرة إلى أحد التلال فاوصلها بعد أن بذل مجهودا عظيما جدا ولما وصلت إلى القمة أفلتت منه وتدحرجت إلى أسفل التل فعاود المحاولة من جديد وهكذا إلى الأبد».

فيتضح من هذه القصة التي تجاوزنا عن كثير من تفصيلاتها الثانوية أن (سيوفوس) لم يكن مجرما لأنه كان يدافع عن الفضيلة التي انتهكها (زوس) وأن المجرم الحقيقي هو (زوس) كبير الأرباب الوثنيين:

فهل كان وصف العواد (لسيوفوس) بالإجرام عن سهو أم أن له رأيا آخر في الموضوع؟ وقد رأى القراء كيف أن كبير الآلهة لا يتورع عن الجريمة الخلقية، وليست هذه جريمته الوحيدة فلو أحببت أن أحدثهم عن جرائمه الخلقية التي تنبئ عن نفسية غارقة في الوحل والإجرام والشذوذ لألفت لهم كتابا.. ويستطيع القراء أن يقيموا أعمال باقي الأرباب على كبيرهم الذي علمهم الإثم ولقنهم الشر والفساد.

ولست بحاجة إلى تفصيل القول في غنى الفكر العربي عن تطعيمه بالخيال اليوناني فتلك قضية أصبحت من البداهة بمكان.

ننتقل بعد هذا إلى قضية أخرى هي التعرف على الدوافع التي تدفع العواد إلى التجني على داود باشا بخاصة وعلى العثمانيين بعامة، فما هي هذه الدوافع؟

والجواب على هذا السؤال ليس صعبا وليس عسيرا فهناك دافعان جوهريان:

أحدهما: تأثر الأستاذ العواد بالاتجاه العلماني وهو تأثر بارز في أدبه وواضح في كتاباته وقد عرضنا له بشئ من التفصيل عند دراستنا لمقدمته التي كتبها للموسوعة الأدبية، فلسنا بحاجة إلى أن نعاود هنا البحث والتفصيل.

ثانيهما: انسياق الأستاذ العواد وراء تلك الحملات الصليبية التي قادتها أوروبا وشارك فيها كل المثقفين المستشرقين واليهود والمخدوعين من أبناء الشرق ضد الدولة العثمانية، فقد كانت الدولة العثمانية شجى في حلق المطامع الاستعمارية، وكانت الرابطة القوية التي تحول دون أن تصبح دول الأمة الإسلامية لقمة سائغة في فم أعدائها، وقد تضافرت الجهود على تحطيم هذه الرابطة وأنفقت أموال لا يحصيها عد من أجل هذه الغاية واستغل النصارى من أبناء الدولة لأجل تفتيت هذه الرابطة وإضعاف شأنها، وقد تحقق للخصوم مآربهم فمزقوا الدولة العثمانية وقضوا على الرجل المريض واقتسموا تركته واستعادت الصليبية أمجادها وحققت الصهيونية أهدافها، ووصل أعداء الإسلام إلى آفاقهم العريضة.

لقد كان للدولة العثمانية أخطاؤها، ولكن الذي لا مراء فيه أن حسناتها في خدمة الإسلام أعظم بكثير من تلك الأخطاء وأن جهودها في الحفاظ على الكرامة الإسلامية وفي الوقوف أمام الأعداء المتكالبين لا سبيل إلى نكرانها وليس من هدفي أن أتحدث عن الدولة العثمانية في هذا المقام، فذلك أمر يطول وحسبي أن أشير إلى الفصل القيّم الذي كتبه الأديب الكبير الأستاذ عبدالقدوس الأنصاري في كتابه عن الكاظمي بعنوان (تحية الدستور) فهو فصل جدير بأن يقرأه كل مسلم وخاصة أولئك المخدوعين بالدعايات المضللة التي نشرها وبث سمومها الأعداء وأذنابهم، وإذا كان من غير الممكن نقل هذا الفصل بكامله كما أن تلخيصه لن يساعد على تقديم فكرة دقيقة عنه لذا فإنني أكتفي بأن أنقل إلى القراء هذه السطور:

يقول الأستاذ الكبير الأنصاري في صفحة (٦١) «وحتى الرجل الوقور فارس الخوري قد تأثر بروح شعراء عصره وكتّابه فنظم قصيدة بعنوان وداع وعتاب للسلطان السابق عبدالحميد وقد نشر هذه القصيدة في عام ١٩٠٩م في مجلة المقتبس بتوقيع (ف)».

ويقول محمد الفرحاني مترجم فارس الخوري في كتابه عنه (فارس الخوري وأيام لا تنسى) في الصفحة ٣٠٢ و ٣١٨ (إن فارس الخوري قال إنه لم يندم في حياته على شيء ندمه على القصيدة التي نظمها إثر إعلان الدستور العثماني حيث تأكد بما لا يقبل الجدل أن هذا الخليفة الإسلامي قد راح ضحية تآمر اليهودية العالمية التي ساءها رفضه لاقتراح تيودور هرتزل).

ويعقب الأستاذ الكبير الأنصاري على هذا القول بقوله: (وها نحن أولا نورد هنا أبياتا من تلك القصيدة التي أندفع ناظمها مع التيار الجارف الذي كما أشرنا إليه هبت أعاصيره من دهاقنة الغرب تبعا لمصالحهم ومصالح الصهيونية العالمية التي يخدمونها والتي دأبت على ركوب ظهور رجالات العرب واتخاذهم مطايا ذللا للوصول عليهم لأغراضهم الهدامة منذ ذلك العهد وفيما قبله وفيما بعده إلى اليوم).

داود باشا المفترى عليه*

الحلقة الرابعة

نصل بعد هذا إلى الحديث عن الرجل المظلوم المفترى عليه داود باشا الكرجي ولا يتسع المقام لكتابة ترجمة مفصلة عن حياته فقد كانت حياته رحبة خصبة حافلة بالعمل الدائب والإنتاج المثمر، كانت حياته طويلة عريضة، وكان صاحبها كبير النفس، عظيم الهمة، واسع الأفق، بعيد الأمل يتمتع بثقافة واسعة، وعقلية نيرة وعزيمة صادقة من أجل هذا فليس في مقدور القلم أن يلخص تلك الحياة وما حفلت به من حوادث وأحداث وأعمال وما تركته من آثار بعيدة المدى في حياة الشرق والعرب والإسلام، ولكنني ساكتفي بنقل لمحات قصيرة من حياته ولكنها رغم قصرها ستعطي صورة باهرة عن هذا الرجل العظيم وستزيل ما علق بهذه الصورة من غبار وكلف وقتام نتيجة الجهل والنسيان والعقوق، ولأن صاحب هذه القدرة كان من رجال دولة تكالبت كل قوى الشر والعدوان والبغي على تحطيمها فلم تكتف بتمزيق شملها، وتقطيع أوصالها بل حرصت على تحطيمها في عقول الناس وقلوبهم حتى لقد أصبحت الدولة العثمانية مساوية لأي دولة أجنبية مستعمرة بل إن الاستعمار العثماني في أفهام كثير من العرب يفوق الاستعمار الأوروبي ضررًا وشرًا وسوءًا.

١ - يحدثنا المؤرخ علي ظريف الأعظمي في كتابه (مختصر تاريخ العرب) عن داود باشا الكرجي في نشأته الأولى فيصفه بانه كان (حسن الصورة متقد الذكاء مولعا

(☆) نشرت بجريدة المدينة المنورة يوم الثلاثاء ٢٣ من شهر المحرم ١٣٩٠هـ العدد (١٨٢٤).

بالعلوم تلقي العلم على كبار علماء الزوراء فمهر في الآداب العربية والتركية والفارسية وظهر حذقه في الأمور السياسية والإدارية).

٢ - يتحدث عنه المؤرخ أمين الحلواني صاحب (مختصر مطالع السعود) فيذكر بأنه (قد عرف بأنه من أعلم وزراء الدولة) ويشير إلى أنه بعد وفاة سليمان باشا الكبير والي بغداد وتولي صهره علي، وكان معروفا بالشدة والقسوة آثر داود أن يبتعد عن مشكلات الحكم وذهب إلى البصرة حيث انهمك في الدراسة والاطلاع وانتهز فرصة قدوم الشيخ علي زين العابدين (جمل الليل) سنة ١٢٢١ إلى العراق فجاور الشيخ فأجاز له (البخاري وفتح الباري على البخاري) وغيرهما من أمهات كتب الحديث والتشريع وظل مكبًّا على الاطلاع والدراسة طوال حكم علي باشا.

٣ - ترجمت له دائرة المعارف الإسلامية وقالت عنه: «أعاد داود الأمن إلى البلاد خلال السنوات الخمس عشرة التي دام فيها سلطانه، وحال دون تقدم الجيش الفارسي واشترك في إخضاع الانكشارية وقام بكثير من الأعمال العامة (حفر الترع وإصلاح المساجد وتشييدها) وأنشا مصانع للنسيج وصنع المدافع واستخدم ضابطا فرنسيا يدعى دفو أخذه من خدمة الفرس ليدرب فرقة أنشاها عدتها عشرة آلاف جندي نظامي».

٤ - كتب عنه الدكتور عبدالعزيز سليمان نوار رسالة جامعية باسم داود باشا والي بغداد وقد وصفه (أي داود باشا) الأستاذ الدكتور أحمد عبدالكريم وكيل جامعة عين شمس في تقديمه لرسالة الدكتور نوار بقوله: «والقارئ لكتاب داود باشا والي بغداد - والذي يسرني أن أقدمه إلى القراء والباحثين - سوف يجد فيه صورة واضحة المعالم لا لهذه الشخصية الفذة في تاريخ العراق وحدها، ولا لعاصمة العباسيين في حكم هذا الوالي؛ وإنما سيجد فيه صورة كاملة للعراق في العهد العثماني الأول».

٥ - أما الرسالة التي كتبها الدكتور نوار عن داود باشا فهي رسالة قيِّمة حقا وتقف في طليعة كتب التراجم وقد حصل بها المؤلف على درجة الماجستير بدرجة ممتاز وهي

تقع في (٣٧٠ صفحة) وقد جلا فيها صورة هذا الرجل المصلح وإن كان قد حرص على ألا يخرج عن الدائرة التي حددها لبحثه كما يوضحها عنوان الرسالة (داود باشا والي بغداد) فقد رافقه منذ نشأته أو قبل ذلك بقليل إلى أن غادر بغداد ونكتفي باختيار لمحات من كتابه:

١ - لن نتحدث عن أعماله السياسية والحربية فذلك أمر يطول وقد استغرق جزءًا كبيرًا من الكتاب وحسبنا أن ننقل منه هذه الفقرات:

اكتشف سليمان الكبير في داود القدرة على الإدارة وسياسة الأمور فأسند إليه منصب الخازندار واصطفاه وقبله خطيبا لابنته الكبرى.

لا شك أن داود كان بعيد النظر عندما آثر أن يبتعد عن المشكلات المعقدة التي تلت وفاة الباشا الكبير والتي انغمر بها أصهاره، وانتظر هادئا حتى جاءت الظروف التي وجدها مناسبة ليدخل المعترك السياسي.

(ويبدو أن انضمام داود إلى سعيد[1] كان من العوامل القوية التي شجعت المماليك على أن يتخلوا عن عبدالله فقد كان داود في ذلك الوقت مشهورا بأنه (مدبر وصاحب رأي سديد).

٢ - وعن إصلاحاته الاقتصادية نقتطف ما يلي:

(ولم يشعر داود بالاستقرار النوعي إلا بعد الحرب الإيرانية وبعد إخماده لثورات القبائل العربية؛ ولذلك كان قيامه بمشروعات زراعية واسعة النطاق أمرا صعب التحقيق، ومع ذلك فقد قام بمجهودات عظيمة إذا ما قورنت بمشكلات العراق فقد قام بتطهير الترع والقنوات المهملة وبذلك استطاع أن يوصل المياه إلى أماكن قاحلة بين بغداد والحلة فانبت بها الزرع، ونال هو من وراء ذلك زيادة لدخل الحكومة).

(١) سعيد باشا - جعل داود باشا قائد الجيش العراق (كتخدا) سنة ١٢٢٩هـ الاعلام، للزركلي الجزء الثاني.

(ومن أهم مشروعاته في هذا الصدد حفر نهر النيل الذي كان الحجاج بن يوسف الثقفي قد شقّه سنة ٥٨٢، وهو يأخذ من الفرات قرب الحلة حشد داود لحفره خمسة آلاف عامل حتى أتمه، وكذلك كان مهتما باستخدام آلات الري التي تسهل على الفلاح عمله). (وكانت خطته في النهوض الاقتصادي بالعراق شاملة غير مقصورة على توفير مياه الري وزيادة مساحة الأرض المستغلة فقد عمل على رفع المستوى الصناعي الذي كان قد انهار إلى الحضيض، وكان من الطبيعي أن تهدف خطة هذا الشان إلى استغلال خامات العراق الزراعية فاسس مصانع للمنسوجات القطنية والجوخ).

(ولقد زادت التجارة نشاطا في عهده... ولم تكن فكرة شق القنوات هي الأسلوب الوحيد الذي اتبعه داود لتنشيط هذه التجارة بل اهتم كل الاهتمام بأمن الطرق وتيسير المواصلات النهرية والبرية).

(وكان دخل الخزانة في عهد داود يفوق بكثير دخلها في عهد أسلافه فقد بلغ هذا الدخل أربعة وعشرين ألف كيس بعد خصم المصروفات وهذا ما لم يبلغه باشا في بغداد من قبل).

وبعد أن يورد المؤلف بيانا تفصيليا عن موارد الخزينة في عهد داود يختم الحديث بقوله: (وعلى أي حال فقد ثبت أن خزائن داود كانت عامرة وأنفق بسخاء على النهوض بالعراق من الناحية الثقافية والاجتماعية والعسكرية).

ثم يتحدث المؤلف عن أعماله العمرانية ويبدأوها بالحديث عن المساجد فيذكر بشيء من التفصيل المساجد التي شيدها والمساجد التي أصلحها، ويصف المؤلف داود بأنه (مخلص للدين).

ثم ينتقل المؤلف إلى الحديث عن اهتمام داود بالمتنزهات العامة والأعمال العمرانية وبعد أن يوفيها حقها من الوصف يختتم حديثه بقوله: (لقد فاقت مجهودات داود في التعمير مجهودات أسلافه وخلدت مجهودات داود أبيات فحول الشعراء في أيامه).

داود باشا المفترى عليه*

الحلقة الخامسة

أشرنا في الحلقة السابقة إلى أعمال داود باشا الحربية وإلى مقدرته السياسية وعرضنا إلى إصلاحاته الاقتصادية والمالية، وألمحنا إلى جهوده العمرانية، ونواصل اليوم الحديث عن عنايته بالنهضة الثقافية والتعليمية فقد عقد مؤلف «داود باشا والي بغداد» فصلا طويلا نقتطف منه هذه الفقرات (لقد أدرك داود قيمة التعليم في تكوين طبقة مثقفة واعية في بغداد تستطيع أن تنهض بالبلاد ولذلك شجع التعليم بالعراق ورعاه بنفسه وتفقد شؤونه ليطمئن على سير الدراسة)، وكان داود مهتما كل الاهتمام بالمدرسين وبمدى جدارتهم وأهليتهم للقيام بمهام التدريس فكان أحيانا يطلب أن تكتب له قائمة بعدد الطلبة والدروس التي يلقيها أحد المدرسين.

والواقع أن صلات داود بأدباء عصره كانت قوية جدا قبل توليه الباشوية وكان يحرص على تلقي العلوم على كبار العلماء في ذلك العصر بعد أن تولى الباشوية أيضا، ومن هؤلاء الذين لمع اسمهم في ميدان العلم وممن درس عليهم داود السيد حسن جمل الليل (زين العابدين المتوفى سنة ١٢٣٦هـ) وكان الشيخ من المشهورين في البلاد في ذلك الوقت وكان له نشاط في الحجاز أثار شكوك محمد علي والي مصر.

(ويضرب داود مثلا رائعا للحاكم الذي يُقْبِل على تلقي العلم من العلماء وفي الوقت نفسه يفيد هو الناس من علمه ومن دراسته المستفيضة).

(ولا شك أن تولية داود الباشوية كانت ذات صدى ضخم في الأوساط العلمية والأدبية في العراق من كردستان إلى البصرة فإن إلقاء نظرة سريعة على تراجم الشعراء

(*) نشر بجريدة المدينة المنورة في يوم الثلاثاء الموافق ١٣٩٠/١/٣٠هـ العدد (١٨٣٠).

والأدباء في عصر تبيّن أن عددًا ليس قليلًا من الشعراء والأدباء هاجر إلى بغداد... ولذلك زادت في عصره التصانيف والتآليف المختلفة وأصبح العلماء يتسابقون على التقرب إليه بتأليف الكتب له).

(وإلى جانب هذه النهضة الأدبية والتعليمية القوية - التي أعتبر داود زعيمها ومشجعها الأول - امتاز داود عن غيره من الحكام المهتمين بالأدب والأدباء بأنه اكتشف اثنين كان لهما أثر واضح في السرعة التي سارت بها النهضة الأدبية بعد عصر المماليك فقد اكتشف داود كلًا من أبي الثناء الألوسي وعبدالغفار الأخرص صاحب ديوان «الطراز الأنفس» أروع دواوين ذلك العصر.

وبعد أن يترجم المؤلف لهما يعقب على ذلك بقوله: (وهكذا كانت الحركة الفكرية التي تمت في عهد داود الشمعة الأولى التي أدت إلى الحركة العلمية والأدبية التي انطلقت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في العراق).

وقد ختم المؤلف بخاتمة جاء فيها: (إن داود في تفكيره وفي أهدافه السياسية كان يرمي إلى توحيد العراق وتخليصه من النفوذ الأجنبي أو الإيراني بالاعتماد على العراق وعلى قواه وإمكاناته في ترقية أموره وهي أهداف سياسية كان العراق في أمسّ الحاجة إلى تحقيقها، وداود لم تغب عنه أسس الإصلاح ووسائله ولكن أعوزته الإمكانات وكانت مشكلات العراق لا يمكن أن تحل مشكلة إثر مشكلة لتشابك تلك المشكلات تشابكا مروعا).

وبعد أن يعقد المؤلف مقارنة بينه وبين محمد علي والي مصر يختم خاتمته بقوله: (إن القدر لم يمهل داود ومع ذلك ظلت ذكراه - بما خلفه من مآثر - ماثلة أمام الشعب البغدادي الذي أحبه وأخلص له وتفانى في الدفاع عنه لآخر لحظة).

وبعد أن غادر داود باشا بغداد إلى عاصمة الخلافة عفا عنه السلطان وأحب أن يستفيد من خبرته فولّاه البوسنة ثم رئاسة مجلس الشورى ثم تولى أنقرة، ثم طلب

أن توجه إليه مشيخة الحرم النبوي فوافق السلطان وظل هنالك حتى توفي ودفن بالبقيع.

ونصل هنا إلى النقطة التي تحدث عنها الأستاذ العواد فقد ساءه أن يتصدى الشيخ العلامة محمد نصيف لرد الظلم عن شخصية إسلامية لها مقامها الذي يجب أن يعرف ولها فضلها الذي يجب ألا ينكر، فقد أحب العواد أن يسخر - كعادته كلما أعوزته الحجة - من داود باشا ومن مشيخته للحرم النبوي فقال: «وإلا فماذا يهمنا أو يهمه أو يهم التاريخ أن يكون داود الكرجي شيخا للكناسين في المسجد النبوي أو قيّمًا على (الأغوات) بعد أن كان حاكما للعراق».

وهذه ـ كما رأى القراء - سخرية مبنية على (عدم معرفة) فقد تصور العواد أن وظيفة (شيخ المسجد النبوي) هي أن يكون شيخا للكناسين أو قيّمًا على الأغوات، وغاب عن باله - المشغول بوثنيات اليونان - أن السلطان العثماني كان يلقب بألقاب كثيرة أهمها أنه سلطان البريد، وخاقان البحرين، وخادم الحرمين الشريفين ثم إن هذه المشيخة ليست كما تصورها الأستاذ العواد وقد شرح ذلك أستاذنا العلامة السيد عبيد مدني في عدد جريدة المدينة الصادر في ١٥/١١/١٣٨٩هـ فقال - حفظه الله: (كان مما درج عليه العثمانيون في الوقت الذي تعين فيه داود باشا شيخا للحرم المدني وبعده تحديد مسميات الوظائف الرئيسية الكبرى في المدينة كالآتي:

شيخ الحرم النبوي: ووظيفته القيام بإدارة جميع شؤون الحرم الشريف والموظفين فيه على اختلاف طبقاتهم وتنوع اختصاصاتهم والإشراف على كل ما يتعلق به، ولأهمية هذه الوظيفة وعظيم مسؤوليتها كانوا ينتقون لها من يقدّرون فيه الكفاءة وبُعد النظر وحسن التصرف وكان بعضهم ممن يحمل لقب وزير أو مشير.

محافظ المدينة المنورة: وهو اللقب الرسمي لحاكم المدينة الإداري ومايتبع المدينة من ملحقات وهو الذي يقوم بكل مهام الحكم فيها وتنظيم إدارتها وحفظ أمنها، وكانوا يجمعون وظيفتي المحافظة ومشيخة الحرم في شخص واحد في بعض الأحايين وليس دائما).

وقد أضاف الأستاذ العلامة السيد عبيد المدني معلومات قيمة عن أعمال داود باشا - لم أكن أعرفها من قبل فبفضل جهوده قامت عمارة المسجد النبوي الضخمة وهي العمارة المعروفة بالعمارة المجيدية القائمة من الناحية الجنوبية من المسجد النبوي الشريف، وكان ينوي فتح مدرسة جامعة (يشمل برنامجها جميع العلوم والفنون) ولكن الأجل لم يمهله.

أما العلامة الشيخ نصيف فقد ذكر في كلمته المنشورة بجريدة البلاد الصادرة في ١٤/شتوال سنة ١٣٨٩هـ من أفضال داود باشا أنه هو الذي تولى بناء مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، وأنه هو الذي كان يتلقى الكتب ويرتبها في المكتبة.

وليس عندي ما أضيفه إلى كلام أستاذنا السيد عبيد بصدد مشيخة الحرم إلا نقطتين صغيرتين:

١ - فليس من شك أن حرص داود باشا على أن يقضي السنوات الأخيرة من حياته في المدينة يعود إلى ثقافته الدينية الواسعة وإلى حرصه على أن يموت في مدينة الرسول استجابة للحديث النبوي الشريف «من استطاع أن يموت بالمدينة فليفعل».

ولم يشأ أن يقضي بقية حياته في خمول وركود ولكنه أحب أن يقضيها في عمل مثمر يخدم به الإسلام والمسلمين في عاصمة الإسلام الأولى.

٢ - كان داود باشا سني المذهب، سلفي العقيدة صادق الإيمان فالدعوة الوهابية - كما يقول الدكتور نوار - كانت إحدى الحركات الإصلاحية التي تلقاها العراق وأثرت

على حكامه ووجهت إصلاحاتهم الداخلية بل والسياسية أيضا. وسرت هذه الدعوة بين الطبقات المثقفة حتى ظهرت في اتجاهات داود وفي معتقداته الدينية، وقد ثبت أن داود قد أوصى بألا يزين قبره بقباب أو ما شابه ذلك وهذان من صميم الدعوة الوهابية، كما يقول الدكتور نوار.

وهكذا نجد أن داود باشا كان مثلا رائعا للرجل المسلم الذي لا يدخر وسعا في سبيل خدمة دينه وأمته وانه نشأ محبا للعلم مغرما به وأن مشاغل السياسة والحرب والظروف الصعبة التي كانت تحيط به لم تَحُل بينه وبين التزود من العلم والتشجيع عليه، إن كل حسنة من حسناته في هذا المجال تكفي لتقديره وتخليده - رحمه الله وغفر له.

داود باشا المفترى عليه*

الحلقة السادسة

بقيت نقطة نحب أن نقف عندها قليلا قبل أن نصل إلى نهاية مسيرتنا مع داود باشا فقد ورد في كلام العواد أثناء تهجمه على شيخنا الأفندي قوله: (ثم ماذا يفيد التاريخ بعد ذلك أن يكذب عليه قدامى المؤرخين فيزعمون له أنه كان من العلماء بعلوم الدنيا والآخرة ولم يبقَ عليهم - عفا الله عنهم - إلا أن يكملوا هذا الفرمان بإضافة (وعلم اللوح والقلم) ويتركون هذه الدعوة خالية من دليل واحد يثبتون به علمه الدنيوي أو الأخروي هذا بالرغم أنهم شهدوا عليه بالخيانة العظمى للدولة العثمانية، وهذا منتهى التناقض).

وفي هذه العبارات القليلة من عبارات العواد سلسلة من الأخطاء:

١ - اتهام قدامى المؤرخين بالكذب من غير أي بحث أو تحقيق.

٢ - تخطئة الشيخ نصيف والمؤرخين عن طريق توجيه عبارة (إنه كان من العلماء بعلوم الدنيا والآخرة توجيها مضللا).

٣ - اتهام المؤرخين بأنهم لم يقدموا دليلا واحدًا يثبتون به علمه الدنيوي أو الأخروي.

٤ - اتهام داود باشا بالخيانة العظمى.

٥ - ادعاء العواد بأن في (هذا منتهى التناقض).

فاتهام المؤرخين القدامى بالكذب من غير تحرٍ أو بحث أو عودة إلى المصادر اتهام خطير معناه أن كل جهود الدارسين والباحثين داخل الجامعات ومعاهد البحث وخارجها

(☆) نشرت في جريدة المدينة المنورة في يوم الثلاثاء الموافق ٧ من شهر صفر ١٣٩٠هـ العدد (١٨٣٦).

جهود تالفة ضائعة فحسب الإنسان أن يخرج من قضية من القضايا ليرد على خصومه باتهام المؤرخين وما كتبوا بالكذب من غير أن يكلف نفسه عناء تقديم دليل على هذا الكذب المدّعى.

وهو أسلوب في الكتابة يثير دهشة العقلاء واستغراب المفكرين وسخرية المثقفين، أما توجيه بعض العبارات توجيها خاطئا بقصد التهويش والتضليل فهذا أسلوب يعرفه الناس من أساليب العواد ليس جديدا عليه فوصف داود باشا بأنه (كان من العلماء بعلوم الدنيا والآخرة) وصف معقول ومقبول ليس فيه ما يدعو إلى الغرابة أو التخطئة أو التوجيه الخادع، فإذا قال قائل إن شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية كان من العلماء بعلوم الدنيا والآخرة أو قال آخر أن مالك بن أنس إمام دار الهجرة كان من العلماء بعلوم الدنيا والآخرة لم ينصرف الذهن إطلاقا إلا إلى أنه رجل عرف علوم الدين النابعة من كتاب الله وسنة رسوله معرفة جيدة وعرف علوم الدنيا من سياسة وحرب وعلوم أخرى تتعلق بالحياة ونظمها وسيرها، هذا ما ينصرف إليه الذهن السوي فلا يمكن أن ينصرف إلى معرفة علوم اللوح والقلم مما استأثر الله بعلمه.

أما اتهام المؤرخين بأنهم لم يقدموا دليلا واحدا يثبتون به علم داود بالدنيا والدين فهو اتهام باطل ومردود فقد قدم المؤرخون عشرات من الأدلة على ذلك وأوردنا نحن في بحثنا هذا مجموعة ضخمة من الأدلة وتفضل العلامة السيد عبيد مدني فقدّم للقراء ومريدي الاستزادة من البحث عددا من المؤلفات القيمة عن داود باشا، وسيجد القراء في الكتابين القيمين للدكتور عبدالعزيز سليمان نوار: «داود باشا والي بغداد» «وتاريخ العراق الحديث» وهما الرسالتان اللتان نال بهما المؤلف درجتي الماجستير والدكتوراه وقد طبعتا في العامين الماضيين، سيجد القراء فيهما بحثا دقيقا وافيًا عن تاريخ العراق منذ تولي داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا.. أما اتهام داود باشا بالخيانة العظمى فلو أن الأستاذ العواد أفدى عينيه تحت أضواء المصابيح - كما كان

يقول أستاذنا الدكتور زكي مبارك ـ ليتعرف على الظروف التي كان يعيشها داود باشا والآمال السامية التي كانت تعمّر قلبه والأوضاع السياسية التي كانت تسود الدولة العثمانية والأخطار التي كانت تهدد العراق والدولة العثمانية لتريث قليلا قبل أن يقول ما قال.

يقول صاحب كتاب (داود باشا والي بغداد) في هذا الصدد في صفحة (٢٩٩) (ومع هذا الولاء الشديد الذي كان متبادلا بين البغداديين وداود وذلك التعاون العظيم لحد الاستماتة من أجل وزيرهم المفضل لم يفكر أحد من البغداديين في الاستقلال عن الدولة العثمانية ولم يفكر داود نفسه في هذا الصدد فلقد أعلنوا أنهم يقفون وقفة رجل واحد في وجه علي رضا، أما فرمان السلطان فمقبول لديهم، والخطأ من علي رضا ورجاله وليس من السلطان فكان السلطان ملاذهم دائما، وكان حامي الذمار ومنقذ الإسلام وأوامره مطاعة).

ولسنا بعد هذا في حاجة إلى أن نرد على العواد بأنه ليس في هذا منتهى التناقض ولا ابتداؤه.

أما بعد فنرجو أن نكون قد وفقنا إلى تقديم صورة جيدة التقاسيم واضحة التقاطيع بارزة الملامح لشخصية إسلامية تركت أعمق الأثر في العراق والحجاز وإلى أن نكون قد استطعنا تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة وإلى أن نكون قد تمكنا من أن نرفع الظلم عن كاهل رجل عظيم أوقعه سوء حظه بين فردينان توتل وحسن العواد فقدم له الأول ترجمة مبتورة وقدم عنه الثاني صورة مشوهة، بل إن حسن حظه هو الذي أوقعه بين هذين الرجلين لأنه أتاح له بذلك أن يبرز للناس في صورته الحقيقية عن طريق ما كتب عنه، وصدق الشاعر الذي يقول (قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت).

وقد أنعم الله على ذكرى داود باشا ببلوى عظيمة حين أوقعه في يد توتل والعواد فبرزت سيرته ووضحت صورته وتجددت ذكراه وصدق أبو تمام:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

بقيت ملاحظة صغيرة جدا وهي أن العواد يكتب داود بواوين فقد كتب هذا الاسم بواوين إحدى عشرة مرة فهل يعني هذا أن العواد يريد - وربما لأول مرة في حياته - أن ينتصف لمظلوم فيعيد الواو إلى داود ويسلبها من عمرو أم أنه يريد أن يعيدها لداود وأن يمنح عَمْرًا ما سرق وبذلك ينهي هذه القضية التي شغلت العلماء والباحثين والكتّاب والولاة فلا يصبح هناك داعٍ لإثارة هذه المشكلة وحسب عمرو ما تلقّى على رأسه من ضرب استمر أكثر من ألف عام ولكن إذا صح هذا الافتراض فسينتج عنه نتيجة سيئة وهي أن أدبنا سيفقد تطعيمه بالفكر الخالد وتلك نتيجة سيرفضها قطعا الأستاذ العواد، فمتى حرم أدبنا من هذا التطعيم اليوناني الميثولوجي حتى أصبح أدبنا صحراويا لا يليق بأن ينتسب إليه العواد، إذا كان يقبل الانتساب إلى هذه الأمة فقد زعم أحد المتصلين بالأستاذ العواد بأن العواد ينتسب إلى العنصر الآرامي ولعل مما يزيد هذا الزعم تعلق الأستاذ العواد بالتراث اليوناني الأسطوري أو المثيولوجي كما يحب أن يعبر وحرصه على أن يطعم به الفكر العربي، وإن كنت لم أعرف السر بعد في حصر اهتمام العواد بهذا النوع الأسطوري الوثني من الفكر اليوناني دون بقية الأنواع من علمية وفلسفية.

وفي نهاية هذا المطاف أرى من الضروري اللازب أن أوجه الشكر إلى الأستاذ العواد - رغم أنفه - على طريقة «يثاب المرء رغم أنفه» فلولا تهجمه الظالم واعتداؤه القاسي وأحكامه الجائرة التي أصدرها - بدون درس أو بحث أو تروٍ - على داود باشا لما هيأ لي وللقراء هذه الفرصة السعيدة، أما أنا فقد سعدت بالجلوس إلى عدد من الأعلام في مكتبتي حيث حدثتهم وحدثوني في كثير من أمور العلم وأضفت - نتيجة لذلك - إلى معلوماتي كثيراً من المعلومات القيمة وقرأت كتبًا ما كنت قدّرت أنني سأقرأها في هذه الفترة، اما القراء فما أشك في أنهم سعدوا بالتعرف على شخصية (غير معروفة

لديهم تماما) شخصية إسلامية لها ماضيها الطويل في خدمة أمتنا وبلادنا من واجبهم أن يتعرفوا عليها وعلى أمثالها وأن يخرجوا بذلك من هذا النطاق الضيق الذي تحاول أجهزة الإعلام المعادية أن تحصرهم فيه رامية إلى التهوين من شأنهم عن طريق فصلهم عن تاريخهم وتراثهم وإغراقهم في طوفان من المشكلات الفكرية التافهة والقصص الجنسية الداعرة والقضايا الغربية التي تلتهم أوقات قرائنا دون أن تسمن أو تغني من جوع فيسمعون جعجعة بلا طحن ورعدا بدون مطر وصرخة ولكن في وادٍ.

ومـــرة أخرى أشكر العواد - رغم أنفه - فـ (قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت).

المرأة في بلادنا.. بين دكتورين

قرأت المقابلة المنشورة في جريدة الندوة الصادرة في ٨٤/٢/٢٥م مع الدكتور عبدالعزيز الخويطر وقد لفت انتباهي أثناء حديثه عن الانتساب للجامعة حرصه على أن يؤكد أن مجال الانتساب مفتوح (للإناث) لأن الفتيات بحاجة إلى التشجيع على الدراسة.

أما موضوع الانتساب فأعتقد أن صديقنا الدكتور الخويطر يؤمن معنا بأن غلق هذا الباب خير من فتحه، وكل الحجج التي قدمت في هذا الشأن غير مقنعة وأهمها هو إتاحة الفرصة لمن فاتهم القطار، ولن يضير نهضتنا تخلف بعض عشرات من الحصول على درجات جامعية فالمدارس تكتظ بالملايين من الطلاب ولن يمضي وقت طويل حتى تضيق بهم كليات الجامعة، بل إن مما يضير هذه النهضة أن ينشغل الموظفون بالدراسة والامتحان وما يصاحب ذلك من إجازة طويلة ومن تقاعس في العمل ومن ترقب للحظة التي سيحصلون فيها على هذه الإجازة ليتركوا أعمالهم إلى أعمال أخرى ولا يخفى ما يترتب على ذلك من اضطراب وخلخلة.

ولا أريد أن أتحدث عن الهدف الأساسي لأكثر المنتسبين وهو الحصول على جواز المرور للمرتبة الخامسة كما لا أريد أن أتحدث عن الأمور المترتبة على الاهتمام بتحقيق هذا الهدف دون سند وعن ضعف المستوى العلمي فتلك أمور أصبح الكلام فيها من الحديث المعاد.

والمسؤولون عن الجامعة يعرفون أضرار الانتساب ويعرفون المشاكل التي تعرضت لها أقطار أخرى بدليل أن هؤلاء المسؤولين وضعوا عددا من القيود أمام المنتسبين في بلادهم للتخفيف من الأضرار الناشئة عن هذا الانتساب.

وكل هذه الصور معروفة ولكن الشيء الجديد في الموضوع هو فتح أبواب الانتساب إلى الجامعة على مصاريعها أمام الفتيات لأنهن بحاجة إلى التشجيع على الدراسة، ويبدو لي أن الموضوع بحاجة إلى المزيد من البحث والدراسة، ولا أعتقد أن من صالحنا أن نسير في نفس الاتجاه الذي سارت فيه شعوب مجاورة بالنسبة لتعليم الفتيات، فالتعليم السائد في جامعات الشرق لا يصل بالفتاة إلى الهدف الصحيح الذي ينبغي عليها أن تبلغه ولكنه يسير بها في طرق متشعبة تنأى بها عن الهدف الأصلي الذي أعدت له المرأة، وتدفعها إلى أن تعيش في عالم من الأوهام فلا تحقق أي كسب لأمتنا بل ربما فقدتها كعنصر صالح لبناء نهضتها وتدعيم كيانها العائلي لتصبح عنصرا من عناصر التخريب والهدم.

ومن العجيب أن بعض من يتصدرون للقيادة الفكرية في الصحف يشجعون هذا الاتجاه الخطر فيحثون الفتاة على أن تخرج عن طبيعتها التي فطرها الله عليها لتصبح قائدة طائرة، أو عالمة في شؤون الذرة وما أشبه ذلك من أمور بعيدة عن خلقها الطبيعي واستعدادها الفطري.

من رأيي أنه لابد من القيام بتخطيط شامل لتعليم الفتاة في بلادنا وأن نحدد الأهداف من تعليمها وأن تنفذ الخطط الموصلة لهذه الأهداف بكل دقة وعناية وعلينا أن نبادر إلى ذلك من الآن قبل أن تعقد الأمور ويصعب إن لم يتعذر حل عقدتها، ولا أستطيع أن أتصور الآن مدى الأخطار التي تتعرض لها في مقبل الأيام إن أهملنا هذا التخطيط بالنسبة إلى تعليم المرأة ونحن في بداية الطريق.

بعد أن انتهيت من كتابة هذا المقال وصلني عدد «البلاد» الصادر في ١٣٨٤/٣هـ وفيه لقاء طويل بين المحرر عبدالعزيز الفرشوطي وبين الدكتور محمد سعيد العوضي، وكان من الأسئلة التي وجهها الأول إلى الثاني سؤال عن الشروط التي يشترطها في شريكة حياته وأجاب الدكتور العوضي بقوله: (على كل حال ليست هناك شروط

خاصة وإن كنت بصراحة أفضل الجمال على كل ما سواه، ولا أريد أن أقول ـ كما يتفلسف البعض ـ الأخلاق فهذا أمر مفروغ منه لا يحتاج اشتراطًا.

ثم أن تكون على درجة من التعليم ولو كان بسيطا أو حتى منزليا ففي اعتقادي أن الرجل هو الذي يكيّف المرأة والحياة الزوجية إنما هي تفاهم ودي وتعاون ومشاركة لا يحتاج لمناقشة آراء أرسطو وسقراط.

وهذا كلام جدير بالتنويه والتسجيل ويجب على فتياتنا أن يضعن ذلك أمام أعينهن وأن يذكرن دائما أن هدفه الأول والأخير هو إنشاء البيت الصالح والأسرة السعيدة، وأن الرجل في بلادنا ليس بحاجة إلى مزاحمة المرأة وأن الحياة الزوجية ليست (ناديا لمناقشة آراء أرسطو وسقراط) ولكنها ميدان للتضحية ونكران الذات من أجل تكوين المسلم الصالح والمواطن المخلص، وتحية للدكتور الخويطر والدكتور العوضي.

تعقيبات حول شاعرية رباب الكاظمي*

ورباب هي ابنة الشاعر الفحل الشيخ عبدالمحسن الكاظمي وكنت تحدثت عنها مرتين: وكانت المرة الأولى أثناء نقدي لكتاب العلامة الجليل الدكتور محسن جمال الدين الأستاذ بجامعة بغداد (العراق في الشعر العربي والمهجري) وقد لفت انتباهي أن المؤلف العلامة قد سلك ربابا ضمن الشواعر الشهيرات، فكتبت أتساءل عن حقيقة هذه الشاعرة رباب وتوصلت بعد نقاش طويل إلى أنها شاعرة بالقوة لا بالفعل؛ فليس لديها مواهب شعرية ولكن والدها الكاظمي أراد أن يجعل منها شاعرة بالقوة ولجأ إلى أسهل طريق لتحقيق هذا الغرض فاخذ ينظم لها القصائد ثم ينشرها، وكانت الأسس التي اعتمدت عليها تتلخص في أمور أهمها ما يلي:

١ - إن ربابًا نشرت وهي في الثانية عشرة من العمر عددا من القصائد الجيدة لا تتناسب صياغتها ولا معانيها مع هذه السن المبكرة.

٢ - إنها صمتت منذ وفاة والدها فلم يُسمع لها صوت ولم يُقرأ لها شعر، وهو صمت ليس له تفسير في صالح السيدة رباب وإن كان له أكثر من تفسير ضد شاعريتها.

٣ - شهادة علامة العراق الأديب الشاعر الباحث الأستاذ محمد بهجت الأثرى وهي شهادة أوردتها مفصلة في المقال الذي نشر في جريدة المدينة المنورة في ٢٨/٣/١٣٨٤هـ تؤكد حقيقة ما ذهبت إليه.

ولم يتح للأستاذ الدكتور محسن جمال الدين أن يطلع على ما كتبته عن كتابه (العراق في الشعر العربي والمهجري) أثناء مقامه في مكة المكرمة إذ كان قد سافر إلى بغداد، ولكنه عندما سمع بما كتبت تلطف وكتب إليّ يطلب إرسال ما كتبت فبعثت

(☆) نشرت بجريدة المدينة المنورة في يوم الاحد الموافق ١٣٩٠/٧/٢٠ العدد (١٩٤٨).

إليه بالمقالين، وفي هذه الأثناء كنت بدأت أنشر نقدا لكتاب الأستاذ الكبير عبدالقدوس الأنصاري عن الكاظمي.

وقد وجدت الأستاذ الأنصاري في كتابه يذهب مذهب الدكتور جمال الدين في إثبات الشاعرية للسيدة رباب وكنت أتوقع أن يعرض الأستاذ الكبير لهذه النقطة بالبحث والدرس والتحليل ليصل في النهاية إلى رأي إن لم يكن قاطعا فهو رأي يطمئن إليه الباحث، وخاصة بعدما أثرت من شكوك حول شاعرية هذه الشاعرة، ولكن الأستاذ الكبير مر بهذه القضية مرورا عابرا واعتمد على الدكتور محسن جمال الدين فعدت إلى الحديث مرة أخرى عن هذه القضية أثناء حديثي عن كتاب الأستاذ الأنصاري.

وعلى أثر ذلك تلقيت رسالة من أحد الإخوان الكرام من كلية الآداب في جامعة الرياض رغب في عدم ذكر اسمه يقول فيها: كنت وما زلت متابعا مناقشتكم لكتاب الأستاذ عبدالقدوس الأنصاري الذي أخرجه أخيرا عن الشاعر عبدالمحسن الكاظمي، ولقد لفت نظري التشكيك في شاعرية رباب الكاظمي ابنة الشاعر المذكور، وبما أنني أتابع تاريخ الأدب النسائي العربي منذ القرن التاسع عشر إلى وقتنا هذا حيث ما زلت مواصلا الجهد لكتابة دراسة عنه فإنني أحببت أن أتأكد من رباب التي لم اقرأ عنها إلا في كتاب الأستاذ الأنصاري وفي مناقشتكم معه لذا رجعت إلى الكلية للبحث في كتب البيلوجرافيا التي تعنى بتسجيل أسماء المراجع التي تكتب عن المفكرين والأدباء، وكذلك البحث في الكتب الخاصة بالنساء مثل أعلام النساء لعمر رضا كحالة، وغيره وأخيرا وجدت في أحد كتب البيبلوجرافيا وهو كتاب (مراجع وتراجم الأدباء العرب) للسيد خلدون الوهابي وجدت في الجزء الثالث منه ص ١١٥ الطبعة الأولى مطبعة الحيدرية النجف الأشرف ١٣٧٨ - ١٩٥٨.

أن الكاتب ذكر ما كُتب عن رباب الكاظمي كالآتي:

١ - الكتب: الدليل العراقي ١٩٣٦ ص ٨٨٤.

٢ - المجلات: الصباح ١٩٣٧ فتاة الشرق ١٩٢٧.

٣ - الجرائد: العالم العربي ١٩٢٧ العراق ١٩٣٠ - ١٩٣٥ - ١٩٤٠ - السياسة ١٩٥٤.

فهذا الذي كُتب عن رباب، ومن الممكن أن يكون قد كُتب عنها أشياء أخرى ربما توجد في كتب أخرى، وهنا نلاحظ شيئا مهما بالنسبة للتشكيك في شاعرية رباب فإذا كان ما ذهبتم إليه صحيحًا وهو أن رباب ليست شاعرة ولم تقل بيتًا واحدًا وإنما والدها هو الذي أرادها أن تكون شاعرة فكيف يثبت رأيكم أمام ما كتب عن رباب من مقالات؟

ثم أنني أرى أن تسألوها بنفسها لتتجلى الحقيقة تماما. ولربما لم يطلع علامة العراق الكبير الأستاذ محمد بهجت الأثري الذي ذكرتم بأنه نفى شاعرية رباب لم يطلع على المقالات المذكورة التي تثبت شاعرية رباب، ثم هناك نقطة هامة وهي أن هذه المقالات التي ذكرها السيد خلدون الوهابي - ربما كانت تدحض القائل بشاعرية رباب مما يؤكد ما ذهبتم إليه ويسند الأدلة التي أوردتموها والتي من أجلها استبعدتم أن تكون رباب شاعرة أو أن لها حظًا في هذا الميدان.

فأرجو أن تتهيأ لكم فرصة الاطلاع على المقالات المذكورة ولكم كنت أتمنى أن أجد شيئا منها لأبعثه لكم، وكل نتيجة في المناقشة تستطيعون التوصل إليها فإنها ستفيدنا كثيرا وستفيد تاريخ الأدب العربي على وجه الخصوص.

ثم تلقيت رسالة من الأستاذ العلامة الدكتور محسن جمال الدين يشكرني فيها على ما كتبته عن كتابه (العراق)، ويخبرني فيها أن أحد الكتّاب العراقيين يعتزم إصدار كتاب عن رباب الكاظمي فقلت في نفسي (قطعت جهيزة قول كل خطيب) فلابد أن هذا الكاتب سيكون القول الفصل في هذه القضية، وظللت أرقب صدور هذا الكتاب بكل شوق ولم يطل انتظاري إلى البريد فجاءني الكتاب هدية مشكورة مقدرة من الأستاذ العلامة الدكتور محسن جمال الدين وقد وصلني في ظرف كان وقتي فيه مبددا بين عدد من المشاغل والمسؤوليات فلم أشأ أن أمر به مرورا عابرا وتركته -

على مضض - إلى حين، ثم عدت إليه عند أول فرصة سنحت وقرأته قراءة هادئة واعية فماذا قالت (جهيزة) في هذا الكتاب؟!.

وقبل أن أبدأ لاستعراض ما في هذا الكتاب أحب أن أذكر الأستاذ الفاضل صاحب الرسالة التي أوردتها قبل قليل إلى أنني في استعراض لما في كتاب (رباب الكاظمي - دراسة وشعر) سأتعرض لكثير من النقاط التي أوردها الكاتب في رسالته فإن بقي شيء بعد ذلك فسأعود له بالدرس والمناقشة.

يقع هذا الكتاب في ثمانٍ وعشرين ومائة من الصفحات وينقسم إلى قسمين دراسة تقع في ثمانٍ وأربعين صفحة تحتوي مقدمة وستة فصول أما باقي الكتاب فخصصه المؤلف (نماذج من شعرها).

ويضع المتؤلف الاسم تحت عنوان الكتاب الداخلي هذا البيت من شعر الكاظمي:

إذا سألوني عن رباب أجبتهم هي الروح والعقل المدبروالفكر

وهو بيت من قصيدة أو مقطوعة نشرت في المجموعة الأولى من شعر الكاظمي وهي ليست تحت يدي الآن مع الأسف الشديد، ولم يبق للشاعر في سنواته الأخيرة من أسرته إلا رباب فقد توفي ابنه نزار كما توفيت زوجه أم نزار ورباب، وتوالت النوئب والشدائد من فقر ومرض وحاجة على الشاعر الكبير ولم يجد أمامه إلا ابنته رباب فجعلها محور عواطفه وأسبغ عليها كل ما تجمّع في قلبه من ألوان الحب والحنو والعطف، وكان ينظر إليها بعين خياله البعيد فلا يراها مجرد طفلة مثل غيرها من الأطفال ولكنه يراها الأمل المتجسد لأشواقه الثائرة المتطلعة في قلق عارم إلى المستقبل السعيد وهذا ما يفسر لنا هذه الأوصاف المعنة في المبالغة التي أضفاها الشاعر الكبير على ابنته، ويروي لنا الأستاذ عبدالرحيم محمد علي مؤلف كتاب (رباب الكاظمي) (أن أحد أصدقائه زاره في أخريات أيامه فقال الكاظمي: لقد تخرمت المنون أصحابي واحداً إثر واحد وطالت عليّ العلل حتى هدّتني وما بقي

للحياة طعم في فمي ولكني أطلبها من أجل رباب التي هي كل صلتي بالدنيا وأملي في الحياة وما لها نصير إلا قلب والدها المحطم).

لقد كان قلب الشاعر مسرحا لتيارين عنيفين فهو قلق عليها أشد ما يكون القلق وكان يشعر بمدى المصائب التي ستتعرض لها هذه الابنة التي سيتركها بعده طفلة لا نصير لها ولا معين ولا حول ولا قوة وكان في نفس الوقت يطمع في أن تكون (رباب) صوتا مدويًا في عالم الشعر يُذكِّر الناس بصوت أبيها وهو في عالم الأبدية، إذ كان يضيق أن يتناساه الناس وأن تضيع أصداؤه المدوية، وكان شديد التوق إلى أن تصبح ابنته خنساء عصرها؛ تذكِّر الناس بأبيها الشاعر المظلوم؛ كما ذكرت الخنساء بأخيها صخر فلا يذكر أحد الخنساء إلا ذكر أخاها صخرا:

ستغدو لي الخنساء إن ضمني الثرى وقد رق من عطف على ما بي صخر

ومن أجل ذلك حرص الشاعر على أن يدفع بابنته إلى خضم الشعر فرواها طائفة كبيرة من الشعر العربي الجيد وأغراها بمحاولة النظم، ولكن الزمن يمر وأيام الشاعر تدنو من نهايتها. ولم تستطع هذه الابنة أن تنظم شعرًا يهز القلوب ويسترعي الأسماع، وهو لا يريد أن يترك هذه الدنيا قبل ان يكون لابنته سمعة مرموقة في عالم الشعر فرأى أن يبدأ هو في تكوين هذه السمعة، وبدلا من أن تكون البداية صغيرة تكبر وتنمو على مدى الأيام رأى الشاعر بدوافع (لا شعورية) أن تكون البداية ضخمة مجلجلة، فكانت قصيدة (في المعترك) وهي قصيدة في ثمانية وثمانين بيتا نشرتها مجلة (أبوللو) على خمس صفحات مع صورة الشاعرة.

تعقيبات حول شاعرية رباب*

الحلقة الثانية

ونستانف حديثنا اليوم عن الشاعرة رباب الكاظمي فقد كتب عنها الأستاذ صالح جودت في مجلة (ابوللو) بعد شهرين من نشر قصيدتها: (في المعترك) يقول عنها: (فمن هي رباب؟ هي ربيبة بيت الشعر والفضل وأبوها السيد عبدالمحسن الكاظمي الشاعر الجليل، تاثرت رباب بروح أبيها لولا تلك الأنوثة الرقيقة التي تبدو في شعرها ولكن ديباجتها العربية هي من النماذج العالية للشعراء لا للشاعرات فحسب، قوية الثقة رصينة القول عذبة التعبير ولكنها تنزع إلى الحزن والشكوى، شكوى العيش وآلامه وقصيدتها (في المعترك) هي من أجمل آثار الشعر العربي ولا سيما مطلعها الذي نكبره من فتاة في مثل سنها:

أدبي لدى الأيام جرى ... وجريرتي في الدهر علمي

وتقول عن أبيها وهي أبيات بديعة:

أما أبي فقد أبى ... عند القوافي غير حكمي
لم يأل جهدا سعيه ... فمن المهم إلى الأهم
يبكي على أوطانه ... وينوح في نثر ونظم
فإذا فررت إلى حما ... ه فررت من هم لهم

وتمتاز بالصراحة كما تتميز بالرصانة والوقار، أنار الله لها الدنيا وأسعد أمامها عاثر الجد، هذه هي ثورة الأدب بل هي ثورة الشعر عند فتاة القرن العشرين).

(☆) نشرت في جريدة المدينة المنورة يوم الاحد الموافق ١٧/٦/١٣٩٠هـ العدد (١٩٥٤).

هذا ما كتبه صالح جودت عن رباب في مقال له بعنوان (الشعر النسائي الحديث) تحدث فيه عن ثلاث من الشاعرات هن: سهير القلماوي، وجميلة العلايلي، ورباب الكاظمي.

وهكذا أفلح الشاعر عبدالمحسن الكاظمي في لفت الأنظار بشدة إلى ابنته كشاعرة جديرة بالاهتمام، وكان حسن الحظ، فلم يتصدَّ له ولا لها نقاد مشاغبون يكشفون اللعبة ويزيلون المستور، ويبدو أن ذلك عائد إلى مكانة الشاعر وما كان يعانيه من فقر ومرض من جهة وإلى ما كان يسيطر على الأذهان في تلك الأيام من أفكار غريبة تدعو إلى تشجيع المرأة على التمرد على القيم الكريمة الموروثة والخروج إلى دنيا الرجال مزاحمة ومنافسة في كل المجالات.

وقد اضطر الشاعر إلى مواصلة نظم القصائد في الأغراض التي كانت تشغل باله في تلك الأيام ونشرها باسم ابنته رجاء أن تحقق تقدما ملحوظا في مجال قرض الشعر قبل أن يودع هو الحياة.

ولكن الأيام تمر مسرعة دون أن تستطيع رباب أن تحقق شيئا في هذا المجال لأن الطبع يغلب التطبع ولأن مداها واستعداداتها ليست متجهة إلى الشعر والأدب ولأن الأرجل الخشبية لا تقوى على مواصلة العمل فشتان بينها وبين الأرجل الطبيعية.

ويبدو أن الشاعر قد أدرك وهو على أبواب الأبدية هذه الحقيقة فأراد أن يضمن لها حياة طيبة دون أن يتركها تتعثر في طريق شائك لا يوصل إلى غاية فأوصاها وهو في ساعاته الأخيرة بقوله:

(عديني يا رباب وأنا على أبواب الأبدية ألا تقربي الشعر إلا بعد حصولك على إجازة علمية لئلا يكون نصيبك الحرمان والعلل كأبيك).

وحسنا فعل الشاعر الكبير فقد كانت هذه النصيحة أجدى عليها من تلك المحاولات اليائسة وقد وجدت فيها الشاعرة الخلاص من مجهودات عقيمة لا توصل إلى هدف.

ولئن لم تتحقق آمال الشاعر الكبير في أن يجعل من ابنته رباب شاعرة كالخنساء فقد تحققت آماله في أن تشق طريقها في الحياة لتعيش عيشة كريمة مترفة فقد أصبحت طبيبة أسنان مرموقة حتى أتيح لها أن تدرس في مصر وباريس وأوروبا كما استطاعت أن تجعل من ابنها (عبدالمحسن) مهندسا مختصا في الهندسة الكهربائية من أمريكا وأن تجعل من ابنتها (ليني) طبيبة مختصة بمعالجة السرطان بالذرَّة من لندن وانحصرت الشاعرية في الشاعر الكبير وفي أخيه الأكبر «الشيخ محمد حسين الكاظمي» فلم تنتقل إلى الأولاد ولا إلى الأحفاد. (وتقدرون فتضحك الأقدار).

قلت أن مؤلف كتاب (رباب الكاظمي - دراسة وشعر) قد قسم كتابه إلى قسمين يتضمن القسم الأول دراسة لحياة (الشاعرة) غير الشاعرة، وفي هذا القسم معلومات طيبة عن حياتها وحياة والدها، ولن أعرض لكل ما ورد في هذا القسم إذ لا ضرورة لذلك ولكنني سأعرض لبعض النقاط عرضا سريعا لأصل إلى النقطة الجوهرية في الموضوع وهي شاعرية رباب.

ويقول المؤلف في المقدمة (من دواعي الفخر والاعتزاز أن أقدم هذه الدراسة عن الشاعرة الفاضلة الدكتورة رباب الكاظمي إلى القراء الكرام والمتتبعين الأفاضل الذين اعتادوا أن يقرأوا لنا عن والدها الشيخ عبدالمحسن الكاظمي منذ سنين).

والحق أن كتاب المؤلف جدير بالشكر العميق على جميل اهتمامه بشاعر العربية الكبير فقد ألّف عنه أربعة كتب هي:

١ - الكاظمي شاعر العرب في (١١٢) صفحة سنة ١٣٧٤هـ.

٢ - ذكرى شاعر العرب في (٢٠٨) صفحات سنة ١٣٧٧هـ.

٣ - الكاظمي شاعر الكفاح العربي الخالد في (٢٧٢) صفحة سنة ١٣٨١هـ.

٤ - الكاظمي في ذكراه الثلاثين في (٣٠٤) صفحات سنة ١٣٨٥هـ وهناك كتاب خامس لا يزال مخطوطا لدى المؤلف.

وبهذا يصحح لنا المؤلف خطأ وقعنا فيه حين كتبنا عن كتاب الأستاذ الأنصاري عن الكاظمي فقد أشرنا إلى أنه لم يؤلف عن الكاظمي إلا كتاب الأستاذ الأنصاري مع أن المؤلف قد أصدر أربعة كتب في حوالي عشر سنوات وإن كنت لم أطلع عليها مع شديد الأسف، وهو جهد مشكور للمؤلف الفاضل.

يقول المؤلف في المقدمة: (والحديث عن الدكتورة رباب الكاظمي هو حديث عن رائدة مشهورة من رائدات النهضة العلمية والأدبية في هذه الديار فهي من السابقات في ميدان الفكر.. وسيرتها خير برهان على ذلك.. نظمت الكثير من القصائد في المناسبات القومية والأحداث التاريخية الهامة في دنيا العرب. ونشرت تلك القصائد في مختلف الصحف العربية وفي أوقات مختلفة من عمرها المديد - إن شاء الله - في أيام والدها المرحوم وبعد رحيله إلى العالم الثاني).

ونقول أما إنها رائدة مشهورة ومن السابقات في ميدان الفكر فذلك صحيح ولكن في الحدود التي وضعناها لها وأما إنها نظمت الكثير من القصائد في المناسبات القومية والأحداث التاريخية الهامة في دنيا العرب فهذا صحيح إذا كان مقصورا على حياة والدها، أما بعد وفاته فلم نسمع لها صوتا قويا ولا خافتا في أحداث هزت دنيا العرب والإسلام هزا عنيفا نذكر منها على سبيل المثال قضية فلسطين وقضية الجزائر. ولا نريد أن نشير إلى عشرات الأحداث الأخرى.

يقول المؤلف في فصل بعنوان (شاعرية وشعر) (فسارت رباب على نفس الخط الذي اختطه والدها ولم تَحِدْ عنه قيد أنملة وبقيت حتى هذه اللحظات بنفس تلك الروح حماسا في خدمة وطنها، وقدرة على محاربة خصومه وعملاء الأجنبي المستترين).

ويأتي المؤلف بتسعة أمثلة كلها مما قيل في حياة والدها ولم يات بمثال واحد بعد وفاة والدها العظيم، مع أن المؤلف تحدّث عن حماستها الوطنية وعن استمرارها (حتى هذه اللحظات) أي أن خمسا وثلاثين سنة مرت منذ أن غادر أبوها الحياة، ومع ذلك فلم يجد المؤلف مثالا واحدا يدرجه ضمن الأمثلة الكثيرة التي قدمها مع أن

والدها لو عاصر هذه الأحداث لقدم شعرا كثيرا يملأ اكثر من ديوان، ويقول المؤلف (فهذه الروح الوثابة الثائرة التي لا تعرف الخوف ولا السأم هي السبب في البلية التي أصابت الشاعرة وجعلتها عرضة للتهديد من خصوم عقيدتها).

ولم يحدثنا المؤلف عن هذه (البلية) التي أصابت الشاعرة ولم يضرب لنا مثلا واحدا لما تعرضت له من تهديد، ولعله لو فعل لاستعطف اهتمام القراء ولوضع أمام النقاد الشاكِّين (بكسر الكاف وتشديدها) عقبة قد تشغلهم قليلًا أو كثيرًا عن مهاجمة الشاعرة والشك في شاعريتها.

تعقيبات حول شاعرية رباب الكاظمي*

الحلقة الثالثة

ويواصل الأستاذ عبدالرحيم محمد علي مؤلف كتاب (رباب الكاظمي: دراسة وشعر) حديثه عن رباب فيقول: (وهنا ظلت رباب تقرض الشعر الكثير لا تنشر منه إلا القليل إلى أن أربى ما نظمت منه على الألفين).

ألفان من الأبيات أو تزيد رصيد ضخم لدى الشاعرة يكفي لإصدار ديوان ضخم لو طبع على الطريقة القديمة كما يكفي لإصدار عدد من الدواوين لو طبع على الطريقة الحديثة.

ألفان من الأبيات قالتها (الشاعرة) في الفترة التي تلت وفاة والدها ومع ذلك فقد عجز المؤلف المفضال عن إثبات نماذج ذات قيمة في كتابه الذي ألّفه لدفع التهمة الموجهة إلى السيدة رباب وهو لا يخفي ذلك فيقول: (وانزواؤها عن عالم نشر نتاجها جعل بعض النقاد من أدبائنا أن يوجهوا إليها تهمة فيما نشرت... وقد دافعنا عن هذا الشاعر في كتابنا (الكاظمي شاعر العرب).

ونقول إن مدافعة هذه التهمة موضعه كتابه عن رباب، ويبدو أن المؤلف قد لخص دفاعه الذي فصله في كتابه (الكاظمي شاعر العرب) في هذه السطور.

يقول المؤلف: (فالفرق بين الأسلوبين واضح بين أسلوب والدها وأسلوبها وفي سبك ومتانة وقوة النظمين الفرق بيِّنٌ أيضًا، مع أن البداوة لم تبرح شعرها، وليس من العجب أن يكون هناك تشابه بين الأسلوبين لأن أباها كما قلنا - وهو معلمها الأول

(☆) نشرت في جريدة المدينة المنورة والتاريخ ورقم العدد غير واضح في الأصل.

- قد شبت في النظم عليه واستسقت من ينبوعه وتأثرت بأسلوبه وهذا هو المبرر الرئيسي للتشابه بين الأسلوبين إذا دعا هذا التشابه للشك).

وهذا كلام عام لا يقوى على رد التهمة بل إنه يحمل في طياته اعترافا ضمنيا بوجود تشابه لا يستطاع تمييزه بين شعر الكاظمي وما ينسب لرباب من شعر.

تلك هي الحجة الأولى أما الثانية فهي كما يقول المؤلف: (إن التبكير في النظم لم يكن جديدا في الأدب العربي ولم تكن رباب الكاظمي أول من بكّر في النظم فهناك أمثلة كثيرة عن المبكرين النوابغ الذين ذكرتهم كتب تاريخ الأدب العربي ومنهم المرحوم شكيب أرسلان الذي نَظَم الشعر الجيد وهو ابن الثانية عشرة من العمر، وقبل الثانية عشرة من عمره نظم قصيدة في مدح متصرف لبنان في العهد العثماني وأهدى له المتصرف ساعة ذهبية إعجابا وإكبارا) وهذه حجة لا تفيد كثيرا في دحض التهمة فلم ينكر أحد قضية التبكير في النظم ولكن الذي ننكره هو أن - يفتح شاعر حياته الشعرية في سن مبكرة بقصيدة عصماء يصفها بعض النقاد بأن (ديباجتها العربية هي من النماذج العالية للشعراء لا للشاعرات فحسب. قوية اللغة رصينة القول عذبة التعبير.. هي من أجمل آثار الشعر العربي) ثم يسكت فجأة فلا يقوى على نظم شيء يُذكر يثبت به أصالته ويدفع به عن نفسه تهمة امتلاك ما ليس له.

أما قصة شكيب أرسلان مع متصرف لبنان العثماني فهي قصة طبيعية فوقوف طفل في العاشرة أو الحادية عشرة أمام جمهور كبير يتصدره حاكم كبير ليلقي قصيدة في تحية هذا الحاكم مهما يكن مستوى هذه القصيدة، وقوف طفل بهذه الصورة أمر جدير بالإعجاب.

وتأتي الحجة الثالثة وهي الاستشهاد بكلام الأستاذ صالح جودت وقد نقلناه فيما سبق وهي حجة غير مقبولة لأن الأستاذ صالح جودت لم يكن يهمه في مقاله الذي سبقت الإشارة إليه إلا شيء واحد هو إلقاء الضوء على (الشعر النسائي الحديث) في محاولة لإبرازه ولفت الأنظار إليه وللأستاذ صالح جهود في هذا المجال.

أما الحجة الرابعة وهي الاستشهاد بكلام الدكتور طبانة حيث يقول: (قرأ الناس هذه القصيدة (في المعترك) - فأعجبتهم حلاوة نظمها وسحرتهم جودة معانيها وتدفق الشاعرية فيها، فاستكثروا هذه الجودة على فتاة في مثل سن رباب، وزعم قوم منهم أن هذه القصيدة ونظائرها من شعر السيد عبدالمحسن الكاظمي نفسه نحلتها ابنته، وهم - كما يبدو في زعمهم - معذورون، ولكن الواقفين على صفاء الطبع العراقي وجودة الاستعداد لا يستكثرون هذه الأبيات على فتاة عراقية أضافت إلى استعدادها الموهوب وشاعريتها الموروثة أَخْذ أبيها بيدها، ولرباب نظائر حلقن في سماء الشعر والأدب وإن لم يتح لبعضهن ما أتيح لرباب).

فالدكتور طبانة لا يندفع في كلامه نحو إثبات الشعر لرباب وإنما يحترس فيضع عبارة (كما يبدو) وحتى لو أغفلنا هذه الملاحظة فإن الدكتور لم يستشهد بشعر لرباب قيل بعد وفاة والدها.

ومثل هذا الكلام ينصب على ما رواه المؤلف من كلام الدكتورة صفاء خلوصي والأستاذ سلمان طعمه.

ويختم المؤلف حججه الدفاعية بذكر خبر رده على كاتب (كتب ينتقد ما قلته من أن ربابا شاعرة بالقول والفعل) فيقول: (وقد رددت على الكاتب المحقق في عدد من أعداد «الأديب» وأقمت الحجة على أن ربابًا قالت الشعر وما كانت في حاجة إلى عون من أبيها على هذا الجهد).

ونسأل الكاتب المفضال: ولماذا؟؟

فيجيب قائلا: (ما كانت العبقرية يوما بمتوارية إن أعينت زمنا فسرعان ما يتكشف زيفها وتبين ضحالتها وتظهر للناس مكشوفة عارية).. وهذا الكلام عجيب يقال في هذا المجال فأين هي العبقرية التي برزت فلم تستطع التواري وأين الزيف من الحقيقة في قصة رباب؟.

وقد بحثت عن عدد يناير من مجلة الأديب لعام ١٩٥٦م الذي أشار إليه المؤلف لأطلع على ردود الكاتب ودفاعه فلم أعثر عليه بين مجموعتي ولن آسف لذلك كثيرا فأنا واثق من أن الكاتب لا يملك حججا غير التي أوردها في كتابه وأشرت إليها فيما سبق ولو كان لديه غيرها لما صرف عنها وهو يتحدث عن التهمة التي وجهت للسيدة ابنة الشاعر الكبير وفي هذا المقال مجال الدفاع عنها، وهذا ما لا يجهله المؤلف المفضال.

والخلاصة أنني كنت أشك في شاعرية رباب الكاظمي قبل أن أقرأ كتاب الأستاذ «عبدالرحيم علي» عنها أما بعد أن قرأته فقد أصبح شكي أقرب إلى اليقين وأحب أن أركز على الأمور الآتية:

١ - لم يستطع الأستاذ المؤلف أن يقدم دليلا يقف على رجليه في إثبات شاعرية رباب ونفي التهمة عنها.

٢ - حدثنا المؤلف عن حفلات تابين أقيمت (في عدة أمكنة في العراق اشترك فيها الشباب والشيوخ: الأهلون (من الأهلية) والحكومة شعرا ونثرا برثاء البطل النابغة في الكاظمية والنجف وكربلاء والعراق - وكان الحفل الذي أقامته الحكومة نفسها حفلا تابينيًا مهمًا في حديقة المعرض ببغداد اشترك فيه شيوخ الشعراء، ودعيت رباب لحضوره من القاهرة. وقد وصلت بغداد بالطائرة تلبية للدعوة نحو الساعة السابعة زوالية من يوم ١١ حزيران ١٩٣٥ وكان في استقبالها بالمطار لفيف من السيدات والأوانس الفُضليات، وبعد إجراء حفلة استقبالها من قبل فُضليات السيدات اللواتي كن في استقبالها استقلت سيارة، وفي صباح أمس قصدت وبرفقتها مديرة مدرسة البنات في الكاظمية دار المعلمات وهناك احتفت بها المدرسات والطالبات، ثم قصدت ديوان وزارة المعارف فزارت معالي وزير المعارف.

وقد أقيمت لها مأدبة غداء ضخمة ظهر أمس من قبل كريمة رئيس الوزراء حضرتها لفيف من الأوانس والسيدات.

وقول جريدة البلاد العراقية التي ننقل عنها هذا الكلام ـ كما أورده الأستاذ عبدالرحيم علي ـ تقول جريدة البلاد في ختام حديثها، وقد بلغنا أن بعض العائلات ستقيم المآدب الفخمة لابنة العراق وربيبة النيل تكريما لمقدمها واعترافا بفضلها وادبها الجم).

نقول: إن المؤلف الفاضل قد حدثنا طويلا عن الحفاوة التي قوبلت بها رباب في العراق منذ أن حلت بأرضه إلى أن غادرته إلى القاهرة وعن الحفلات التكريمية الحكومية والشعبية ولكن شيئا هاما أهمله المؤلف ولم يحدثنا عنه وهو القصائد التي ملأت بها رباب جو بغداد وإذاعتها وحفلاتها فلا شك أن شاعرة - كرباب - هزت المحافل الأدبية في القاهرة بقصائدها الطوال ستلعب بالمحافل الأدبية في بغداد بقصائدها التي تملأ بها الدنيا وتشغل الناس كما كان أخ لها من قبل وهو أحمد بن الحسين.

لا شك أنها ستستقبل أرض العراق عندما تضع قدميها عليه وهي تراه لأول مرة بقصيدة عصماء ستظل حديث الأجيال، فهذا اللقاء بين موطن والدة الشاعرة وأسرتها وبينها وهو لقاء يتم لأول مرة خليق بأن يفجر عواطفها شعرا يهز المشاعر ويعصف بالقلوب.

ولكن (الشاعرة) استقبلت وطنها ثم ودّعته ولم تُجدْ عليه ببيت شعر واحد، ولم يقدم لنا المؤلف تعليلا لهذا الموقف، وقلت في نفسي لعل القصيدة التي أعدتها لاستقبال الوطن في المطار لم تستطع أن تعبر عن مشاعرها بعد أن وصلت إلى المطار فقد جاشت عواطفها جيشانا قلب كيانها فآثرت أن تطوي القصيدة إلى حين، وقلت في نفسي: لعل الشاعرة قد أعدت (ملحمة) أو (مُعلّقة) على الأقل أفرغت فيها كل شحناتها العاطفية ستفاجئ بها أبناء وطنها في الحفلة الحكومية التي أقيمت لتكريم ذكرى والدها، ولكن الحفلة الحكومية مرّت كما مرّت عشرات الحفلات الأخرى ومنها حفلة معهد المعلمات دون أن تنطق ببيت شعر وهو موقف في غاية الغرابة لم يقدم له المؤلف تعليلا أو تبريرا!.

ولم يستطع عقلي أن يتصور أن شاعرة تفتتح حياتها الأدبية بقصيدة ناهزت المائة في الأبيات وتصدرت الشعر في مجلة أبوللو فنشرت قصيدتها قبل قصائد الدكتور زكي مبارك، وأحمد فتحي، وعبدالحميد الديب، وصالح جودت، وعشرات غيرهم، ثم نظمت طائفة من القصائد الطويلة المحلّقة. وبعد ذلك دُعيت إلى حفلات في وطنها الأول لتكريم والدها وأستاذها ولكنها خرجت من هذه الحفلات كما دخلت لم تنطق بحرف. تلك قضية لم يقبلها عقلي لا شكلا ولا موضوعا ولا أتصور أن عقلا يقبلها، وليس أمام الأستاذ عبدالرحيم علي مؤلف كتاب رباب الكاظمي إذا كان حريصا على دفع التهمة عن رباب إلا أحد طريقين: فإما أن يثبت لنا بالدليل القاطع أن رباب قد ألقت في حفلات تكريم أبيها قصيدة أو أكثر في مستوى قصائدها التي قيل إنها نظمتها في حياة أبيها، وإما أن يعترف معنا بأن رباب ليست شاعرة أو أنها شاعرة ولكن في مستوى لا يبلغ بحال من الأحوال مستوى شعرها في حياة أبيها ويهمني هذا أن تصح تهمة انتحالها شعر أبيها.

تعقيبات حول شاعرية رباب الكاظمي*

الحلقة الرابعة

٣ - أثار انتباهي وأنا أدرس هذه القضية الأدبية موقف الدكتورة رباب منها، فلم يُسمع لها صوت فيها ولم تقل كلمة تثبت أو تنفي كأن الأمر لا يعنيها أو كأنها تعيش في عالم ناءٍ لا يصل إليها فيه ما يضطرب فيه الكتّاب والنقاد حولها، وهو صمت يثير الريب ويهيج الشكوك ويميل بالقضية إلى غير صالحها، كما أن موقف الأستاذ عبدالرحيم علي مؤلف كتاب رباب هو أيضا يدعو إلى الشك، فهو يؤلف كتابا عنها ويذكر في كتابه أنه اتصل مرات بالأستاذة الدكتورة وهو يعرف تماما ما يثار حول شاعريتها بل إنه تصدى للدفاع عنها في مجلة الأديب قبل خمس سنوات ولكنه مع ذلك أو مع كل ذلك لا يسألها رأيها في هذه القضية ولا يناقش معها ما يثار حولها والأغرب من جميع ذلك أنه لا يحرص على نشر شيء من شعرها الذي قالته في الأحداث العظيمة التي مرت بوطنها العربي على امتداد خمس وثلاثين سنة، وهذه الفترة التي عاشتها الشاعرة منذ وفاة والدها حتى اليوم وهي فترة حافلة بالحوادث والأحداث حفولا كبيرا بل ربما لم تمر على العرب طوال تاريخهم فترة في مثل ظلامها وقسوتها وبشاعتها.

نعم لم يحفل المؤلف المفضال بنشر شيء من شعرها (الجديد) بينما يحرص على أن ينشر كل أو أغلب ما قيل في حياة والدها وهو تصرف كما قلنا لا يمكن تفسيره في صالح ابنة شاعر العرب الكبير.

(☆) نشرت في جريدة المدينة المنورة في يوم الثلاثاء الموافق ١٤/٧/١٣٩٠هـ العدد (١٩٦٨).

عندما تركت الكتاب وذهبت لأنام خطر ببالي خاطر غريب في تفسير صمت الشاعرة، خطر ببالي أن ابنة الشاعر الكبير أحبت أن تتشبه بسيد شعراء العربية المتنبي الذي يقول في قصيدته الميمية:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصموا

فهي مثله تنام ملء جفونها تاركة هؤلاء النقاد (المجانين) يغذون أبصارهم تحت أضواء المصابيح - كما يقول الدكتور المبارك - ينقبون ويبحثون ويختصمون في شعرها ويفسرون ويشرحون.

خطر ببالي هذا الخاطر ولكنني عندما استيقظت في الفجر تذكرته فضحكت منه طويلا، فأبو الطيب لم يقل بيته إلا بعد أن أصبح شاعرا ملأ الأسماع والأبصار والأفئدة، وأبو الطيب لم يشك أحد في شاعريته ومع ذلك فقد تعرض لامتحانات عسيرة خرج منها فائزا ناجحا موفقا وقال في نهاية واحد من هذه الامتحانات:

إني أنا الذهب المعروف مخبره يزيد في السبك بالدينار دينارا

٤ - يقع القسم الثاني من كتاب (رباب الكاظمي) في ثمانٍ وسبعين صفحة ويحتوي على (نماذج من شعرها) وقد بلغ عدد القصائد المختارة من شعرها القديم تسع عشرة قصيدة وهي قصائد تمتاز بالنَّفَسِ الطويل وقد بلغت أبيات قصيدتين منها (١٥٦) بيتًا، كما بلغت أبيات قصيدة أخرى (١٣٩) بيتًا وقصيدة ثالثة بلغت أبياتها (١٠٢) من الأبيات وهناك عشر قصائد تتراوح بين الخمسين والمائة من الأبيات.

وهذا النَّفَس الطويل من أهم مميزات شعر عبدالمحسن الكاظمي شاعر العرب الكبير.. ولست أرى ضرورة لإطالة الحديث عن هذه القصائد فكلها قيلت في حياة الشاعر الكبير، والحكم الذي يجري على واحدة منها يسري على الجميع ولكن الذي أريد مناقشته هو النماذج التي أوردها المؤلف من شعر (الشاعرة) الجديد.

قد بالغنا حين قلنا (نماذج) من شعر الشاعرة فالواقع أن المؤلف لم يقدم لنا غير مقطوعة واحدة في تسعة أبيات تلاها ببيتين وملاحظتنا تنصبُّ على الكمية وعلى النوع.

ونحن نستغرب أن يقدم لنا هذه الأبيات القليلة من شعر الشاعرة بعد أن استقلت عن والدها، وكيف يسوغ في عقل إنسان أن يتقبل من الشاعرة التي قدمت للناس في ثماني سنوات - ١٩٢٨ - ١٩٣٥ - ثروة ضخمة من الشعر العالي تقدم لنا بعد أكثر من ثلث قرن هذين البيتين:

أتيح الصيام على مشتهاك ... وقدامك اليوم الاسخاك

إذا عاقب الله من لم يصم ... فماذا يكون عقاب نداك؟

أو تقدم لنا تلك المقطوعة المنشورة في الكتاب بعنوان (هل-الهلال) وهي أبيات تتضاءل حتى تمحى أمام تلك القصيدة العملاقة التي افتتحت بها الشاعرة حياتها الأدبية (في المعترك) أو في غيرها من القصائد الأخرى التي قيلت في حياة والدها العظيم أو قالها والدها العظيم.

من العجيب حقا أن يعجز المؤلف الفاضل عن اختيار مجموعة ولو قليلة من قصائد الشاعرة التي قالتها في مدى خمس وثلاثين سنةوقال عنها المؤلف أنها تجاوزت الألفين من الأبيات ولو حذفنا القصائد التي تثار حولها الشكوك لما بقي من شعر الشاعرة غير مقطوعة في تسعة أبيات قالتها الشاعرة - كما يقول المؤلف - في عام ١٣٨١ وغير بيتين قالتهما الشاعرة في عام ١٣٧٨.

إن هذه الأبيات الأحد عشر لا تصلح إطلاقا - كما رأيت - لنفي التهمة عن الشاعرة لا من حيث الكم ولا من حيث النوع فهي أبيات ضعيفة الصياغة ليست في مستوى ما ينسب إليها من أشعار نشرت في حياة أبيها كما أنها لا تتناسب مع ما يُنتظر من شاعرة قضت في معاناة القريض ما لا يقل عن أربعين سنة.

ونصل من هذا إلى أن ما سبق أن افترضناه من أن الكاظمي كان يتحرق شوقًا إلى أن يصنع من ابنته شاعرة تصل ما ينقطع بموته وتظل طول حياتها صوتا قويا مجلجلا يذكِّر الناس به تذكيرا متصلا ويجعل منها خنساء عصرها تربط بينها وبين

أبيها برباط أدبي قوي كما ربطت الخنساء بينها وبين أخيها صخر في شعرها الذي ظلت تردده.

كان الكاظمي متحرقا شوقا إلى هذه الغاية وقد وضع كل ما يملك من أسباب في خدمتها، وكان يشعر بانه في سباق مع الزمن ولكن آماله العريضة التي كانت تغمر فؤاده كانت توهمه بأنه سيسبق الزمن، ولكنه أدرك في آخر لحظاته أن بينه وبين الوصول إلى هدفه آمادا وآمادًا وأن الزمن كان أسرع منه بكثير وأن آماله العراض لم تكن إلّا وهمًا من أوهام الحياة.. كان الشاعر الكاظمي قد وضع خطته لابنته - في ضوء تجاربه ومواهبه - فرواها كثيرا من روائع الشعر وشجعها على النَّظْم وأخذ يترقب في حماسة ونفاد صبر ثمار عمله ولكن الانتظار طال أكثر مما توقع وفكّر في خطة جديدة هي أن يتركها تحت إشرافه وتوجيهه تواصل محاولاتها قرض الشعر، ويبدأ هو في نشر قصائده من قصائده مذيلة بتوقيع ابنته لتكوين سمعة أدبية لها ولإيجاد شهرة عنها في عالم الشعر، وتكون هي بعد سنوات قد وصلت إلى المستوى المطلوب فتسير في نفس الطريق وبذلك يوفر عليها جهودًا كبيرة كانت ستصرفها في تكوين شهرتها الأدبية، ولكن الأيام تمضي دون أن تقطع رباب من طريقها القدر الذي يبعث على التفاؤل، إذ يبدو أن مواهبها ليست متجهة إلى عالم الشعر والأدب، وودَّع الكاظمي الحياة دون أن تحقق رباب في نَظْم الشعر نجاحا يذكر، ولذلك وقفت بعد وفاة أبيها ضيقة الصدر مبهورة الأنفاس ولم تستطع أن تقول شيئا في رثاء أبيها ولا في تحية وطنها، ويبدو أن أقصى ما وصلت إليه من نجاح هو شعر في مستوى المتوسط، وتلك الأبيات الأحد عشر التي نشرها المؤلف في كتبه هي من أفضل ما نظمت الشاعرة بعد وفاة أبيها.

عرضت هذه القضية مرة في ندوة من ندوات أسرة الوادي المبارك فسأل صديقنا الشاعر المبدع الأستاذ محمد هاشم رشيد هل للشاعر الكاظمي شعر لم يجمع بعد؟ فأجبته بان للكاظمي شعرا لم يجمع في ديوان كما ورد ذلك في كلمة الإهداء المكتوبة

في أول صفحة من (المجموعة الثانية) من ديوان الكاظمي حيث تقول رباب والله أسأل أن يوفقني إلى جمع وإظهار ما تبقى من أغاريدك العذبة).

قال الصديق الكريم: ولو كنت مكان رباب لاجتهدت في إخراج المجموعة الثالثة بعد أن أضيف إليها كل ما قاله الكاظمي من شعر نسب إلى رباب ثم أقدم ذلك إلى القراء بمقدمة اعترف فيها بكل ما حدث وأشرح فيها جميع ملابسات القضية.. إنها إن فعلت ذلك فستخلد نفسها في التاريخ الأدبي..) وأضفت وقد أعجبني الاقتراح أن رباب تستطيع بعدئذ أن تنشر شعرها (الحقيقي) ومن يدري فلعل القراء يجدون فيه نكهة مميزة لا توجد في شعر أبيها ولعلها بذلك تحقق نصرا أدبيا لم تستطع تحقيقه بانتحال شعر أبيها،ولكن هل لدى رباب الجرأة الكافية لتحقيق هذا الاقتراح؟ أنني أرجو ذلك.

تعقيبات حول شاعرية رباب الكاظمي*

الحلقة الخامسة

وأعود - بعد هذا - إلى رسالة الأخ الكريم في كلية الآداب التي نشرتها في بداية هتذا الحديث لأعلق على بعض نقاط ربما لم يشملها ما أوردته من كلام فيما سبق.

أورد الكاتب الفاضل عددا من الكتب والمجلات والجرائد التي تتعصب للسيدة رباب معتمدا على كتاب السيد خلدون الوهابي (مراجع تراجم الأدباء العرب) ثم عقَّب على ذلك بقوله: (فهذا الذي كتب عن رباب ومن الممكن أن يكون قد كتب عنها أشياء أخرى ربما توجد في كتب أخرى، وهنا نلاحظ شيئا مهما بالنسبة للتشكيك في شاعرية رباب فإذا كان ما ذهبتم إليه صحيحا وهو ان رباب ليست شاعرة ولم تقل بيتا واحدا وإنما والدها هو الذي أرادها أن تكون شاعرة، فكيف يثبت رأيكم أمام ما كتب عن رباب من مقالات؟ ثم إنني أرى أن تسألوها بنفسها لتتجلى الحقيقة تماما فلربما لم يطّلع علّامة العراق الكبير الأستاذ محمد بهجت الأثري الذي ذكرتم بأنه نفى شاعرية رباب لم يطّلع على المقالات المذكورة التي ربما تثبت شاعرية رباب).

ونبدأ بالنقطة الأولى وهي: كيف يثبت رأيي عن شاعرية رباب أمام ما كتب عن رباب من مقالات؟ ويبدو لي أن المسألة أبسط مما تصور الكاتب الفاضل فما نوعية هذه المقالات؟.. لقد تعرضنا فيما سبق للمقالة التي كتبها الأستاذ صالح جودت كما تعرضنا لما قاله الدكتور صفاء خلوصي والدكتور بدوي طبانة، وقلنا أن هؤلاء الكتاب

(☆) نشرت بجريدة المدينة المنورة يوم الثلاثاء الموافق ٢١/٨/١٣٩٠هـ العدد (١٩٧٤).

الأماثل اعتمدوا بما كتبوا على ما نشر من شعر للسيدة رباب وهو شعر على مستوى رفيع لا يمكن أن يصدر عن شاعرة في سن رباب التي أسهبنا الحديث عنها ويمكن الرجوع إليها.

وبالنسبة للكتب والصحف التي وردت في رسالة الكاتب الفاضل منقولة عن كتاب السيد خلدون فلم يرد إلّا اسم كتاب واحد هو الدليل العراقي الصادر في سنة ١٩٣٦م ولم أستطع العثور على هذا الدليل ولم آسف على ذلك لأن تحت يدي الدليل العراقي الصادر ١٩٦٠م أي بعد صدور الدليل الأول بما يقارب ربع قرن، ومن المعروف بداهة في أمثال هذه الأمور أن الجديد يحوي من عناصر الكمال ما ليس في القديم فهو يضيف كل جديد ويصحح كل خطأ ويستدرك كل نقص ويسد كل خلل، وهذا ما حدث بالنسبة للدليل العراقي الأخير كما أشير إلى ذلك في المقدمتين اللتين قُدّم بهما الدليل. وإذا كان الدليل الصادر في عام ١٩٣٦م قد قام بإعداده أستاذ جليتل واحد فإن الدليل الصادر في عام ١٩٦٠م قد قام بإصداره إلى جانب مؤلفه مؤلف الدليل الأول عالمان جديدان، وقد رجعت إلى هذا الدليل فلم أجد إشارة إلى السيدة رباب الكاظمي، ومن المؤكد أن ذلك لم يحدث عن خطأ أو سهو بدليل أن اسم الشاعر عبدالمحسن الكاظمي قد أخذ مكانا بين الشعراء وهذا يستدعي بالضرورة ذكر ابنته الشاعرة رباب، فعدم ذكرها أمر مقصود يدل على عدم إيمان كاتب البحث والقائمين على إعداد الدليل بشاعرية رباب هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن الدليل قد أورد أسماء عدد من الشعراء والشواعر لم أسمع باسمهن قبل الاطلاع على الدليل مثل الآنسة أميرة نورالدين داود، والسيدة مقبولة الحلي والسيدة فطنية النائب وهذا خير دليل على الرغبة في التحري والاستقصاء، ومن جهة ثالثة فإن كاتب بحث الشعر في العراق الدكتور عبدالرزاق محي الدين أستاذ الأدب العربي والبلاغة في كلية التربية.

ومعنى هذا أن كاتب البحث أديب متخصص فهو يكتب في ميدانه واختصاصه ولا مجال لاتهامه بالعجز أو التقصير أو الجهل.

وهناك جهة رابعة وهي أن الدليل العراقي الأول صدر في عام ١٩٣٦م ومن المعلوم أن شاعر العرب الكبير عبدالمحسن الكاظمي قد توفي في عام ١٩٣٥م أي أن الدليل قد كتب في العام الذي توفي فيه الشاعر وطبع في العام الذي بعده ومعنى هذا أن الشهرة التي أوجدها الكاظمي لابنته كانت تملأ الأفق الأدبي، ولم تتكشف الأمور بعد.

وبهذه المثبتات - كما يقول رجال القانون - يسقط الاستدلال بالدليل العراقي كمصدر لإثبات شاعرية رباب.

ننتقل بعد ذلك إلى المجلات والجرائد التي وردت في كتاب السيد خلدون كما أوردها الكاتب صاحب الرسالة، وبإلقاء نظرة على تواريخ صدور هذه الجرائد التي تحدثت عن رباب نجد أن غالبيتها صادرة بين عام ١٩٢٧ وعام ١٩٣٥ وهي الفترة التي أخذ الكاظمي فيها ينشر القصائد باسم ابنته رباب وهي فترة حددنا أهميتها وقيمتها فيما سبق ونستطيع أن نسميها فترة الشك.

وقد قدم إلي وأنا أكتب هذا البحث الأخ الفاضل الأستاذ عبدالمؤمن القين نسختين مصورتين من عددين من أعداد جريدة العراق صدر أحدهما في عام ١٩٣٠ وصدر الثاني في عام ١٩٣٦ فهما داخلان بوجه عام في فترة الشك ومع ذلك فلا أحب أن نمر بهما مكتفين بهذه الحجة، بل سأحاول أن أتعرف على ما كتب فيهما عن شاعرتنا الظالمة المظلومة، فهي ظالمة لأنها تضن بإبراز الحقيقة التي تعرفها تماما، وهي مظلومة لأن ظروف والدها وضعتها في هذا المازق الحرج.

المهم اننا سنحاول التعرف على ما في المقالتين على اعتبار أنهما نموذجان لما كان يكتب عن الشاعرة

في العدد الصادر في عام ١٩٣٠م من جريدة العراق مقال أو إن شئت الحقيقة قصيدة بعنوان (تحية الوزارة والدستور) مكتوب تحته (قصيدة عصماء للشاعرة النابغة الآنسة رباب الكاظمي).

وقدمت الجريدة القصيدة بهذه السطور (الآنسة رباب الكاظمي ناظمة هذه القصيدة العصماء من الفتيات العراقيات اللواتي يفتخر العراق بأدبهن وشاعريتهن (هكذا) وإذا علم القارئ بأن حضرة الآنسة هي كريمة شاعر العرب الكبير الشيخ عبدالمحسن الكاظمي الذي غادر العراق وطنه وسكن من مدة طويلة القاهرة لا يستكثرها على فتاتنا الشاعرة رباب الكاظمي، وحضرتها لا تقرض الشعر إلّا في الحوادث المهمة، فإننا لا نزال نذكر لها قصيدتها الفريدة التي نظمتها بمناسبة وفاة بطل مصر سعد باشا زغلول وهذه هي القصيدة الثابتة التي نظمتها بمناسبة الطوارئ السياسية الهامة التي طرأت على مصر بإعلان الدكتاتورية وسقوطها وهي قصيدة في اثنين ومائة من الأبيات وأوردها الأستاذ عبدالرحيم علي في القسم الثاني من كتابه عن رباب.

فهذه المقالة ليست مقالة ولكنها مقدمة قصيرة لقصيدة من القصائد المنسوبة إلى السيدة رباب في فترة الشك.

أما المقالة الثانية المنشورة في جريدة العراق في عددها الصادر عام ١٩٣٦م فهي بعنوان (إلى رباب الكاظمي) وهي مقالة لا تتحدث عن شاعرية رباب ولا عن أدبها ولكنها تتحدث عن قضية أخرى فصاحب المقالة وقد رمز لاسمه (بابن تيمية) يتحدث عن أخبار استقيت من بعض الجهات المسؤولة في العراق قد قررت أن تسمح للآنسة رباب بالدراسة في المدارس المصرية على حسابها، ويعلّق على هذه الأخبار تعليقات لا تهمنا ويدعو إلى أن ينال الشعراء الآخرون كالشهرستاني والزهاوي والصافي والرصافي وإخوان لهم آخرون مثل هذه العناية في حياتهم ويتحدث عن نظام معاش التقاعد بالنسبة للنابغين وأبنائهم وهكذا فليس للمقال أية علاقة بشعر الشاعرة.

هذان نموذجان لما كتب عن رباب وفيهما الغناء كل الغناء عن تلمس ما في بقية المقالات من دراسة جادة أو بحوث ذات قيمة.

ويقترح كاتب الرسالة أن أكتب للسيدة رباب أسألها عن حقيقة ما يثار من شائعات حول شاعريتها، وهو اقتراح ليس عمليًا ولن يكون له أي جدوى وإذا كانت الدكتورة الفاضلة قد وقفت موقفا سلبيا تجاه ما أثير ويثار من نقاش حول شعرها وشاعريتها وكأن الأمر لا يعنيها، أفيرى الكاتب الفاضل أن رسالة ستكسر جدار الصمت (الرهيب) وتفلح في الوصول إلى ما عجز عنه غيري من الأدباء والنقاد؟ لا أتصور أن ذلك سيحدث، أما افتراض صاحب الرسالة أن علّامة العراق الأستاذ محمد بهجت الأثرى لم يطلع على المقالات فهذه تهمة غير مقبولة علىالإطلاق فرجل كالعلامة الأثري يعتبر من أساطين الفكر في بغداد عمل أستاذا في دار المعلمين العالية سنوات طوالًا وكتب كثيرا ونظم كثيرا وانتخب منذ سنوات طوال عضوا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة وعضوا في المجمع العلمي العراقي وعاصر الحياة الفكرية في العراق متأثرا بها مؤثرا فيها، يُتهم بعدم الاطلاع على صحف تصدر في بلاده أمر ليس من الممكن تصوره ولا قبوله، مع العلم بأن العلّامة الأثري قابل الشاعر عبدالمحسن الكاظمي واستمع إليه وهو يصحح وينشد أبياتا منشورة من قصيدة طويلة منشورة في إحدى الصحف زاعما أنها لابنته وهي إذ ذاك في سن لا يسمح إطلاقا لا بنظم شعر في ذلك المستوى العالي بل ولا حتى في قراءة ذلك الشعر قراءة صحيحة.

أما بعد: فأحب قبل أن أترك القلم أن أعلن أنني على أتم استعداد بتقبل أي نتيجة تخالف ما ذهبت إليه حول شاعرية السيدة رباب شريطة أن تكون نتيجة قائمة على أسس متينة من الحجة والمنطق والدليل الواضح، وسأكون يومها سعيداً أكثر من سعادتي بالنتائج التي وصلت إليها - اليوم - فأنا لا يعنيني إلا خدمة الحقيقة وإلا تصحيح الأوهام الخاطئة.

أكتب هذا جوابا على ما تلقيت من خطابات القارئين والقارئات الذين وهموا حين ظنوا أنني أكتب عن هذه القضية مدفوعا بفكرة تسيطر على فكري عن المرأة.

فلست مدفوعا بشيء مما توهموه بدليل أن كل ما كتبته حول هذه القضية مبني على أدلة عقلية ونقلية.. وعلى السادة القراء والقارئات بوجه خاص أن يعيدوا قراءة ما كتبت في تأمل وتؤدة ليدركوا أنهم وقعوا ضحية وَهْمٍ خادع لا يقوى على مواجهة نور الحقيقة وضوء الشمس.

حوار... مع... إحداهن*

كنت قد نشرت مقالا في العدد ٥٥٩ من جريدة المدينة المنورة الصادر في ٨٥/٩/١١ تحت عنوان «المرأة بين الشرق والغرب» ثم علمت أن قارئا فاضلا تناول بعض ما ورد في المقال بالتعقيب، ولكنني لم أطلع على المقال لانه صدر في فترة كنت فيها متغيبا عن المدينة وقد حاولت العثور على العدد فلم أوفق، إلى أن كان الأسبوع الماضي حيث دار حديث بيني وبين (إحداهن) عن رأيي في بعض شؤون المرأة ثم دار بين الكاتب وبينها حوار بالصورة الآتية:

هي: لماذا لم تعقب على المقال المنشور في جريدة المدينة بعنوان عبدالعزيز الربيع.. والمرأة بين الشرق والغرب؟

هو: لأنني لم اقرأ المقال.

هي: وهل إذا قرأته تعد بالكتابة عنه؟

هو: نعم.

هي: أصحيح؟

هو: بكل تأكيد.

هي: سأعطيك العدد.

هو: أشكر لك صنيعك.

هي: انتظر من فضلك فلدى شرط.

هو: شرط؟

(☆) نشرت بجريدة المدينة المنورة يوم الاحد الموافق ٣٠ من شهر رجب ١٣٨٦ العدد (٨٠٩).

هي: نعم شرط واحد لا أكثر.

هو: إنني مستمع فما هو الشرط؟

هي: لا تنزعج إنه شرط بسيط.

هو: قولي شرطك سواء أكان بسيطا أو مركبا.

هي: يبدو لي أنك غاضب.

هو: لم أغضب وليس هناك ما يدعو إلى الغضب.

هي: إذا فأنت لا تهتم بكلامي.

هو: أنا مهتم بكلامك فأخبريني عن شرطك.

هي: إذا كان يزعجك هذا الشرط فأنا متنازلة عنه.

هو: (بشيء من الضيق) في إمكانك أن تذكري الشرط وسأخبرك عما إذا كان في إمكاني قبول هذا الشرط أو رفضه.

هي: (رفضه؟) هكذا دفعة واحدة؟

هو: طيب.. عدم قبوله - الاعتذار عن قبوله - تقديم الالتماسات بعدم قبوله.

هي: سأخبرك. سأخبرك فلا تنزعج ولا تغضب.

هو: نعم يا سيدتي ما هو شرطك؟

هي: أن تطلعني على المقال قبل نشره.

هو: لا أستطيع أن أعد بذلك.

هي: ولماذا؟

هو: لأنني لم أعتد ذلك.

هي: أم أنك لا تثق في عقلي؟

هو: إنني أثق في ذوقك..

هي: سيكون لرأيي قيمة وستجد فيه ما يفيدك.

هو: أشكرك كثيرا ولكنني لا أريد أن أغير طريقتي.

هي: أرجو أن تقبل نصيحتي.

هو: أشكرك مرة ثانية وأعتذر من قبول هذه النصيحة.

هي: لماذا؟

هو: لأنني لا أقدم على معالجة موضوع إلا بعد أن أكون قد قتلته درسا وبحثًا.

هي: أنت رجل عنيف.

هو: ومن أين عرفت ذلك؟!.

هي: ألم تجد جملة أو كلمة خيرا من (قتلته) هذه؟

هو: هذه جملة اعتاد العرب أن يقولوها عندما يريدون تأكيد الدراسة والبحث والوصول بهما إلى أقصى غاية.

هي: ولكنها كلمة جافة.

هو: لم اخترها بالذات ولكنها وردت على لساني دون قصد.

هي: من وراء الوعي، وهذا مما يزيد في أهمية الموضوع ويدل على ما يعتلج في نفسك من محبة للعنف والقسوة، وهذا أحد أسباب كراهيتك للمرأة.

هو: الواقع أن استنتاجك غير صحيح ولكن عبارتك الأخيرة ذكرتني بالسبب الذي دفع بكلمة (قتلته) إلى لساني.

هي: وما هو هذا السبب يا ترى؟

هو: أنه من وحي قصة قرأتها منذ أيام قليلة عن امرأة قاتلة.

هي: أعوذ بالله.. امرأة قاتلة؟

هو: نعم امرأة قاتلة.. وهل في ذلك ما يدعو إلى الدهشة؟!

هي: وأين قرأت هذه القصة؟ لا بد أنها قصة خيالية من وضع رجل يكره النساء.

هو: القصة حقيقية تمثل مدى ما تتمتع به المرأة من (رقة ولطف ومروءة سامية وخلق فاضل) وهي مذكورة في كتاب (الحيات).

هي: (في دهشة واستنكار) ما اسم الكتاب.. (الحيات)؟!.

هو: اسمه (الحيّات) بتشديد الياء وتاء مفتوحة في آخر الكلمة جمع (حية) وهي دابة معروفة ولها أسماء كثيرة أشهرها (الأفعى) وجمعها (الأفاعي). وللشاعر الياس أبي شبكة ديوان باسم (أفاعي الفردوس).

هي: أرجو أن لا تستغل علمك.

هو: معاذ الله.

هي: إذن فلا تستغل جهلي.

هو: أنا لا أعرف الاستغلال، وأنت تعرفين كم هي ثروتي بعد هذه السنوات الطوال.

هي: لا أعتقد أنه يوجد كتاب باسم (الحيّات) وهل ضاقت الدنيا على هذا المؤلف فلم يجد غير الحيات؟!.

هو: أما الكتاب فموجود وأما أن المؤلف لم يجد غير الحيات موضوعًا لكتابه، فالحقيقة أنه موضوع علمي طريف ثم إن الحيات منتشرة في العالم وقد قرأت منذ مدة إحصائية تقول إن أكثر من عشرين ألفا يموتون كل عام من سم الحية المعروفة (الكوبرا) في الهند، وهناك مئات آخرون يموتون من سم أنواع أخرى من الحيات، وللحيات دور كبير في حياة البشرية.

هي: فهمنا.. ولكن ما علاقة المرأة بالحيَّة.

هو: العلاقة قديمة قدم الإنسانية.

هي: لا تبالغ ولا تحاول اللف والدوران.

هو: انا لا أبالغ ولا أعرف اللف والدوران وربما كان ذلك عمل الحية.

هي: لم تبين لي العلاقة بين المرأة والحية.

هو: العلاقة قديمة قدم التاريخ فقد أورد العلامة محمد بن جرير الطبري في تفسيره المسمى (جامع البيان في تفسير القرآن) طائفة من الروايات تؤكد هذه العلاقة أذكر منها رواية واحدة تقول: حدثني محمد بن قيس قال: نهى الله آدم وحواء أن ياكلا جوف الحية فكلم حواء ووسوس الشيطان إلى آدم فقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين، قال: إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين، قال: فعضت حواء الشجرة فدميت الشجرة وسقط عنهما رياشهما الذي كان عليهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ولَم اكلتها وقد نهيت عنها؟ قال: يارب أطعمتني حواء. قال: حواء لَم أطعمتهِ؟. قالت: أمرتني الحية. قال للحية: لم أمرتها؟ قالت أمرني إبليس. قال: ملعون مدحور؛ أما أنت يا حواء فكما أدميت الشجرة فتدمين في كل هلال، وأما أنت يا حية فاقطع قوائمك فتمشين جريا على وجهك وسيشدخ رأسك من لقيك بالحجر، اهبطوا بعضكم لبعض عدو.

وقد وردت القصة مفصلة في التوراة وفي الإصحاح الثالث من سفر التكوين، كما وردت إشارات في الانجيل تؤيد هذه العلاقة.

والمح إضافة إلىما ذكر علامة لغوية فقد سميت حواء حواء لأنها مخلوقة من شئ حي أما اشتقاق اسم (الحية) من الحياة فذلك واضح لا يحتاج إلى برهان.

هي: لم أكن أتصور وجود علاقة بين حواء والحية وكنت أظنك تهزل.

هو: لو كنتِ ممن يهتمون بالدراسات الادبية لعرضت عليك القيام بدراسة أدبية عن العلاقة بين حواء والحية.

هي: ولكن هل أنت متأكد من أنني ساصل إلى النتائج التي وصلت إليها؟

هو: لا يهمني ذلك كثيرا و لكن الذي يهمني هو الوصول إلى نتيجة حاسمة فإما أن توصلك الدراسة إلى وجود هذه العلاقة وإما أن تصل بك إلى عدم وجودها.

هي: أم تجد لي بحثا أحسن من بحث الحيات والأفاعي أم أنك ترمي إلى هدف بعيد؟

هو: ليس لي هدف بعيد ولا قريب وإنما هو بحث جرّه السياق.

هي: قل هذا لغيري أما أنا فأعرفك.

هو: طيب... هل أستطيع أن أعرف ذلك الهدف البعيد.

هي: يا سلام. تريد أن تؤكد لي باسلوب ملفوف بانك لم ترمِ بحديثك إلى هدف.

هو: سواء كنت هدفت أو لم أهدف وسواء عرفت أم لم أعرف، فهل لديك مانع من ذكر ذلك الهدف من وجهة نظرك.

هي: وجهة نظري أنا؟

هو: من وجهة نظري، من وجهة نظرك، المهم أن تتفضلي مشكورة بذكر هذا الهدف البعيد.

هي: ما دمت مصرا على الإنكار فلا حيلة لي وسأذكر لك الهدف الذي تعرفه جيدا.

هو: أنا مصغٍ يا سيدتي.

هي: أنت تهدف إلى إغرائي بالبحث عن الحيات والثعابين وربما دفعني هذا البحث إلى التعرف على الحيات الحية للقيام بمغامرة تكون فيها نهايتي.

هو: برّه وبعيد يا شيخة أنت واسعة الخيال أعتقد أنك ستصبحين روائية ناجحة لو فكرتِ في مصاحبة القلم ثم إنك سيئة الظن بي.

هي: ولكن سوء ظنك بالمرأة أكثر.

هو: سامحك الله (يبتسم) ثم لو حدث ما أشرتِ أنتِ إليه لا قدّر الله فستصبحين (كيلوباترا) الثانية.

هي: لا لن أكون كيلوباترا الثانية ولا العاشرة سأعيش رغمًا عنك.

هي: لقد أغريتني بالحديث بقصد أن تغالطني وتنسيني القصة المزعومة قصة المرأة القاتلة في كتابك المزعوم (عن الحيات).

هو: لقد اذكرتني فالكتاب (مع الحيات) لا (عن الحيات).

هي: أرأيت؟ ها قد تغير اسم الكتاب وبعد قليل سيصبح الكتاب كله.

هو: أحسني الظن بي (يبحث في كومة الكتب أمامه ثم يخرج منها كتابًا).

الحلقة الثانية☆

هو: هذا الكتاب. أرأيته؟. إن اسمه - كما ترين - (مع الحيات) ومؤلفه الأستاذ حسن فرج زين الدين.

هي: في وجوم (تقلب الكتاب). عجيب. كنت أظنك تهزل.

هو: ألا تريدين قراءة قصة المرأة القاتلة.

هي: «بدون اكتراث».. إن شئت.

هو: فإنني أشاء.

هي: تبتسم ابتسامة ذات معنى وتصمت.

هو: اسمعي إذن: (يقرأ):

(وتنشط حركة الحيات وتهدأ تبعا لدفء الجو الذي تعيش فيه وبرده فيكثر دؤوبها في الربيع والصيف وتفتر وتخمل في الخريف والشتاء، وإذا اشتد البرد وأدركها القراء خلدت إلى السكون التام ولجات إلى البيات الشتوي في أجحارها وفي هذا الفصل تهبط درجة حرارة أجسامها خمس درجات أو أكثر ولعدم ثبات درجة هذه الحرارة سميت الحيات وأمثالها بذوات الدم البارد، وكثيرا ما يستغل بعض الحواة المحترفين هذه

(☆) نشرت في جريدة المدينة المنورة يوم الاحد الموافق ١٣٨٦/٨/٢٠هـ العدد (٨١٥).

الظاهرة في التمويه على جمهور المتفرجين وخداع الناظرين ليستجلبوا إعجابهم ويستدروا أموالهم، ومن طريف ما يروى في ذلك أن حاويًا أسبانيًا كان يظهر على بعض المسارح وقد لفّ حول صدره وعنقه أصلة ضخمة يبلغ طولها نحو اثني عشر مترا والمعروف عن الأصلة أنها قد تشتبك مع التمساح العظيم والنمر الخطير وأضرابه من الوحوش الكاسرة فإذا التفت حولها حطّمت أضلاعها وأزهقت أرواحها، فيثير مظهر الرجل بين أطوائها عجب النظارة وإعجابهم، ويقابلونه في كل مرة بعاصفة داوية من التصفيق وكانت له خليلة تعينه على سبك حيلته فتغمر الأصلة قبيل ظهور صاحبها بها على المسرح في حوض من الماء المثلوج ثم تخرجها خدرة فاقدة الحس فلا تغيير الرجل شيئا وينخدع الجمهور الساذج بهذه الحيلة المحبوكة، ولحظت الخليلة على صاحبها في أيامه الأخيرة أنه كان يغافلها ويغازل بعض الممثلات والمعجبات بقوته وجرأته ويتصل بهن اتصالا مريبا أثار غيرتها واشتدت الغيرة فصارت حقدا واشتد الحقد فصار بغضا وأصرت على الانتقام لنفسها منه فأهملت الأصلة في إحدى الليالي ولم تغمرها بالماء كعادتها وحملها الظلوم الجهول إلى المسرح بين هتاف الناس وتهليلهم وما هي إلا لحظات حتى وجم القوم كأنما سكرت أبصارهم وتجلّت أمارت الفزع على وجوههم ودب الاضطراب في نفوسهم فقد رأوا الأصلة تضيّق الخناق على الرجل وتشد عودة الرقيق بمجرد إحساسها بحرارة جسمه فاحتبس الدم في وجهه وتدلى لسانه من فمه ثم سقط على خشبة المسرح جثة هامدة.

هي: هذا شيء فظيع فظيع.

هو: (يستمر في القراءة).

(حدث ذلك وخليلته من وراء الستار تنظر إلى صنع الحية متشفية من غيظها منه ونقمتها عليه، والمرأة لا تكف عن ارتكاب أفظع الجرائم إذا أكلت الغيرة قلبها ولعب الشيطان برأسها، وكذلك ذهب المسكين ضحية كيد امرأة كانت صحبتها أشد خطرا عليه من صحبة الحية، ولعل في مثل هذه الحوادث عظة للغواة المفتونين بمظهر

النساء وخضوعهن ولين حديثهن، فليس ظهورهن في هذه الجلود بواقٍ من شرهن، لأنهن إذا انقلبن كن في انقلابهن خطرًا لا يُدفع كالحيات التي تعجبك أجسامها ويستهويك لمسها وتروقك ألوانها الباهرة الفاتنة ما بين أسود فاحم وزيتوني قاتم وأصفر ناصع وذهبي لامع وجلود قد وشتها خطوط طولية متوازية أو عرضية متلاحقة أو غشتها قطع متراكبة مختلفة الأصباغ متباينة الألوان أو غيرها هذا أو ذاك مما تذهل ريشة الفنان المبدع عن تصويره، ولكنها على الرغم من هذا الجمال قد كمن في أنيابها الموت).

هي: «تتشاغل بالعبث بشيء في حقيبتها».

هي: ألاحظ أن مصدرك عن المرأة في تناول يدك فما سر ذلك؟

هو: ليس في الأمر سر فأنا أكتب بحثا عن موضوع له علاقة بالمرأة وهذه بعض المصادر.

هي: أراك تكتب شيئا في الأوراق التي أمامك فهل تنوي نشر شيء عن هذا الحوار؟

هو: ربما أفعل.

هي: وهل ستطلعني على ما تكتب قبل نشره.

هو: لا أظن ذلك.

هي: لماذا؟

هو: سيرا على الخطة التي انتهجتها.

هي: ولكن الأمر هنا يختلف.

هو: لم أفهم المقصود.

هي: أعني أن دوري هنا رئيسي فمن حقي أن أعرف ما تكتبه عني أو ترويه.

هو: وما أهمية ذلك؟

هي: له أهمية كبرى فربما لوَّنت الحديث بلون خاص يخالف الواقع.

هو: هذا اتهام لا أقبله.

هي: وماذا يضيرك لو أطلعتني على المقال؟.

هو: لا يضيرني شئ ولكنني متمسك بمبدئي.

هي: هل يهمك حقا أن أرسل لك عدد المدينة.

هو: نعم.

هي: سارسله إليك.

هو: شكرا جزيلا ولكن هل تسمحين لي بسؤال؟

هي: تفضل.

هو: ما سبب احتفاظك بهذا العدد مع أنني أعرف أنك لا تحتفظين بأي صحيفة أو كتاب باستثناء كتابين أو ثلاثة عن الزينة والجمال.

هي: لأن المقال لطيف.

هو: وما سر هذا اللطف؟

هي: لأنه دفاع عن المرأة كم هو لطيف ذلك الذي يناصر المرأة ويدافع عنها.

هو: وأنا أيضا من أكبر المدافعين عن المرأة.

هي: (باستنكار) أنت!

هو: نعم! أنا.

هي: إذا كان هذا هو الدفاع، فأين الهجوم؟ أنت في رأي القراء وفي رأي النساء خاصة عدو المرأة رقم واحد.

هو: ذلك فهم خاطىء، ثم هناك من الكتّاب من كتب عن المرأة مهاجمًا وألّف في ذلك كتبا، ومع ذلك فلم يصفه أحد بانه عدو المرأة رقم (١) أو رقم (١٠).

هي: لأنك تكتب بمرارة وحقد.

هو: أنا عندما اكتب عن المراة لا أكتب عن هذا الجسم البديع الذي يفتن الشعراء ويثير غرائز الرجال.

هي: وإنما تكتب عن هيكل عظمي أو تمثال من الحجر؟

هو: لا ياسيدتي دعي السخرية جانبا واسمعي قليلا.

هي: (تسند ذقنها على كفها) إنني مستمعة.

هو: عندما أكتب عن المرأة - كما قلت لك - لا أنظر إلى الجسم الجميل والقد المشوق والتقاطيع البارعة.

هي: (مقاطعة) يا سلام يقال إنك شاعر.

هو: (في غيظ).. يقال.

هي: فهل نظمت قصائد في الغزل.

هو: (في شيء من الحنق) ما لنا وما للغزل دعيني أوضح لك فكرتي عن المرأة.

هي: أحببت أن أطمئن إلى أن لك قلبًا.

هو: ومن قال لك أنني بلا قلب؟!.

هي: كتاباتك وهجومك على المرأة وحديثك المستمر على العقل ومحاربتك المدارس.

هو: دعي عنك حديث المدارس الليلة فلي إليه عودة قريبة.

هي: (مقاطعة) ثاني؟

هو: (متجاهلا) دعيني أشرح لك وجهة نظري عن المرأة وطريقتي في الدفاع عنها.

هي: لا فائدة لا فائدة، أنت عدو المرأة.

هو: هكذا بالقوة؟

هي: على كل حال فانا أحذرك من مغبة خصومتك للمرأة ولك في صديقك الشيخ أبوالعيون عظة وعبرة.

هو: يرحم الله الشيخ العلامة فقد عاش مجاهدا ومات شهيدا.

هي: نعم يرحمه الله لقد لقي العقاب الذي يستحقه.

هو: هل تعتبرين ماحدث له عقابا؟

هي: ما في ذلك شك.

هو: انت واهمة يا سيدتي وإلا لو صح فهمك وفهم مثيلاتك من النساء - وما أكثرهن - لكان معنى هذا أن كل ما تعرض له الأنبياء والصالحون والمجاهدون في سبيل الله من الأذى والقتل والصلب والنشر بالمناشير هو عقوبة وليس ثوابًا، ولكان معنى هذا أن الكسالى والقاعدين والمتخلفين والمؤثرين للراحة على السفر في الحر هم أقرب إلى الله. وذلك ما لا يقول به عالم ولا عاقل.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**الم احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين**﴾.

ويقول تعالى: ﴿**ام حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا**﴾.

ويقول جل شأنه: ﴿**ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا إن نصر الله قريب**﴾.

لا يا سيدتي الكاتبة: ليست هذه المشكلة

نشرت كاتبة فاضلة في جريدة الندوة قبل أسبوعين مقالا تحت عنوان: (متى نتطور بأفكارنا) تعرض لمشكلة قارئة (فرض عليها أهلها رجلا كي يكون زوج المستقبل فرضوه بنفس طريقتهم وأفكارهم التي تأبى التفاهم والمناقشة).

وبعد حديث طويل عريض عن المظهر والجوهر والأفكار العتيقة السقيمة والطارئة الحديثة تخلصت من الجواب بأن قالت: (ولعل صاحبتنا الحائرة تستطيع أن تقرر بنفسها الطريق الذي يجب أن تسلكه هل توافق؟؟ أم ترفض فتكون بذلك في نظر أهلها عاقة خارجة على ناموس العائلة؟).

وتركت الباب مفتوحا للقراء والقارئات للإسهام في حل هذه المشكلة، وأنا لا يهمني أن أسهم في حل هذه (المشكلة) بقدر ما يهمني أن أسجل بعض الملاحظات حول هذا الموضوع إذ يبدو أن الكاتبة الفاضلة تعني طائفة خاصة من القراء والقارئات التي طلبت إليها المشاركة في حل هذه (المشكلة) أما الطوائف الأخرى - وأنا منهم كما يبدو - فقد استبعدت الكاتبة مشاركتهم أو على الأقل هي لا ترحب بمشاركتهم.

وعلى أي حال فهذه مقدمة لا أهمية لها في الموضوع، إنما المهم أن أسجل أن هناك اندفاعا عنيفا في مهاجمة كل التقاليد القديمة - الصالح منها وغير الصالح - فكثير من شبابنا وشاباتنا يريدون الانفكاك والتخلص منها تخلصا تاما ضاربين صفحا عما قد يكون فيها من حميد العادات وجميل التقاليد وهم متأثرون في ذلك بمؤثرات مختلفة ليس هنا مجال الحديث عنها، وهذا اتجاه غير محمود العواقب ولا مأمون النتائج.

هذه ملاحظة عامة أما الملاحظة الخاصة بالمشكلة التي عرضتها الكاتبة فهي أنها عرضتها في إطار خاص وسط جو انفعالي يتحدث عن التجديد والتطور الذي يلف عقل الفتيات في هذه الأيام وعن التخلف والأفكار البالية التي لا تزال تسيطر على الآباء والأمهات وهذا حديث يروق المراهقين والمراهقات كما يصادف هوى في أفئدة طائفة من الناس، ثم أدرجت الكاتبة مشكلة صاحبتها كدليل على ما تقدم. وعرض المشكلة بهذه الطريقة وفي هذا الجو الحماسي المشحون بالعواطف الثائرة ضد التقاليد والعادات وظروف مجتمعنا يلون المشكلة بلون خاص وبالتالي فهو يوحي بحلول محددة إن لم يفرضها، وفي ذلك نوع من التحيز وعدم الإنصاف، ومن أجل ذلك قلت إن حل هذه المشكلة مطلوب من طائفة خاصة من القراء وهم الذين يسهل تملقهم والتأثير عليهم.

ولذلك فانا أشك في أن تكون هذه المشكلة حقيقية تحرص الكاتبة على أن تجد لها الحل، وإنما هي مشكلة شكلية بقصد الإثارة واستغلال عواطف السخط عن القراء وتجنيد القوى لاكتساب مزيد من العطف والتأييد لقضية حرية ـ المرأة كما يسمونها.

عرضت الكاتبة مشكلة صاحبتها في كلمات قليلة فلم أفهم شيئا عن ماهية المشكلة ولا عن حقيقتها. والمشكلة كما عرضتها الكاتبة هي أن فتاة فرض عليها أهلها رجلا كي يكون زوج المستقبل، ويبدو من سياق الموضوع أن الفتاة لا ترغب فيه إذ إنها لم تقل ذلك صراحة. وعرض المشكلة بهذه الطريقة لن يتيح (للقارئ) الجاد أن يفكر فيها أو يجد لها الحلول إلا إذا افترض هو طائفة من الافتراضات والتخمينات وكيف توضع الحلول على أساس افتراضات ربما كانت بعيدة تماما عن واقع المشكلة فهل تنحصر شكوى الفتاة في فرض هذا الرجل عليها زوجا؟ وهل توافق على الزواج به لو لم يفرض عليها واستشيرت فيه؟ ذلك احتمال قائم وإذا صح ذلك فالمشكلة هينة يسيرة فما على أهلها إلا أن يرضوا (غرورها وكبرياءها وثقافتها) فيستثيرونها في الموضوع ولن يتأخر (الوسطاء) من أهل الخير في إقناع أهلها بذلك حتى من غير أن

تشعر، وإذا لم يصح هذا الافتراض فستظل المشكلة قائمة حتى يعرف (القراء) التفاصيل وحتى يعرفوا الإجابة على طائفة من الأسئلة؛ كم عمرالفتاة؟ وكم عمر زوج المستقبل؟ ما هو المستوى الاجتماعي والثقافي للفتاة والرجل؟ هل هناك فروق واضحة بين الاثنين من شأنها أن تؤثر على مستقبل هذا الزواج؟ لماذا ترفض الفتاة الزواج بهذا الرجل؟ عدا أسئلة أخرى يصعب أن نعرض لها في هذا الحديث.

فالمشكلة عرضت كما رأينا بشكل مقتضب ولا بد من عرضها بشكل مفصل واضح إذا كانت الكاتبة جادة فعلا في التعرف على آراء (القراء) وحلولهم، ومع هذا فأنا واثق من أن الكاتبة ستتلقى عددا كبيرا من الردود والحلول وكلها تحمل على هذه الأسرة (الظالمة) التي تريد أن تفرض على هذه الفتاة (المسكينة) رجلا لا توافق عليه. ولا يهم هذه المجموعة من الناس حل المشكلة بقدر ما يهمهم قلب الأوضاع وتغيير المفاهيم وتحطيم القيم - يدفعهم إلى ذلك أكثر من دافع ورغم أن الكاتبة الفاضلة حاولت أن تظهر بمظهر الحياد تجاه هذه المشكلة وإمعانا بذلك طلبت إسهام القراء والقارئات في الحل فإن رأيها في الحل كان يتجلى في كل سطر من سطور مقالها الطويل، وهنا تكمن المشكلة الحقيقية التي تستلزم الحل العاجل السريع.

لا يا سيدتي الكاتبة! ليست هذه المشكلة

الحلقة الثانية

إن صحفنا تعمر بألوان من الشكوى المرة من هروب قسم كبير من الشبان عن الزواج لأسباب كثيرة وانصراف قسم آخر إلى الزواج من خارج الوطن ومنذ أيام كان يحدثني صديق كريم عن هذا الموضوع وقال: إن إحدى الإحصائيات تحدد أن عدد الذين تزوجوا من خارج المملكة قد بلغ العشرين ألفا ومع أنني لم أعلم المصدر الذي استقى منه صديقنا هذا الإحصاء فإنني أعتقد أنه إحصاء لا مجال للشك فيه إلا من حيث إنه أقل من الواقع، وإذا قلت إنه هو الواقع فعلا فهو رقم يثير الدهشة وينذر بالخطر، إن هذا الرقم معناه أن عشرين ألف شابة وفتاة من بنات الوطن قد ضاعت منهن فرص الزواج، فإذا نظرنا إلى الحل الذي اقترحته الكاتبة الفاضلة وبعبارة أدق الحل الذي دفعت إليه صاحبة المشكلة نجد أنه عبارة عن دفع الفتاة إلى التمرد على رغبة أسرتها، ومعنى هذا هو دفع الرجل الذي تقدم لهذه الفتاة إلى أن يلتحق بقافلة (العشرين ألفًا) التي ستتعدى بعد فترة قصيرة (خانة) الآلاف، وهذا هو المنتظر ما دامت كاتباتنا ورائداتنا يدفعن بنات جنسهن إلى التمرد وإلى التعلق بخيوط العنكبوت.

إن فتاة الوطن. في سباق مع الزمن، وعليها أن تجند كل قدراتها لاجتذاب الرجل المواطن. عليها أن تثبت أنها في مستوى أرقى من مستوى زميلتها في خارج الوطن. عليها أن تجعل من خلقها وسلوكها وعلاقتها بزوجها مضرب المثل، عليها أن تجعل منزل الزوجية جنة يفيء إلى ظلالها الرجل فيجد الري والظل والحنان.

عليها أن تضحي لتقضي على غريمتها ومنافستها في خارج الوطن أما أن تتعلق بالأوهام وتريد أن تطبق ما تزخر به الروايات والقصص من خيالات وأحلام فلا تتزوج إلا شابا يشبه نجما من نجوم السينما في جماله وماله وحركاته وشعره فنتيجة ذلك التعلق معروفة ووخيمة.

وعلى رائداتنا وكاتباتنا الفضليات أن يعرفن واجبهن تماما وأن يشرعن أقلامهن لمعالجة الأوضاع الشاذة بين بنات جنسهن تلك الأوضاع التي تنفر الشاب من الزواج وتجعل الدخول إلى الحياة الزوجية رحلة حافلة بالمزالق والعثرات، إن على كاتباتنا أن يعرضن المشكلات وحلولها في ضوء الواقع وأن يبتعدن عن الأحلام ولو كانت أحلام اليقظة، لا أن يعقدن هذه المشكلات ويزدن مجتمعنا الذي يغص بالمشكلات الاجتماعية ومشكلات أخرى.

إن من السهل عليّ أن أكتب كلاما أتملق به عواطف الجماهير وأدغدغ غرائزهم ليقال عني إنني كاتب متحرر ومفكر جريء ولكن من الصعب جدا أن أقف لأقول للناس إنكم على خطأ. وإن هذا الطريق لا يوصل إلى الهدف.

كما كنت أود لو أن كاتبتنا الفاضلة - وهي من الرائدات في بلادنا - أقنعت زميلتها أن من الخير لها ولأمتها أن تقبل هذا الرجل ولو كان في ذلك بعض التضحية. لأن نساء الوطن في حرب مع منافساتهن وضرورات الحرب تفرض على جميع المحاربين والمحاربات - قيودا وتضحيات لا بد منها لضمان النصر.

وكم كنت أود لو أن كاتبتنا الفاضلة حملت قلمها لتحارب العادات الضارة ـ وما أكثرها ـ التي تتشبث بها فتيات الوطن مثل الإسراف في أمور تافهة كالتي حدثني عنها أحد أصدقائي من أن هناك نظاما (نسائيا) يفرض على الزوجة الشابة أن ترتدي (فستانا) جديدا من قماش غال كلما ذهبت للمشاركة في حفل زفاف أو عرس من الأعراس حتى ولو اجتمعت حفلتان في أسبوع أو حتى في يومين متتاليين فإنه لا يجوز (في قانون النساء المحلي) أن ترتدي نفس الفستان، فتلك جريمة لا تغتفر!!

وكم من المشاكل الزوجية حدثت وربما انتهت إلى الطلاق والافتراق بسبب هذا الفستان، وقد أقسم لي مرة صديق آخر أنه يصرف على كل (فستان) يشتريه رغما عنه لزوجته الشابة نصف مرتبه.

كنت أود لو أن كاتبتنا الفاضلة وغيرها ممن يحملن القلم عرضت لأمثال هذه المشاكل وخطت خطوات عملية في محاربة هذه العادات التي تهدم كيان الأسرة وتحطم دعائم المجتمع.

سيدتي الكاتبة..

أرجو أن تذكري (بضم الكاف) وأن تُذكِّري (بكسر الكاف وتشديدها) جميع بنات حواء في هذا الوطن كلما عرضت مشكلة من طراز المشكلة التي عرضت لها في مقالك وكلهن مسلمات والحمد لله. أرجو أن تذكري وأن تذكري بقول الله تعالى: **﴿وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون﴾**.

نعم عسى وعسى. ويقول الرسول - صلى الله عليه وسلم: «إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير».

نعم دينه وأمانته لا جماله أو ماله، ويقول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وقد جاء رجل رغب في تطليق زوجته فسأله عن السبب فقال: إنني لا أحبها، فقال عمر متسائلا: وهل لا تبنى الحياة إلا على الحب؟ فأين الوفاء وأين التذمم؟ نعم الوفاء والتذمم! ويقول المثل العامي النابع من تجارب الأجيال: (ظل الرجل ولا ظل الحائط) نعم ظل الرجل...

الوهم الخادع
مع الجزارين.. والمرأة

كنت نشرت مقالا في العدد ٥٥٩ من جريدة المدينة الصادر في ١٣٨٥/٩/١١هـ بعنوان (المرأة بين الشرق والغرب) وقد تعرض للتعليق على بعض ما ورد فيه كاتب فاضل هو الأستاذ السيد الملازم أول محمد فوزي صادق ولم يتح لي أن أطلع على التعقيب إلا منذ قريب وهذا سبب تأخري في التعقيب عليه.

قرأت تعليق الكاتب الفاضل فوجدته قد مر مرورا عابرا على مقالي وقد أسرع في العبور إلى الرد قبل أن يتبين معالم الفكرة التي كان يدور حولها المقال، وقد كان لذلك العبور السريع أثره حتى في تلخيص بعض ما ورد في المقال الآنف الذكر، فقد ورد في مقاله المنشور في العدد ٥٨٦ من جريدة المدينة الصادر في ١٣٨٥/١٠/٢٠ تحت عنوان (عبدالعزيز الربيع.. والمرأة بين الشرق والغرب) ورد قوله.

نشر في صحيفة المدينة الغراء.. مقالة للأستاذ الربيع تناولت وضع المرأة في الشرق والغرب وأوضح فيها كيفية معاملة الشرق بوجه عام للمرأة وكيف أنهم في هذا يقفون من المرأة موقفًا أشبه بالرجعية والجمود لمقاومة فكرة تحرير المرأة ولأن تقف موقف الند للرجل).

أما أن المقالة تناولت وضع المرأة في الشرق والغرب فذلك صحيح وعنوان المقال يدل عليه أما أن الشرقيين يقفون من المرأة موقفًا أشبه بالرجعية والجمود ومقاومة فكرة تحرر المرأة ولأن تقف موقف الند للرجل) فيبدو أنني لم أقل ذلك وإنما قلت إن بعض الشرقيين الذي يقاومون فكرة اندفاع المرأة الشرقية وراء تقليد المرأة الغربية يوصفون بالجمود والتحجر من طوائف أخرى من الشرقيين.

وفي تلخيص الأستاذ السريع جاء قوله: (وتطرق الأستاذ الربيع إلى كيفية وضع المرأة في اليونان ووصف اليونانيين للمرأة بأنها تساوي خمس الرجل).

وقد تطرقت فعلا إلى حادثة معينة وقعت في اليونان تبين مدى تقديرهم للذكر وتفضيله على الأنثى، فقد ذكرت الأخبار أن ملكة اليونان وضعت طفلة ستكون ولية العهد وأن السلطات المسؤولة أمرت بإطلاق واحد وعشرين طلقة احتفالا بهذه المناسبة. وأضافت الأخبار أنه كان من المقرر أن تطلق المدفعية مائة طلقة وطلقة لو جاء المولود ذكرا !.

وهذا الكلام على ظاهره صحيح ولكنه يدل على أن الكاتب الفاضل لم يستوعب المقال. ولم يقرأه قراءة متأنية. وربما لم يكن العيب فيه وربما كنت أتحمل بعض الوزر في النتيجة التي انتهى إليها. وسبب ذلك أن فكرتي عن المرأة واضحة محددة متكاملة في ذهني وفي كل مقال أو بحث أعالج ناحية أو أكثر من هذه الفكرة ولكن جميع مقالاتي وبحوثي إذا قورنت مجتمعة لا تتناقض ولا تتخالف ويبدو أنني كتبت مقالي وفي اعتقادي أن القراء يتابعون ما أكتب بصورة منتظمة واعتمادا على هذا الوهم الخادع كنت أعالج فكرة الموضوع الأخير فلم أكن أعني بذكر التفاصيل ولا باستعادة ما سلف من معلومات.

وتذكرني حكاية الوهم الخادع بحادثة طريفة سأذكرها وإن كانت ستخرج بنا عن موضوع الحديث، فقد زارني منذ شهور قليلة رجل من معارف أبي - يرحمه الله - كان يتردد عليه أحيانا، واتباعا لنصيحة ذلك الرجل العظيم الذي أوصى ولده وهو يودع الدنيا بألا يفقد أصدقاؤه منه إلا وجهه، أما العناية والبر والصلة فهي باقية مستمرة بعد مماته كأنه موجود.

اتباعا لهذه النصيحة العظيمة فقد قابلت هذا الرجل حفيا به مبتهجا بقدومه مرحبا بزيارته، وجلس الرجل فترة قدمت له فيها ما يقدم لأعزاء الضيوف وهذا الرجل محدود الثقافة متوسط الحال وبعد التحيات والسؤال عن الأهل والأولاد صمت قليلا

كمن يستعد لبحث موضوع جديد، وخطر ببالي أن الرجل سعى إلي لشأن من شؤون الوظيفة لبعض أبنائه أو أحد معارفه أو أنه على الأقل زارني ليستعين بي في موضوع ذا علاقة مباشرة به أو بأحد جيرانه أو معارفه، ولكن الرجل فاجاني بسؤال لم أتوقعه إذ قال لي:

أنت تكتب في الصحف؟ قلت: أحيانا.

وقد خطر لي أن الرجل أراد أن يجعل للحديث عن الصحف والكتابة فيها مدخلا للموضوع الذي قدم من أجله فحمدت له في نفسي هذا الأسلوب لأنه يدل على ذكاء وألمعية، وقال الرجل: لقد جئتك في أمر يحتاج إلى الكتابة عنه في الصحف وقد رأينا أنك خير من يصلح له، وأدهشني هذا الكلام، خَيَّل إليّ الوهم الخادع أن الرجل يقرأ مقالاتي وانه يعرف أسلوبي ولذلك فقد اختارني لهذه المهمة، ولكن الرجل محدود الثقافة وتلك معلوماتي عنه وأنا أكتب في الأدب والبحوث التي تتسم بانها (محلية) مما يهتم به القراء العاديون ويحرص على معالجته الصحفي إرضاء لأولئك القراء.

وقلت لنفسي - تحت سيطرة الوهم الخادع - لعل الرجل قد نمى معلوماته وأصبح في مستوى يمكنه من قراءة الأدب والبحث وفهمه والحديث عنه، كما تساءلت - في نفسي طبعا - عن هذه المهمة التي اختارني لها هذا الرجل الفاضل وقلت لا بد أنها قضية أدبية أو علمية أو على الأقل مشكلة اجتماعية.. فاحنيت راسي تحية للرجل وقلت له: إنني في الخدمة وأرجو أن أكون عند حسن الظن، فابتسم الرجل وقال: إنك خير من يصلح لهذه المهمة، فشكرته وأثنيت عليه.

قال الرجل: إن الجزارين في هذه الأيام يكسرون العظم بطريقة تجعل من العظم فتاتا يدخل في اللحم مما يجعل أكله عسيرا وقد يدخل العظم بين الأسنان والأضراس وقد يدخل أجزاء أخرى في الفم أو البلعوم أو المعدة، وذكر لي أن طفلا قد تعرض لمتاعب نتيجة أكله لحما مختلطا بعظم.

وذهلت وأنا أسمع هذا الكلام (جزار - عظم مدقوق - لحم مختلط بعظم) أين هذا من الأدب والبحث؟ وأين هذا من الجهد المبذول في القراءة والدرس والبحث؟ وتساءلت هل الطريقة التي يسير عليها أكثر الكتاب في الحديث عن الموضوعات الخفيفة والأحداث اليومية والأمور التافهة هم أقرب إلى الواقع العملي وهم أدرى بنفسية الجماهير؟

إنني أسمع في الإذاعة وأقرأ في الصحف عن الأستاذ الكبير الأديب المشهور والكاتب المعروف ثم أبحث عن آثارهم التي أهلتهم للحصول على هذه الألقاب الضخمة التي تنقطع دونها الأعناق فلا أجد شيئا يذكر بل لا أجد شيئا على الإطلاق وإنما هو هراء وثرثرة وصف كلمات.

والمهم أنني اعتذرت للرجل الفاضل وقلت له: إن الموضوع خطير جدا، وصحة السكان أثمن من أن تضيع نتيجة إهمال الجزارين أو بحثهم عن الثروة من أقصر طريق وأنه يجب وضع حد لهذا الاستهتار. ولكنني غير أهل لمعالجة هذا الموضوع الخطير فحبذا لو وكلت هذه المهمة لغيري ممن يستطيعون الاضطلاع بها.

وظن الرجل الطيب أنني أتواضع فأخذته الحماسة وأصر على أن أقوم بمعالجة هذا الموضوع الخطير وكلما حاولت الاعتذار كلما ازداد تمسكا برغبته في أن أقوم بمعالجة هذا الموضوع.

وقلت له أخيرا أنت تعرف كثرة مشاغلي ولذلك فأنا أخشى أن تحول هذه المشاغل دون تحقيق رغبتك الكريمة ولذلك فإنني أستاذنك في الاتصال ببعض الإخوان بمعالجة هذا الموضوع.

قال - وهو يستأذن للخروج - إنه يضع هذا الموضوع أمانة في عنقي. وأنه لا يكتفي بأن أعرض له مرة، بل لا بد من معالجته مرات، وكان من حسن الحظ أن اضطرتني بعض الظروف إلى سلسلة من الأسفار أرغمتني على الانقطاع عن الكتابة، فلعل صديقنا الطيب يكون قد اقتنع بأنني كثير المشاغل والأسفار وبالتالي فأنا لا أصلح

لمعالجة موضوع خطير كهذا، أو لعل بعض الكتاب يجد في هذا الموضوع مادة لسلسلة من المقالات ترضي جماهير القراء وتريحني من هذه الأمانة الثقيلة، أو لعل إخواننا الجزارين يقرؤون هذا المقال ثم يجمعون أمرهم على التخلص من طريقة تكسير العظم في اللحم إلى طريقة أخرى تحفظ على أبناء الوطن صحتهم وأسنانهم وقد سمعت أن الجزارين في بعض الأقطار الأخرى يستعملون في تكسير العظم نوعا من المناشير لا تترك آثارا ضارة فلعلهم يلجاون إلى هذه الطريقة ولعلهم يقومون بحملة اكتتاب لتأمين هذه المناشير وأنا على أتم استعداد للإسهام في هذه الحملة إرضاء لصديقنا الطيب.

أو لعل صديقنا يقرأ هذا المقال فيعرف أنني لا أصلح لهذه المهمة لأنني أعالج موضوعات خاصة ولأنني أكتب في الأدب والبحث.

لقاء آخر .. مع المرأة*
هذه الكاتبة .. وتلك القاضية

عبثا تحاول المرأة أن تقف في صف الرجال وعبثا تذهب كل محاولاتها للخروج من الطبيعة النسائية التي خلقتها القدرة الإلهية من أجل عمران هذا العالم لتستبدل بها طبيعة أخرى، ومن الغريب أنه كلما أمعنت المرأة في (الهرب) من طبيعتها كلما قدمت المزيد من الأدلة على أنها (امرأة) وعلى تفاهتها كلما حاولت الابتعاد عن هذه الطبيعة. ونستطيع أن نضرب على ذلك عشرات الأمثلة، ونقتصر اليوم على مثال واحد يغني عن كثير من الأمثلة.

فقد قفزت المرأة في لبنان الأسوار الطبيعية وحققت كما يقولون انتصارا جديدا وانضمت إلى سلك القضاء وأصبحت (قاضية) وقد أثار هذا الحادث الكثير من التعليقات ونشرت الصحف أخباره على صدر صفحاتها الأولى مع أهم الأحداث العالمية، ولا نريد أن نعلق على ذلك فليس هذا بأول شذوذ نسوي ولن يكون الأخير ولكن الذي نريد أن نعرض له هو أن (فتاة) احترفت الكتابة منذ وقت قصير لم يعجبها هذا الذي حدث، وأرجو ألا يتعجل القارئ فيظن أن الذي لم يعجبها هو إسناد منصب القضاء إلى امرأة، لا ليس ذلك هو الذي لم يعجبها، وإنما الذي أثارها وأحنقها وأزعج صفوها وكدر دمها أمر آخر لا يجوز الإغفال عنه أو السكوت عليه في نظر الآنسة الكاتبة وهو هذه الضجة التي أثيرت حول هذا الحادث والعناوين الكبيرة التي حملت الخبر في صدور الصحف، فكل تلك أمور ما كان ينبغي أن تحدث، ولماذا يا آنستنا الغالية؟

(*) نشرت في جريدة المدينة المنورة في تاريخ ١٣٨٥/١/١٢هـ العدد (٣٥٨).

تجيب الآنسة عن ذلك بتساؤل عصبي فتقول: (هل خجل أحد من نشر هذا الخبر حتى لا يعرف الناس أننا حتى الآن بلا قاضية أو كي لا يطلع عليه (الأجانب) فقد يكون بينهم مخدوع بنا قرأ عن ماضي أمتنا وانطبعت في ذهنه صورة معينة عن رقينا الحضاري لم يصححها بعد).

نعم هذا هو منطق الكاتبة (الكبيرة) أن نشر خبر تعيين هذه القاضية أمر يبعث على الخجل (حتى لا يعرف الناس أننا حتى الآن بلا قاضية) فمعرفة الناس عدم وجود (قاضيات) في بلادنا العربية جريمة كبرى لا تغتفر، ولذلك يجب أن نغض أبصارنا خجلا وأن نعقد معاهدة مع الصحف حتى تمتلئ بلادنا بالقاضيات والنائبات والوزيرات و(المجندات) ثم نستطيع بعد ذلك أن نتكلم. ونسيت الكاتبة الفاضلة أن نشر هذا الخبر ليس أمرا مخجلا وأن عدم وجود (قاضيات) في البلاد العربية ليس أمرا مخجلا ولكن المخجل حقيقة هو هذه العقدة التي تسيطر على طائفة كبيرة من شبان البلاد العربية وشابّاتها أعني بها عقدة الشعور بالنقص فليس لدينا موازين (محلية) نزن بها الأمور فنعرف ما هو صالح لبلادنا فنتمسك به وما هو ضار فنتجافى عنه، وإنما نزن كل أمورنا وشؤوننا بموازين الآخرين، ومن أجل ذلك فنحن نعيش في بلبلة عجيبة لا نعرف منها خلاصا، وكلما حاولت القِلّة المفكرة أن تصل إلى حقيقة الداء تصدت لها أكثرية من الشبان والشابات وأثارت عواصف مصطنعة وزعمت أن سبب هذه البلبلة هو تشبثنا بالقديم وعدم استطاعتنا التخلص من بقيته وأننا كي نتخلص من الاضطراب الذي يسيطر علىحياتنا فلا بد من أن ننفصل انفصالا كليا عن ماضينا وأن نسير مع التطور وأن نتجاهل الدعوات الجامدة والرجعية تلك التي تحاول أن تشدنا إلى الوراء.

إن المخجل يا آنسة هو عجزنا عن التخلص من هذه العقدة، هو شعورنا بأننا الأقل والأدنى، هو فقدنا لثقتنا بأنفسنا، هو إيماننا بكل ما هو غربي، هو نجاح (الأجانب) في غزونا فكريا.

إن الخجل يا آنسة هو ضعفنا أمام مغريات الغرب، هو انهزامنا أمام تفاهاته، هو اضطرابنا في مهب العاصفة وبعد أن تخلينا عن الهند والصين، بعد أن كفرنا بكل قيم الآباء والأجداد.

إن المخجل يا آنسة هو أن تتجرد فتياتنا من الحياء والخجل ليحدثننا بأسلوب جريء عن لحظات ضعفهن وانهزامهن من أجل متطلبات الجسد.

إن المخجل يا آنسة أن نندفع وراء التقليد الأعمى وأن نسير معصوبي الأعين إلى الهاوية، وأن نكون أمة لا وزن لها ولا اعتبار.

إن المخجل يا آنسة أن نعجز عن تمييز الغث من السمين والفاسد من الصالح والضار من النافع.

لن يضير نهضتنا - يا أختاه - ألا يكون فيها قاضيات ونائبات ووزيرات، ولن يؤثر فيها ذلك تأثيرا قويا أو ضعيفا، وربما كان الصواب هو تأثر هذه النهضة تأثرا ضارا بالقاضيات والنائبات والوزيرات، فبلادنا بحاجة ماسة إلى المرأة التي تصنع القاضي والعالم والوزير، بلادنا بحاجة إلى الأمهات الفضليات اللاتي يعرفن واجبهن في تكوين جيل صالح من الأبناء، وانشغال أولئك الأمهات بالقضاء والوزارة وغير ذلك من شؤون العمل يعوقهن عن القيام بواجبهن وذلك من شأنه أن يؤثر على مصير نهضتنا وأن يؤخر تقدمنا.

إن الرجل متفوق على المرأة في أكثر المجالات ولكن كل ذلك التفوق يتضاءل أمام المهمة العظيمة السامية التي أعدت لها المرأة، لأن المرأة هي التي تصنع الرجل المتفوق إذا انصرفت إلى أداء واجبها، أما إذا رغبت في أن تكون هي المتفوقة في مجال مزاحمة الرجل فهناك السقوط الذي يصعب القيام منه، لا نقول هذا تعصبا للرجل

وإنما نقوله تقديرا للمرأة وإعجابا بدورها في الحياة، هذا الداء الذي نريد أن نتخلص منه يكمن وراء دعوات إجرامية مضللة تلبس مسوح العلم تارة ومسوح التحرر تارة أخرى.

كم تمنيت أن تركز فتياتنا المثقات جهودهن في الاستفادة من تجارب الآخرين، لقد وصلت أوربا وأمريكا إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من التحلل والتفسخ والانحلال وأخذ بعض مفكريها في الاعتراف بذلك وفي البحث عن العلاج قبل أن تقع الكارثة، فهل فكرت المثقفات من فتياتنا في التعرف على الجانب الاجتماعي من دراسات أولئك المفكرين وهل فكرت في استغلال تلك الدراسات في إصلاح أوضاع بلادنا وفي توجيه فتياتنا توجيها سليما، أغلب الظن أن فتياتنا لم يحفلن بشيء من ذلك فهن مندفعات مع التيار تحدوهن عُقَد النقص، تخطف أبصارهن الجوانب البراقة، وتخيفهن تهمة الرجعية والجمود، وعهد الحريم ونون النسوة !.

خطر ببالي وأنا أكتب هذه الكلمة خاطر غريب، وهو: لماذا تفرق اللغة العربية في معنى الكلمات حين تتصل بالرجل وحين تتصل بالمرأة؟ وعلى سبيل المثال أذكر بعض هذه الكلمات: فكلمة (القاضي) لها جلال ورهبة لأنها تذكر القارئ والسامع بالمهمة العظيمة السامية التي يضطلع بها رجل يقضي بين الناس بالعدل ويحكم بينهم بالقسط ويزن الأمور بميزان دقيق، ولكن نتصور هذه الكلمة الجليلة وقد تحولت إلى (القاضية) وصفا لامرأة فالقاضية - والعياذ بالله - هي المهلكة التي تقضي على كل شيء كما في الآية الكريمة ﴿**ليتها كانت القاضية**﴾ فالكلمة واحدة ولكن شتان بين معنَيَيْها حين تكون وصفا لرجل وحين تكون وصفا لامرأة وكلمة (نائب) تؤدي معنى خاصا معروفا حين تكون وصفا لرجل ولكن معناها تتحول إلى معنى آخر حين تكون لامرأة فالنائبة - والعياذ بالله - هي الشر والمصيبة وما أبعد الفارق بين المعنيين.

وكلمة(مصيب) وصفا لرجل تدل على معنى كريم هو اعتدال رأيه واستقامة تفكيره ودقة أحكامه أما حين تكون وصفا لامرأة (مصيبة) فإنها تدل على معنى يبعدها عن المعنى الذي أشرنا إليه لتدل على مفرد مصائب وهي نوازل الزمان ورزاياه، فهل حدث هذا في اللغة مصادفة وعن غير قصد؟ أم أن اللغة ترمز إلى معان عميقة وفوارق واسعة بين الرجل والمرأة، ذلك أمر يدعو إلى التفكير والتأمل، وحسبي أن أشير إليه هنا إشارة عابرة.

لقاء مع... المرأة
في مناقشة أدبية هادئة*

هذه مناقشة أدبية طريفة تتيحها للقراء آنسة فاضلة مهذبة تتفتح للحياة وتتطلع للمستقبل فلقد قرأت الآنسة خيرية السقاف إجاباتي المنشورة في جريدة المدينة في عدديها الصادرين تاريخ ١٨/١٠/١٣٨٤هـ وتاريخ ٢٥/١٠/١٣٨٤هـ بكثير من الاحتفاء والتأمل ثم رأت أن بعض ما تعرضت له تلك الإجابات يحتاج إلى تبيان وتوضيح فكتبت مقالها المنشور في جريدة اليمامة بعددها الصادر في ١٧/١١/١٣٨٤هـ تحت عنوان (عبدالعزيز والمرأة) تعقب وتستوضح (وتلتمس النصح المجرد).

وأحب قبل أن أدخل في صميم الموضوع أن أحمد للآنسة الفاضلة طريقتها في التعليق والمناقشة كما أحب أن أثني على ما بدا من حماستها لأدبنا وإنتاجها الفكري.

أما أولى النقاط التي تعرضت لها الآنسة الكاتبة فهي التعقيب على جوابنا حول أدب الرجل فقد قلنا في ذلك الجواب (أين هو أدب المرأة يا صديقي إذا كنا لم نجد أدب الرجل رغم عراقته وإمكانياته فهل سنجد أدب المرأة) وقد عقبت الآنسة الكاتبة على ذلك بهذه العبارات (وهنا وباعتبار من مقدري أدب الأستاذ فقد التبس عليّ الأمر وبت أشك إن كان هناك لنا أدب للرجال أم لا.. فأنا حسب اطلاعي.. وقراءتي لما يكتبه أدباؤنا أرى أن الكثير منهم قد ضاهوا فيما كتبوا أدباء العالم العربي ومن هؤلاء الذين أقدرهم الأستاذ عبدالعزيز الربيع.. في بحوثه الأدبية القوية.. كذلك..).

(☆) نشرت في جريدة المدينة المنورة في ٢٦/١٢/١٣٨٤هـ العدد (٣٤٦).

وأحب أن أبادر إلى إزالة اللبس من ذهن الآنسة الفاضلة فأؤكد لها أن الأدب الذي أعنيه هو الأدب بمعناه الواسع وبفروعه المختلفة وهذا الأدب لا يوجد في بلادنا منه إلا ومضات خاطفة لا تضيء طريقنا ولا تهدي حائرا ولن يغير من هذا الواقع شيئا، وادّعت الآنسة الفاضلة بأن الكثير من أدبائنا (قد ضاهوا فيما كتبوا أدباء العالم العربي) فهذه دعوى يا آنستي تحتاج إلى دليل وما أظنك تملكين هذا الدليل ليتك يا آنستي تتصورين مدى تطلعي إلى أن يكون الأمر كما ذكرت أنت، إنني على استعداد لأن أضحي بكل شيء في سبيل أن أرى أدبنا يقف في صف واحد مع أدب أشقائنا في البلاد العربية، تلك أمنية أرجو أن يسمح الزمن بتحقيقها في وقت غير بعيد.

وهذا الرأي الذي أبديته في إجابتي ليس جديدا ولا أدري عما إذا كانت الآنسة الفاضلة قد تابعت ما دار من نقاش حول شوقي فإن فعلت فلا بد أنها تذكر أنني رددت هذا الرأي أكثر من مرة، وحبذا لو تقوم الآنسة الفاضلة أو من يرى رأيها من الكتاب والأدباء بتقديم دراسة تثبت لنا فيها بالدليل الذي لا يُنقَض مضاهات لأدباء العالم العربي وإلى أن تتم تلك الدراسة فسنظل نؤكد تخلف أدب الرجال في بلادنا بله أدب النساء.

وكم كنت أود لو أن كاتبتنا الفاضلة حاولت أن تضرب المثال على صحة فكرتها من إنتاج الأدباء بدلا من اللجوء إلى الأسماء ولو فعلت لوجدت نفسها مضطرة إلى ان تعدل عن فكرتها ومن أجل ذلك لجأت إلى ذكر أسماء الأدباء دون التعرض لإنتاجهم وهي خطة بارعة من تلك الخطط التي لا تخطئها المرأة ففي ذكر أسماء الأدباء تخلص من المشاكل التي سيثيرها الحديث عن الإنتاج ثم فيها بعد ذلك لمن يتصدى للرد والمناقشة.

ولم تكتف الآنسة الفاضلة بهذه الخطة البارعة فلجأت إلى خطة أخرى حين وضعت أدبي على رأس إنتاج الأدباء الذين يضاهون - في نظر الكاتبة الفاضلة - أدباء العالم العربي، وقد ظنت أنها بذلك تستطيع أن تضمني إلى رأيها مستعينة بالفكرة التي

تقول: (حب الثناء طبيعة الإنسان) ولكن هيهات يا آنستي إن الطبيعة العقلية التي نشأت عليها تجعلني دائما أزن الأمور بميزان العقل وتجعل من الصعب عليّ أن أنخدع وأن أضع نفسي في غير موضعها، وتجعلني حريصا على أن أعرف قدر هذه النفس فلا تتخطاه أو تتجاوزه.

ولست أدري بعد ذلك عن سر حماسة الآنسة الفاضلة لأدب الرجل وهل هي تؤمن حقيقة بهذا الأدب وكم مؤلفا من المؤلفات الوطنية تضمها مكتبتها الصغيرة أو الكبيرة؟ أم أنها تتخذ من الدفاع عن هذا الأدب ذريعة لتثبيت أدب المرأة؟ هذا هو الاحتمال الأقرب إلى رأينا، وإلا فهل تستطيع الآنسة الفاضلة أن تقرر أنها لو وقفت على أي مكتبة في الرياض أو غيرها من أمهات المدن في المملكة فستجد مؤلفاتنا الوطنية تمثل واجهات تلك المكتبات أو على الأقل تمثل جناحا مهمًّا فيها؟ أم أن أكثر هذه المكتبات خالية تماما من هذا الأدب الذي (يضاهي الأدب في العالم العربي) كما تقول الآنسة الفاضلة؟ وإذا وجدت مؤلفات وطنية في إحدى المكتبات فهي تتوارى خجلا أمام هذا الفيض الزاخر من الإنتاج الأدبي الزاحف علينا من الشمال والغرب.

لا يا آنستي إن أدبنا متخلف تخلفا معيبا، وإن إنتاجنا الأدبي لا يتفق مع هذه النهضة العلمية الشاملة، وإن أدباءنا ليؤثرون لذة الكسل على متاعب الكفاح، وإن ناشئتنا ليؤثرون القصص الجنسي والمجلات المصورة على الكتب الجادة والصحف التي لا تؤمن بدغدغة الغرائز، وإن أكثر الدارسين لا يهمهم إلا الحصول على الشهادة، وما دام الحال كذلك فكيف يزدهر الأدب ويرتفع الإنتاج؟!.

وننتقل الآن إلى الحديث عن أدب المرأة وهي النقطة الثانية التي عرضت لها الآنسة خيرية في مقالها، ولن نطيل عنها الحديث بعد أن أطلنا الحديث عن أدب الرجل وخرجنا بنتيجة تخالف ما قررته الكاتبة الفاضلة ولعلنا بذلك نكون قد أزلنا اللبس من ذهن الآنسة وأزلنا الغموض، هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن الآنسة الفاضلة

كانت منصفة إلى حد كبير في حكمها على أدب المرأة فهي تقول: (أما من جهة أدب المرأة فحقيقة أن المرأة وإن كانت لم تُجِد كثيرا في هذا الميدان ولم تظهر إلا أن هناك بشائر نجاح دلت عليه جولاتهن في الصحف وأنهن على اطلاع واسع وثقافة لا باس بها).

ونحن نوافق الكاتبة الفاضلة فيما ذهبت إليه وكل ما نرجوه بهذه المناسبة من كاتباتنا الفضليات هو أن يعرفن أنهن في بداية الطريق وألا ينخدعن بتلك الأصوات المضللة الخادعة التي تطبل وتزمر وتزين لهدف أو لآخر فإن انخداعهن سيقودهن إلى الغرور وهو حافة الهاوية.

وأذكر أنني كنت أستمع إلى الإذاعة - وأنا قليل الاستماع للراديو - وحدثنا المذيع بأنه سيذيع خطبة لكاتبة تعد من الرائدات ألقتها في مناسبة حددها المذيع وتهيأت مسامعي للاستماع إلى هذه الخطبة وتوقعت أن أستمع إلى بيان مشرق ولهجة ضافية وأسلوب رائع وأدب بليغ، وتراءت لي أن هذه الخطبة ستغير قليلا أو كثيرا من الصورة المعتمة في ذهني عن أدب المرأة.

وابتدأت الكاتبة الخطيبة خطبتها ولم تنته منها حتى صبغت الصورة المعتمة في ذهني بلون الليل الدامس، وحتى بدأت أقتنع بالرأي الذي ردده بعض الإخوان من أن وراء بعض الكاتبات قلم أو أكثر، وتذكرت على الفور قول شوقي يخاطب أحد الخطباء بقوله: (خَطبْتَ فكنتَ خَطْبًا لا خطيبا) كما تذكرت قول المتنبي: (قد أفسد القول حتى أحمد الصمم) لم آسف يومها إلا على عدم وجود مسجل جانبي أسجل فيه هذه الخطبة النموذجية التي لو ألقتها طالبة في التعليم المتوسط بالطريقة التي ألقتها به الكاتبة الرائدة لاستحقت اللوم والتانيب والعقاب الشديد.

وهذه الكاتبة الخطيبة الرائدة مع جهلها بالأسس الأولى للكتابة تجد من يبالغ في الثناء على أدبها ومن يحرق لها البخور ومن يصوغ لها قصائد الثناء.

وأرجو أن تسمح لنا الآنسة المهذبة بأن ننبهها إلى خطأ وقعت فيه ـ عن غير قصد ـ فقد خانها التعبير عند ما قالت: (فنحن لا نقول باننا وصلنا إلى درجة نحمد الله

عليها من الأدب ولا ندعي لأنفسنا النجاح..) إذ من المعروف ـ عند المسلمين جميعا - أن الله سبحانه هو الوحيد الذي يحمد في السراء والضراء، والخير والشر، والفقر والغنى، والصحة والمرض، والضعف والقوة، والشقاء والسعادة، والذبول والانتعاش، والامتحان والمعاناة، والقليل والكثير، والضيق والاتساع، والعسر واليسر، فالله محمود على كل حال سبحانه جلت قدرته.

أما النقطة الثالثة في مقال الآنسة خيرية فهي الصفحات النسائية وكانت إجابتي المنشورة في جريدة المدينة كالآتي:

(الصفحات النسائية في صحفنا لم تؤد أي غرض فليست هناك سياسة مرسومة ولا إشراف دقيق ولا أقلام ناضجة وكل ما في الأمر هو ملء هذه الصفحات بأي كلام وحسب كاتبات هذه الصفحة أن يفرحن برؤية أسمائهن مطبوعة، وحتى ما ينشر من توجيهات بين الحين والحين لا ينظر فيه إلى مستوى المرأة في الطبقات الفقيرة وإنما ينظر فيه إلى القلة النادرة من الطبقة الغنية المترفة التي لا تحتاج إلى هذه التوجيهات على أن أطرف ما ينشر في هذه الصفحات هو ما ينشر فيها من آراء المفكرين والفلاسفة عن المرأة وهي آراء لا ترضي المرأة الحديثة التي تسعى للتحرير من كل قيد) ذلك ما قلناه في إجابتنا تلك ولكن الآنسة خيرية تعلق على تلك الإجابة بأنها تتفق معنا في النتيجة وهي أن الصفحات النسائية: (لم تؤد الغرض المنشود) ولكنها تختلف معنا في الأسباب الموصلة لهذه النتيجة فالأسباب في نظرنا - وكما رأى القارئ - تتلخص في عدم وجود سياسة مرسومة ولا إشراف دقيق ولا أقلام ناضجة، أما الكاتبة فهي تعترف بعدم وجود سياسة مرسومة ولا إشراف دقيق ولكنها تأتي برأي طريف جدا هو أن (صفحة واحدة لا تتسع لسياسة مرسومة ولا لترتيب منظم) ولذا فهي تطالب ضِمنًا بأن تعدد الصفحات النسائية (لأن صفحة واحد لا تكفي أن تملأ بشتى المواضيع المفيدة الصالحة ولهذا تبدو الصفحات ناقصة لأنها لا تتسع ولا تكفي).

أما أن (صفحة واحدة لا تتسع لسياسة مرسومة ولا تخضع لترتيب منظم) فهذا رأي فيه كثير من الغرابة والطرافة ولا أعتقد أن أصحاب أي مؤسسة صحفية يوافقون عليه كما أن التخطيط هو سمة العصر، التخطيط فيما جل من الشؤون أو قل، وصفحة واحدة تسير في نطاق سياسة مرسومة وهدف واضح خير من عشرات الصفحات الارتجالية العشواء، والعبرة يا آنستي بالكيف لا بالكَمّ، أما المطالبة بالتوسع في عدد الصفحات النسائية فذلك ما أستعيذ بالله منه، وما أرجو إخواننا رؤساء تحرير الصحف والمشرفين عليها أن يغلقوا آذانهم دونه، لا لأن محررات هذه الصفحات سيعجزن عن ملئها فإن لبنات حواء من القدرة الكلامية (ولا أقول الثرثرة حتى لا أغضب الآنسة خيرية وهي المدافعة عنهن المتصدية للحماسات) ما يملأ عشرات الصفحات وإن المرء ليدهش عن هذه المقدرة العجيبة حتى لكأن لديهن مستودعات سحرية تفتح لهن متى أردن فيغترفن منها من غير حساب ثم لا تنضب ولا تجف بل ربما زادت واتسعت، وإنني لأذكر بهذه المناسبة أن صديقا تزوج فتاة جميلة خرساء ولكنه تعرض لحملة من اللوم من معارفه وأصدقائه غير أن الصديق كان يبتسم في سره فقد كانت تجربة فريدة وقد نجحت وتأكد نجاحها بعد أن دامت بضع سنوات.

وأعود بعد هذا الاستطراد لأقول إن من الخير أن تظل الصفحات النسائية في أضيق نطاق حتى تتوفر الإمكانيات، ولن تتوفر في وقت قريب كما أتصور.

ولن أناقش الآنسة خيرية في كتابتها عن (عدم توفر الأقلام الناضجة) فحسبي أنها اتفقت معي (بأن القلم النسائي لم ينضج) ولكنني لا أريد أن أغفل الإشارة إلى تعليقها على ما قلت في جريدة المدينة من أن (ما ينشر من توجيهات بين الحين والحين لا ينظر فيه إلى مستوى المرأة في طبقات فقيرة وإنما ينظر فيه إلى القلة النادرة من الطبقة الغنية المترفة التي لا تحتاج إلى هذه التوجيهات).

فقد قالت الآنسة إنها تخالفني في هذا الراي ولكنها لم تشرح أسباب هذه المخالفة وإن كنت أحب أن أؤكد للآنسة الفاضلة أن ما قلته هو الحقيقة من غير مبالغة ولا زيادة ولا رتوش، وأنني لا أذكر أنني قرأت بعض توجيهات من خصوص تربية الأطفال أقرر طائعا مختارا أنني عاجز تماما عن تطبيقها على أطفالي لأنها تتطلب إمكانيات مادية لا أطيقها ولا يطيقها إلا قلة نادرة من طبقة المترفين الأغنياء.

وانتقل بعد ذلك إلى نقطتين صغيرتين وردتا في ختام كلمة الآنسة الفاضلة: أولاهما: قول الآنسة المهذبة (وإن كنت أثق أننا لم نصل إلى المستوى المطلوب والذي نطمع فيه إلا أننا حزنا على رضاء أصحاب الصحف، وكنا عند حسن ظنهم والذين هم بلا شك أدباء لا يمكن أن ينشروا شيئا ليس له معنى.. ولا فائدة).

وهذا كلام لا أعرض له بالمناقشة أو التعليق ولكنني أضعه تحت أنظار (أصحاب الصحف) ليقولوا رأيهم فيه ولست أدري ما إذا كان المراد بأصحاب الصحف هم رؤساء التحرير ومعاونوهم أم أعضاء المؤسسات.

ثانيا: إن الآنسة المهذبة تقرر في صراحة أنها متفقة معي تماما عما قلته عن تعليم المرأة وهي تقرر: (فنحن لا نود أن نسير بجانب الرجل في أعماله وإنما في أعمالنا الخاصة نبدو كما سمح لنا به ديننا الحنيف وحسبنا في ذلك رضاء رب العالمين).

وإن كان هذا هو رأي الآنسة تسجله عن إيمان حقيقي صادق لا كما تفعل أخريات يقلن في الصحف كلاما ويسرن في حياتهن الخاصة على نهج يخالف ذلك تماما.

إذا كان هذا هو رأي الآنسة الحقيقي فإنني لأهنئها تهنئة قلبية خالصة على هذا الاتجاه الحميد وأرجو لها كل سعادة وهناءة وتوفيق.

لا يا صديقي... لست معك

قرأت في اليمامة مقالك الأول الذي تحمل فيه على النقاد ولم يعجبني اتجاهك فيه، ولكنني قلت لعل الأستاذ القرشي كتب مقاله وهو ينظر إلى حالة خاصة فهو يهدف إلى معالجتها من بعيد فلم أعر الأمر اهتماما ولكنني فوجئت في عدد اليمامة التالي بمقال لك ومقال لأديب فاضل يشاركك في الرأي تحملا فيهما على النقاد حملة عنيفة قاسية بلغ من قسوتها وعنفها أنها دفعتكما إلى إصدار أحكام أقل ما توصف به أنها بحاجة إلى إعادة النظر ولا أقول شيئا آخر.

وقبل أن أدخل في تفاصيل الموضوع أحب أن أشير إلى براعة الأستاذ القرشي في تنظيم هذه الحملة تنظيما دقيقا وهي حملة تعتبر الأولى من نوعها في الأدب، إذ يكاد ينعقد الإجماع بان النقد لا يساير الأدب بل هو متخلف عنه دائما وأمامي وأنا أكتب هذه الكلمة العدد الأخير من مجلة الآداب وفيه مقال عن ديوان الشاعرة العراقية عاتكة الخزرجي يقول الكاتب في مقدمته: (أنا أؤمن بان النقد والأدب متلازمان ومتكاملان أيضا فليجل أدباؤنا صدأ الجاهلية عن نفوسهم ولينفضوا غبار الكسل عن أقلامهم...) فهو يدعو الأدباء إلى نفض غبار الكسل عن أقلامهم ومنذ شهرين كنت أقرأ مقالا لكاتب إنجليزي يتحدث عن ركود حركة النقد في إنجلترا، ولم أقرأ أبدًا إن حركة النقد تفوقت على حركة الأدب إلى درجة أصبحت تثير القلق وتدعو الأدباء إلى توجيه اللوم للنقاد ليمتنعوا عن النقد أو ليتوقفوا قليلا عنه لأنهم بذلك يجنون على الأدب وعلى الإنتاج الأدبي بصورة عامة.

على أن من يقرأ حملة الأستاذ القرشي يتصور أن بلادنا تعج بالنقاد على اختلاف ألوانهم مع أننا لو دققنا في الأمر لما وجدنا أي ناقد على الإطلاق، وإذا كان ما ذكر فهل يريد الأستاذ القرشي أن يقضي حتى على ما سماه (بمعارك نقدية أكثرها

مصطنع مفتعل)؟ إننا نشكو مر الشكوى من ضعف القراءة بالرغم من تزايد عدد من يسمونهم (بالمتعلمين) تزايدا ضخما يثير الإعجاب في دنيا الإحصاء فإن الشكوى تتضاعف من قلة القارئين فأكثرهم مهتم بما تصدره دور النشر من كتب وقصص وروايات هدفها الأول والأخير الاستفادة التجارية عن طريق استغلال الجنس وسيلة لترويج هذه الكتب. وكثير من إنتاجنا الأدبي محبوس الخزائن لأن أصحابه لا يجدون الجرأة على طبع كتبهم ومؤلفاتهم وتحمل العبء المادي الناشئ عن ذلك، وهو عبء لا يقدر عليه إلا الموسرون، والمؤلفون الذين جازفوا ونشروا بعض مؤلفاتهم - وأنت في طليعتهم - أكانوا يستطيعون الاعتماد على ما يشتريه القراء من كتبهم في الأسواق.. ولو اعتمدوا على هذه الوسيلة وحدها أكانوا يستطيعون أن يصدروا أكثر من مؤلف، وهل أستطيع أن أذكِّرك بالكتاب الذي تطوعت بطبعه أثناء حديث حماسي ثم بدا لك رأي آخر؟.

الذي أريد أن أقوله هو أن النقد مهما يكن نوعه مفيد إلى أقصى حد في إنعاش الحركة الأدبية وفي دفع حركة التطور وفي (سَوْقِ) - بسكون الواو - القراء إلى القراءة أو إلى شراء الكتاب.

وقد أثير في العام الماضي نقاش أدبي تطور إلى معركة حامية كان محوره ديوان شعر صغير، وقد كان ذلك الديوان أو تلك المعركة ذات نفع كبير لكل الأطراف التي شملها النقاش فقد نفد الديوان من السوق وأخذ القراء والأدباء يسألون عنه من بلد لبلد وأخذ القراء يقضون في مجالسهم الخاصة طائفة من القضايا التي كان يدور حولها النقاش ويستعرضون آراء الأطراف المختلفة ويتحمسون لهذا أو ذاك. اما الكتاب أنفسهم فقد أتاح لهم هذا النقاش العنيف أن يقرأوا وأن يطيلوا القراءة وأن يعودوا إلى مصادر بَعُدَ بها العهد رواية سواء في كثير من الصبر والأناة طائفة كبيرة من القضايا الأدبية ومما لا ريب فيه أن هذه الدراسة كشفت لهم نواحي مجهولة وقادتهم إلى آفاق جديدة وأثارت في نفوسهم أشواقا عارمة إلى تقصي الحقائق واكتناه المجهول.

فالنقد صورة لازمة للأدب ولو كان فيه جموح أو شطط أو انحراف، ولكن شيئا واحدا يجب أن يكون موقفنا منه صريحا كل الصراحة واضحا كل الوضوح ذلك هو السماح لشخص أو أكثر بالسيطرة على الحياة النقدية وتوجيهها وجهة خاصة والإيمان بدعاواه والسكوت على أخطائه. إن في السماح بذلك خطر لا يكاد يعدله خطر لأنه يعطيه مكانة فوق ما يستحق ثم إنه يثبت الأخطاء في أذهان العامة من القراء فيعتقدون أنها الصواب.

وأذكر على سبيل المثال أن أديبنا كتب منذ فترة عددا من المقالات عن العقاد وقد حفلت بالأخطاء والمبالغات والدعاوى التي لا تقوم على أساس ولم يكتف بذلك بل تهجم على بعض أدبائنا تهجما غير كريم، ومع ذلك فقد مرت تلك المقالات ولم يتعرض لها أحد من الأدباء ولم يفتح أحدهم فمه (أو قلمه) ببنت شفة، وهذه ظاهرة خطيرة لا يكفي في تعليلها أن يقال إن الأدباء قابلوا تلك المقالات بالاستهتار أو الاستهانة، كما قال لي أحدهم عندما سألته عن هذه المقالات ورأيه فيها وموقفه منها قال لي: إنني قرأت المقال الأول ولم يعجبني فأهملت قراءة بقية المقالات، لا يكفي الاستهتار والاستهانة في معالجة القضايا الأدبية بل لا بد من إيضاح الحقائق ووضع النقاط على الحروف - كما يقولون - وإبراء الذمة، والساكت عن الحق شيطان أخرس.

ولو كان النقد لدينا طاغيا على الأدب - كما تقول يا صديقي - لما مرت هذه المقالات بسلام ولانبرى لها العدد العديد من هؤلاء النقاد الذين تتحدث عنهم وتحمل عليهم هذه الحملة المنظمة.

الفهـــرس

الفهـــرس

إصدارات النادي

إصدارات النادي

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١	ذكريات طفل وديع ـ ط ١	عبدالعزيز الربيع
٢	الشعر الحديث في الحجاز	عبدالرحيم ابو بكر
٣	شعراء من أرض عبقر ـ جـ ١	د. محمد العيد الخطراوي
٤	شعراء من أرض عبقر ـ جـ ٢	د. محمد العيد الخطراوي
٥	في ظلال السماء	محمد هاشم رشيد
٦	على دروب الشمس	محمد هاشم رشيد
٧	على ضفاف العقيق	محمد هاشم رشيد
٨	همسات في أذن الليل	د. محمد العيد الخطراوي
٩	غناء الجرح	د. محمد العيد الخطراوي
١٠	ترانيم العودة	ناجي محمد حسن وفوزان الحجيلي
١١	الفيصليات	عبدالحميد ربيع
١٢	رعاية الشباب في الإسلام ـ ط ١	عبدالعزيز الربيع
١٣	جرح الإباء	أحمد فرح عقيلان
١٤	أضواء على حقائق	محمد المجذوب
١٥	بيت وشاعر	خالد محمد اليوسف
١٦	الحفل المسرحي	إصدار إعلامي عن النادي
١٧	جداول وينابيع	عبدالرحمن رفة
١٨	الجناحان الخافقان	محمد هاشم رشيد
١٩	على اطلال إرَم	محمد هاشم رشيد
٢٠	ثلاثة أعوام مع مسابقة القرآن الكريم	دخيل الله الحيدري ـ ووهبة الجبالي
٢١	رسالة إلى ليلى	أحمد فرح عقيلان

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
٢٢	في رحاب الجهاد المقدس	إبراهيم العياشي
٢٣	الشيخ محمد بن عبدالوهاب (بحث)	مسلم الجهني
٢٤	في موكب الضياء	أبو زيد إبراهيم سيد
٢٥	الفنون التعبيرية	عبدالعزيز الربيع
٢٦	أباريق النور	محمد عادل سليمان
٢٧	في غيابة الجُب	علي الفقي
٢٨	المدينة المنورة في التاريخ	عبدالسلام هاشم حافظ
٢٩	ذكريات طفل وديع ـ ط ٢	عبدالعزيز الربيع
٣٠	رعاية الشباب في الإسلام ـ ط ٢	عبدالعزيز الربيع
٣١	حروف في الرماد	محمد صالح البليهشي
٣٢	هموم عربية	أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري
٣٣	المدينة اليوم	محمد صالح البليهشي
٣٤	لمحات عن حياة الربيع	محمد صالح البليهشي
٣٥	ضفاف الذكريات	مجدي خاشقجي
٣٦	مِبضَع الجراح	إبراهيم العياشي
٣٧	صور وذكريات عن المدينة المنورة	عثمان حافظ
٣٨	قصص لا تنسى	محمد المجذوب
٣٩	تحفة اللبيب	محمد المجذوب
٤٠	مع المجاهدين في باكستان	محمد المجذوب
٤١	المجموعة الشعرية الكاملة ـ جـ ١	عبدالسلام هاشم حافظ
٤٢	مسيرة ٨ أعوام لنادي المدينة المنورة الأدبي	محمد صالح البليهشي
٤٣	طيبة وفنها الرفيع	م. حاتم طه
٤٤	أيسر التفاسير ـ جـ ١	أبو بكر جابر الجزائري
٤٥	أيسر التفاسير ـ جـ ٢	أبو بكر جابر الجزائري
٤٦	أيسر التفاسير ـ جـ ٣	أبو بكر جابر الجزائري
٤٧	أيسر التفاسير ـ جـ ٤	أبو بكر جابر الجزائري
٤٨	الشعر الحديث في المملكة العربية السعودية	د. عبدالله الحامد

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
٤٩	شاعر الخليج	عبدالله أحمد الشباط
٥٠	أدب ونقد	محمد المجنوب
٥١	ردود ومناقشات	محمد المجنوب
٥٢	دعوة سليمان ـ عليه السلام	علي منسي عشكان
٥٣	حروف من دفتر الأشواق	د. محمد العيد الخطراوي
٥٤	دموع وكبرياء	حسن مصطفى صيرفي
٥٥	في الفكر والأدب «دراسات وذكريات»	د. حسن بن فهد الهويمل
٥٦	دراسات قرآنية ـ المجلد الأول	نادي المدينة المنورة الأدبي
٥٧	الأخطبوط «قصة»	ناجي محمد حسن عبدالقادر
٥٨	طيبة في عيون فنان تشكيلي	فؤاد مغربل
٥٩	تاريخ معالم المدينة المنورة قديمًا وحديثًا	أحمد ياسين الخياري
٦٠	تفاصيل في خارطة الطقس	د. محمد العيد الخطراوي
٦١	وداعًا أيها الحزن «رواية»	غالب حمزة أبو الفرج
٦٢	نصوص مختارة	محمد المجنوب
٦٣	الأعمال الشعرية الكاملة المجلد الأول	محمد هاشم رشيد
٦٤	الولوج من ثقب إبرة	علي عبدالفتاح السعيد
٦٥	من بدائع الأدب الإسلامي	د. محمد سعد الدبل
٦٦	المنظمة الدولية للشرطة الجنائية، «الإنتربول» ودورها في مكافحة الجرائم الدولية للمخدرات	النقيب محمد حسن زهير آل شفلوت العمري
٦٧	وقفات على الماء	إبراهيم عمر صعابي
٦٨	شعر ضياء الدين رجب بين الموقف والصياغة	د. عبدالله أحمد باقازي
٦٩	المدينة المنورة بين الأدب والتاريخ	د. عاصم حمدان علي حمدان
٧٠	التعليم الأهلي في المدينة المنورة (١٣٤٤ ـ ١٤٠٨هـ) دراسة تاريخية وصفية	دخيل الله عبدالله الحيدري
٧١	المجموعة الشعرية الكاملة ـ جـ ٢	عبدالسلام هاشم حافظ
٧٢	آلام وأحلام	محمد المجنوب
٧٣	سلاح الكلمة الشاعرة ـ إسهام النادي الأدبي	إصدار النادي الأدبي بالمدينة المنورة خلال أزمة الخليج

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
٧٤	تراثنا المخطوط في العلوم التطبيقية والبحتة	مصطفى عمار منلا
٧٥	وقفات في حرب الخليج	محمد بن صنيتان
٧٦	موسوعة الأدباء السعوديين القسم الأول	أحمد سعيد سلم
٧٧	موسوعة الأدباء السعوديين القسم الثاني	أحمد سعيد سلم
٧٨	موسوعة الأدباء السعوديين القسم الثالث	أحمد سعيد سلم
٧٩	ملاعبة الصيد	أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري
٨٠	في ذاكرة الصحراء ـ دراسات نقدية في نصوص شعرية سعودية معاصرة	محمد إبراهيم الدبيسي
٨١	ملف العقيق المجلد الأول	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة
٨٢	آفاق شعرية «قراءة لما وراء النص»	محمد محمود جاد الله
٨٣	اللمعة في صنعة الشعر	د. صلاح الدين محمد الهادي
٨٤	ملف العقيق المجلد الثاني	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة
٨٥	فن الرماية بالسهام الحديثة	د. عدنان درويش جلون
٨٦	ملف العقيق المجلد الثالث	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة
٨٧	المستدرك في شعر بني عامر ـ من الجاهلية حتى آخر العصر الأموي ١٣٢هـ ج ١ «الدراسة الموضوعية والفنية»	د. عبدالرحمن الوصيفي
٨٨	المستدرك في شعر بني عامر ـ من الجاهلية حتى آخر العصر الأموي ١٣٢هـ ج٢ «الجمع والتحقيق»	د. عبدالرحمن الوصيفي
٨٩	نحن والآخر	د. عاصم حمدان
٩٠	المسرح الشعري «بعد شوقي»	د. محمد عبدالعزيز الموافي
٩١	دراسات أدبية «المجلد الرابع»	من محاضرات النادي الأدبي بالمدينة
٩٢	ملف العقيق ـ المجلد الرابع	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة
٩٣	دراسات في الأدب الإسلامي ـ المجلد الخامس	من محاضرات النادي الأدبي بالمدينة
٩٤	ملف العقيق ـ المجلد الخامس	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة
٩٥	عمارة وتوسعة المسجد النبوي الشريف عبر التاريخ	ناجي محمد حسن عبدالقادر الأنصاري
٩٦	مهد الذهب	عبدالعزيز الحازمي وعلي عودة
٩٧	مسيرة ٢٠ عامًا لنادي المدينة المنورة الأدبي	محمد صالح البليهشي

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
٩٨	دراسات حول المدينة المنورة	من محاضرات النادي الأدبي بالمدينة
٩٩	رائحة الزمن الآتي	إبراهيم الوافي
١٠٠	مدخل إلى تحقيق النص الشعري	د. عبدالرحمن محمد الوصيفي
١٠١	لن أعود إليك	وفاء الطيب
١٠٢	دراسات في الأدب الحديث «المجلد الثالث»	من محاضرات النادي الأدبي بالمدينة
١٠٣	عمر بن شبة	د. سلام شافعي
١٠٤	ملف العقيق المجلد السادس	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة
١٠٥	أثر وسائل الإعلام في اللغة العربية	د. جابر قميحة
١٠٦	ديوان رشة عطر	مفرج السيد
١٠٧	تأويل ما حدث	د. محمد العيد الخطراوي
١٠٨	نزيف الجرح	سعد سعيد الرفاعي
١٠٩	دراسات مقارنة بين الأدبين العربي والغربي	د. عاصم حمدان علي حمدان
١١٠	ملف العقيق (المجلد ٧)	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة المنورة
١١١	ملف العقيق (المجلد ٨)	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة المنورة
١١٢	دراسات في الفكر الإسلامي (المجلد السادس)	من محاضرات نادي المدينة المنورة الأدبي
١١٣	عبدالله بن إدريس شاعرًا وناقدًا	د. محمد صادق عفيفي
١١٤	شعر عبدالسلام حافظ	رحمة مهدي علي الريمي
١١٥	كتب ومؤلفون	عبدالعزيز الربيع ـ محمد صالح البليهشي
١١٦	مناقشات ومناوشات	عبدالعزيز الربيع ـ محمد صالح البليهشي
١١٧	المدينة المنورة «البيئة والإنسان» بالاشتراك مع نادي جدة الأدبي الثقافي	إشراف وتحرير أ. د/ محمد أحمد الرويثي أ. د/ مصطفى محمد خوجلي
١١٨	ملف العقيق المجلد «٩»	يصدر عن النادي
١١٩	حلم في دوامة الإنهزام	حكيمة الحربي (لميس منصور)
١٢٠	الأطام (العدد الأول)	تصدر عن النادي
١٢١	البنات والأمهات والزوجات في المفضليات وأشياء أخرى	د/ محمد العيد الخطراوي
١٢٢	رسائل في حب الوطن	محمد صالح البليهشي
١٢٣	مقالات وتعليقات	عبدالعزيز الربيع ـ محمد صالح البليهشي

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١٢٤	موسوعة الكتاب والأدباء السعوديين (القسم الأول)	أحمد سعيد بن سلم
١٢٥	موسوعة الكتاب والأدباء السعوديين (القسم الثاني)	أحمد سعيد بن سلم
١٢٦	موسوعة الكتاب والأدباء السعوديين (القسم الثالث)	أحمد سعيد بن سلم
١٢٧	موسوعة الأدباء والكتاب السعوديين (القسم الرابع)	أحمد سعيد بن سلم
١٢٨	علاقة الدولة السعودية الأولى ببريطانيا والدور السعودي في حماية الخليج	أ.د محمد عبدالله السلمان
١٢٩	نظرات تربوية	عبدالعزيز الربيع/ محمد صالح البليهشي
١٣٠	ملف العقيق، المجلد (١٠) ع	يصدر عن النادي
١٣١	الأطام (العدد الثاني)	يصدر عن النادي
١٣٢	ملف العقيق، المجلد (١١)	يصدر عن النادي
١٣٣	شوقيات وشوكيات	عبدالعزيز الربيع/ محمد صالح البليهشي